دُسْتُورُ الأَخْلَاقِ

مِنْ وَحْيِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

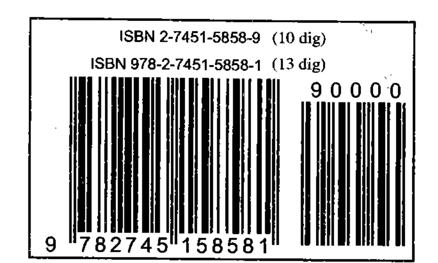
تأليف
زهير آميدي

Title: **Dustūr al-ʾaḫlāq**
(The constitution of morals from the Holy Qur'an and the Prophetic Sunna)

classification: *Morals*

Author : Zuhayr Āmīdi
Publisher : Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Pages : 328
Year : 2008
Printed in : Lebanon
Edition : 1st

الكتاب : دستور الأخلاق
من وحي القرآن والسنة
التصنيف : أخلاق
المؤلف : زهير آميدي
الناشر : دار الكتب العلميـــة - بيروت
عدد الصفحات: 328
سنة الطباعة : 2008
بلد الطباعة : لبنان
الطبعة : الأولى


ISBN 2-7451-5858-9 (10 dig)
ISBN 978-2-7451-5858-1 (13 dig)



دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان



الطبعة الأولى
٢٠٠٨م - ١٤٢٩هـ



أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-lebanon
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون ، القبة،
مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨١٠/١١/١٢ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨١٣ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ٩٤٢٤-١١ بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
sales @al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرفِ خلقِ الله محمد النبي الأمي الذي بعثهُ اللَّهُ بالحق ليتممَّ مكارمَ الأخلاق وعلى آلهِ الطيبين الطاهرين الأخيار وصحبهِ الميامين الأبرار.

إنَّ مقياس نهضة الأمم ورقي حضاراتها هو في ميزان الأخلاق لديها وفي رقي وسمو هذهِ الأخلاق، وليسَ في اتساع رقعتها الجغرافية أو قواها البشرية العددية المجردة ولا في قوة اقتصادياتها ومواردها أو كثرة العمران في أراضيها ولا حتى في تقدمها في مضمار العلم وامتلاك ناصيته (مع الإيمان المطلق بأنَّ كل ما ذكر هي مقومات أساسية لا غنى عنها لنهضة أية أمة وفي بناء أية حضارة).

ولكن؟؟؟؟

بدون ميزان الأخلاق فإنَّ الحضارات ومهما بلغت مستويات الرقي العلمي والصناعي والاقتصادي والعمراني فيها تبقى حضارات مادية جشعة عمياء، تفتقر إلى القيم الإنسانية والسلوك الإنساني الراقي بمفهومه الشامل على الصعيد الفردي وعلى صعيد المجتمع والأمة أو على صعيد علاقات هذهِ الأمة بالأمم الأخرى.

ولا بد وأنتَ تدقق في أحوال أمة متقدمة في نهضتها وعلومها ولكن لديها خلل في ميزانها الأخلاقي، أن تتلمس طغيانها أو جبروتها أو انفلاتها في حلقة أو حلقات من تعاملاتها على الصعيد المحلي داخل أوطانها أو على الصعيد الخارجي في علاقاتها مع الشعوب الأخرى.

فميزان الأخلاق هوَ الذي ينظم ويهذب السلوك الفردي أو الإجتماعي أو الأممي وعندَ اختلال هذا الميزان لا بدَّ أن يبرز الخلل في السلوك والمعاملات على صعيد واحد أو على جميع الأصعدة.

ولكي يكون الميزان الأخلاقي ميزاناً عادلاً ومنصفاً وكاملا، كانَ لا بد أن يتسعَ لكي يضم في كفَّته متطلبات المحافظة على حرية الإنسان الفرد وبما ينسجم ويتلاءَم ويتناغم مع حرية المجتمع وينظِّم كذلكَ علاقة الأفراد بعضهم ببعض وعلاقة الفرد بالمجتمع، والمجتمع بالفرد ويمتد ليشمل علاقة المجتمعات فيما بينها ضمن ثوابت أخلاقية إنسانية راقية تصون إنسانية الإنسان وتحفظ حقوقه، كما تحفظ هوية المجتمع

في الوقت نفسه.

وكان لا بد أن يتساوى في هذا الميزان الغني والفقير والسيد والأجير والحاكم والمحكوم والأسود والأبيض ليكون ميزاناً واحداً يصلح لكل المجتمعات ولكل الأزمنة.

وتوحيد الميزان الأخلاقي لكل البشر ضرورة حتمية، كما هو توحيد مقاييس الخير والشر ليكون القبيح قبيحاً والجميل جميلاً والخلق السيئ سيئاً والخلق الحسن حسناً لدى كل المجتمعات، وإلا بقيت المجتمعات منغلقة على نفسها لأنها ستتحاشى أو تتردد في الإنفتاح على بعضها البعض لتضارب المعايير الأخلاقية التي تحكم العلاقات وتنظم الشؤون العامة في هذهِ المجتمعات وبالتالي لا يتحقق التعاون والتعارف بين الشعوب والقبائل كما أرادهُ الله سبحانه.

لذا اتفقت الرسالات السماوية قاطبة على منهج أخلاقي واحد يتلاءَم معَ فطرة الإنسان التي فطرَ الناس عليها فيَصْلُح هذا المنهج لمجتمع البداوة مثلما يَصلح لمجتمع الحضر لأنَّ المعيار الأخلاقي للسلوك حَسَنهُ وقبيحهُ يكون معياراً فردياً ويمتد نفس المعيار ليشمل المجتمعات والقبائل والشعوب فالمعيار الذي يقيّم أخلاق الفرد الواحد هو نفس المعيار الذي يقيّم أخلاق المجتمع.

فعلى سبيل المثال لا الحصر فإنَّ الحسد الذي نشأ بينَ ابني آدم أبي الأنبياء (عليه السلام) والذي قادهما إلى أن يقتل أحدهما الآخر، كان خلقا وفعلا مستهجنا زمن وقوعه، مثلما كان مستهجنا في كل رسالات السماء وانتهاء برسالة خاتم الأنبياء محمد (ﷺ).

وكذا مروراً بكل الأفعال والأخلاق التي تشكِّل السلوك الإنساني حسنه وقبيحه.

وفي المجتمعات التي كان ينقطع عنها هدي السماء لفترات طويلة كانَ كثيراً ما يختل ميزان الأخلاق عندها ويضطرب سلوك الناس فيحصل اختلال لمفردة من مفردات الأخلاق أو لمجموعة من المفردات فيبعث الله الرسل لتقويم وتصحيح هذا الإختلال.

والقرآن الكريم يعرض لنا جانباً كبيراً مما ابتلي به كثير من الأقوام والأمم التي قبلنا من اضطراب ميزان الأخلاق عندهم وتفشي الرذيلة والفعل المنكر بينهم حتى تصبح صفة يصطبغ بها سلوك القوم كله ويعرض لنا أيضاً قصص بعض الأنبياء والرسل ممن بعثوا في هذهِ الأقوام.

إن الثوابت الأخلاقية وتسمية كل مفردة من هذهِ الثوابت وتصنيفها إلى حسن وقبيح علّمها الله سبحانهُ وتعالى أبانا آدم عندما علّمهُ الأسماء كلها وبُثّت في عقبهِ

وذريّتِهِ من بعده (والله أعلم).

إذن التصنيف الأخلاقي المتعارف عليه بينَ البشر اليوم مصدرهُ السماء وليسَ شيئاً تطوّرَ مع تطوَر أصل الحياة وتعاقب أدوارها في الارتقاء إلى أن وصلت إلى الإنسان الحديث في خَلقهِ السَّوي وعقلهِ الرشيد، كما روَّجت لذلكَ نظرية النشوء والتطور التي افتتنَ بها الناس ردحاً من الزمن وثبتَ بطلانها بعدَ حين.

إن الله تعالى وحده مصدر الشرائع جميعا وهو شارع القيم والمعايير الأخلاقية التي تنسجم مع الفطرة السوية وتوافق العقل السليم.

فالإنسان بدءاً بأبي البشر آدم (عليه السلام) خَلَقهُ الله خَلقاً سويّاً كما هوَ عليه اليوم إلا إنَّ أسلوبَ حياة الإنسان تطوَرَ عبرَ التأريخ وهوَ في تطوّر مستمر إلى أن يقضي الله أمراً كانَ مفعولا.

وبدأت الحياة على الأرض في أبسط صورها وتطورت تدريجيا ثمَّ تشكَّلت المجتمعات وتعقَّدت الحياة وجعلَ الله الناس شعوباً وقبائلَ لتتعارف فيما بينها وجعلَ ميزان التكريم الإلهي ميزاناً فردياً بينَ المرء وربّه وجعل أساس هذا الميزان تقوى الله.

وكانَ الميزان الأخلاقي الذي وضعهُ الحق سبحانه وتعالى للناس كافة يتقلص ويتمدد حسب طبيعة الأقوام وقربها وبعدها عن المنهج الرسالي التوحيدي، وكلما كانت الأقوام قريبة الصلة برسالة السماء حديثة العهد بها مؤمنة بما جاءَ بهِ رسول الله إليها كان الميزان ثرياً وعامراً بمكارم الأخلاق وكلما ابتعدت عن منهج الله خوت وخفت موازينها من مكارم الأخلاق وثقلت بالذميم منها.

حتى كانت الرسالة الخاتمة والرسول الخاتم والبعثة الخاتمة والوحي الأخير الذي لا وحيَ من السماء بعده فكان من مهام هذهِ البعثة المباركة إتمام مكارم الأخلاق ضمن مهمتها الأساسية في وضع دستور شامل للحياة.

يقول الحبيب المصطفى (ﷺ): [إنما بعثت لأتمم صالحَ الأخلاق] رواهُ أحمد، فتمَّ وضع الدستور الأخلاقي للإنسانية جمعاء. دستوراً أخلاقياً عامراً بكل ما يفيد الناس، ثريّاً بمفرداتهِ ومعانيه ومضامينه، دستوراً يصلح لكل قوم وكل أمَّة في مشارق الأرض ومغاربها ومهما ارتقت في علومها واقتصادياتها وعمرانها، دستوراً يصلح لكل زمان.

ولا غرابة في ذلك فرب العزة هوَ الذي أنزلَ هذا الدستور في قرآنه والنبي الكريم (ﷺ) هو الذي شرحَ مفرداته شرحاً وافياً كاملاً في سنته الشريفة وسيرتهِ العطرة وهديهِ المحمدي المبارك.

فالأخلاق في المنهج الذي أراده الله شرعة للبشرية جمعاء وجاء به قرآنا ووحيا مباركا على قلب الحبيب المصطفى (ﷺ) إذن هو أصل من أصول هذا المنهج الرباني وليس مجرد فضائل فردية أو آداب اجتماعية أو ذوق حضاري.

وإذ نتصدى لهذا الموضوع فنحنُ لا نأتي بجديد فمفردات هذا الدستور مبثوثة في آيات بيّنات من كتاب الله الكريم، وفي أحاديث الرسول (ﷺ)، وتصدّى لها الفقهاء العظام والعلماء الأعلام بحثاً وتمحيصاً وشرحاً وافياً وإخراجاً وإسناداً.

وتزخر المكتبة الإسلامية بالتأكيد بعشرات ومئات وحتى آلاف الكتب التي تبحث في موضوع الأخلاق والتهذيب والسلوك، فيكون جهدنا أزاءها جهداً واهياً ضعيفاً لا يقوى على الوقوف على قدميه ولا يجرؤ على الظهور أمام عظمة وجلال ما كتب وصُنِّف حول الموضوع.

إلا أننا وقد آمنّا بالله ربّاً وبمحمد (ﷺ) نبياً ورسولاً والحمد لله، ونسأل الله تعالى الثبات على الإيمان وترسيخه في قلوبنا، ونسألهُ الحياة والموت والبعث والوقوف بينَ يدي الله - عزَّ وجل - على الإيمان.

ونعلم أنَّ الرسول (ﷺ) قد قال فيما رواه البخاري: [بلّغوا عنّي ولو آية].

فإنما نطمع أن يرقى جهدنا هذا إلى درجة التبليغ ولو بآية واحدة عن رسول الله (ﷺ) ولو أننا نعلم في الوقت نفسه أنَّ تبليغنا هوَ تبليغٌ ناقص لأنَّ منهج التبليغ يقضي التواتر، والإيمان المطلق بما يبلّغ به، والتأسّي والتخلق بمن بلّغت عنهَ الآية وهو الحبيب المصطفى (ﷺ) ونحن ينقصنا كل ذلك.

وإذا كان فيما نكتب تكراراً لما قد كتب من قبل فنرجو أن لا يكون تكراراً مملاً لا روحَ فيه ولا تجديد وإنما تكرار أُريدَ بهِ التذكير والتنويع، والذكرى تنفع المؤمنين ونأمل أن يكون لهُ فعل التذكير حقّاً ليكون فيه النفع.

لقد أردنا لهذا الكتاب، أن يكون كتابا تربويا أخلاقيا للشباب واليافعين، يجدون فيه جانبا من المنهج الأخلاقي الذي جاء به الدين الإسلامي الحنيف. لذلك لم أشأ أن اكثر من الهوامش فأشير إلى صفحات المصادر التي اخترت منها بعض الكلمات، أوربما بعض الجمل – أحيانا – أو اقتبست منها معنى من المعاني.. أو غير ذلك.

ولم يكن الهدف – ان شاء الله - أن أدعي علما لا أملكه، أو أسرق جهدا بذله غيري. انما أردت أن أجنب القارئ تعقيدات الكتب ذات الصبغة الأكاديمية، قدر الامكان. فجل ما أتطلع إليه من خلال هذا الكتاب، هو أن أوفر لفئة الشباب، ممن يعيشون في البلدان الإسلامية، أو أولئك الذين يعيشون في مجتمعات غير إسلامية –

وخاصة إذا وجد بعض المختصين انه يستحق أن يترجم إلى بعض اللغات الحية – مصدرا بسيطا يجدون فيه معظم ما تطرق إليه القرآن، والهدي النبوي الشريف في موضوع الأخلاق، والربط بين ما دعى إليه منهج الأخلاق الإسلامي والواقع الذي تعيشه الأمة، كلما استطعت إلى ذلك سبيلا.

وثمة أمر آخر أريد الإشارة إليه، وهو أنني أرى أن كل الذين كتبوا في موضوع الأخلاق من العلماء الأعلام والأساتذة الأجلاء، ممن تشرفت بقراءة بعض مصادرهم -بشكل جزئي أو كلي – ما كانوا ليلتفتوا لأمر دنيوي تافه، بأن تذكر أسماؤهم أو لا تذكر، عند الاقتباس من بعض ما كتبوه. فحقوقهم محفوظة ومودعة عند من لا تضيع عنده الودائع. بل هي في نمو مطّرد لا يتوقف حتى تصبح في ميزان حسناتهم كالجبال يوم القيامة، إن شاء الله تعالى.

أسأل الله أن يتغمد المتوفين منهم بواسع رحمته ومغفرته، وأن يديم في عمر الأحياء منهم، ويزيدهم عطاء علميا وثراء فكريا فيما ينفع الأمة، وأن ينفعنا بعلمهم ويؤدبنا بأدبهم، انه سميع مجيب الدعاء.

ولأن عملي هذا لم يرق إلى درجة التجاوز على حقوق النشر، فقد اكتفيت بالإشارة إلى أهم المصادر التي اعتمدتها في إنجاز هذا الكتاب، وبعضها وقع بين يدي فيما كان الكتاب يشرف على نهايته.

وعودة لما قلناه في بداية هذهِ التوطئة من أنَّ الميزان الأخلاقي الرباني هو المقياس لتقييم الحضارات ورقيها فإننا عندما ننظر في أحوال الكثير من المجتمعات والأمم اليوم التي بلغت من التقدم العلمي والعمراني والصناعي ما بلغت، قد تفشّت فيها الرذيلة إلى الحد الذي تُسنُّ قوانين خاصة لإعطاء الشرعية لممارسة هذهِ الرذيلة أو تلك، وللمتعاطين بها على اعتبار أنها حريات وشؤون شخصية محضة لا بد أن تُصان بقوانين، ودون الإلتفات إلى الأثر السلبي التدميري الذي يتركه هذا الخلق السيء الكريه في المجتمع وفي الأجيال اللاحقة وتداعياته على الميزان الأخلاقي لتلكَ المجتمعات وفي المجتمع الإنساني كله.

ونرى أيضاً كيف فقدت الأواصر العائلية في هذه المجتمعات وأصبحت الأسرة وكأنها مكان لتفريخ الأطفال فقط ان صح التعبير، فإذا اشتد عود الأولاد ذكورا كانوا أو إناثا إما تركوا البيت أو طردوا منه وتبقى العلاقة بعد ذلك علاقة هشة لا رحمة فيها ولا عاطفة أو احساس. ولا يتسع البيت العائلي كذلك إلى كبار السن من الآباء والأمهات الذين يحتاجون إلى الرعاية الصحية والنفسية والاجتماعية، فهم إما يودعون في دور

المسنين وينقطع الاتصال معهم في الغالب الأعم ويشرد بعضهم في الشوارع ممن لا يجد ما يعيل به نفسه، ويعزف ذووه عن كفالته والصرف عليه.

ونرى أيضاً أنَّ بعضَ تلكَ المجتمعات في الوقت الذي تصون حقوق مواطنيها وتمنع أي تجاوز عليها من قبل الآخرين كائناً من كان، فإنها تقهر شعوباً ومجتمعات أخرى إلى حد الإذلال والاستعباد، وتمتص خيراتهم وتتركهم نهباً للفقر والجوع والمرض والاقتتال وهذا أيضاً يدل على خلل في الميزان الأخلاقي لتلكَ الأمة أو لكل أمة تريد الخير لنفسها وتسعى إليه ولو على حساب شعوب ومجتمعات أخرى.

وعندما ننظر إلى حال بلداننا وأمتنا نرى مالا يسرنا أبدا.... فمعَ وجود التخلف في كل ميادين الحياة وتفشي الجهل والفقر والإستبداد والظلم في الكثير أو أغلب هذهِ البلدان نرى في الوقت نفسه أنَّ الميزان الأخلاقي الذي أرادهُ الله ورسولهُ لنا وتبنَّاهُ السلف الصالح دستوراً أخلاقياً للحياة كلها قد أُركِنَ جانباً وأهمل إهمالاً شديداً مخيفاً يُنذر بكارثة كبيرة.

فالكذب والغش والتحايل واستباحة المال العام والرشوة والمحسوبية وعدم الإيفاء بالعهود وتسلط الحكام وظلمهم وغير ذلك من الأخلاق الذميمة المنهي عنها بدأت تتفشى في مجتمعاتنا تفشي الوباء. حتى تفوقت المجتمعات الأخرى علينا وتميزت عنا بالكثير من الخلق الحسن وصارت تعيبنا على هذهِ السلوكيات والأخلاق وما وصلت إليهِ أحوالنا، وصارت هذه المجتمعات تعرض أو تفرض علينا مناهج للإصلاح والتغيير فنرفضها ونأبى أن نقتبسَ منها بدعوى أنها لا تدين بديننا أو أنَّ ما بينَ أيدينا من قيم الأخلاق أفضل من كل دساتيرهم.

ولكننا....!!!

نأبى في الوقت نفسه أن نعود إلى هذا الدستور الذي أقرَّه الله لنا وللناس أجمعين وتركهُ لنا الرسول هدياً مباركاً فيه الخير كله.

وعندما نصل إلى هذهِ النقطة يتبادر إلى أذهاننا الحديث النبوي الشريف الذي رواه أحمد: [يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تتداعى الأكلة على قصعتها، قالوا: أمن قلة بنا يومئذ، قال: أنتم يومئذٍ كثير ولكن تكونونَ غثاءً كغثاء السيل يَنتزعُ المهابةَ من قلوبِ عدوِّكم ويجعل في قلوبكمُ الوهن قالوا وما الوهن قال حبُّ الحياة وكراهيَّةُ الموت].

اللهمَّ لا علم لنا إلا ما علمتنا.

اللهم انا نسألكَ علماً نافعا يفتحُ مداركنا لتلقى إشارات عظمتك في الكون وفي

الآفاق وفي أنفسنا نحنُ عبيدك وصنيعة يدك الكريمة.

ونسألك اللهم علماً تشرح بهِ صدورنا لتلقي خطابك وكلمات كتابك فنفهم قصدكَ ومرادك ونلزم صراطك المستقيم الذي رسمته ورضيته لعبادك الذينَ أنعمتَ عليهم.

ونسألكَ اللهم العلم الذي يجعلنا ونحن نستعرض دستور الأخلاق الذي أنزلتهُ في كتابكَ الكريم وأوحيتهُ إلى عبدكَ وحبيبكَ ورسولكَ محمد (ﷺ) فنطقَ بهِ حديثاً شريفاً وأورثنا إياه هديا مباركا، أن نتلمس ونهتدي بما رضيتهُ لنا من الخلق الحسن فتتشرب بهِ قلوبنا حتى يطفو على جوارحنا قولاً وعملاً وسلوكاً، ثمَّ نهتدي إلى الخلق القبيح الذميم الذي نهيت عنه عبادكَ المؤمنين المخلصين فلا نتجنبه وحسب وإنما تشمئز منه نفوسنا ونفرّ منه ومن المَواطِن التي يُتعاطى فيه والدروب المُفضية إليه وأصدقاء السوء الذينَ يقودوننا إليهِ فرارَ المذعورين الخائفين.

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الخلق وأشرف المرسلين محمد (ﷺ) وعلى أهل بيتهِ الطيبين الطاهرين وأصحابهِ الغر الميامين.

زهير آميدي

❊



الباب الأول
الأخلاق الحميدة
تمهيد

لقد أحصى دستور الأخلاق الإسلامي الأخلاق الحميدة خلقا خلقا، وحث المسلمين على التخلق بها جميعا، والالتزام بآدابها ومبادئها، ورسم أيضا الإطار الإنساني الراقي الذي تتحرك فيه، ثم جعلها ركنا مكينا من أركان اكتمال الإيمان في عقيدة المسلم.

ولعل أبلغ كلام نجعله مدخلا لهذا الباب هو قبس من كلام سيد الأولين والآخرين، وخاتم الأنبياء والمرسلين محمد (ﷺ).

سئل رسول الله (ﷺ): (اي المؤمنين أكمل ايمانا؟) قال: [أحسنهم خلقا] (الطبراني).

ونفهم من قول الحبيب المصطفى أن للايمان والأخلاق سلماً واحداً، فإن شئت ارتقيته فبلغت الدرجات العلى من كمال الإيمان والأخلاق، وكنت أحب عباد الله إلى الله وإلى رسوله.

فعن أسامة بن شريك قال: (كنا جلوسا عند النبي (ﷺ) كأنما على رؤوسنا الطير ما يتكلم منا من متكلم، إذ جاءه أناس فقالوا: من أحب عباد الله إلى الله؟). قال: [أحسنهم خلقا] (الطبراني).

وعن عبدالله بن عمرو قال: (سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: [ألا أخبركم بأحبكم الي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة؟] فأعادها مرتين أو ثلاثا، قالوا بَلَى يا رسول الله. قال: [أحسنكم خلقا] (أحمد).

نعم إنه سلمك الأخلاقي، فكلما ارتقيته صعودا اكتمل إيمانك، وبالنقاء والصفاء والبهاء الذي يرتضيه الحق سبحانه وتعالى لعباده المخلصين.

أما إذا كنت ممن يستسهل أداء بعض الطاعات وتظهر للناس حرصك على إقامتها، ثم ترتكب أعمالا يأباها، الخلق الكريم والإيمان الحق، فإنك في الحقيقة تهبط درجات سلم الإيمان درجة بعد درجة، وبقدر ما مشت قدماك في طريق سوء الخلق فأسرفت وفرطت في جنب الله، وبقدر ما طغوت وتجبرت على خلق الله وأسأت إليهم. لأن الله تعالى لا ينظر إلى قيامك وجلوسك أو همهماتك وطنطنتك في الصلاة، ولا إلىَ أي مظهر من مظاهر أداء العبادات، بل ينظر إلى أصل النية التي تنبع من قلبك، ويقيس درجة نقائها وصفائها، وهل هي خالصة لوجه الله تعالى أم لغيره؟ أو جعلت مع الله شريكا في القصد من عبادتك أو عملك. وينظر أيضا إلى خلقك الذي تخالق الناس

به.

ونضرب هنا مثلا في الربط الوثيق بين العبادة والخلق الحسن!!

فإذا زارك ملك في دارك، فهل يعقل أن تقدم له طعاما طيبا في إناء ملوث بالنجاسة والقاذورات؟ أو أن تقدم له طعاما ملوثا قذرا كريه الرائحة في إناء جميل، حرصت كثيرا ليكون نظيفا؟

فإذا كان ملك بشر مثلك لا يقبل منك إلا طعاما طيبا نظيفا في إناء نظيف!! وتحرص أنت أيضا أشد الحرص لكي يرضى عنك الملك.

ولله المثل الأعلى فهو ملك الملوك ورب الأرباب.

واذ ضربنا بالطعام مثلا للعبادة، وبالإناء مثلا للأخلاق.

أفلا تكون عبادتك إلا طيبة خالصة لوجه الله تعالى، ولا يكون خلقك إلا كريما رفيعا، لكي يرضى عنك ربك وخالقك، ويتقبل منك عبادتك؟؟

نعود إلى كلام النبي (ﷺ):

[ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن] (الطبراني).

وعن أنس قال: قال رسوا الله (ﷺ): [إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وأشرف المنازل وانه لضعيف العبادة] (الطبراني).

ونفهم من قول الحبيب المصطفى أن الخلق الحسن بين إنسان وإنسان، ليس ترفا أخلاقيا يلجأ إليه البعض وينأى عنه البعض الآخر دون أن يجدوا حرجا مما يفعلون. ونفهم أيضا أن الخلق الحسن هو الدين كله، تماما مثل العبادات الخالصة لوجه الله تعالى.

ولهذا نرى المؤمن التقي الورع، لا يحرص في حياته الدنيا على شيء، كحرصه على ما يثقل ميزان حسناته يوم القيامة، ويبلغه أعلى الدرجات وأشرف المنازل في الجنة!!

وهذا هو رسول الله - إليه والى الناس كافة - يخبره أن حسن الخلق يبلغه ما يريد، أفلا يحرص على حسن الخلق إذا كحرصه على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والحج، بل أشد؟؟

لقد حرص النبي (ﷺ) على توكيد هذه المبادئ حتى تتبينها أمته جيدا فلا تهون لديها قيمة الخلق وترتفع قيمة الطقوس. وإن فعلت لفقدت هويتها المميزة التي وصفها الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (آل عمران: ١١٠). لأن العبادات عندئذ لا تكون إلا طقوسا باردة باهتة

لاحرارة فيها ولاروح، طقوسا لا تشد الأمة إلى معين النور السماوي لتسمو وترتفع إلى أفاقها العلوية الرحبة، ولا تشدها إلى الأرض لتعمرها وتزرع الخير فيها، وتنشر المحبة والوئام بين الناس، وتقيم العدل والإحسان بينهم.

واذ نستعرض الأخلاق الحميدة خلقا خلقا، فإننا سنرى أن دستور الأخلاق الإسلامي ليس مجرد نصوص ووصايا وردت في كتاب الله وسنة نبيه (ﷺ) في معرض الترغيب والترهيب بها. ولا يكون إلتزام المسلم بها لأنها تجمل صورته بين الناس، وتعطيه مهابة ووجاهة ليس إلاّ، بل يلتزم بها كونها أوامر إلهية، تماما كالصلاة والصيام والزكاة والحج. فهو عندما يبر بوالديه، أو يكفل اليتيم ويمسح على رأسه، أو يسقط دينارا في يد فقير أو ابن سبيل، أو يصلح بين اِثنين، أو يبتسم في وجه أخيه، لا يعمل ذلك إلا امتثالا لأمر الله وتقربا إليه سبحانه. ولا يريد من الناس جزاء ولا شكورا، فهو يعملها لوجه الله، لمن يجزل له العطاء في يوم كان شره مستطيرا. وأنه سيلقى ثواب صنيعه منشورا في كتاب لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها.

والأخلاق وان كانت خصالا وسلوكا فردية، إلا أن الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم يسعيان إلى ايجاد البيئة المناسبة لتنمية الأخلاق الفاضلة وغرسها في النفوس وتعهدها ورعايتها وحمايتها، بشكل دائم ومستمر.

ولأن التربية لا تصلح إلا إذا اعتمدت على الأسوة الحسنة، فقد أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله. والدين كله هو العقيدة السليمة الراجحة السمحاء، وهو العبادة الخالصة لوجه الله تعالى، وهو الخلق الحسن. وجعله أسوة حسنة ورحمة مهداة للناس جميعا. فكانت شخصية النبي (ﷺ) شخصية نورانية مباركة صنعت وهذبت وأدبت بالعناية والكرم الرباني لتكون شخصية خير الخلق، المبلغ لكتاب الله ومنهجه القويم إلى الناس كافة، ولتكون الشخصية القدوة والنموذج لتطبيق هذا المنهج تطبيقا شاملا ودقيقا في النفس والأهل والأصحاب والمجتمع والأمة، فكان عليه الصلاة والسلام خير مبلغ وخير معلم، فجزاه الله عنا خير الجزاء.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١). ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

وإذا كان التمثل الحرفي والتأسي الكلي بشخصية الرسول (ﷺ) ما لم يدركه أحد من قبله ولا يدركه أحد من بعده. إلا أن الوصول إلى مشارف هذه الشخصية المباركة والاستئناس بنورها والاقتداء بخلقها وكريم صفاتها، يبقى أمل العارفين لله والمحبين لسنة رسوله والسائرين على هديه.

لقد وقفت كثيرا عند كيفية تبويب مفردات الأخلاق الحميدة؟ وهل أجعلها حسب الحروف الأبجدية؟ أم أجعلها حسب كثرة ورودها في الكتاب الكريم؟ أم أجعلها حسب ثقلها في ميزان الأخلاق على الأصعدة كافة؟

إلا أنني نظرت إليه فوجدتها كحبات من الخرز منظومة في خيط معقود الجانبين، فأي حبة اخترت ثم مررت على التي تليها فلا تجد حرجا في ذلك، فحبات الخرز هذه تشد بعضها بعضا، وهي مجتمعة وليست منفردة تشكل الإطار الكامل للأخلاق الحميدة لذلك ارتأيت أن أتركها كما كتبتها ابتداء، فكل خلق له ثقله ومكانه في بناء صرح الأخلاق الحميدة، وليس ثمة حرج أن يكون هذا قبل ذاك أو ذاك قبل هذا.

فلنستعرض باب الأخلاق الحميدة في دستور الأخلاق على هدي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

❊

١- البشاشة وإفشاء السلام

البشاشة والسلام رسولان للمحبة بين القلوب

إذا أقبل عليك رجل طلق الوجه بشوش القسمات ثم بادرك بتحية الإسلام (السلام عليكم) فإن قلبك ينفتح له- بلا ريب - وتشعر بالمودة إزاءه، وإن كان الرجل غريبا عنك تراه للمرة الأولى. ولا تملك إلا أن تبش أنت أيضاً في وجهه وترد على تحيته بأحسن منها: (وعليك السلام ورحمة الله وبركاته).

إن إلقاء التحية بوجه طلق والرد عليها بأحسن منها وبوجه طلق أيضا يعطي نوعا من الدفء الحميم للموقف هذا. وإذا كان الرجل ممن تعرفه وبينكما صلة رحم أو صداقة ومودة أو جيرة طيبة فإن هذا اللقاء الحميم يعمق صلة الرحم هذه ويرسخ هذه الصداقة وتلك الجيرة ويديمها.

أما إذا كان القادم قد أغاضك من قبل وحصلت بينكما جفوة وبعاد فإن قدومه عليك - بوجه بشوش يبتسم لك وهو يلقي عليك التحية - يهد جدار الجليد الذي برز بينكما ويزيل عن قلبك كل ما علق به من ضغينة بسبب إغاضته لك أو اساءته في حقك.

السلام تحية الله والملائكة لأهل الجنة ووصية الله لنبيه وللمسلمين

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ (النساء: ٨٦)

هذه وصية الله فينا، وهذه التحية هي (السلام عليكم).

وهذه التحية هي التي يحيي الحق سبحانه وتعالى بها عباده المؤمنين أصحاب الجنة. ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ (يس: ٥٥-٥٨).

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ (الأحزاب: ٤٤).

والسلام هو تحية الملائكة لأهل الجنة. ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (الزمر: ٧٣).

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)﴾ (الرعد: ٢٣-٢٤).

والسلام هو التحية التي أمر الله تعالى نبيه الكريم محمد (ﷺ) أن يلقيها على المؤمنين.﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ

الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام: ٥٤).

فما أطيبها وأكرمها من تحية تلك التي يحيي بها الحق سبحانه وتعالى عباده المؤمنين يوم الفوز العظيم، وتستقبل بها ملائكة الرحمٰن المؤمنين الذين يفوزون بجنات النعيم، ويأمر الله حبيبه المصطفى (ﷺ) أن يحيي بها المؤمنين وهو ينقل إليهم قول الحق سبحانه وتعالى أنه كتب على نفسه الرحمة وأنه يغفر لمن عمل منهم سوءا بجهالة ثم تاب وأصلح.

البشاشة والسلام في الهدي المحمدي الشريف

من أجل هذا كله أخذت هذه التحية حيزا كبيرا في السنة النبوية الشريفة والهدي المحمدي المبارك.

فها هو نبي الرحمة (ﷺ) يعمق معاني هذه التحية بربطها بالمحبة في الله وبالإيمان المفضي إلى رضى الله والجنة.

[لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا. ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ افشوا السلام بينكم] (البخاري).

وعنه أيضا (ﷺ) أن رجلا سأله: أي الإسلام خير؟ [قال: تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف] (البخاري ومسلم).

وعنه أيضا عليه الصلاة والسلام أنه قال: [من موجبات المغفرة إفشاء السلام وحسن الكلام] (البخاري).

(السلام عليكم) هو هوية المسلم أينما كان

فالسلام هو هوية المسلم. ويكفي أن تسمع أحدا يلقي السلام على أحد آخر في بلد غريب تصادف أن كنت بجوارهما، فإنك تتيقن أنهما مسلمان من دون أن تسمع حديثهما بعد ذلك. وينشرح صدرك بهذه التحية وتشعر أن السلام والرحمة التي طلباها لبعضهما البعض من خلال إلقاء التحية وردها قد وصلت إليك أيضا وأنت جالس في مكانك.

والمنهج الإلهي إذ يجعل هذه التحية المباركة شعارا للمسلمين فإنما يفعل ذلك ليجعل هذه التحية مفتاحا للوصول إلى القلوب وبابا للمحبة والمودة بينهم.

فالبشاشة وإفشاء السلام هما أول وشيجة تربط المسلم بأخيه المسلم وأولى درجات المحبة والاطمئنان بينهما. فمن يباشرك بوجه طلق ويلق عليك تحية يريد لك بها – صدقا- السلم والطمأنينة والسكينة، لا يمكن أن تظن أنه يتأبط لك شرا حتى إذا كانت بينك وبينه جفوة وهجر. وإن ظننت لا يكون ظنك إلا ظن سوء.

وقد انزل الرسول (ﷺ) البشاشة منزلة الصدقة. والصدقة كما نعرف يتضاعف ثوابها عند الله إلى سبع مائة ضعف أو أكثر لمن يشاء.

[تبسمك في وجه أخيك لك صدقة] (الترمذي).

[كل معروف صدقة، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق وأن تفرغ دلوك في إناء أخيك] (البخاري ومسلم).

ولأن الرسول (ﷺ) هو المعلم والقدوة، لذا كان دائم البشاشة والتبسم. فعن عبد الله بن الحارث بن جزء قال: ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله (ﷺ) (الترمذي).

كيف نعيد السلام والبشاشة إلى شفاه المسلمين

لذلك كان حريا بنا أن نرجع هذه الخصلة الأخلاقية الإسلامية إلى موقعها الأصيل في صدارة الخلق الحميد لتكون للمسلمين هويتهم المميزة. لا أن نبقيها محصورة في محيط المساجد، أو نعوض عنها بتحيات مستعارة من هنا وهناك، أو نجعلها بين الخاصة من محبينا وذوي قربانا، بل أن نجعلها عامة شاملة كما أوصانا الحبيب المصطفى (ﷺ) أن تكون على من نعرف ولا نعرف. (فالقصد من السلام المؤانسة والإلفة بين المسلمين جميعا فلا يجوز أن تخص طائفة دون أخرى بالسلام ففي تخصيص البعض إيحاش للطائفة المستثناة وربما صار سببا للعداوة والبغضاء وهو مخالف لأصل القصد من السلام).

وككل أمر إلهي ووصية ربانية وهدي محمدي في الطاعات أو المعاملات أو الذكر والصلاة، فإن الأمر لا يتعلق بالأمر اللفظي أو الحركة المجردة فحسب، بل يتعلق أيضا بالاعتقاد اليقيني الراسخ في القلب الموصول بالنية الخالصة لله تعالى. فكذلك بالنسبة لتحية السلام كان لا بد وأنت تلقيها أو تردها أنك تريد لمخاطبك السلام والطمأنينة والسكينة فعلا ومن كل قلبك.

وأن يكون تبسمك في وجه أخيك تبسما صادقا خارجا من ثنايا قلبك وتظهر على محياك إشراقا وأنسا ومودة. وأما إذا كانت البسمة تموت على شفاه جامدة ووجه متجهم مكفهر، فإن إلقاءك للتحية أو ردها ولو متبسما، يكون كما لو كنت مكرها، أو غير راغب، ولا يرقى إلى درجة العبادة والصدقة كما أرادها الله تعالى ورسوله الكريم (ﷺ).

تحية طيبة مباركة

تحية طيبة مباركة هي تحية الباري عز وجل وملائكته الكرام لأهل الجنة. تحية أوصانا الحبيب المصطفى (ﷺ) بافشائها بيننا وجعلها مفتاحا للمحبة والإيمان ودخول

الجنة. حري بنا أن نتلمس قيمتها وقيمة سريانها على ألسن المسلمين وهم يلقونها على بعضهم البعض طلقي الوجوه لتكون بذرة محبة وإلفة ومودة بين المسلم وأخيه المسلم في وقت نحن في أمس الحاجة إلى أن نعيد هذه الأخوة وهذه اللحمة بين المسلمين.

٢ـ دفع السيئة بالحسنة

من مظاهر (دفع السيئة بالحسنة)

ومن الخلق الحميد الذي أمرنا الله تعالى به وأوصانا الحبيب المصطفى (ﷺ) باتباعه هو (**دفع السيئة بالحسنة**).

وهذه الصفة تقر أولا ببشرية الإنسان وإمكانية وقوع الخطأ منه بالتالي، وذلك في ساعات غلبة هوى النفس عليه وخفوت جذوة الإيمان في قلبه.

والخطأ قد يكون بين العبد وخالقه في عبادة تهاون فيها، أو يكون أمرا نهى الله عنه فأتاه العبد، أو يكون أمرا دعا الله إليه فاستبطأ العبد فيه واستثقل. وقد يكون الخطأ أيضاً بين المرء وبين الناس في الإساءة إليهم بقول قبيح أو كلام جارح، أو غيبة ونميمة، أو فعل شائن أو ظلم بحقهم.

وسواء كنا نحن المسيئين أو أساء أحد بحقنا فإن الوصفة الإنسانية الراقية التي وصفها الله تعالى ورسوله (ﷺ) لنا جميعا هي دفع السيئة بالحسنة. وإذا أراد الله بعبد خيرا هداه إلى هذا الخلق الحميد.

الإساءة بين العبد وربه

فإن كانت الإساءة فيما بين العبد وربه، فعلى العبد أن يبادر من فوره بالتوبة مما اقترفه، ويمحو آثار ما عمل من سوء بالطاعة الخالصة لوجه الله تعالى، ثم ينفق مالا أو يبذل صدقة أو يصنع معروفا، أو يخالق الناس بخلق حسن لتكتب له صدقة إن لم يجد ما ينفقه ويتصدق به. قالَ رسول الله (ﷺ): [كل معروف صدقة، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق وأن تفرغ دلوك في إناء أخيك] (البخاري ومسلم).

الإساءة بحق الناس

وإن كانت الإساءة في حق أحد من الناس فعلى المسيء أن يهرول إلى من أساء إليه ليطلب منه الصفح والمغفرة أولا، ثم يبادر برفع الحيف والضرر الذي ألحقه به. وأن لا يطيب له مقام إلا بعد أن يحصل على العفو والسماح منه. العفو الذي يصدر من القلب، لا الذي يكون تحت الضغط أو الخجل من تدخل وجوه اجتماعية فينطق

اللسان بالعفو فيما القلب لم يزل على أشده من الكرب والألم والضغينة.

فإذا ما تم له ما أراد وحصل على العفو والصفح ممن أساء بحقه، بادر بالإحسان إليه هو ان كان يحتاج أو يقبل الإحسان، أو أحسن في مقام آخر تكفيرا عن السيئة التي صدرت منه. وهو يسترشد في ذلك بقول الحبيب المصطفى (ﷺ): [اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن] (الترمذي، احمد، الدارمي).

لا تلتفت إلى وسلوس الشيطان إذا أساء أحد إليك

أما إن كنت أنت من لحق به الأذى وأسيء إليه وكنت مؤمنا بالله وتطلب رضاه، فعليك بالرجوع لأوامر الله مما قرأت في كتابه المبين وتسترشد بما وصلك من سنة نبيه الكريم (ﷺ) بهذا الخصوص. وهو أن الحسنة والسيئة لا تتساويان وبينهما فرق عظيم في الجزاء وحسن العاقبة، وتدرك أن دفع السيئة بالسيئة يساويك بمن أساء إليك ولا يرفع لك مقاما ولا يسجل لك حسنة ومثوبة، فادفع السيئة بالخصلة الحميدة التي هي أحسن كأن تدفع الغضب بالحلم والجهل بالعلم والإساءة بالعفو. فإذا ما رأى من أساء إليك أو اعتدى عليك هذا الحلم وهذا الصفح والعفو منك انقلب لك صديقا خالص الصداقة في مودته ومحبته. واعلم أن هذه المنزلة الرفيعة والخصلة الحميدة لا تتأتى إلا بمجاهدة النفس وكظم الغيض واحتمال الأذى. واعلم أن من أوتي هذه المنزلة فقد أوتي خيرا عظيما وحظا وافرا من السعادة. واعلم أن ما تجده في نفسك خلاف ذلك بترك ما أمرت به من دفع السيئة بالحسنة والرغبة في الانتقام لنفسك، ما هو إلا وسوسة من الشيطان وانه يريد ان يوقع البغضاء بين الناس فاستعذ بالله من كيده وشره وخبثه.

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤).

واعلم أيضا أن الله تعالى يعطي الأجر مرتين لمن يدفع السيئة بالحسنة فإن جاءك من يقول فيك قولا قبيحا أو يسبك ويشتمك، فتمالك نفسك واكظم غيظك وقل له قولا لينا ورد عليه بالكلمة الطيبة الجميلة لتكون ممن يعطى أجره مرتين، أجراً بصبرك وحلمك وأجراً للينك وحسن مقالك.

﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (القصص: ٥٤).

ميزان الربح والخسارة في خلق (دفع السيئة بالحسنة)

والعاقل من يزن الأمر ويقيسه بميزان الربح والخسارة يوم القيامة وليس في الدنيا. فالتهور ودفع السيئة بالسيئة ولو بمثلها ودون ظلم وإسراف لا يثقل ميزان حسناتك، بينما الصبر والحلم والأناة ودفع السيئة بالحسنة يثقل ميزان حسناتك بأجرين

عظيمين. فأيهما تختار؟؟؟

إنه طريق الإيمان الذي يهذب السلوك ويقوم الأخلاق.

وإنه صراط الله المستقيم الذي يقودك إلى الخير والنجاة. فاسلك طريق الإيمان واثبت على الصراط المستقيم الذي يفضي إلى مرضاة الله وحسن العاقبة.

أين نحن الآن من هذه الخصلة الأخلاقية الحميدة؟؟

صرنا ننظر إلى الذي يقف بالمرصاد لمن يسيء إليه فيرد الصاع صاعين، نظرة مهابة ونقول عنه: أنه رجل ليس ككل الرجال، انه رجل لا يقبل أن يداس له إزار، فلا يجرؤ أحد على الدنو منه خشية غضبه وسرعة انتقامه.

وننظر لمن يطلب ثواب الله ويريد أن يؤتى الأجر مرتين فلا يرد على السيئة إلا بالحسنة، نظرة استصغار ونقول عنه: يا له من رجل ضعيف مهيض الجناح يساء إليه فلا ينتفض لنفسه فينتقم!!

ولا بد هنا أن نشير إلى أن هناك فرقا شاسعا جدا بين رد الإساءة بالحسنى طمعا في مرضاة الله وبين قبول الرجل أن يكون ذليلا خانعا وضعيفا. فالمؤمن لا يكون إلا عزيزا وجلدا وقويا، وعدم الرد على الإساءة دليل عز وقوة وليس العكس.

والمنهج الذي رسمه الوحي الإلهي للناس كافة يحثنا على التآزر والتآلف ونبذ ما يقود إلى الخصومة والبغضاء بيننا. ودفع السيئة بالحسنة هو أحد الأبواب المفضية إلى ذلك.

ورد في حديث قدسي: [.... يا ابن آدم... وهل أحسنت لمن أساء إليك، وهل عفوت عمن ظلمك، وهل كلمت من هجرك، وهل وصلت من قطعك، وهل أنصفت من خانك، وهل سألت العلماء عن أمر دينك ودنياك، وإني لا أنظر إلى صوركم ولكن أنظر إلى قلوبكم ونياتكم وأرضى بهذه الخصال لكم].

وكفى بالله شهيدا.

وكفى بالله حسيبا.

❁

٣ـ قول التي أحسن

الربط الإيماني بـ (قول التي هي أحسن)

قد نرى رجلا لا تنقطع خطاه عن المسجد، ولكننا نراه في تعامله مع الناس فظًّا غليظ القلب، كلامه فيه قسوة وجفوة وتجريح. وعلى الطرف الآخر قد نرى رجلا ليس له التزام ديني وقد تكون به لوثة من أفكارٍ إلحادية أو دهرية ولكنه لين الجانب طيب

الكلام. فيختلط الأمر على بعض الناس ورب سائل منهم يتساءَل: هل أن التدين يلزمه الوقار وأن الوقار يلزمه خشونة الطبع وحدة الكلام؟؟

ويتساءَل آخر هل أن المنهج الإيماني مقطوع الصلة بالأخلاق وأنه معني بالعبادات ليس إلا؟؟

وتأتي هذه التساؤلات عادة ممن لا يكون ذا حظ كبير في التدين ولا يكون وثيق الصلة بالقرآن الكريم والسنة المطهرة.

ونحن نعلم أن هذه التساؤلات ليس لها حظ من الصواب فالمنهج الإيماني قد جعل من مكارم الأخلاق ركيزة أساسية من ركائز المنهج ونحن نعلم أيضا أن الكلمة الطيبة وقول التي أحسن تتصدر مكارم الأخلاق التي حظ عليها الكتاب والسنة.

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ (الإسراء: ٥٣)

فمن هم العباد الذين يحبهم الله وشرفهم بالانتساب إليه؟؟

إنهم الذين يمشون في الأرض في لين وسكينة ووقار لا يضربون بأقدامهم الأرض أشرا وبطرا ولا يتبخترون في مشيتهم وإذا خاطبهم السفهاء بغلظةٍ وجفاء قالوا قولا يسلمون فيه من الإثم ولا يجهلون على أحد وإن جهل عليهم، وإلى آخر الأوصاف التي وصف الله بها عباده في كتابه المجيد.

(قول التي هي أحسن) حماية للمؤمن من مكائد الشيطان

ولأن الله تعالى لا يريد لعباده إلا كل صفات الخير فإنه يأمرهم أن يتحروا الصدق في مخاطباتهم ومحاوراتهم ويختاروا من الكلام ألطفه وألينه، وأن لا يتصفوا من الخلق إلا بأحسنه وبما فيه الخير لدينهم ودنياهم. وعليهم أن ينتبهوا إلى كيد الشيطان ومكره لانه يريد أن يفسد بين الناس ويشعل نار الفتنة والشر في نفوسهم بالكلمة الخشنة يفلت بها لسان أحدهم. والشيطان قد أظهر عداوته للإنسان مذ طرد من الجنة لعصيانه أمر الله تعالى. فهو يتلمس كل ما يوصله إلى مبتغاه حتى سقطات اللسان يوظفها لإحداث العداوة والبغضاء والفرقة بين المرء وأخيه.

والمنهج القرآني يريد أن يسد كل المنافذ التي يبث منها الشيطان نفثه ونفخه في قلب المؤمن فجعل للقول الحسن والكلمة الطيبة منزلة كبيرة، وجعل أفضل الكلام وأحسنه ما كان في الدعوة إلى الله - والدعوة إلى الله هي دعوة إلى العمل الصالح والسلوك الحسن وهو ما يجب أن يكون عليه كل مسلم لينال الحظ العظيم وينال درجة الصابرين – وكذلك ما كان منه على صعيد التواصل والتعامل بين الناس.

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) ﴾ (فصلت: ٣٣-٣٥).

التصوير القرآني لثواب (قول التي هي أحسن)

ولتقريب عظم ثواب الكلمة الطيبة في أذهان الناس ربط الحق سبحانه وتعالى بينها وبين الصدقة هذا الربط الوثيق في درجة الثواب، ذلك بأن الله تعالى جعل جزاء الصدقة بعشرة أمثالها وتزداد لتصل إلى سبعمائة ضعف ويزيد الله فوق ذلك من فضله لمن يشاء، فكأنما فضل الكلمة الطيبة يتضاعف أيضا كما يتضافع ثواب الصدقة الطيبة.

ونعلم أن الله تعالى يريد النيات والغايات من أقوالنا وأفعالنا ولا يريد ظواهرها لذلك كانت الكلمة الطيبة أفضل عند الله من صدقة يتبعها أذى، فإذا لم تكن الصدقة لوجه الله تعالى وتقربا إليه ولم تكن صافية نقية طيبة ولم تخرج من نفس راضية مطمئنة ولم تعط في تواضع ولين ومودة واستحياء فإن الله تعالي غني عن قبول هذه الصدقة.

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٣)

قال رسول الله (ﷺ):

[الكلمة الطيبة صدقة] (البخاري)

[اتقوا الله ولو بشق تمرة فإن لم تجد فبكلمة طيبة] (متفق عليه)

وتقوى الله هي غاية كل مؤمن ويمكن للمرء أن يصل إلى بعض درجاتها بالصدقة مهما كانت صغيرة غير ذات قيمة في نظره كأن تكون نصف تمرة أو تكون كلمة طيبة يقولها المرء لأحد من إخوانه.

(قول التي هي أحسن) تنبع من القلب ولا تنطق باللسان فقط

والقول الحسن الذي يريدنا الله أن نعتمده في مخاطباتنا، والكلمة الطيبة التي تقابل الصدقة كما رأينا من أحاديث رسول الله (ﷺ) يجب أن لا تكون تكلفا وتصنعا نريد أن نعلن بها غير ما نضمر، وأن لا تكون رئاء الناس، بل تكون سجية نقية من سجايانا وخلقا حقيقيا نتخلق به. فالإيمان والتقوى والإحسان لا تبنى دعائمها إلا في القلوب الطاهرة والنفوس الزكية ولا تتلاءم أو تنبت في القلوب المضطربة والنفوس الجشعة واللئيمة والمرائية.

فالله طيب لا يقبل إلا الطيب.

❊

٤ـ حب الخير والمسارعة في عمله

مفاهيم في العمل الصالح

كل أمرٍ أمرك الله به خارج التكاليف العبادية التي تستكمل بها إيمانك من شروط العقيدة الصحيحة السليمة وإيتاء الطاعات، فهو عمل صالح.

وكل عمل يجلب منفعة أو يدفع ضرا لأهلك أو لبلدك أو لأحد من المسلمين أو لبشر أو حتى لحيوان دون أن يكون فيه إيذاء للغير أو إضرار بمصلحة عامة أو خاصة ويكون في الوقت نفسه تقربا إلى الله تعالى فهو عمل صالح.

والعمل الصالح يتسع ميدانه فيبدأ بأسمى الأعمال وأجلها وأعظمها ثوابا عند الله تعالى وهو الدعوة إلى الله ويمتد ليشمل بر الوالدين وصلة الرحم والإصلاح بين الناس والإحسان إلى ذي الحاجة الملهوف واطعام الطعام، ويمتد أيضا ليشمل ما قد نعتبرها أمورا بسيطة غير ذات شأن كأن تسقي الكلب العطشان وتميط الأذى عن الطريق.

وكل عمل لا يستند على الإيمان ولا يراد به وجه الله تعالى لا يكتب عند الله عملا صالحا ولا يدخل في ميزان حسنات العبد يوم القيامة.

والإيمان والعمل الصالح كلمتان مترادفتنا متلازمتان في معظم الآيات التي تحث على الإيمان في كتاب الله المبين.

من هم خير البرية؟

والمؤمن الذي يجمع بين الإيمان والعمل الصالح وكل ما تعارف عليه الناس من أمور الخير هو خير الخليقة التي خلقها الله تعالى وبرأها، وثوابه في الآخرة على ما قدم من ايمان وعمل صالح جنات تجري من تحت قصورها الأنهار. فما يعمل المؤمن من عمل صالح فإنه لن يضيع عند الله تعالى، لأنه تعالى لا يخفى عليه عمل العاملين، ولا يضيع عنده أجر المتقين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ (البينة: ٧)

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١١٥)

نعم.. فما يتقرب به المؤمن إلى الله من صلاة أو صدقة أو عمل صالح فرضا كان أو تطوعا يجد ثوابه عند الله فالله رقيب على الناس مطلع على أعمالهم فيجازيهم عليها يوم القيامة.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة: ١١٠)

إن الله تعالى يأمرنا أن نسارع إلى العمل الصالح

لذلك أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نسارع في عمل الخير ونقوم به مبادرين غير متثاقلين أينما كنا فإن الله سيجمعنا للحساب فيفصل بين المحق والمبطل وبين الساعي لعمل الخير والآمر به وبين الساعي لعمل المنكر والآمر به.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ١٤٨).

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٣).

والمؤمن الذي يسارع إلى الخيرات يكتب عند الله من الصالحين.

﴿ **يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ (آل عمران: ١١٤).

وقد ذكر لنا رسول الله (ﷺ) وصف الذين يسارعون إلى الخيرات في حديث شريف: [الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم أولئك هم الذين يسارعون في الخيرات] (الترمذي، ابن ماجة).

رسول الله (ﷺ) يأمرنا أن نسارع إلى العمل الصالح

وأوصانا عليه الصلاة والسلام على عمل الخير والاستمرار عليه وإن قلّ في نظرنا. وأوصانا أن ندل على عمل الخير ونحث عليه إن لم يكن بمقدورنا أن نقوم به بأنفسنا.

[أكلفوا من العمل ما تطيقون فإن خير العمل أدومه وإن قل] (ابن ماجة، أحمد).

[من دل على الخير فله مثل أجر فاعله] (مسلم).

وقال أيضا عليه الصلاة والسلام في فضل الخير:

[من بنى بنيانا في غير ظلم ولا اعتداء، أو غرس غرسا في غير ظلم ولا اعتداء، كان له أجرا جاريا ما انتفع به أحد من خلق الرحمن تبارك وتعالى] (الألباني).

[ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة] (البخاري).

ففي هذين الحديثين الشريفين دلالات عظيمة وقيم ثرية في أن الإسلام دين يحث على العمل والبناء والإنماء وليس دينا محصورا بالعبادة في زوايا المساجد والمعابد.

فإذا كان في بناء تبنيه أنت وتكون أول المنتفعين منه ثم انتفع به غيرك، أو تزرع

زرعا وتكون أول الآكلين منه ثم أكل منه غيرك - ولو كان طيرا أو بهيمة - يكون لك بذلك أجر صدقة جارية؟

فهل ثمة دليل أعظم وأجل على عظمة ما يدعو إليه المنهج الإلهي مما ذكرنا؟؟

رجل يحب العمل الصالح

وما أجمل أن ترى رجلا يهب ويسارع في فعل الخير. فإن وجد من ينوء بحمل ثقيل عاونه في حمله، وإن رأى أحدا قد عطب دولاب عربته ساعده في تبديله، وإن رأى ضريرا يريد أن يعبر الطريق هب لمساعدته، وإن سأله غريب عن عنوان في البلدة ترك ما في يده حتى يوصله إلى مقصده، وإن سمع أن ثمة مريضا يحتاج إلى الدم سارع في فوره فيتبرع له من دمه، وإن حدثت نكبة في بلده شمر عن ساعد الجد ينفق ما كان بوسعه أن ينفق أو بذل جهدا استثنائيا موظفا في ذلك كل طاقاته. وباختصار تراه يتنقل من عمل خير إلى آخر تماما كما تفعل النحلة في بحثها عن رحيق الأزهار فتنتقل من زهرة إلى أخرى وهو مثلها لا ينتج إلا شهدا.

وتراه صادقا في عمله كله لا يبحث عن الشهرة أو المجد، ولا يأبه بالإطراء سواء أقيل في حقه أو لم يقل، فإنما يفعل ما يفعله طلبا لمرضاة الله وطمعا في الفوز بجنته.

رجل لا يحب العمل الصالح

وبالمقابل فإنك ترى رجلا آتاه الله الفضل من الصحة والقوة والمال ولكن قدميه تتثاقلان كلما قادتاه صوب عمل الخير، ويداه تتشنجان فلا تمتدان لإعانة ملهوف أو إسعاف مريض، ولو طلب منه أحد أن يمد إليه يد العون في أمر يسهل عليه فعله تراه ينظر إليه شزرا ويتركه في حيرته ويذهب دون مبالاة، وهو يظن أن العمل الصالح لا يتجاوز ركيعات يؤديها أو ساعات ينقطع فيها عن الطعام والشراب.

الإيمان والعمل الصالح قرينان لا يفترقان

ولكن..

ونحن نقرأ كتاب الله نرى أن الإيمان مقرون دوما بالعمل الصالح وكأنما الإيمان الذي لا يصاحبه العمل الصالح هو ايمان ناقص، فالإسلام دين اجتماعي لا رهبنة فيه ولا يشجع على التعبد في المغارات في قمم الجبال أو الانقطاع عن الناس في عمق البراري. لذلك كان عمل الخير والسعي إليه سلما يرتقيه المؤمن صعودا إلى رضوان الله تعالى، وكلما عمل خيرا ارتقى درجة وازداد قربا من الله تعالى حتى يكون في حماه جل وعلا وفي رعايته.

ميزان العمل الصالح

وميزان الإخلاص في عمل الخير هو عدم الندم على صنعه إذا طرأ طارئ في

طريقه.

فإن كنت تنفق على أحد إخوانك مثلا ومضى عليك حين من الدهر وأنت ماض في فعل الخير هذا، ثم بادرك من كنت تحسن إليه بإساءة كبيرة لم تكن تتوقعها، في هذه اللحظة قد يجعل الشيطان من هذه الإساءة مدخلا إلى قلبك ليثنيك عن عزمك وإحسانك، ويثبتك الله تعالى بفضل من عنده إذا وجد فيك همة وعزما في إجراء صنيعك.

• فإذا استسلمت لكيد الشيطان ومكره جعلك تندم على ما كنت تفعل من خير معه، وتظن أنك كنت تزرع الخير في غير محله، فتكون أحبطت كل معروفك وإحسانك إليه، لأنك لم تكن صادق التوجه لله في عملك، فمن تكن نيته خالصة نقية لوجه الله تعالى يعلم أن الله لا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى.

• أو يدفعك الشيطان لأن ترد على إساءته بإساءة أقبح منها وتنشر معروفك فيه وإساءته لك على الملأ، فلا تكون أحبطت عملك فحسب، بل تكون اكتسبت فوق ذلك إثما عظيما.

• أما لو كنت ممن يثبتهم الله، فلا تندم على ما سبق من معروفك إليه، ولكنك تحزن لإساءته وقد تقطع معروفك عنه، فتكون أقفلت على نفسك بابا يأتيك منه خير كثير. أو أنك لا تكترث لإساءته ولا تحزن لعدم وفائه، وتصفح وتعفو عنه وتحافظ على إيصال معروفك إليه كما كنت تفعل، وهذا هو الفوز العظيم.

❊

٥ـ الحكمة

من معاني الحكمة

الحكمة: هي الإصابة في الاعتقاد والقول والعمل، ووضع كل شيء في موضعه بإحكام وإتقان.

والحكمة: هي فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي.

والحكمة: هي الكلمة الطيبة التي تفرز بين الغث والطيب وبين الصالح والطالح وتقال في أناة وحلم ولين فتدخل الطمأنينة والسكينة والرضى في قلوب متلقيها.

والحكمة: هي الرأي الشجاع المقرون بالعدل والرحمة والفكر الثاقب الراجح في قضية تتجاذبها المواقف يمينا وشمالا ودون الاهتداء إلى الرأي الأفضل والأصوب

والأصلح، فيكون الرأي الحكيم هو الرأي الفصل في القضية.

الحكمة خلق الأنبياء

والحكمة صفة غالبة في خلق الأنبياء والرسل جميعا وكذلك في خلق الدعاة الصادقين مع الله والذين يدعون إلى الله عن بينة وعلم. وقد أمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم (ﷺ) - وكل مسلم يدعو إلى الله - أن تكون دعوته بالأسلوب الحكيم وباللطف واللين بما يؤثر فيهم لا بالزجر والتأنيب، وأن يجادل المخالفين بالطريقة التي هي أحسن من طرق المناظرة والمجادلة بالحجج والبراهين.

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥)

والله أرسل رسوله بالهدى ودين الحق وبعثه رحمة للعالمين وأنزل عليه القرآن عظين ليعلم الناس ما فيه من الحكمة والعلم والبينة ومن الموعظة.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٦٩).

وكلام الحبيب المصطفى كله حكمة لا بد من بيانه وذكره للناس كافة لتعم الفائدة منه، حتى ما يكون منه بين الرسول وزوجاته الطاهرات أمهات المؤمنين. لأنه القدوة العظيمة والأسوة الحسنة للمؤمنين جميعا في طاعته وعبادته، وفي أبوته وحنانه، وفي إحسانه مع أهله كزوج وراع لأسرته، وفي قيادته للأمة، وفي تألق صفاته وكريم خصاله وكمال سيرته كرمز للبشرية كلها.

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٤)

موقع الحكمة بين الأخلاق الحميدة

وللحكمة موقع الصدارة في الأخلاق الحميدة.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُواْ الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ٢٦٩).

لذلك نرى أن الرسول (ﷺ) أنزل الحكمة المنزلة العليّة التي تستحق وجعل من الرجل الذي آتاه الله الحكمة وكان يقضي بها ويعلمها للناس موضع حسد وجعل من الحكمة خصلة يرجى منالها من الناس أجمعين.

[لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها] (البخاري، مسلم)

والحسد هنا هو تمني مثيل النعمة لا تمني زوالها!!!

[الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها] (الترمذي، ابن ماجة).

وهذا يدل على أن الرسول (ﷺ) يحث المؤمنين جميعا على التخلق بالحكمة والسعي إليها والبحث عنها أنى كانت.

لا يليق بالمؤمن أن يكون بلا حكمة

لذلك لا يليق بمن يؤمن بكتاب الله وسنة رسوله وبالمنهج المستنبط منهما كدستور للحياة، أن يكون رجلا إمعة يعيش على هامش الحياة يردد ما يقوله الآخرون دون تمحيص وتدقيق ليرى مقاربته للكلمة الحكمة - التي أرادنا رسول الله (ﷺ) أن نتحرى ونبحث عنها وأن نأخذها ونتمسك بها كمن يجد ضالته فيها- أو أنها مجرد سفاهة وتخبط لا يليق به أن ينزلق إليها قولا أو سلوكا. فالمؤمن لا بد له من موقف متميز ورأي مستقل واضح وحكيم مستمد من المنهج الإسلامي وفي كل الأمور التي تخص حياته ومجتمعه وأمته.

الحكمة في قول لعمر الفاروق

روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال: ما أصابتني مصيبة إلا وجدت فيها ثلاث نعم: (الأولى أنها لم تكن في ديني، الثانية أنها لم تكن أعظم مما كانت، الثالثة أن الله يجازي عليها الجزاء الكبير). وهذا قول عظيم فيه من الحكمة الشيء الكثير وخاصة في التفسير والتعامل الحكيم لما يصيب الإنسان من مصائب الدهر.

❊

٦ـ الإصلاح بين الناس

خلقنا الله تعالى لنتعايش ونتعارف

لقد خلقنا الله تعالى جميعا ذكورا وإناثا في أجناس وأعراق مختلفة وجعل سبب هذا الاختلاف للتعارف والتعايش والتكامل فيما بين هذه الأعراق، وجعل ميزان التفاضل عنده سبحانه هو التقوى.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

فسنة الله في خلقه لنا هي التعارف والتعاون والتعايش بسلام، لذلك كان حريا بالمسلم أن يقضي على بذور الفرقة والخصومة كلما حاول الشيطان أن يزرعها في قلبه ضد أحد من الناس. ذلك لأن الخصومة إذا نمت وغارت جذورها وتفرعت أشواكها طغت على ثمار الإيمان في القلب.

الخصومة بين الناس من مكائد الشيطان

فالخصومة مكيدة شيطانية تقود ذويها إلى اقتراف السيئات المسقطة للمروءة

والكبائر المهلكة والموجبة للعنة. لذلك فإن القلب الذي ينام على الخصومة ويستفيق عليهاحتى يستأنس بها ولا يجد منها حرجا، فإن الحقد ينمو بين ثناياه ويعشعش في زواياه فلا يرى فيمن يخاصم إلا الرذائل والسقطات ويجرده من الفضائل والحسنات، ولا يتخيل فيه إلا الأكاذيب ولا يظن به إلا ظن السوء.

والشيطان الذي يعجز أن يجعل من الرجل العاقل عابد صنم صراحة، يأتيه من باب الاغواء فيورده إلى المهالك ويقذف به في أتون المعاصي. فيباعد بينه وبين ربه حتى يجهل عن ربه، وقد يكون جهله أشد من جهل عابد الصنم. وهو إذ يصل إلى مبتغاه فيرى الخصومة تشتد والعداوة تذكى نارها في القلوب يشعر بنشوة المنتصر الذي حقق ما يطمع إليه. لأن هذه الخصومة وهذه الشحناء ستكون ساحة تحركه ومنطلق لعبه فيقود الفريقين المتخاصمين حسب هواه ورغبته حتى يحرق كل وشائج المودة والوئام في قلوب المتخاصمين ولا يتركها إلا قاعا صفصفا لا ترى فيها إلا مراجل الحقد والكراهية والضغينة.

للإصلاح بين الناس منزلة علية

لذلك جعل الله للإصلاح بين الناس منزلة علية رفيعة لأنها تحقق وتساهم فيما أراده الله تعالى للبشر من تعايش وتعارف وتصالح. ومن درجات التقوى أن يسعى المؤمن في تحقيق ما يريده الله لعباده ويقطع عن الشيطان كل المسالك والمنافذ التي قد يبث منها غله وحقده في قلوب المؤمنين.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ١١٤).

فها هو الحق سبحانه وتعالى يبين لنا في كتابه العزيز أنه أعد لمن يصلح بين الناس أجرا عظيما، فمن يعمل ما أمر الله به من المعروف والإصلاح والتقريب بين المختصمين طلبا لرضى الله تعالى لا لشيء من أغراض الدنيا فسوف يعطيه الله ثوابا جزيلا هو الجنة.

المؤمنون أخوة متحابون

والمؤمنون في منهج الله ما هم إلا أخوة جمعتهم رابطة الإيمان، فلا ينبغي أن تكون بينهم عداوة أو شحناء أو تباغض أو تقاتل.

فإن شعر المؤمن بوجود فرقة أو بغضاء بين أخوين مؤمنين أو فريقين من المؤمنين عليه أن يبادر للإصلاح بينهما ولا يترك الخلاف والتخاصم يستفحل وهو يقف كالمتفرج الذي لا يعنيه الأمر في شئ. فهو يعلم أن سعيه في التقريب والإصلاح هو من تقوى الله وهو يفعل ذلك لتناله رحمة الله ويفوز بمرضاته ويسعد بجنته.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات: ١٠).

الإصلاح بين الناس خير من العبادة

والهدي المحمدي المبارك يذهب بعيدا في تبيان ثواب الله في الإصلاح بين الناس حتى يجعله يفوق في ثوابه على الإكثار من الصلاة - من غير الفرض - والصدقات. واذ تعلم أن الصلاة عبادة روحانية بينك وبين الله تعينك على نفسك وتقربك من الله وتوجب لك مرضاته ومغفرته ورحمته، وتعلم أن بذل الصدقات كما أمرنا الله تعالى، كمن يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه الله له. فكيف يكون ثواب فضل الإصلاح بين الناس إذا كان هذا الثواب أعظم من الإكثار من الصلاة والصدقات؟؟؟

لا ريب أنه ثواب عظيم من رب كريم رحيم.

[ألا أخبركم بخير من كثير من الصلاة والصدقة، قالوا بلى قال: إصلاح ذات البين وإياكم والبغضة فإنها هي الحالقة] (موطأ مالك).

ففي الإصلاح بين الناس إحياء لسنة من سنن الله في خلق البشر. والبغضة هي انقياد لرغبة إبليس في ايقاع العداوة والشحناء بين الناس لذلك كانت البغضة مهلكة ومستأصلة للدين كما أخبرنا الرسول الكريم (ﷺ).

الصلح والخصومة في الميزان

والصلح يقود إلى السلم والطمانينة فتهدأ النفوس وتسكن، ويلتفت الناس إلى أمور دينهم ودنياهم وإلى عمارة الأرض، فتزدهر الأرض خيرا ونماءا وعطاءا.

أما الخصومة فتقود إلى الاقتتال والفتن، وتتهيج النفوس وتثور ويحصل جور وبغي وعدوان من فئة على أخرى، أو من الفئتين على بعضهما البعض، فتتولد الأحقاد وتكبر الضغائن، ويحصل دمار وخراب في الأرض يعطل عمارتها كما يعطل مصالح العباد، فلا غرابة إذن أن يكون ثواب الإصلاح بين الناس هو هذا الثواب العظيم الذي أشار إليه رسول الله (ﷺ).

ونحن نعلم أن الكذب من أقبح الصفات وأذمها عند الله، والكذاب لا يكون إلا عدوا الله تعالى، ولكن إذا كذب المرء من أجل أن يصلح بين اثنين، فينقل عن الأول قولا كريما في حق صاحبه - وإن لم يقله - وينقل عن الثاني مثل ذلك للأول - وإن لم يقله أيضاً - فإنه لا يكون كذابا بل يكون له فضل وجزاء من يصلح بين اثنين.

[ليس بالكاذب من أصلح بين الناس فقال خيرا أو نمى خيرا] (الزرقاني).

لنحيي خلق (الإصلاح بين الناس) في قلوبنا

فما أحوجنا أن نحيي هذه الخصلة الأخلاقية المباركة في نفوسنا كأفراد

ومجتمعات في وقت تفشى التباغض والتناحر والاختلاف المذموم بين شعوبنا ومجتمعاتنا حتى وصل إلى داخل بيوتنا بين الآباء والأبناء وبين الأشقاء من بطن واحدة. وكم يرى الكثيرون منا الخصومة تشتد بين جيرانه أو بين إخوانه أو بين فئتين مؤمنتين فلا يحرك ساكنا وينام ملء جفنيه، ثم يقوم إلى صلاته ويقول أنا من المسلمين.

ونحن نعلم أن الأمة كجسد حي ينبض بالحياة، والجسد الحي يكمل بعضه بعضا، فكيف يرضى أحدنا أن يكون عضوا أشل في جسد حي؟؟ والعضو الأشل - كما نعلم - لا قيمة له ولا نفع فيه!!

وإذا كان المتثاقل أو المعرض عن الإصلاح بين الناس كعضو أشل في المجتمع. فكيف يكون الموقد للفتنة بين الناس والمذكي لنار الخصومة بينهم؟؟

إنه ملعون على لسان رسول الله (ﷺ) ويكون جزاؤه جهنم وساءت مصيرا. لأنه يقوم بعمل الشيطان ويرضى أن يكون جندا من جنوده.

على المسلمين أن ينتبهوا

لذلك كان حريا بالمسلمين أن ينتبهوا إلى هذا الأمر الجلل كلما وجدوا الخصومة والبغضاء والتناحر تشب نارها بين طائفتين من المؤمنين، فيبادروا في توهّم ولحظتهم في إطفاء هذه النار قبل أن تستفحل ويعلو لهيبها فتأتي على الأخضر واليابس، وذلك بالإصلاح والتقريب بينهم والنصح لهم. ومن لم يملك النصح فليصمت، فالسكوت خير من كلام يقود إلى مزيد من الفتنة ويقود إلى تأجيج العواطف وانفلات الأمور.

٧- العفو عن الناس

العفو عن الناس خلق كريم

العفو عن الناس خلق رفيع لا يتخلق به إلا الرجل الحر ذو القلب الكبير والعقل المنير. لأنه يتخطى غريزة الانتقام التي عرف بها ابن آدم، تلك الغريزة التي ما ينفك الشيطان يغري بها من يقع عليه حيف أو تلحقه إساءة من أحد من الناس، فيشحن الشيطان قلبه بالحقد والكراهية ضد من أساء إليه ويزين في قلبه الانتقام والبطش ويريه إياه أنه من شيم البطولة والاقدام، فيقف الرجل على مفترق من أمره لا يعرف ماذا يصنع.

هل يبطش بالمسيء ويرد له الصاع صاعين حتى يجعله عبرة لمن اعتبر؟؟

هل يقتص من المسيء بمثل فعله أو قوله ولا يزيد؟؟
أم يغفر ويعفو ويصفح عمن ظلمه وأساء بحقه ثم يحسن إليه؟؟

العفو عن الناس في الميزان الإلهي

وقد يتساءل في قرارة نفسه:
أين المنهج الإلهي المبين والهدي المحمدي الشريف مما سبق من مواقف؟؟
والجواب:

- إنه ضد البطش والظلم بلا ريب ومن يلجأ إلى ذلك إنما يرتكب إثما مبينا.
- وإنه في الوقت الذي جعل القصاص العادل حقا شرعيا من حقوق المظلوم أو حق وليه لكي يقتص من الظالم بمثل ما اعتدي عليه ولا يزيد ومن خلال القضاء، إلا أنه رغب في العفو والمغفرة.

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (الشورى: ٤٠).

نعم شرع الله العدل وهو القصاص وندب إلى الفضل وهو العفو، فمن عفَا فإن الله لا يضيع له ذلك. والله جل وعلا يبغض البادئين بالظلم والمعتدين في الانتقام.

إن المنهج الإلهي يدعو المؤمنين بوضوح لا لبس فيه إلى العفو والصفح ويبين الجزاء الكبير الذي اعده الله للمتصفين بهذا الخلق العظيم. فقد أعد سبحانه جنة عرضها السماوات والأرض للمتقين الذين يبذلون أموالهم في اليسر والعسر وفي الرخاء والشدة والذين يملكون غيظهم مع قدرتهم على الانتقام ويعفون عمن أساء إليهم أو ظلمهم والله يحب المتصفين بهذه الأخلاق الجليلة.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٤).

والله تعالى يذكر المؤمنين بأن هذه الدنيا زائلة، زائلة بمظالمها ومساوئها ومغانمها وأن الساعة آتية لا ريب ولا شك فيها، والفائز برضوان الله ورحمته وواسع جناته هو الذي يوظف كل حياته في طلب هذا الفوز الكبير، وأن العفو والصفح المقرون بالإحسان هو باب من أبواب هذا الفوز.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (الحجر: ٨٥).

العفو يعبر عن سلامة القلب

ومشهد العفو ينم عن سلامة القلب وصفائه ونقائه لمن آذاك. فهي تبدأ بكظم

الغيظ وهو أن لا تؤذي من آذاك، والعفو وهو أن تسامحه وتغفر له زلته، ثم تحسن إليه وهو أن تبادل مكان الإساءة منه إحسانا منك.

وعليك أن تدرك:

- أن العفو والصفح عمن أساء إليك وآذاك فيها كفارة لذنوبك وحط لسيئاتك ومحو لزلاتك ورفعة لدرجتك.
- ثم عليك أن تحمد الله على نعمة عظيمة أنعمها الله عليك وهو أن جعلك مظلوما ولم يجعلك ظالما.
- وعليك أن ترحم من آذاك فإنه يستحق الرحمة فإن إصراره على الأذى وجرأته على مجاهرة الله بأذية مسلم يستحق أن يرق له قلبك فترحمه وتنقذه مما هو عليه.

العفو من صفات الله تعالى

وقد أوصانا رسول الله (ﷺ) أن نتأسى بسنة الله مع خلقه فإنه جل وعلا مبالغ في العفو مع كمال قدرته على المؤاخذة ويعفو عن الجانين مع عظيم قدرته على الانتقام. وإذ نعلم أن الله تعالى عالم بكل أحوالنا ومطلع على خفايا صدورنا وترجع إليه جميع أعمالنا – ما نسر منها وما نعلن – فعلينا أن نتعلم صناعة العفو عمن يسيء الينا فهو خلق يقربنا من أبواب رحمة الله والفوز بجناته.

﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّـهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ (النساء: ١٤٩).

والله تعالى يصبر على الأذى الكبير العظيم الذي يسمعه من خلقه بأن جعلوا له ولدا وصاحبة وشركاء له في ملكه ولكن رغم ذلك يرزقهم ويعافيهم.

﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّـهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ (النساء: ١٤٩).

العفو عند الإساءة

ويوصينا الله تعالى أن لا يحلف ويقرر أهل الفضل وأصحاب الغنى واليسار أن لا يؤتوا أقاربهم أو إخوانهم في الدين من الفقراء والمساكين ما كانوا يعطونهم إياه من الإحسان لذنب ارتكبوه أو إساءة بدرت منهم بحقهم. بل عليهم أن يصفحوا عما بدر منهم من إساءة ويعفوا عما كان منهم من جرم فالله أعد لمن يعفو ويصفح عمن أساء إليهم مغفرته ورحمته، فالترصد لأخطاء الآخرين وجعلها مقياسا للإحسان والمعروف إليهم ليس من شيمة المؤمنين.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ

وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور: ٢٢).

﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الزخرف: ٨٩).

ونعلم يقينا أن أي شئ يفعله المؤمن لوجه الله تعالى فإن الله يجزيه عنه الجزاء الأوفى.

فالله تعالى يربي الصدقات، ويعز من يعفو عن الناس، ويرفع من يتواضع لله.

[ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله﴾ (أحمد، مسلم، الترمذي، الدارمي].

فالهدي النبوي لا يريد للمؤمنين أن يتربص أحدهم بالآخر فيقابلوا الجهل بالجهل والظلم بالظلم والمنع بالمنع فتلك شيم الكافرين والظالمين، والمؤمن لا يكون إلا عكس ذلك فلا يقابل الإساءة إلا بالإحسان ولا الظلم إلا بالعفو ولا المنع إلا بالبذل والعطاء.

قال رسول الله (ﷺ):

[صل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك] (السيوطي).

[أفضل الفضائل أن تصل من قطعك وتعطي من منعك وتصفح عمن شتمك] (أحمد).

للعفو ثواب عظيم

عن أنس رضي الله عنه قال: بينما رسول الله (ﷺ) جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه فقال له عمر: ما أضحكك يا رسول الله؟؟ قال عليه أفضل الصلاة والسلام: [رجلان من أمتي جثيا بين يدي الله فقال أحدهما: يا رب خذ لي مظلمتي من أخي. فقال الله تعالى: كيف تصنع بأخيك ولم يبق من حسناته شئ؟ قال: إن ذلك ليوم عظيم يحتاج الناس ليحمل من أوزارهم. فقال الله عز وجل للطالب: ارفع بصرك فانظر، فرفع فقال: يا رب حدائق من الذهب مكللة باللؤلؤ لأي نبي هذا؟ أو لأي صديق هذا؟ أو لأي شهيد هذا؟ قال رب العزة: لمن أعطى الثمن قال: يا رب ومن يملك ذلك؟ قال سبحانه وتعالى: أنت تملكه. قال: بماذا؟ قال سبحانه وتعالى: بعفوك عن أخيك. قال: يا رب إني قد عفوت عنه. قال الله عز وجل: فخذ بيد أخيك وادخل الجنة]. فقال رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام عن ذلك: [اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين المسلمين] (الحاكم، البيهقي).

وأتى رجل ابن مسعود بابن أخ له فقال: إن هذا ابن أخي وقد شرب فقال عبدالله

لقد علمت أول حد كان في الإسلام امرأة سرقت فقطعت يدها فتغير لذلك وجه الرسول (ﷺ) تغيرا شديدا ثم قال: [وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم].

وقال النبي (ﷺ): [من اعتذر إلى أخيه المسلم فلم يقبل منه كان عليه ما على صاحب المكس] (الترمذي).

وروي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن رسول الله (ﷺ) قال: [ألا أنبئكم بشراركم؟] قالوا بلى إن شئت يا رسول الله. قال: [ان شراركم من ينزل وحده ويجلد عبده ويمنع رفده] قال: [أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟] قالوا بلى إن شئت يا رسول الله. قال: ﴿الذين لا يقيلون عثرة ولا يقبلون معذرة ولا يغفرون ذنبا﴾ قال: [أفلا انبئكم بشر من ذلك؟] قالوا بلى إن شئت يا رسول الله. قال: [من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره] (أبو نعيم).

المؤمن لا يحمل الغل والحقد لأخيه

ولا يكون المؤمنون إخوانا متحابين متعاونين كما يريدهم الله إذا كان أحدهم يحمل الغل والحقد في قلبه لأخيه أو يتربص به ليرد على الإساءة بالإساءة والجهل بالجهل. ولا يتكون الجمع المؤمن الذي فيه صلاح أمر الأمة بهكذا أخلاق. لا بد أن يعود العفو والصفح الجميل ليكون الخلق الذي نتخلق به ولا بد أن نعود إلى هدي الكتاب والسنة في ذلك لكي نعيد اللحمة التي انفرطت في جسد الأمة فأصبح احدهم لا يطيق أخاه ولا يغفر له زلته مهما صغرت ذلك بأننا نسينا وصية الحبيب المصطفى (ﷺ) لنا جميعا حين قال: [لا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث] (البخاري).

٭ ٭ ٭

٨ـ الرحمة

الرحمة امتداد لصفة الرحمن

(رهافة الحس كمال في الطبيعة يجعل المرء يرق لآلام الخلق ويسعى لإزالتها، ويأسى لأخطائهم ويتمنى لهم الهدى. أما تبلد الحس وقساوة القلب فهو انحطاط في الخلق يهوي بالإنسان إلى منزلة الحيوان ويسلبه أفضل ما فيه وهو العاطفة الحية النابضة بالحب والرأفة).

والرحمة في افقها العالي وامتدادها المطلق صفة المولى تباركت أسماؤه وتقدست صفاته، ورحمة الله شملت الوجود وعمت الملكوت.

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (غافر: ٧).

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٦).

الرحمة بين الناس قبس من رحمة المولى (عزّ وجلّ)

(وما ترى في الأرض من تواد وتراحم وتعاطف وبر أثر من رحمة المولى عز وجل التي أودع جزءا منها في قلوب الخلائق. فكان أرق الناس أوفرهم نصيبا من هذه الرحمة وأرهفهم إحساسا بحياة الضعفاء. أما غلاظ الأكباد من الجبارين والمستكبرين فهم محجوبون عن رحمة الله ومن رحمته).

نعم لقد بث الله تعالى قبسا من فيض بعض صفاته في خلقه ومنها الرحمة. فالرحمة إذاً نسمة ربانية تمس شغاف القلب فتفرغه من كل أثر للقسوة والغلظة والفظاظة.

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران: ١٥٩)

بعض مظاهر الرحمة بين الناس

والنسمة هذه تجعل قلب المؤمن ساكنا مطمئنا فيضفي مما أفاء الله عليه من الرحمة على الوالدين فيخفض لهما جناح الذل من الرحمة.

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (الإسراء: ٢٤).

وعلى زوجته فيكون بينه وبينها مودة وعطف وحنو وسكينة.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢١).

وعلى ذريته فيكون لهم الأب الحنون العطوف، وعلى ذوي قرباه واليتامى والمساكين فيرحمهم ويتصدق عليهم ويطعمهم. وتمتد آثار هذه الرحمة لتصل إلى كل الناس بل تصل إلى الحيوانات أيضا.

فالمؤمن رقيق القلب لا يمكنه إيذاء أي ذي روح حتى من غير البشر إلا في حدود ما شرع الله بذلك وأحله، وترى المؤمنين يتواصون بينهم بالصبر والرحمة.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ (البلد: ١٧).

رسول الله (ﷺ) يوصينا بالتراحم

لذلك جاء قول الحبيب المصطفى (ﷺ) في الرحمة: [لا تنزع الرحمة إلا من شقي] (الترمذي، أبو داود).

وقال أيضا عليه الصلاة والسلام في الثواب العظيم الذي أعده الله لمن يشفق على المرضى فيزورهم ليخفف عنهم كربتهم وآلامهم ويمسح بيده الرحيمة وكلامه الجميل آثار ما ألم بهم من نصب وتعب: [أيما رجل يعود مريضا فإنما يخوض في الرحمة فإذا قعد عند المريض غمرته الرحمة] (أحمد).

وقال عليه الصلاة والسلام:

[لن تؤمنوا حتى ترحموا] قالوا يا رسول الله كلنا رحيم. قال: [إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ولكنها رحمة عامة] (ابن حجر العسقلاني).

[الراحمون يرحمهم الرحمٰن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم شجنة من الرحمٰن من وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله] (الترمذي).

[من لا يرحم الناس لا يرحمه الله] (البخاري).

وعن أبو الدرداء أن رجلا جاء إلى رسول الله (ﷺ) يشكو قسوة قلبه فقال له: [أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم وامسح رأسه وأطعمه من طعامك يلن قلبك وتدرك حاجتك] (المنذري).

القلب الرحيم والقلب القاسي

والرحمة هي أن يرق قلبك للمريض فتواسيه، ولذي المصيبة فتعزيه، ولذي الفاقة فتعطيه، ولمن يشكو من ضيق وكدر فتنسيه ما كدره، ولذي الحاجة فتمشي في حاجته وتقضيها له قدر استطاعتك، ولليتيم تحنو عليه وتطعمه وتؤويه، وللطفل فتضمّه إلى جناحك وتشعره بحبك وحنانك، وللشيخ تقره وتجله وتطيعه.

وهكذا يكون المؤمن!!

رحيما يتألم لألم الآخرين ويتفطر قلبه لرؤية المآسي فيسارع إلى بذل ما يمكن أن يبذله من مال وحنان ورحمة للتنفيس عن كربة المكروبين، ويقضي حوائج المحتاجين بما يكون بمقدوره من دفع مال أو عون مادي أو معنوي، أو كلام لين ومواساة.

أما الذي يجد الفقير أو المسكين في ثياب خرقة قد أضناه التعب وهدّه الجوع ومن حوله ذرية ضعافٌ يتضورون جوعا – وفي الأرض ملايين الحالات مما ذكرنا –

فلا يتحرك قلبه القاسي ولا يجود بشئ من ماله لأجلهم، بل قد لا يجود بكلمة طيبة أو نظرة حنونة حتى. وقد يكون اكتنز من المال وضم من الضياع ما يمكنه أن يشيد بها مملكة ويطعم بها شعبا بأكمله. فهل يستحق أن ينتمي إلى أمة الحبيب المصطفى (ﷺ) نسبا وعقيدة؟؟

وإذا كان قلبه خاويا من كل أثر من آثار الرحمة فهل يكون عامرا بالإيمان؟؟

وإذا كان قلبه قد قد من صخر ونزع منه الرحمة، أفلا يكون شقيا بمقتضى هدي الحبيب المصطفى (ﷺ)؟؟

الرحمة بحيوان تدخل بغيا إلى الجنة

ولعل أبلغ قول في عظمة ثواب الرحمة ما روي عن الحبيب المصطفى (ﷺ) أن بغيا من بني اسرائيل رأت كلبا يلهث من العطش فأشفقت عليه ورحمت بحاله فملأت موقها (خفها) بالماء وسقته حتى ارتوى فغفر الله لها ودخلت الجنة.

فإذا كانت امرأة بغيا يغفر لها الله ذنبها ويدخلها الجنة في سقية ماء سقتها لكلب عطشان. فماذا يكون ثواب من يرحم أبويه، ويرحم زوجته وأولاده، وأولي رحمه، واليتيم والمسكين وابن السبيل؟؟

لا شك أنه ثواب عظيم وأنها مراتب علية من رب رحيم ومليك مقتدر.

❊

٩ـ المودة

من معاني المودة

المودة هي تلك الرابطة الرقيقة والنسمة اللطيفة التي تربطك مع غيرك فتجعلكما خلّين متحابين.

والمؤمنون جميعا أخوة في الدين يتناصرون ويتعاضدون ويأمرون الناس بكل خير وبر يرضي الله، وينهونهم عن كل قبيح ومنكر يسخط الله.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٧١).

المودة بين المؤمنين

والله تعالى يريد أن يكون بين المؤمنين وذوي قرباهم تواص وتراحم، حتى عند اختلاف العقيدة، بشرط أن لا يضر ذلك بعقيدتهم وثوابتهم الإيمانية والأخلاقية. فيا ترى كيف يريد الله أن تكون المودة بين المؤمنين بعضهم مع بعض وهم شركاء في

العقيدة التي تجمع بينهم في السراء والضراء وتنسق خطاهم وتوحدها على طريق الهدي الإلهي وصراطه المستقيم؟؟

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الممتحنة: ٧).

فالمودة كما رأينا خصلة أخلاقية حميدة يريدها الله أن تكون سائدة في المجتمع المؤمن.

مظاهر المودة

والمنهج الإلهي يبدأ بالمودة برسول الله (ﷺ) وبعد ذلك بأولي الأرحام ثم بالمؤمنين جميعا.

﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُواْ الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (الأحزاب: ٦).

وعن المودة والتعاضد بين المؤمنين يقول الحبيب المصطفى (ﷺ):

[المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا] (متفق عليه).

[أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله] (أحمد)

[ما من رجلين تحابا في الله بظهر الغيب إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حبا لصاحبه] (المنذري).

وورد في حديث قدسي: [المتحابون بجلالي في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظلي].

[والذي نفسي بيده ما تواد اثنان فيفرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما] (الهيثمي).

[خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره] (الترمذي).

وعن عمر (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): [إن من عباد الله أناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله] قالوا: يا رسول الله فخبرنا من هم. قال: [هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فو الله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس]، وقرأ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢] (أبو داود).

وعن أبي هريرة عن النبي (ﷺ): [أن رجلا زار أخا له في قرية فأرصد الله تعالى له على مدرجته ملكا فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخا لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تربها؟ قال: لا، غير اني أحببته في الله. قال: فإني رسول الله إليك بأن الله أحبك كما أحببته فيه]. (مسلم).

المودة بين أولي القربى أولا

وهذا رسول الله (ﷺ) يوصينا أيضا أن نبدأ بالمودة بأقرب المقربين إلينا ثم نبتعد ونبتعد لنصل إلى كل إخوتنا في الإيمان،

فليس من الخلق الحميد أن تجافي أبويك أو إخوتك أو ذوي قرباك ثم تكون ثمة مودة بينك وبين شخص غريب لا يقرب إليك بأية صلة، فالأقربون أولى بالمعروف.

قال رسول الله (ﷺ): [بر أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك فأدناك] (النسائي، أحمد، الحاكم)

فما أرحمك من رب كريم رحيم ودود تجزل كل هذا الجزاء وتمنح كل هذا العطاء فيمن يتودد إلى عبادك تقربا إليك، مع أن الحياة مع الأصحاب والخلان في مودة ومحبة ووئام تضفي على الحياة حلة بهيجة ترتاح لها القلوب وتنشرح بها النفوس. فتكون للمودة ثمار في الحياة الدنيا تحلو بها. وثمار في الآخرة من نور الله ومحبته وفي ظل عرشه.

القاعدة الإسلامية هي الحب في الله والبغض في الله

فالمودة والمحبة التي يطلقها المنهج الإسلامي ويريدها أن تنمو وتزدهر في المجتمع المسلم، هي المودة التي تستند على الحب في الله والبغض في الله ابتداء، كقاعدة قوية تكون الأساس والمعيار لنشوء المودة بين شخصين. فإذا تحقق ذلك - فإن كل ما تعارف الناس عليه كأدوات للتقريب والمودة بين الناس - تضمحل أمام هذا الركن المكين من أركان المودة الحق. ولا تتأثر المودة بعد ذلك أو تلتفت سواء وجدت مصلحة دنيوية أو تجارة أم لم تجد، لأنها تسمو فوق المصالح والميول الشخصية الدنيوية. لذلك ما نجده خارج هذا الإطار السامي - ويظن البعض أنها مودة خالصة - سرعان ما ينفرط عقدها ويصبح خلان الأمس اعداء لدودين يكيد أحدهم بالآخر أو يشهر به بمناسبة وغير مناسبة.

❊

١٠ـ الصدق

الصدق مع الله أولا

الصدق رديف الحق. والرجل الصادق لا ينطق إلا بالصدق ولا يرضى إلا بالحق ولو على نفسه وأقرب المقربين إليه.

وأعلى درجات الصدق أن يصدق المرء مع خالقه وبارئه فيؤمن به سبحانه وتعالى ويعاهده أن لا يعبد سواه. والعبادة الصادقة الخالصة هو أن لا يكون رجاؤك وملاذك إلا الله وأن تؤمن بأنه الواهب لكل نعمك وهو الرزاق لكل رزقك وهو العليم بكل أمرك وإليه يرجع الأمر كله فلا شيء يحدث معك إلا بعلمه وقدرته وتدبيره.

وعد الله هو أصدق الوعود

ولكي يترسخ معنى الصدق في حياة وأذهان الناس قولا وسلوكا ومنهجا فإن الله تعالى وهو يذكرهم بيوم القيامة وبالجنة ونعيمها والجحيم وأهواله يشير سبحانه وتعالى إلى أن هذا هو وعد الصدق الذي وعدهم بهم ربهم - ومن أصدق من الله قيلا-؟ وذلك لكي تطمئن القلوب وتستكين وتتيقن أن ما يعدهم ربهم من جزاء وحساب يوم القيامة فإنهم ملاقوه ولا مبدل لوعد الله تعالى لهم بالثواب لمن آمن وصدق بالحسنى، والعقاب لمن كفر وكذب بالحسنى.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنعام: ١١٥).

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (الأحقاف: ١٦).

الأنبياء صادقون في حمل الأمانة

ولأن الله تعالى حق يريد الحق لعباده كما يريد الحق من عباده، كان كل أنبيائه ورسله صديقين ينقلون بصدق وأمانة إلى أقوامهم ما يوحي إليهم الله تعالى، وحاشا لله أن يتخذ كذابا نبيا ورسولا.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (مريم: ٤١).

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ (مريم: ٥٤).

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾ (يوسف: ٤٦).

الإيمان لا يستقيم إلا بالصدق

والمؤمنون الذين صدقوا برسالات أنبيائهم وصدقوا ما عاهدوا الله عليه هم

صديقون أيضاوأعد لهم ربهم أجرا عظيما.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (الحديد: ١٩) .﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (الزمر: ٣٣).

محمد (ﷺ) هو خير الصادقين

وخير الصادقين والصديقين هو الحبيب المصطفى (ﷺ) وهو المكنى بالصادق، والصدق صفة ملازمة لشخصه الكريم حتى قبل البعثة، حيث كانت قريش تنعته (بالصادق الأمين).

فما أعظم أن يتخلق المرء بأخلاق سيد الأنبياء وأشرف المرسلين فلا ينطق إلا بالحق ويصدق في كل أقواله وعهوده ومواثيقه.

الصدق أساس التربية الإيمانية

ونحن نعلم أن المنهج القرآني والتربية النبوية - التي تتلمس كل دروسها ومناهجها من كتاب الله - تربي الإنسان على كل صفات الخير، كالصدق والوفاء والأمانة مع الله في طاعاته وعباداته، وبينه وبين الناس في كل معاملاته.

وليس ثمة شك ولو للحظة أن هذا المنهج المبارك يمكن أن يربي الإنسان على الصدق مع الله وحده ويتركه لشأنه في تعاملاته مع الناس فإن شاء صدق وإن شاء كذب. كلا فهذا المنهج يبني الإنسان ككل متكامل متجانس ولا يمكن أن يتجانس الصدق مع الكذب والأمانة مع الغدر حتى عند اختلاف المتعامل معه.

والله سبحانه تعالى يحث المؤمنين جميعا أن يراقبوا الله في جميع أقوالهم وأفعالهم ليكونوا مع أهل الصدق واليقين الذين صدقوا مع ربهم نية وقولا وعملا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة: ١١٩).

المؤمنون الصادقون يفوزون بالجنة

والصادقون في الدنيا الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه والصادقون مع إخوانهم المؤمنين ومع الناس أجمعين في أقوالهم ومواثيقهم وعهودهم، ينفعهم صدقهم يوم القيامة لأنه يوم الجزاء وينالون رضوان الله لصدقهم ويرضون عن الله فيما يثيبهم ويجزيهم وذلك هو الظفر والفوز الكبير بجنات النعيم.

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (المائدة: ١١٩).

الصدق يهدي إلى البر

وعلى المسلم أن يدرب نفسه على الصدق في كل أقواله ومواقفه لأن الصدق

وسيلة للنجاة وهو السبيل الذي سلكه الأنبياء والرسل والعلماء والدعاة والأولياء الصالحون، وهو السبيل الذي يهدي إلى البر ويهدى إلى الجنة.

قال رسول الله (ﷺ): [إن الصدق يهدي إلى البر وان البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا] (البخاري، مسلم).

فما أعظم أن يحصل المرء على درجة الصديقين ويكتب عند الله صديقا، فيفضيه صدقه إلى الجنة ونعيمها. وما أخزى أن يحصل المرء على درجة الكذابين ويكتب عند الله كذابا، فيقوده كذبه إلى جهنم وأهوالها.

وصية النبي (ﷺ) فينا هي تحري الصدق في كل أمر

لذلك كان الاستمساك بالصدق في كل شأن، وتحريه في كل قضية، والرجوع إليه في كل حكم، ركناً ركيناً في خلق المسلم وسلوكه.

ومن أجل ذلك كانت وصية الرسول الكريم للمسلم أن يدع كل أمر فيه ريبة أو شك حتى لا ينحرف به المسار عن الصدق.

قال رسول الله (ﷺ): [دعْ ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة]. (النسائي والترمذي)

وقد تربى صحابة رسول الله (رضوان الله عليهم) على صدق الحديث وضبط الكلام حتى استانست به قلوبهم وطغى الصدق على أقوالهم وجميع أفعالهم.

والرسول الكريم يأمرنا أن نتحرى الصدق ولا نحيد عنه حتى في الحالات التي نرى فيها أن في قول الصدق هلاكا لنا، فحقيقة الأمر أن الصدق لا يقود إلا إلى النجاة إذا عرفنا أن النجاة الحق هي النجاة من هول يوم القيامة وعذاب النار.

قال رسول الله (ﷺ): [تحروا الصدق وإن رأيتم أن الهلكة فيه فإن فيه النجاة]. (المنذري).

نبي الله (ﷺ) يوصينا أن نزرع الصدق في قلوب أولادنا

ويعلمنا الرسول الكريم ان نغرس فضيلة الصدق في نفوس أبنائنا وبناتنا حتى يشبوا عليها، ويحذرنا من الوقوع في الكذب معهم فنكون القدوة السيئة لهم، فيشقون في حياتهم ونشقى نحن بشقائهم.

وعن عبد الله بن عامر قال: دعتني أمي يوما ورسول الله (ﷺ) قاعد في بيتنا فقالت تعال أعطيك. فقال لها (ﷺ): [ما أردت أن تعطيه؟؟] قالت: أردت أن أعطيه تمرا فقال لها: [أما أنك لو لم تعطه شيئا كتبت عليك كذبة] (أبو داود).

ومن يحرص أن يطبق الهدي النبوي الشريف في تربية أولاده فإنه ينشئهم تنشئة

تجعلهم يقدسون الصدق ويتنزهون عن الكذب.

وتحريهم الصدق في الأقوال يقودهم إلى الصدق في الأعمال، والعمل الصادق هو العمل الذي لا ريبة في أنه حق، لأنه وليد اليقين وقرين الإخلاص.

❊

١١ـ الاستقامة

طريق الاستقامة طريق إلى الجنة

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: ٣٠).

صراط الله هو الصراط المستقيم الذي ندعو الله في كل صلاة أن يهدينا إليه وهو الطريق الذي يسلكه الذين أنعم الله عليهم بالإيمان والتقوى والعمل الصالح. غير المغضوب عليهم لجهالتهم وسفاهتهم وإنكارهم للحق وغير المغضوب عليهم لشركهم بالله وجحودهم وعصيانهم.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾ (الفاتحة: ٦-٧).

طريق الاستقامة طريق لا اعوجاج فيه

والطريق إلى الله واضح المعالم والمسالك لا اعوجاج فيه يمنة ويسرة، ولا منعطفات تحجب الرؤية. فالطريق مستقيم والرؤية واضحة على امتداد الأفق.

عليك فقط أن تضع قدمك المؤمنة بثبات وقوة على أول الطريق وتنتبه إلى إشارات التحذير المبثوثة على طول الطريق، وأن تتقيد بالتعليمات المعطاة لك، وأن تتزود بالزاد والمؤونة في المحطات الكثيرة التي تراها في طريقك.

هذه محطة الصلوات الخمس في خشوع مع النوافل، وهذه محطة الصيام وتلك محطة الزكاة والصدقات، ومن بعدها محطة صلة الرحم ومن ثم محطة البر باليتامى ومحطة البر والأخلاق الحميدة... وهكذا محطة من بعد محطة فيكون طريقك ميسورا بفضل الله فقد اخترت الطريق إليه سبحانه واهتديت إلى السبل والمحطات التي تجعلك تلزم الطريق ولا تحيد عنه. وحاشا لله أن يخذل من يسلك صراطه. ولن يريك الله خوفا ولا حزنا وأنت تقطع الطريق باتجاه الدالة الرئيسية التي تطل عليك بين الحين والآخر (**الطريق إلى الجنة**).

مظاهر الاستقامة

والاستقامة هي الثبات على الإيمان وإخلاص العمل لله وأداء الفرض والامتثال

للأوامر والاجتناب عن المناهي.

والاستقامة لا تكون إلا بمجانبة أهل الظلم والطغيان والفسق والفجور ومجالس السوء وملازمة العلماء والحكماء وأهل الخير ومجالس الذكر.

وقيل إن الاستقامة على ثلاثة اضرب:

- استقامة باللسان بالمداومة على كلمة الشهادة.
- واستقامة بالجنان بالمداومة على صدق الإرادة.
- واستقامة بالنفس بالمداومة على العبادات والطاعات.

فاستقم كما أمرك الله تعالى وسر على صراطه المستقيم. فالاستقامة والسير على صراط الله يجعلك تراقب الله في جميع شأنك، وفي كل أقوالك وأفعالك، وتقول دوما القول السديد المستقيم الذي يرضاه الله لك، قولا قاصدا غير جائر، حقا غير باطل، فيوفقك الله لصالح الأعمال ويتقبلها منك خالصة نقية لوجهه تعالى.

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (هود: ١١٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأحقاف: ١٣).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (الأحزاب: ٧٠).

إن الذين يؤمنون بالله إيمانا صادقا وأخلصوا له ثم استقاموا على توحيد الله وطاعته، واستقاموا على شريعة الله في سلوكهم وأخلاقهم وأفعالهم، وثبتوا على ذلك حتى الممات، هم المؤمنون حقا والمسلمون صدقا وطريقهم يفضي إلى مرضاة الله والفوز بجنته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: ٣٠).

الاستقامة طريق الفلاح

وقد أوصانا رسول الهدى (ﷺ) بالاستقامة لأنها طريق الفلاح.

[استقيموا تفلحوا وخير أعمالكم الصلاة ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن] (أحمد، ابن ماجة، الدارمي).

وذكر لنا عليه الصلاة والسلام أمورا تعيننا على الاستقامة والمداومة عليها.

[لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل رجل الجنة لا يأمن جاره بوائقه] (الألباني).

وذلك بأن يستقر قلبه ويطمئن بالإيمان فلا يضمر إلا النية الصالحة الخالصة لوجه الله تعالى في كل عمل وفعل ينويه ثم يؤتيه. ولما كان اللسان هو الحارس وهو الناطق بما يضمره القلب وينويه ويريده لا بد أن يكون هذا الحارس أمينا صادقا نظيفا مستقيما لا ينطق إلا بالحق ولا يتفوه إلا بالصدق ولا يخرج منه إلا الطيب من الكلام.

[دع ما يريبك إلى ما لا يريبك] (النسائي، الترمذي).

[لا يبلغ المرء درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس مخافة ما بأس به] (الترمذي، ابن ماجة).

فالاستقامة تتطلب أيضا ممن يريدها ويسلك طريقها ويسعى لها سعيها أن يبتعد عن الأمور التي فيها ريبة وشك مخافة الوقوع فيما ليس بشك، ويترك ما يجد الناس من حوله أن لا بأس به مخافة أن تنزل قدمه رويدا رويدا إلى منزلق فتحيده عن جادة الصواب والسلوك المستقيم.

ثمار الأستقامة

عن أبي بكر الرازي: الإيمان في قلب المؤمن كشجرة لها سبعة أغصان.

غصن ينتهي إلى قلبه وثمرته صحة الإرادة.

وغصن إلى لسانه وثمرته صدق المقالة.

وغصن إلى رجليه وثمرته المشي إلى الجماعة.

وغصن إلى يديه وثمرته إعطاء الصدقة.

وغصن إلى عينيه وثمرته النظر إلى العبرات.

وغصن إلى جوفه وثمرته أكل الحلال.

وغصن إلى نفسه وثمرته ترك الشبهات.

فمن كانت لديه هذه الثمرات رزقه الله بالاستقامة.

❀

١٢ـ سلامة القلب

القلب هو وعاء الإيمان

القلب هو وعاء الإيمان ومنبع الأخلاق الحميدة، ومن صلح قلبه صلح جسده كله كما يقول الحبيب المصطفى (ﷺ): [ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت وطابت صلح لها الجسد وطاب، وإن سقمت وفسدت سقم الجسد كله وفسد ؛ وهي القلب] ثم اشار إلى قلبه الشريف. (أبو نعيم).

من معاني سلامة القلب

سلامة القلب تعني خلوه من الرياء والنفاق والكفر.

وسلامة القلب تعني طهارته من الغل والحقد والحسد والضغينة.

وسلامة القلب تعني سلامة النية، فتكون سليم النية صادق التوجه في كل أقوالك وافعالك فلا تمكر ولا تغدر وتحسن الظن بالناس.

سلامة القلب خلق الأنبياء

﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤)﴾ (الصافات: ٨٣-٨٤).

وهذا خليل الرحمٰن أيضاً في دعائه المشهور يطلب من ربه وخليله أن يهب له الحكمة والصدق والصلاح، فهي التي تبقى في ميزان عباد الله يوم القيامة، يوم لا ينفع مال ولا بنون، ولا ضياع ولا قصور، انما الذي ينفع هو أن يقابل العبد ربه بقلب سليم.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآَخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ (الشعراء: ٨٣-٨٩).

سلامة القلب مع العدو كيف؟؟

حتى مع عدوك في الله، فإن الله يأمرك إن مال عدوك إلى الصلح والمهادنة ملت إليه وأجبته إلى ما طلب - إن كان فيه مصلحة - وتفوض أمرك إلى الله ليكون عونا لك على السلامة. ولا تميل إلى الصلح من أجل أن تكسب وضعا أفضل لتغدر بعد ذلك، فالمنهج الإلهي وهو يريد للمسلم أن يحتاط من عدوه في الحرب والصلح إلا أنه لا يقبل منه الغدر ونكث المواثيق والعهود أبدا.

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنفال: ٦١).

سلامة القلب مع الجاهلين والسفهاء كيف؟؟

وحتى مع السفهاء والجهلة الذين يقعدون للمؤمنين كل مقعد، ويتربصون بهم الدوائر، ويخاطبونهم بما لا يليق قصد الإغاضة، فإن المؤمن لا يقول إلا خيرا، فليس من الحكمة أن ينحدر المؤمن ليرد على سفاهة السفهاء ويجادلهم بمثل ما يقولون وإلا فقد سلامة القلب.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (الفرقان: ٦٣).

القلب السليم يكون تحت نظر الله تعالى

يقول الرسول (ﷺ): [إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم] (مسلم).

فالبر والعمل الصالح ينتجان في القلب السليم النقي التقي وليس في القلب المريض المعطب الممتلئ بالشهوات والكراهية والأحقاد.

تمن الخير لكل الناس تكن سليم القلب

وسلامة القلب تفرض على المؤمن أن يسوق الخير للناس ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فإن لم يقدر يتمن الخير للناس من كل قلبه.

وكذلك تجعله لا يربط بين حظه من الحياة ومشاعره مع الناس فربما أنعم الله على غيره أضعاف ما يجده بين يديه، وربما فشل حيث نجح غيره وتخلف حيث سبقه الآخرون فلا يجد في قلبه حرجا من كل ذلك ولا يحمل حسدا أو غِلاً لأحد منهم أبدا.

عن عبد الله بن عمرو قيل: يا رسول الله أي الناس أفضل؟ قال: [كل مخموم القلب صدوق اللسان] قيل صدوق اللسان نعرفه فما مخموم القلب؟؟ قال: [هو التقي النقي لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد] (المنذري).

سلامة القلب تطرد الهموم

وليس أروح للمؤمن ولا أطرد لهمومه من أن يعيش سليم القلب مبرءا من وساوس الضغينة ومشاعر الحقد ورياح الشك وشراك سوء الظن، حتى يتطهر قلبه ويخلو من كل غل أو حسد أو بغي، فيطرب لنعم الله التي يسوقها الله لمن شاء من خلقه حتى لو تجاوزته.

درس في سلامة القلب

وهذا ابن عباس رضي الله عنه يعطينا درسا أخلاقيا في حب الخير وسلامة القلب فقد تحدث بنعمة الله عز وجل عليه في ثلاث فقال: (ما نزل غيث بأرض إلا حمدت الله وسررت بذلك وليس لي فيها شاة ولا بعير، ولا سمعت بقاض عادل إلا دعوت الله له وليس لي عنده قضية، ولا عرفت آية من كتاب الله إلا وددت أن الناس يعرفون منها ما أعرف).

سليم القلب لا يظن بالناس سوءا

وحثنا الحبيب المصطفى (ﷺ) على عدم إذكاء نار الشك في النفوس بنقل ما نظن من سوء ببعضنا البعض حين قال: [لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم سليم الصدر] (أبو داود).

القلب السليم قلب مطمئن بالرضا والقناعة

وسليم القلب يحيا راضيا عن الله وعن نصيبه في الحياة. وهو يعلم أن القلب الأسود المبتلى بالأحقاد والضغائن قلب فاسد سرعان ما يتسرب الإيمان منه فيتركه كطبل أجوف لا خير فيه.

وصاحب القلب السليم يأسى بآلام الغير، ويشتهي العافية ويريد الخير لكل الناس.

فلتكن سلامة القلب خلقا نسعى جاهدين لاكتسابه والتمرن عليه ولتكن خصلة من خصالنا التي نعرف بها وما أجملها من خصلة تثبت خطانا على منهج الله وتمنحنا حب الناس وثقتهم وتجعلنا أهلا لرضى الرحمن ومغفرته.

١٣ـ التعاون

لا بناء بلا تعاون

التعاون من الخصال الأخلاقية الحميدة التي لا يمكن بناء مجتمع متآزر متآلف متعاضد بدونه. والإسلام هو دين الجماعة ومعظم عباداته وشعائره يكون فيها ثقل الجماعة واضحا وجليا كالصلاة والزكاة والحج.

التعاون لا يكون إلا في الحق

والتعاون في ظل المنهج الإلهي لا يكون إلا في الحق ولا يكون في الباطل اطلاقا، فالمنهج هو منهج حق، والرب هو الحق سبحانه وتعالى، فكيف يتسلل الباطل إلى فكر الفرد المؤمن والجمع المؤمن.

يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿..... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ...﴾ (المائدة: ٢).

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٧١).

التعاون يبدأ من داخل الاسرة ثم يتوسع

والتعاون يبدأ من داخل الاسرة فيتعاون الزوج مع زوجه على شؤون البيت وتربية الأولاد، والاخوة يتعاونون فيما بينهم وبين والديهم وينشؤون الأسرة المتعاونة المتحابة.

ويتوسع رداء التعاون ليضم ذوي القربى ويضم الجيران ويضم أبناء الحي وأبناء

القرية والمدينة، ثم يتوسع ويتوسع ليشمل كل بلاد المسلمين وأقاليمها قاصيها ودانيها فتتعاون البلدان الإسلامية فيما بينها فيما ينفع المسلمين جميعا.

مفاهيم في التعاون.

والتعاون هو أن تمد يد العون والمساعدة لإغاثة ملهوف أو إعانة محتاج أو إفراج كربة مكروب أو نصرة مظلوم.

والتعاون أيضا هو أن تمد يدك لتشد اليد أو الأيادي الكثيرة الممدودة التي تريد أن تنجز عملا فيه خير لمجموعة المتعاونين مع بعضهم أو فيه خير لحيهم أو بلدهم وأمتهم.

والتعاون هو أن تتفق المجتمعات والبلدان الإسلامية فيما بينها للوصول إلى ما فيه خير هذه البلدان مجتمعة، أو تتعاون مجموعة من البلدان في إغاثة منكوبين من دولة إسلامية أخرى. أو أي مجتمع إنساني آخر.

وعموما كل اجتماع لمجموعة من الأفراد أو المجتمعات أو البلدان لتحقيق منفعة أو منافع مشروعة أو تحقيق نهضة مشتركة أو تكامل في خدمة محددة هو تعاون محمود يحث الإسلام عليه. وحتى لو كان التعاون مع مجتمع غير مؤمن ما دام يحقق مصلحة للناس جميعا وما دام التعاون بحد ذاته أو الفعل المنشود منه لا يحللان حراما ولا يحرمان حلالا فيما أجمع الفقهاء على تحليله أو تحريمه من وحي الكتاب والسنة.

الشخصية الايجابية هي التي تصنع التعاون

والمنهج الإسلامي يحرص دوما على بناء شخصية الفرد المسلم وصولا إلى بناء المجتمع المسلم والأمة المسلمة. لذلك فإن الكثير من آيات الكتاب المبين والأحاديث النبوية الشريفة وهي تخاطب الفرد المسلم فإن المقصود من هذا الخطاب أن يمتد ليشمل المجتمع كله والأمة كلها.

عن جابر رضي الله عنه أن النبي (ﷺ) قال: [ولينصر الرجل أخاه ظالما ومظلوما إن كان ظالما فلينهه فإنه له نصر وان كان مظلوما فلينصره] (البخاري، مسلم).

وقال عليه الصلاة والسلام:

[المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله بها كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة] (البخاري، مسلم).

[الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه] (مسلم)

لذلك كان حريا بالمسلم أن يكون عونا لإخوانه ومجتمعه سباقا في خطوته إلى

كل جهد مشترك يجلب الخير لبلده وأمته.

ولا يليق به أن يتقاعس أو يتخلف عن العمل الجماعي أبدا، فضربة فأس تخرج الماء من باطن الأرض فينتفع به الناس والدواب والطير خير من عبادة يتعبدها عابد في جوف مغارة.

هذا هو دين الله يحث على عمل الخير وعلى التعاون الإيجابي المثمر من أجل خير المجتمع وخير الأمة وخير البشرية جمعاء.

١٤- الإخاء

الإسلام دين يحض على الإخاء

ان أول بناء للمجتمع المسلم اقترن بالإخاء، فمنذ بداية الدعوة نهى رسول الله (ﷺ) عن كل ما يؤدي إلى التباغض بين المسلمين فقال: [لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا. ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة ايام] (البخاري)

وقال (ﷺ) أيضا: [المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله بها كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة] (البخاري، مسلم).

نموذج الأخاء الذي صنعه النبي (ﷺ) في المدينة المنورة

والإخاء الذي أجراه الرسول (ﷺ) بين المهاجرين والأنصار في المدينة المنورة هو نموذج لم يشهد التأريخ ولن يشهد له مثيلا. فقد كان إخاءا حقيقيا لا رياء فيه، إخاءا طوعيا محببا للنفوس ولم يكن قسريا أو مفروضا بالإكراه.

وما أعظم أن يتنازل المرء عن نصف ما يملك من أموال ومساكن وزروع ونخيل لرجل غريب لا تربطه به صلة نسب أو قربى!!.

وأية عظمة أن يخلق هذا التنازل أخوة حقيقية لا نظير لها، ودون أن يترك أي أثر للمنّ أو الأذى في سلوكه وتعامله مع من تنازل له عن نصف ما يملك.

لقد أراد الرسول (ﷺ) أن يترك للأمة كلها بل للإنسانية جمعاء درسا عمليا واقعيا عن معنى الإخاء، فلا تكون بعد ذلك ثمة فرصة تستدعي أن يأتي بعد حين من الدهر فيقول: الإخاء الذي تتكلمون عنه محض خيال ولا يمكن تطبيقه على أرض الواقع. ولكن ازاء هذه التجربة الحية فإن كل الألسن التي تريد شرًّا بهذا الدين تخرس. وما عساها تقول وهذا النموذج العظيم الصادق شاهد على الإخاء وبهذا البهاء والكمال في

شكله وفي مضمونه ومعانيه.

كان هذا الإخاء إخاءا حقيقيا أسهم في ربط المجتمع المؤمن بعضه ببعض، لأن هذا الإخاء كان عقدا نافذا ولم يكن لفظا فارغا، وكان عملا يرتبط بالدماء والأموال لا كلاما تترثر به الألسن، وليس له في الواقع من أثر. وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة وتملأ المجتمع الإسلامي الوليد بأروع الأمثلة.

نعم لم يعرف تأريخ البشر ولن يعرف حادثا جماعيا كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين بهذا الحب العظيم وبهذا البذل السخي الكريم.

الإخاء لا ينبت إلا في ظل عقيدة سامية

نعم لا يمكن أن تتحق هذه الأخوة إلا في ظل عقيدة سامية تجعل من يؤمن بها لا يضرب خطوة في الأرض إلا من أجل أن يسمع صداها في الملأ الأعلى، ومن أجل اليوم المشهود والجزاء الموعود، فتتسارع الخطى حيث يكون الثواب أجزل والأجر أثقل، وتتباطأ الخطى أمام الكسب الدنيوي المحظ، حتى تتسمر الأقدام وتتوقف وجلة خائفة عند حدود الله وإن تجاوزت قدم مرتبكة حدا من حدود الله سرعان ما ترتد إلى الوراء تائبة مستغفرة.

وقد نرى في الكثير من المجتمعات غير الإسلامية حالات إنسانية رائعة في الأخوة والصداقة فيبذل أحدهم مالا كثيرا لصاحبه، ولكنها في مجملها حالات فردية نادرة. أما الإخاء الذي أنشأه رسول الله (ﷺ) في مدينته فقد كان أمرا شمل المجتمع كله وكان مهيبا في عمق معانيه، صادقا في مراميه ومقاصده، نبيلا في آثاره ونتائجه، خالصا نقيا لوجه الله تعالى.

وما كان لعقيدة غير الإسلام أن تحقق هذه الأخوة وتنمي وشيجة الحب في الله، والإخاء في الله، وبهذا الأسلوب الإنساني الذي يفوق الوصف والخيال. وما كان لأحد غير رسول الله (ﷺ) – المعلم والقدوة – أن يتحقق على يديه هذا الإنجاز المعجز.

ونبي الهدى (ﷺ) يريدنا أن نحقق معاني الإخاء هذه في مجتمعاتنا كلها لنعيش من خلالها معاني الإخاء العظيمة التي حققها عليه الصلاة والسلام في جيل الصحابة رضوان الله تعالى عليهم.

الإخاء ليس ترفا أخلاقيا بل هو أمر إلهي

ان الله يأمرنا أن نتمسك جميعا بدين الله وكتابه المبين وأن لا نفترق عنه فنختلف في الدين كما اختلفت الأمم من قبلنا، فالله قد ألف بين قلوبنا بالإسلام وجمعنا على الإيمان فكنا بنعمة الله إخوانا متحابين في الله، وهذا اقرار بالأخوة العامة بين أبناء الأمة.

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً

فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران: ١٠٣).

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٣)

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات: ١٠)

النبي (ﷺ) ربط بين اكتمال الإيمان وتحقق الإخاء بين المسلمين

وهذا رسول الله (ﷺ) يربط بين الإيمان والإخاء بين المسلمين ربطا وثيقا نفهم منه أن إيمان العبد لايكتمل إلا أن ينظر المسلم إلى أخيه المسلم نظرة الأخ إلى أخيه فلا يحب لنفسه إلا ما يحب لأخيه المسلم ولا يكون حبه ولا بغضه للناس إلا في الله.

[لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه] (متفق عليه).

[أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله] (أحمد).

فالإخاء الحق هو إخاء العقيدة الخالصة لوجه الله لا إخاء المنافع والمصالح حتى إذا ما زالت المنافع انفرط عقد الإخاء. وليس إخاء الغايات الدنيا وتلاقي الأهواء الفاسدة. فالمسلمون لا يجتمعون إلا على الغايات السامية والأهداف النبيلة.

من مظاهر الإخاء الذي يحث عليه الإسلام

والإخاء الحق هو – وبعد أن تتوثق عرى الإخاء في العقيدة – أن يمتد إلى الإخاء الاجتماعي كذلك.

فعن النبي (ﷺ) أنه قال:

[أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور يدخله على مسلم، أو يكشف عنه كربة، أو يقضي عنه دينا، أو تطرد عنه جوعا، ولأن أمشي مع أخ في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد، (يعني مسجد المدينة) شهراً، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظه، ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رجاء يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى تتهيأ له أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام] (الألباني).

[المؤمن مرآة المؤمن والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه] (الترمذي، أبو داود).

[من رد عن عرض أخيه كان له حجابا من نور] (الترمذي).

[اذا أحب أحدكم أخاه فليخبره أنه يحبه] (الألباني).

[اذا دعا الرجل لأخيه في ظهر الغيب قال الملك ولك مثل ذلك] (مسلم).

[ما من عبدين متحابين في الله يستقبل أحدهما صاحبه فيصافحه إلا لم يفترقا حتى يغفر الله ذنوبهما] (أبو داود، الترمذي).

حقوق الإخاء

ونفهم مما سبق من هدي الحبيب المصطفى (ﷺ) أن للأخوة حقوقا واجبة وهي:

- حقوق في المال تقتضي المساهمة في السراء والضراء والمشاركة في المآل والحال والاستئثار والمواساة بالمال مع الاخوة.
- وحقوق في الإعانة بالنفس وهي قضاء الحاجات، والقيام بها قبل السؤال، وتقديمها على الحاجات الخاصة، وأن تكون حاجة أخيك عندك مثل حاجتك أنت أو أهم، وأن تغنيه عن السؤال إلى الإستعانة، ولا ترى لنفسك حقا بسبب قيامك بها بل ترى فضله عليك بقبوله سعيك في حقه وقيامك بأمره متمثلا بقول الله تعالى في المسلمين: [رحماء بينهم].
- وحقوق في اللسان وذلك بالسكوت مرة وبالنطق مرة أخرى. فأما السكوت فهو أن تسكت عن ذكر عيوبه في غيبته وحضرته، وأن تسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله، وتسكت عن أسراره التي أسرّها إليك ولا تبثها لغيره ولا تكشف منها شيئا حتى بعد القطيعة والوحشة. وأما النطق فهو أن تتودد إليه بلسانك وتتفقده في أحواله وأن تدعوه بأحب أسمائه إليه وأن تنصح له بالتعريض مرة وبالتصريح أخرى شرط أن لا تكون نصيحتك سببا في المجافاة والإيحاش بينكما.
- وحقوق في العفو والمغفرة وهي أن تستنبط لزلته سبعين عذرا فإن لم يقبله قلبك ترد اللوم على نفسك.
- وحقوق الدعاء وهي أن تدعو له في حياته ومماته بكل ما يحبه لنفسه ولأهله.
- وحقوق الوفاء والإخلاص والمقصود بالوفاء هو الثبات على الحب وإدامته إلى الموت معه، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه ومن الوفاء أن لا يتغير حالك في التواصل مع أخيك ان ارتفع شأنك وعظم جاهك وكثر مالك.
- وحقوق التكلف والتكليف وهي أن لا تكلف أخاك بما يشق عليه.

ويقول الإمام علي (رضي الله عنه) (شر الأصدقاء من تكلف لك ومن أحوجك إلى مداراة وألجأك إلى اعتذار).

ويقول الامام جعفر الصادق (رضي الله عنه): (أثقل إخواني عليّ من

يتكلف لي وأتحفظ منه، وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي).

ثمرة الإخاء هي الفوز بالجنة

والأخوة في الله ثمرتها رضوان من الله تعالى، والفوز بالجنة، ومرافقة الأنبياء والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا.

فعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال قال رسول الله (ﷺ): [ألا أخبركم برجالكم في الجنة؟ النبي في الجنة والصديق في الجنة والشهيد في الجنة والرجل يزور أخاه المسلم في ناحية المصر لا يزوره إلا لله في الجنة] (الألباني).

وعن النبي (ﷺ) أيضا انه قال: [من عاد مريضا أو زار أخا له في الله ناداه مناد بأن طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلا] (الترمذي، الألباني).

١٥ـ الإحسان

من معاني الإحسان

الإحسان بكل أشكاله العبادية والإيمانية والسلوكية لا ينمو إلا في القلب الصالح الذي يفيض بالإيمان الصادق الراسخ.

والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

والإحسان أن تتقرب إلى الله بالنوافل وصيام التطوع.

والإحسان أن تكثر من الصدقات على ذي الحاجة والسائل والمحروم.

والإحسان أن تمشي في قضاء حاجات الناس تقربا إلى الله.

والإحسان باختصار هو أن تعبر عباداتك وطاعاتك وكل أعمالك إلى خارج حدود ما فرضه الله عليك من العبادات والتكاليف وإلى خارج ما تعود عليه الناس من أعمال البر والخير باتجاه الاتقان أو الزيادة وبنفس راضية مستبشرة.

الله تعالى هو مصدر الإحسان

الله تعالى هو مصدر الإحسان ومعينه الذي لا ينضب، وكلما نراه من أوجه الإحسان في الأرض ان هو إلا قبس ضئيل جدا من فيض إحسان الباري (عز وجل) الذي يقذفه في قلوب المؤمنين الذين يحبهم الله ويحبونه.

من مظاهر إحسان الباري (عزّ وجلّ)

وانظر أنك لو أذنبت أو أخطأت في حق إنسان مثلك ثم ذهبت تعتذر له فعفا عنك وبش في وجهك وأحسن إليك، لعظمت منه هذا الخلق العالي وهذا الإحسان الجميل. ولو تكرر خطأك وتكرر إحسانه فإنه لا ريب سوف يمتلك قلبك ولا يلبث لسانك إلا أن يلهج بكل آيات الشكر والعرفان والثناء له.

ولكن من أحسن إليك وامتلك قلبك فأنه اما يرمي من وراء إحسانه العظيم هذا أن تتحقق له منفعة دنيوية من خلالك ولو بعد حين، أو أنه يرجو ثواب الله وإحسانه.

ثم هو بشر مثلك لا يملك كل أمرك.

ولكن الله تعالى وهو الذي خلقك من العدم ولم تك شيئا، وهو الذي أسبغ نعمه عليك ظاهرة وباطنة، وهو الذي يميتك ويحييك، وهو الذي يملك كل رزقك ويملك كل أمرك. فإذا عصيته ثم استغفرته يتوب عليك، ثم تعصيه الكرة تلو الكرة وتستغفره فيتوب عليك ويغفر لك ويحسن إليك.

أنت العبد الذليل الضعيف تعصي الله الخالق الجبار ثم تستغفره فيحسن إليك ويفرح بتوبتك وأوبتك.

وهذا هو المعنى السامي للإحسان الذي لا يملكه إلا الحق سبحانه وتعالى.

إن الله يحب المحسنين

والله تعالى يحب المحسنين وأعد لهم أجرا عظيما ووقاهم الخوف والحزن يوم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون.

والمحسنون يدخلون الجنة بما استسلموا وخضعوا أنفسهم لله وهم مؤمنون مصدقون متبعون لرسول الله (ﷺ)، ولهم ثواب عظيم ولا يعتريهم كدر أو حزن بل هم في نعيم مقيم.

﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ١١٢).

والله تعالى يحب عباده المحسنين الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله.

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ١٩٥).

ويغدق الله تعالى على المحسنين رحمة من عنده جزاء إحسانهم مع الناس.

﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: ٥٦).

أعد الله للمحسنين ثوابا عظيما

وكذلك فإن الله تعالى يجزي المحسنين بالإيمان والعمل الصالح في الدنيا، الحسنى في اليوم الآخر وزيادة وهي النظر إلى وجه الله الكريم.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (يونس: ٢٦).

والله تعالى يحب أن يمتد إحسان العبد إلى عباد الله ويتذكر إحسان الله إليه في ذلك.

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٧٧).

والله تعالى يجازي الإحسان بالإحسان، وإحسان العبد لا يقارن بإحسان الله تعالى وهو لا يبلغ مثل القطرة من المحيط.

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (الرحمن: ٦٠).

إن الله تعالى كتب الإحسان في كل شيء

وحتى عند احتدام المعركة بين الخير والشر، والإيمان والكفر، ويأتي جند الشيطان يريدون أن يطفئوا نور الله، وتحين ساعة المواجهة والمنازلة، فإن رسول الله (ﷺ) يدعو أصحابه أن يحسنوا القتل فلا يتركوا عدوهم مثخنا في جراحه في ساحة المعركة يتألم، فالمؤمن لا يتشفى حتى من عدوه وعدو الله.

بل تتعدى وصية الرسول الكريم (ﷺ) لتصل إلى الإحسان عند ذبح الغنم والأبل وذلك بحد الشفرة قبل الذبح ليريح الرجل ذبيحته.

[إن الله كتب الإحسان في كل شئ فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح وليحد أحدكم شفرته فليرح ذبيحته] (مسلم، الترمذي).

الإحسان بين الزوجين

والإحسان مطلوب إذاً حتى عندما تحتدم الأمور وتضطرب الأوضاع وتتصارع الأهواء بين الزوجين، فتتأزم أحوالهم وتفشل كل سبل الإصلاح والتقريب بينهما، ووصية الله لهما في هذا الوقت العصيب أن يكون الإحسان هو ما يسعيان إليه في التعامل مع هذا الموقف.

[الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ] (البقرة: ٢٢٩).

فان أمسك الرجل زوجه يكون إمساكا بالمعروف والحسنى وبالرضى والقبول، وليس بدواعي الانتقام والاذلال وغمط الحقوق، وإن سرح وطلق فبالإحسان والرضى أيضا ولا يعيرها أو يقول في حقها ما يسيء إليها أو يخدش مشاعرها.

والذي يلتمس الإحسان مع عدوه في ساحة الحرب، ويلتمسه مع زوجته التي ربما اذاقته مرارة الحياة فلم يجد بدا من الطلاق، لا بد أن يكون الإحسان غايته ورفيقه الدائم في القول والفعل والعمل، ويكون في ذلك قد عمل بمقتضى حديث رسول الله (ﷺ) حين قال: [إن الله قد كتب الإحسان في كل شيء] (أبو داود والترمذي).

❁

١٦ـ الإيثار

من معاني الإيثار

الإيثار خصلة حميدة لا يملكها إلا كرام الرجال والمحسنون منهم. والإيثار يفوق الإحسان فإنك تحسن إلى الناس من فيض ما تملك والإيثار أن تقدم الآخرين على نفسك بما أنت في حاجة إليه، والإيثار بذلك يكون أعلى غايات الكرم.

الإيثار عند الصحابة كما صوره القرآن الكريم

والمؤمنون الذين يستقر الإيمان في قلوبهم ويتمكن منهم يحبون إخوانهم المؤمنين ويفضلونهم على أنفسهم بالمال أو قضاء الحاجات ولو كانوا في غاية الحاجة إلى كل ذلك. فإيثارهم ليس عن غنى ولكنه عن حاجة وفقر وذلك غاية الإيثار.

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩).

جاء رجل إلى النبي (ﷺ) وقال له: يا نبي الله إني مجتهد – أي ليس معي ما آكل- فأرسل النبي (ﷺ) إلى بعض زوجاته هل عندكم من شيء؟؟ فكلما بعث إلى واحدة أرسلت له قائلة لا والذي بعثك بالحق ما عندنا إلا الماء! فقام النبي ونادى في أصحابه من يضيف هذا الرجل؟ فقام رجل من الانصار وقال: أنا يارسول الله وأخذه وأسرع إلى زوجته وسألها: هل عندك طعام؟ فقالت: لا إلا قوت صبياني – أي بقايا أكل لا تكفي إلا أولادهم – فقال لها: علليهم بشيء – أي انسيهم الأكل – وإذا ارادوا العشاء أنيميهم. حتى يأتي الضيف فضعي الطعام وأطفئي السراج حتى يشعر أننا نأكل فيأكل هو. فجلس وأطفؤوا النور ليشعروه أنهم يأكلون فأكل الضيف حتى شبع.

وجاءت صلاة الفجر وذهبوا ليصلوا فإذا النبي (ﷺ) يقول لهما: [عجب الله من صنيعكما بضيفيكما الليلة – أي رضي عن صنيعكما –] (مسلم).

فالذي يؤثر أخاه على نفسه رغم تعبه وجوعه وفقره وحاجته، فإن الله تعالى يرضى عنهم ويعد لهم نعيما وملكا كبيرا، وأي ثواب أبلغ من أن ينزل الله قرآنا يتلى إلى يوم القيامة من صنيع الإيثار.

درس من الدروس النبوية

وعلينا أن نقف طويلا وطويلا عند هذا الدرس ونحن نرى كيف أن النبي الخاتم (ﷺ) الذي أنزل الله على قلبه القرآن العظيم، يعيش هو وصحبه الكرام حالة الكفاف والعوز، فلا يجدون في بيوتهم ما يأكلون، ولم يمنعهم ذلك من الدفاع عن هذا الدين

والذود بالنفس دونه حتى ثبت الله اركانه وأعلى في الأرض بنيانه.

١٧ـ إكرام الضيف

من معاني كرم الضيافة في الإسلام

كرم الضيافة الحقيقي لا يفرق بين غني وفقير، وقائد وجندي، وسيد وخادم. لأنك لا تنظر إلى هذه الطبقات ولا تلتفت إلى هذه المسميات، انما ترنو بعيدا حيث تحتسب الأجر عند الله سبحانه تعالى. وكل الناس عبيد الله فإن أكرمت ضيفا فإنما تكرم عبدا من عبيده والله يجزيك عن نيتك وحسن صنيعك.

مراد الله تعالى من اكرام الضيف

والمؤمن يكرم الضيف لانه ضيف وإكرام الضيف واجب كما أوصانا الحبيب المصطفى (ﷺ). ويجب أن لا يتفاوت إكرامنا للضيف حسب مركزه ودرجة غناه، ولو فعلنا ذلك فأكرمنا الغني وصاحب الجاه غاية الكرم وأوفر السخاء، ثم قدمنا للفقير والمسكين الفضل من طعامنا، فلا نحقق بذلك ما أراده الله ورسوله لعباده المؤمنين من أن يكونوا إخوانا متساوين في المنزلة والدرجة. وأن يكون المعيار الوحيد للمفاضلة هو التقوى وهي مفاضلة أبقاها الله تعالى لذاته العلية.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

ويقول النبي (ﷺ): [شر الطعام طعام وليمة يدعى إليها الأغنياء ويحرم منها الفقراء ومن ترك الدعوة فقد عصى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم] (البخاري).

وصف الله تعالى لكرم الضيافة عند أصحاب رسول الله

وهذا قول الحق تعالى يصف المؤمنين من صحابة رسوله وصفيه من خلقه محمد (ﷺ): إنهم يطعمون الطعام مع حاجتهم له وشهوتهم إليه، ويقبلون ضيافة فقير لا يملك من طعام الدنيا شيئا، أو يتيم مات والده وهو صغير معدم الناصر والكفيل، أو أسير مقطوع الصلة بأهله وقومه، ولسان حالهم يقول إنما نطعمكم ونحسن إليكم ابتغاء مرضاة الله وطلب ثوابه لا نبتغي من وراء ضيافتكم المكانة، ولا الحمد والثناء منكم، ولا استحسان الناس لصنيعنا هذا.

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩)﴾ (الإنسان: ٨-٩).

لذلك فإن كرم الضيافة الذي يحث عليه الإسلام:

- هو الكرم الذي لا يفاضل بين غني وفقير لأن ذلك يخالف قول الله في عدم التفريق بين الناس إلا على درجة التقوى وهو أمر لا يعلم حقيقته ودرجته إلا الله تعالى كما أسلفنا.
- ولا يهمل ذوي قرباه لأن في ذلك إيحاش وقطع رحم.
- ولا يخص صديقا دون آخر ففي تخصيص أحد إيحاش وإهمال للآخر.
- كذلك من شروطه (أي كرم الضيافة) أن لا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر، بل استمالة قلوب الإخوان وإدخال السرور على قلوب المؤمنين.

مظاهر كرم الضيافة في الهدي النبوي الشريف

وهذا رسول الله (ﷺ) يربط بين الإيمان بالله واليوم الآخر وبين إكرام الضيف فيقول: [من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه] (صحيح مسلم).

وكان رسول الله (ﷺ) يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض أصحابه ويقول له: أحسن إليه (أي أكرم ضيافته) فيكون عنده اليوم واليومين فيؤثره على نفسه وعياله مع حاجتهم إلى ذلك الطعام في سد جوعتهم.

فأين من يدعي الديمقراطية وحقوق الإنسان في الشرق والغرب من هذا؟ وهل هذا دين يدعو إلى الإرهاب أم هو دين رحمة وتسامح وسمو خلق.

عدو ظالم مشرك بالله يريد أن يطفئ نور الله، ويسعى لقتل صاحب الدعوة وحاملي لوائه يقع اسيرا بين يدي المسلمين فماذا كان صنيع رسول الله معه؟؟ تعذيب وتجويع وإهانه؟ أم تكريم وإنزال منزلة الضيف؟؟ وأين الساسة وأصحاب القرار والنفوذ في البلدان الإسلامية من هذا النموذج الإسلامي الإنساني في التعامل مع الأسير والسجين؟؟ وهل يستحق سجين الرأي والمخالف لهم ان يسوموه سوء العذاب ويسحقوا كرامته وآدميته قبل أن يقتلوه؟؟

وفي قول الله تعالى في كتابه المبين حول استجارة المشركين مثل آخر ودلالات عظيمة أخرى على سمو هذا الدين وعلى كرم الأخلاق الذي يدعو إليه بانزال المشرك الذي يطلب استجارتك منزلة الضيف.

يخاطب رب العزة حبيبه المصطفى (ﷺ) والخطاب الرباني يمتد من خلال الحبيب للمؤمنين جميعا: إن استأمنك مشرك لا عهد بينك وبينه وقصدك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن فأمنه وأكرم ضيافته حتى يسمع كلام الله ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر. لأن المراد ليس النيل من الكافرين بل إقناعهم وهدايتهم حتى يعرفوا

الحق فيتبعوه، ويتركوا ما هم عليه من الضلال. فإن لم يسلم فأوصله إلى ديار قومه التي يأمن فيها على نفسه وماله من غير غدر ولا خيانة.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة: ٦).

فأي دين أعظم من الإسلام؟!! وأي أخلاق أجل وأرفع مما يدعو إليه؟

انه الدين الذي أرتضاه الحق للناس جميعا.

[وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ] (آل عمران: ٨٥).

رسول الله (ﷺ) يبشر من يكرم الضيف بالجنة

وإكرام الضيف وإطعام الطعام طريق يوصلك إلى ثواب الله ورحمته وإلى الجنة ونعيمها، فهلا اهتديت بقول الحبيب المصطفى (ﷺ) وهو يدعوك إلى أن تسلك طريق الجنة.

[يمكنكم من الجنة طيب الكلام وإطعام الطعام] (الطبراني).

[إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام وألان الكلام] (الترمذي).

وعنه أيضا (ﷺ):

[من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ؛ فليكرم ضيفه] (الألباني).

قصة نبي الله إبراهيم (عليه السلام) مع الضيف المجوسي

والضيافة واجبة لكل الناس حتى من كان لا يدين بدين الإسلام. فيحكى أن رجلا مجوسيا أتى إبراهيم (عليه السلام) فاستضافه فقال له إبراهيم (عليه السلام) لا أضيفك حتى تخرج عن دينك وتترك المجوسية فانصرف الرجل. فأوحى الله يا إبراهيم لا تضيفه حتى يخرج عن دينه؟ ما ضرك لو استضفته هذه الليلة؟ ونحن نطعمه ونسقيه سبعين سنة وهو يكفر بنا. فلما أصبح إبراهيم (عليه السلام) طلب المجوسي فوجده فحلف عليه إلا أن يضيفه. فقال له الرجل ما أعجب أمرك بالأمس طردتني واليوم تطلبني؟ فأخبره إبراهيم (عليه السلام) أن الله أوحى إليّ في أمرك كذا وكذا. فقال الرجل المجوسي أيعاملني رب الأرباب بهذه المعاملة وأنا أكفره؟ أمدد يدك أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.

من آداب الضيافة

ومن آداب اكرام الضيافة الاسراع في تقديم الطعام، وأن لا يطيل انتظار ضيفه، وأن يؤثره على نفسه بالطيب من الطعام، وإن وجد من الضيف خجلا رغبه في الأكل

وتفقده وقدم له الطعام بنفسه ولكن دون الحاح يؤدي إلى الضجر أو الحلف عليه بالأكل، فعن الإمام الحسن بن علي (رضي الله عنهما): (الطعام أهون من ان يحلف عليه).

كذلك من آداب الضيافة أن يقوم صاحب الوليمة بخدمة ضيوفه.

وحكي أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إذا جاءه ضيف قام بنفسه يخدمه فقيل له في ذلك فقال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: [إن الملائكة يقومون في منزل فيه ضيف] فأنا استحي أن أجلس والملائكة قائمون.

وكان الإمام مالك يصب الماء على يد الشافعي (رضي الله عنهما) عند أول نزوله عليه، وقال لا يروعك ما رأيت مني فخدمة الضيف فرض.

❊

١٨ـ العفة

من معاني العفة

العفة أن تكف عينك عن النظر لما لا يحل لك، وتمنع يدك أن تمتد لما ليس لك، وتحفظ فرجك إلا على ما أحل الله لك، وتقي نفسك ذل السؤال والحاجة إلى الناس.

العفة نوعان:

عفيف يتقي الله في المحرمات.

وعفيف يقي نفسه ذل السؤال.

العفة من الفواحش (اتقاء الله في المحرمات)

فالله تعالى يأمر عباده المؤمنين بالتعفف وأن يكفوا أبصارهم عن النظر إلى الأجنبيات من غير المحارم فإن النظرة تزرع في القلب شهوة، وربما أورثت ندما وحزنا طويلا. ويأمرهم أن يصونوا فروجهم عن الزنى وعن الإبداء والكشف فإن الله مطلع على أعمالهم لا تخفى عليه خافية من أحوالهم فعليهم أن يتقوا الله في السر والعلن.

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (النور: ٣٠).

العفة صفة من صفات المؤمنين

ويصف الحق سبحانه بعض صفات عباده المؤمنين فيقول عنهم إنهم أعفاء لا يرتكبون المحارم ولا يتلوثون بالمآثم قد زانوا أنفسهم عن الزنى والفواحش، ويقتصرون على ما أحل الله لهم من الزوجات.

ووضع الشهوة فيما أباح الله حلال يؤجر عليه الإنسان ومن يتعدى ما أحل الله له

فقد تعدى حدود الله وعرض نفسه لعذابه.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١)﴾ (المعارج: ٢٩-٣١).

وقد نهى الرسول الكريم (ﷺ) المؤمنين عن كل ما يفضي إلى الفواحش ويقود إليها فقال عليه الصلاة والسلام:

عن أبي شريح بن عمرو الخزاعي قال: قال رسول الله (ﷺ): [إياكم والجلوس في الصعدات فمن جلس منكم على الصعيد فليعطه حقه. قال قلنا يا رسول الله وما حقه؟ قال: غضوض البصر ورد التحية وأمر بمعروف ونهي عن منكر] (أحمد)

[العينان تزنيان والرجلان تزنيان والفرج يصدق ذلك أو يكذبه] (البخاري).

عفة النفس (الاتقاء من ذل السؤال)

(فكم من رجال يحبسهم حابس عن الضرب في الأرض للتجارة والكسب ويظنهم الذي لا يعرفهم أغنياء موسرين من شدة تعففهم، يعرف حالهم من التواضع وأثر الجهد وهم مع ذلك لا يسألون الناس شيئا).

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٧٣).

ويقول الرسول الكريم (ﷺ) في عفة النفس:

[... فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة فالشهيد وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده وعفيف متعفف ذو عيال] (أحمد، الترمذي).

ومن العفاف أن يقي المرء نفسه ذل السؤال، فالإسلام قد أعز المسلمين جميعا وجعلهم سواسية كأسنان المشط. فإن ترجل أحد من جواد العزة ونزل إلى أرض الذلة يتمرغ في التراب يكون قد نزع ثوب العزة الذي ألبسه الله إياه.

رسول الله يكره للمؤمن أن يذل نفسه

لذلك فإن الرسول (ﷺ) يذكر المسلمين جميعا بأنه خير لهم أن يقوموا بأي عمل يرتزقون منه حتى يقوا أنفسهم ذل السؤال: [لأن يحتطب أحدكم على ظهره فيقي بوجهه خير له من أن يسأل رجلا أعطاه أو منعه].

ولذلك أيضا أوصانا (ﷺ) أن تكون حاجتنا إلى الله وليس إلى أحد من الناس:

[من يستعف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله ومن سألنا شيئا فوجدناه أعطيناه وواسيناه ومن استعف عنا واستغنى فهو أحب الينا ممن سألنا].

فإذا كان التعفف وعدم السؤال من خير خلق الله أحب إلى النبي (ﷺ) من سؤاله، فكيف يكون التذلل والسؤال ممن لا يجد في قلبه شفقة أو رحمة ويكون في نفسه كبر واستعلاء بسبب ماله أو جاهه؟؟

ويقول أيضاً عليه الصلاة والسلام:

[من نزلت به حاجة وأنزلها الناس لم تسد فاقته فإن أنزلها الله أوشك الله بأجل حاضر أو رزق مؤجل]

[من أصبح حزينا على الدنيا أصبح ساخطا على ربه، ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به فإنما يشكو الله تعالى، ومن جلس إلى غني فتضعضع له لدنيا تصيبه ذهب ثلثا دينه ودخل النار]

❊

١٩ـ الإعراض عن اللغو

من معاني اللغو

اللغو، هو الكذب والشتم والهزل وما لا فائدة فيه من الأقوال.

مجالس اللغو

وكثير منا يمر بمجالس اللغو فهي ليست مخفية عن الأنظار، أو وراء حجب وجدر مشيدة. بل ان الغالب من مجالسنا اليوم هو مجالس لغو ولهو، وفي هذا بلاء وابتلاء اصيبت بهما الأمة، حتى صارت مجالسنا لا تحلو إلا باللغو الفارغ والهزل الشامت والجدال الأجوف الذي لا طائل وراءه ولا نفع فيه، وغلبت عليها الغيبة والنميمة.

الاعراض عن مجالس اللغو

والمنهج الرباني يأمرنا بالاعراض عن تلكم المجالس حتى يصبح الإعراض خلة فينا فلا نعود نطيق الجلوس فيها وإذا مررنا بها صدفة مررنا بها معرضين مكرمين أنفسنا عن احتمال البقاء أو الجلوس فيها.

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣)﴾ (المؤمنون: ١-٣).

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (الفرقان: ٧٢).

وقد نعلم أن شهادة الزور هي الشهادة الباطلة التي فيها تضييع لحقوق الناس وهي كبيرة من الكبائر التي نهانا الله ورسوله عنها، وكأنما مجالس اللغو والقمار والهزل والفحش هي تضييع لحقوق الناس - وهي كذلك فعلا - ونحن نعلم أن في هذه

المجالس يخوض القوم في أعراض الناس، ويعلو الشتم والسب، وتدار الغيبة والنميمة، وتضييع الحقوق.

والمؤمن الذي يسمع اللغو ويسمع الشتم والأذى ويسمع ساقط الكلام من الناس، حري به أن لا يلتفت إلى كل ذلك، ولا يرد على أي منهم، ويكون بفعله هذا كأنما يقول لهم جميعا: (أنا لا أريد صحبتكم ولا أريد مخالطتكم). لأن الرد عليهم يعني مشاركتهم في اللغو وهو ما على المؤمن أن يتجنبه ويعرض عنه.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ (القصص: ٥٥).

وصية النبي (ﷺ) بإمساك اللسان عن اللغو

قال رسول الله (ﷺ): [لا تسبن أحدا ولا تحقرن من المعروف شيئا وأن تكلم أخاك وأنت منبسط إليه وإياك وإسبال الإزار فإن إسباله من المخيلة وإن الله لا يحب المخيلة ارفع إزارك إلى نصف الساق فإن أبيت فإلى الكعبين وإن امرؤ شتمك بما يعلم منك فلا تشتمه بما تعلم منه فإن وبال ذلك عليه] (ابن حجر العسقلاني).

وكان النبي (ﷺ) يربي جيل الصحابة على صون اللسان والإقلال من الكلام إلا بما هو مفيد. فكثرة الكلام بدون ذكر الله يقسي القلب ويضعف الإيمان، ورب زلة لسان تجلب لصاحبها الحزن والكدر أمدا طويلا.

فإذا كانت هذه وصية النبي الأكرم بشأن إمساك اللسان وقول الحق إلا بالقدر الذي تبلغ به ما تريد من الحق!! فكيف باللغو ومجالسه ونواديه؟؟ إلا يجدر بنا أن نهرب منها هروب الطفل من الحية الرقطاء!!

يقول الرسول (ﷺ):

[طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله] (البيهقي).

[من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت] (رواه الأربعة).

[اذا أصبح الصباح فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان فتقول: اتق الله فينا فإنما نحن بك فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا] (الترمذي)

❊

٢٠- القصد في المشي وخفض الصوت

الإسلام دين الحياة

قد يقول قائل وما شأن الدين بطريقة المشي والكلام؟ أليست هذه أموراً وخصالاً شخصية؟ فما علاقتها ببناء العقيدة واكتمال الإيمان؟؟

ولكن الذي يقرأ كتاب الله بتمعن وتدبر ثم يعرج على السنة النبوية المطهرة يرى أن المنهج الإيماني المستنبط منهما يشدد على صياغة شخصية المؤمن صياغة جديدة شاملة تشمل كل حركاته وسكناته وأسلوب حياته. إنه باختصار يريد للمؤمن أن يكون الإنسان النموذج في التصرف والسلوك والمعاملة، لهذا فلا غرابة أن يتصدى المنهج الإيماني لطريقة المشي والكلام.

نماذج في الطريق

وحتى بعيدا عن هذا المنهج القويم ومن وجهة النظر الشخصية البحتة فإن أي شخص سوي يمكن أن يقرر الأسلوب الأصوب في المشي والكلام من بين النماذج التالية:

فإذا رأيت رجلا يتنطط في الطريق، مسرعا غير مبال بما يحدثه من صخب وضجيج، صوته المنكر يصم الآذان، يصطدم بهذا ويربك ذاك، ويسب آخر.

فكيف تقيم هذا السلوك الذي تراه فيه؟؟

ثم رأيت رجلا آخر يسير في الطريق وهو يظن أن كل من يسير إلى جواره أناس أقل منه شأنا وأدنى درجة، ويتفاخر عليهم بمركزه أو ماله أو ملبسه، أو حتى بدون شيء من ذلك كله، نافشا ريشه كما الطاووس، وقد اتخذ من حوله بطانة سوء من المنافقين يفتحون له الطريق وفي سره يظن أنه ما كان لمثله أن يشاركه الناس في طريق واحدة.

فكيف تقيم خلق هذا الرجل؟؟

وبالمقابل إذا رأيت رجلا يقصد في مشيته في إعتدال وهدوء، عينه على الطريق، يغض بصره، ويميط الأذى أنى وجده، إذا تكلم تكلم بصوت هادئ، لا يتدخل فيما لا يعنيه، ويسلم على من يعرف ولا يعرف.

فكيف تقيم سلوكه؟؟

بالرجوع إلى فطرتك السليمة التي فطرك الله عليها لا بد أنك تختار النموذج الثالث وتستهجن النموذجين الأول والثاني ولا ترضاهما قطعا لنفسك أو لأحد من إخوانك.

لذلك كان من الطبيعي أن نفهم اهتمام المنهج الرباني بجزئيات شخصية المؤمن لتكون الشخصية المثلى، الشخصية المستقيمة التي تتشرف بحمل هذه الأمانة العظيمة والقيم الأخلاقية الرفيعة.

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ

فَخُورٍ﴾ (لقمان: ١٨)

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان: ١٩).

الاتزان مطلوب حتى في المشي إلى العبادة

وإذا كانت الصلاة وهي عماد الدين، يدعونا رسول الله (ﷺ) أن نأتيها في سكينة ووقار وليس مسرعين لهاثى - حتى إذا كنا سنفوت بعضها - فالعبادة التي تأتيها هي الوقوف بين يدي رب العالمين في خشوع، لذلك كان لا بد أن يكون حتى سعينا إلى هذه العبادة في هدوء ووقار وخشوع، وأن نقف حيث نجد الفراغ لنكمل صفا ناقصا لا أن نتخطى رقاب الناس ونخترق الصفوف وصولا إلى الصف الأول.

[اذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون وأتوها تمشون السكينة فما أدركتم فصلوها وما فاتكم فأتموا] (متفق عليه).

فكيف يريدنا الرسول الكريم (ﷺ) أن نمشي ونتكلم في غير الصلاة والعبادة؟؟

العاقل يستنتج بدون عناء مراد رسول الله (ﷺ).

❊

٢١ـ السكينة

من معاني السكينة

السكينة هي الهدوء والطمأنينة التي تمنح المرء الشعور بالأمان. وما دام العبد في حمى الله تعالى وحفظه فلا أحد يمكنه أن يمنع عنه خيرا يريده الله له. ولا يمنع الضر أو يكشف السوء عنه إلا الله.

السكينة نعمة ربانية

وإذا تخلق المرء بالسكينة والروية في كل معاملاته وجميع شؤونه يكون الله قد أنعم عليه. لأن السكينة نعمة لاينزلها الله عز وجل إلا على عباده المؤمنين.

فالله هو الذي أنزل سكينته على نبيه نوح (عليه السلام) والفلك تجري به في موج كالجبال يوم لم يكن من عاصم من أمر الله إلا بإذنه حتى استقر به الفلك على الجودي.

وهو الذي أنزل السكينة على أبي الأنبياء إبراهيم (عليه السلام) وهو في أتون الجحيم الذي أوقدوه له ثُم ألقوه فيه، فجعل الله النار بردا وسلاما على إبراهيم.

وهو من أنزل السكينة على نبيه موسى (عليه السلام) وقد أدركه فرعون وجنده على ضفاف اليمّ فأنفلق البحر له حتى كان كل فرق كالطود العظيم حفظت موسى وأغرقت فرعون وجنوده.

وهو الذي أنزل السكينة على قلب نبيه محمد (ﷺ) فكان ثالث اثنين له ولصاحبه في الغار.

السكينة تستوطن القلوب المطمئنة بالإيمان

والسكينة تستوطن القلب الذي يفيض بالإيمان الصادق الراسخ المتوكل على الله. والقلق والضجر واليأس تصيب القلب المتلبد بغيوم الشرك والعصيان.

والله جل وعلا هو الذي جعل السكينة والطمأنينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا يقينا مع يقينهم وتصديقا مع تصديقهم برسوخ العقيدة في القلوب والتوكل على علام الغيوب.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (الفتح: ٤).

ذكر الله يجعل القلب مطمئنا ساكنا

والمؤمنون هم: الذين آمنوا وتلين وتستأنس قلوبهم بذكر الله وتوحيده ودوام الاطمئنان واستمراره. فبذكر الله تستأنس وتسكن القلوب فلا يكون معها قلق واضطراب من سوء العاقبة.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨).

السكينة تصاحب كل أفعال المؤمن

فإن تكلم المؤمن تكلم في سكينة ووقار، وإن مشى مشى في سكينة، وإن خالط الناس خالطهم بسكينة، وإن تعبد تعبد في سكينة وخشوع فالسكينة تكون له رداء وإزارا.

والعجلة هي نقيض السكينة وهي من فعل الشيطان وكيده، أما السكينة والتأني فهما هبتا الرحمن كما يقول الحبيب المصطفى (ﷺ).

[العجلة من الشيطان والتأني من الله تعالى] (الترمذي)

٢٢- الإعتدال في الأمور

الإسلام قائم على الإعتدال

الإعتدال هو الوسطية وهو الأمر الذي يقوم عليه منهج الإسلام كله.

فلا يميل المسلم كل الميل إلى إشباع غريزته ويغرق في البهيمية ويطلق العنان لشهواته كلها. فالمسلم يضبط ويتحكم في إعتدال بشهواته وفيما أحله الله له بحيث يترك للروح الفسحة الكافية القوية المهيمنة لكي تسمو بنفسه إلى المنزلة التي أرادها الله

لها، النفس المطمئنة الراضية المرضية ودون قهر أو حبس لمتطلبات الجسد المادية من التمتع بالزوج والمال والولد.

إعتدال في كل شيء.

إعتدال في الطاعات والعبادات بين قيام الليل وصيام التطوع والتقرب إلى الله بالنوافل والتأسي بسنة الحبيب المصطفى (ﷺ)، وبين إراحة البدن في ملاطفة الولد والزوج أو مجالسة صديق أو السعي وراء كسب حلال.

درس نبوي في الإعتدال

عن أنس رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت رسول الله (ﷺ) يسألون عن عبادة رسول الله (ﷺ). فلما أخبروا كأنهم تقالوها وقالوا: أين نحن من النبي (ﷺ) وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال احدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدا، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر أبدا ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا اعتزل النساء فلا أتزوج أبدا. فجاء رسول الله (ﷺ) إليهم فقال: [أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟؟ اما والله اني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني] (متفق عليه).

ساعة بساعة

عن حنظلة بن الربيع قال: لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قلت: نافق حنظلة. قال: سبحان الله ما تقول؟ قلت نكون عند رسول الله (ﷺ) يذكرنا بالجنة والنار كأنا نراها رأي العين، فإذا خرجنا من عند رسول الله (ﷺ) عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرا. قال أبو بكر: فوالله انا لنلقي مثل هذا. فانطلقت انا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله (ﷺ) فقلت: نافق حنظلة يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالجنة والنار كأنا نراها رأي العين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرا. فقال رسول الله (ﷺ): [والذي نفسي بيده أن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم. ولكن يا حنظلة ساعة بساعة، ساعة بساعة، ساعة بساعة] (مسلم).

نعم ساعة بساعة..فلربك عليك حق، ولنفسك عليك حق، ولأهلك عليك حق.

ولقد أراد بعض المغرضين أن يشوهوا المعاني الراقية لهذا الهدي النبوي الشريف فيقولون: (ساعة لقلبك وساعة لربك) ويقصدون بذلك: (ساعة طاعة وساعة مجون)!!!!

وهذا سفه ما بعده سفه!

الإعتدال في تربية الأولاد

إعتدال في تربية الأولاد بين الحنو والعطف واللين وتوفير الحاجات المادية، بالحكمة والموعظة والنصيحة من غير ضعف، وبين التحكم والتوجيه والتأديب من غير عنف أو إسراف.

الإعتدال في الإقبال على الدنيا

إعتدال في الكسب والعمل فلا إقبال على الدنيا إقبال الجاهلين بحيث تكون هي مبلغ العلم ومنتهى المراد، ولا إدبار عنها فيكون المرء عالة على أهله ومجتمعه ويصبح طاقة معطلة مشلولة لا خير فيها.

الإعتدال بين الإسراف والتبذير وبين البخل والتقتير

إعتدال في الإنفاق في ما أحل الله فلا تبذير ولا تقتير.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: ٦٧).

هذا وصف من أوصاف عباد الرحمٰن. والمعنى أنهم ليسوا مبذرين في إنفاقهم في شؤون الحياة كلها ولا مقصرين ومضيعين للحقوق بحيث يصبحون بخلاء، ولكن إنفاقهم وسط معتدل بين الإسراف والتقتير كقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ (الإسراء: ٢٩)

وقال العلماء لو أنفق المرء مثل الجبل ذهبا في طاعة الله وفي سبيله ما كان سرفا، ولو أنفق صاعا في معصية الله كان سرفا.

إعتدال في الزينة

وإعتدال في الزينة والملبس بين قصد ستر العورة والتنعم بالزينة التي أحلها الله لعباده وبين الإسراف الشديد ولبس الخيلاء والتكبر.

إعتدال في المأكل والمشرب

وإعتدال في الأكل والشرب مما أحل الله ومن الكسب الحلال، وبما يقيم أودك ويشد صلبك ويودي بعطشك، وبنية التقوي على أداء الطاعات. وبين الإسراف المذموم في المطعم والمشرب لحد التخمة المثقلة للبدن التي تقود إلى الكسل في الطاعات وتنتهي بالمعصية، بكب الفضل من نعمة الله في مكب النفايات أو تنتهي بالمرض والسقم.

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٧٧).

وتحريم الحلال كتحليل الحرام جريمة منكرة في الإسلام..

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (المائدة: ٨٧).

وفي هذا المعنى يقول الحبيب المصطفى (ﷺ): [كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير سرف ولا مخيلة] (النسائي وأبو داود).

إعتدال في العلاقات

وحتى في علاقاتك على الصعيد الشخصي، عليك أن تكون معتدلا بين الإسراف في الحب بلا حدود لصديقك وحبيبك، وبين البغض الشديد والكراهية القاتمة لعدوك. فقد تتبدل الأحوال فينقلب حبيبك عدوا لك ويصبح عدوك صديقا لك. وفي هذا يقول النبي (ﷺ):

[أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما، وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما] (الترمذي).

❊

٢٣- شكر النعمة

الشكر على نعمة العقل والإدراك

شكر النعمة خصلة حميدة يتصف بها ذوو القلوب الكبيرة والعقول النيرة، فالإنسان الذي يبلغ به العمر إلى أن يدرك الحقائق الثابتة في الحياة ويتمعن في كبرى اليقينيات الكونية. ويرى آيات الخالق في نفسه وما بث الله فيه من نعم بأن جعله ابتداء بشرا سويا وزينه بالعقل ليميز بين الخبيث والطيب وبين ما يضره وما ينفعه. ويرسم لنفسه بعد ذلك طريقا للحياة موصولة بأبواب السماء.

نعم الله لا تعد ولا تحصى

ثم يدرك أن نعم الله عليه لا تعد ولا تحصى...

ففي كل خلية تنبض بالحياة في جسده نعمة، وفي كل شهيق وزفير نعمة، وفي كل ضربة قلب في صدره نعمة، وفي كل تفاعل كيميائي في دماغه نعمة، وفي كل لحظة أبصار ولحظة سمع نعمة، ومع كل صوت يتشكل في هيئة أحرف وكلمات ينطق بها نعمة.

﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم: ٣٤).

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾

(لقمان: ٢)

وكلما نبت جسمه – من حلال – مثقال ذرة نعمة، وفي كل مثقال ذرة من خبيث يضر بقاؤه في جسمه فيطرحه نعمة.

وفي كل لقمة طعام أو شربة ماء تسد جوعته وتذهب عطشته نعمة.

والولد الذي يهبه الله تعالى له - ذكرا كان أو انثى – نعمة. وفي كل لحظة حنو ورحمة يشعرها في قلبه نعمة.

حقا [وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها].

أفلا تستحق كل هذه النعم منا أن نشكر واهب هذه النعم؟؟

الشكر على نعمة الإسلام

ثم يرى النعمة العظيمة التي أنعمها الله عليه أن هداه للإسلام دينا حنيفا ومنهجا قويما فيه الخير كله. من تمسك به وفق هدي النبي (ﷺ) وجيل الصحابة (رضوان الله عليهم) فاز برضى الله ورحمته ومغفرته وواسع جناته.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الحجرات: ١٧)

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٣١)

رسول الله (ﷺ) هو النموذج القدوة للشاكرين

وخير من عرف قدر هذه النعم هو خير البشر سيدنا وحبيبنا محمد (ﷺ)، الذي شرفه الله بالنبوة الخاتمة، وأنزل على قلبه الشريف آياته وقرآنه، فأدى الأمانة ونصح الأمة وكان خير معلم ومنقذ أرسله الله للبشرية جمعاء.

كان عليه الصلاة والسلام يقف في حضرة ربه في جوف الليالي قائما وراكعا وساجدا حتى تتورم قدماه الشريفتان فتناديه إحدى زوجاته (أمهات المؤمنين): أن هون عليك يا رسول الله اليس الله قد غفر لك من ذنبك ما تقدم وما تأخر؟؟ فيأتي الرد النبوي في جوف الليل رخيما هادئا جليلا يشعرك بعظمته وعظمة من يقف في حضرته: أفلا أكون عبدا شكورا؟؟

كيف نشكر الله على نعمه؟

وشكر النعمة ليس المراد بها ذكرها باللسان فقط! ولكن حفظها من الكفران وشكرها بمعرفة حقها والاعتراف بها وإطاعة منعمها.

فحقيقة الشكر أن لا تستعين بنعمة الله على معصيته.

وبطر النعمة إنكار فضل منعمها والاغترار بها والتعاظم على الناس بما أوتي، ثم

الاستعانة بها على معصية الله تعالى.

قواعد الشكر

وقال بعض العلماء:

الشكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه، وعدم استعمالها فيما يكره.

وقالوا أن شكر العبد لا يصل إلى درجة الكمال إلا بالالتزام بالقواعد الخمس كلها وإن نقصت قاعدة منها فإن النقص يكون في بنيان الشكر وهو ما لا يليق مع الخالق جل وعلا.

كيف فهم سيدنا داود (عليه السلام) معنى الشكر

قال داود عليه السلام:

[يا رب كيف أشكرك وشكري لك هو نعمة علي من عندك تستوجب الشكر. فأوحى إليه الله تعالى: الآن شكرتني يا داود].

وفي هذه المناجاة معانٍ عظيمة جدا.

نعم ما أجلها من نعمة أن ينزل الله على قلبك السكينة والطمأنينة ويثبتك على الهداية والإيمان، فتحس بنعمة عبوديتك لله وحده، فتؤمن به ربا لطيفا بأمرك، رزاقا لرزقك، غفارا لذنبك، ستارا لعيبك، منعما عليك. هاديا لك إلى الصراط المستقيم، مخرجا إياك من ظلمات الشك إلى نور اليقين. فما أعظمها من نعمة أن يهديك أن تشكر نعمه التي أنعمها عليك والتي تمس وجودك كله.

البعض يحصر نعم الله في الفقر والغنى

أفيليق أن تحصر نعم الله في المطعم والمشرب والملبس وقوت الأبدان فقط؟؟

قد نرى كثيرا من الناس من يشكون ضيق اليد، إذا تذمر من حاله أمامك فقلت له: (أشكر الله يا أخي واذكر نعمه عليك). فيقول لك: وماذا أعطاني لأشكره؟ ليشكره فلان من الناس – ويذكر اسم غني تعرفه – الذي احتار ماذا يصنع بكل المال الذي بين يديه).

فهل فهم هذا الجاهل معنى العبودية لله؟

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج: ١١).

شكر النعمة أمر إلهي

ذكر النعمة وشكر الله عليها أمر أوجبه الله تعالى علينا.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ

وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (فاطر: ٣).

﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (الزخرف: ١٣).

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى: ١١).

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (النحل: ١١٤).

﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل: ٤٠).

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥)﴾ (يس: ٣٣-٣٥).

وكان رسول الله (ﷺ) يدعو دعاء الحمد والشكر كل صباح ومساء: [اللهم ما أصبح / أمسى بي من نعمة أو باحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر].

من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله

رسول الله يوصينا - وبعد أن نقر بفضل الله ونشكره على ما أنعم علينا من نعمه ظاهرة وباطنة - أن نفشي هذا الخلق بيننا فنشكر من يعمل فينا معروفا أو يقدم لنا نصحا أو يهبنا عطاء ونرجع ذلك أيضا إلى فضل الله علينا بأن سخر لنا ذلك. وشكرنا للناس هو بالثناء على ما فعلوه فينا والدعاء لهم بالخير وأن يزيدهم الله من فضله.

قال رسول الله (ﷺ):

[من أعطي عطاء فوجد فليجز به ومن لم يجد فليثن فإن من أثنى فقد شكر ومن كتم فقد أنكر] (الترمذي، أبو دواد).

[من صنع إليه معروفا فقال لفاعله: جزاك الله خيرا فقد أبلغ في الثناء] (الترمذي)

[من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر، وتركه كفر، والجماعة رحمة والفرقة عذاب] (الألباني).

❊

٢٤- الصبر

من معاني الصبر

الصبر هو الرضى والقبول بما يصيب المرء من أذى في نفسه وولده وماله وما

يصيبه من وصب ونصب وهم وحزن ويحتسب أجره في ذلك عند الله.

والصبر هو حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش.

والصبر فضيلة يحتاج إليها المسلم في دينه ودنياه وعلى المسلم أن يوطن نفسه على احتمال المكاره ومواجهة الأعباء.

الصبر يعتمد على حقيقتين

الصبر يعتمد على حقيقتين:

- إن الله تعالى جعل الحياة الدنيا دار عمل وامتحان ثم ارتحال ولم يجعلها دار جزاء وبقاء.
- إن الإيمان صلة بين العبد وربه لذلك كان لا بد أن يخضع هذا الإيمان للامتحان بالابتلاء حتى يتكشف طيب معدنه أو زيفه.

أنواع الصبر

الصبر أنواع. صبر على الطاعة، وصبر على المعصية، وصبر على النوازل والمصائب.

الصبر على الطاعة

فالصبر على الطاعة هو المحافظة عليها دواما، وبرعايتها إخلاصا، وبتحسينها علما.

واساسه أن أركان الإسلام وفرائضه تحتاج عند القيام بها إلى تحمل ومعاناة.

والصبر على الطاعة هو دون الصبر على المعصية لأن اكثر الطاعات تكون محببة للنفوس الفاضلة.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا..﴾ (طه: ١٣٢).

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة: ٤٥).

وعشرة المؤمنين والإبقاء على مودتهم والاغضاء عن هفواتهم خصال تعتمد على الصبر الجميل أيضا.

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (الكهف: ٢٨).

الصبر على المعاصي:

الصبر على المعاصي هو عنصر المقاومة للمغويات التي بثت في طريق الناس وزينت لهم اقتراف المآثم المحضورة.

وعلى المؤمن أن يوطن نفسه على هذا الصبر لسببين الأول الخوف من لحوق

الوعيد المترتب عليها، والثاني الحياء من الرب تبارك وتعالى أن يستعان على معاصيه بنعمه. والصبر على المعصية هو أشد أنواع الصبر وأعلاه مرتبة لصعوبة مخالفة هوى النفس وحملها على غير طبعها.

يقول سيدنا محمد (ﷺ): [حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات] (مسلم).

الصبر على المصائب

أما الصبر على المصائب التي تصيب المؤمن في نفسه وماله، أو منزلته، أو أهله، وكلها عوارض متوقعة ولا يمكن أن تخلو حياة امرؤ منها، فهو أهون أنواع الصبر لأنه يأتي به البر والفاجر اختيارا واضطرارا.

مقامات الصبر

وقال بعض العارفين الصبر على ثلاثة مقامات: الأولى ترك الشكوى ويسمى الصبر الجميل وهي درجة التائبين الثانية، الرضا بالمقدور وهي درجة الزاهدين، الثالثة المحبة بما يصنع به المولى وهي درجة الصدّيقين.

نماذج من صبر الأنبياء

وقد ابتلي كل أنبياء الله ورسله في أنفسهم وأهليهم وأقوامهم. فاتهموا بالسحر والكذب والافتراء، وأهينوا وعذبوا، وابتلوا بالمرض والألم، وابتلوا بفقدان الولد، كما ابتلو بالإنكار لرسالاتهم أو الإعراض عنها. فصبروا وأخلصوا ما عاهدوا الله عليه وما بدلوا تبديلا.

فالصبر خلق الأنبياء ولكل نبي قصص مع الصبر نأخذ منها نماذج ثلاث.

- **النموذج الأول: قصة سيدنا إبراهيم مع ولده إسماعيل (عليهما السلام).**

عندما أمر سيدنا إبراهيم (عليه السلام) في المنام أن يذبح ابنه اسماعيل. فكيف صبر على طاعة الله فيما ابتلاه به؟؟

الابتلاء الأول أن يطيع أمر الله بذبح ابنه إسماعيل وهو أقرب الناس إلى قلبه وكان صبيا جميلا معتدل القامة، حسن الصورة، لطيف السيرة. ولم يكن ثمة شك أن خليل الرحمٰن لا يشق عليه أن يختار حب الله وجواره على حب ابنه.

والابتلاء الثاني أن يذبحه بيده.

ولعل ما كان يخشاه سيدنا إبراهيم هو أن يشق الأمر على إسماعيل وهو لا يزال غضا قد لا يفهم مراد الله في هذا الابتلاء ولا يصبر على الذبح. ولكنه وهو يسمع كلام أبيه: (أي بني ما الذي ترى هل تصبر لأمر الله أو تسأل العفو قبل الفعل؟). فكان جواب إسماعيل: (يا أبت افعل ما أمرت به من الذبح). ثم قال لأبيه: (يا أبت أوصيك أن تربط

يدي ورجلي كيلا أضطرب فأوذيك، وأن تجعل وجهي على الأرض كيلا تنظر إلى وجهي فترحمني وتضعف قوتك فلا تقدر على ذبحي، وأن تسلم على أمي وقل لها أن تصبر على أمر الله). فقال إبراهيم (عليه السلام): (نعم العون أنت يا ولدي على أمر الله تعالى). ولما استسلما وانقادا لأمر الله – صابرين محتسبين – وصرعه كالشاة للذبح ووضع السكين على حلق ولده وعالجه بشدة وقوة فلم يقدر على قطعه. ثم قال اسماعيل لأبيه: (يا أبت حل يدي ورجلي حتى لا يراني الله في اطاعة أمره مكرها، وضع السكين على عنقي لتعلم الملائكة أن ابن الخليل مطيع لله وأمره بالاختيار). فمد يديه ورجليه بلا وثاق، فأمر سيدنا إبراهيم السكين بجميع قوته فانقلب السكين ولم يقطع بإذن الله تعالى. وجاءه النداء الإلهي: إنّك يا إبراهيم قد صدقت فيما رأيت من الرؤيا فظهر لعبادي أنك اخترت رضائي على حب ولدك وكنت في ذلك من المحسنين المطيعين لأمري، وإن أمرك بذبح ولدك هو الاختيار الظاهر والابتلاء البين والمحنة الصعبة التي لا شيء اصعب منها فيتميز المخلص من غيره. وفداه الله بكبش عظيم من الجنة.

فأي صبر أشد وأعظم من صبر سيدنا إبراهيم عليه السلام؟؟

وأي صبر أعظم وأجل من صبر سيدنا إسماعيل عليه السلام؟؟

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧)﴾ (الصافات: ٩٩-١٠٧).

- **النموذج الثاني: قصة سيدنا أيوب.**

ولد سيدنا أيوب من سلالة نبوة طاهرة وكان رجلا عاقلا نظيفا حليما حكيما، وقد ورث الكثير من الأموال، ومن الإبل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير ومن الزراعة. وتزوج من رحمة بنت أفرائيم بن يوسف عليه السلام، ورزقه الله منها اثني عشر بطنا في كل بطن ذكر وأنثى. ثم بعثه الله نبيا في قومه، وقد أعطاه الله تعالى من حسن الخلق والرفق ما لم يخالفه أحد بالتكذيب والإنكار لشرفه وشرف آبائه وأمهاته. فشرع لهم الشرائع وبنى لهم المساجد، وكانت له موائد يضعها للفقراء والمساكين، وكان يأمر وكلاءه وأمناءه أن لا يمنعوا من زرعه وثماره، وكانت مواشيه تتوأم، ولم

يكن يفرح بشيء من ذلك، وكان قلبه لايغفل عن شكر نعماء الله ولا لسانه عن ذكر مولاه. فحسد إبليس وقال: أيوب قد ذهب بالدنيا والآخرة، وأراد ان يفسد عليه إحدى الدارين أو كلتيهما. ورأى أن سلطه الله عليه فيقدر أن ينسيه ذكر الله ويشغله عن عبادته.

وكان الابتلاء الأول أن احترقت كل أمواله حتى صارت رمادا، فصبر على أمر الله وقال: الحمد لله الذي أعطاني ثم أخذ مني.

وكان الابتلاء الثاني أن مات أولاده وبناته في ساعة واحدة حين تهدمت الدار عليهم جميعا، فصبر وقال: الحمد لله الذي أعطاني ثم أخذ مني. إنما الأولاد والأموال فتنة ولعلي أفرغ لعبادة ربي بعد المال والولد.

وكان الابتلاء الثالث أن أصيب بمرض أحاط به من رأسه إلى قدمه، وسال منه الصديد، ووقع فيه الدود وتفرق عنه أهله وأقرباؤه وأصدقاؤه، إلا زوجته رحمة وصارت تخدمه وتقوم عليه ليلا ونهارا، حتى جاءت نسوة من الجيران وأمرنها أن تخرج أيوب من جوارهم لئلا يسري مرض أيوب إلى أولادهم. فحملت أيوب على ظهرها إلى خرابة قرب قرية فجاءها أهل القرية ولما نظروا إلى حال أيوب أمروها أن تحمل زوجها بعيدا عن قريتهم والا أرسلوا عليه كلابهم لتأكله. فذهبت به بعيدا على مفترق طرق، وكانت تعمل لأهل القرى لقاء خبز فتطعم أيوب منه. وبقي أيوب في مرضه ثماني عشرة سنة وقالت له رحمة يوما: انت نبي كريم عند ربك لو دعوت الله تعالى أن يشفيك. فقال أيوب عليه السلام: لقد عشت في الرخاء ثمانين سنة وإني لأستحي من الله أن أدعوه وما بلغت مدة بلائي مدة رخائي.

ولما شعر أن المرض سيصل إلى قلبه ولسانه فلا يقدر أن يعبد الله بقلبه ويذكره بلسانه، اشتكى إلى الله شكوى الخائف من انقطاع الصلة به وليس شكوى الساخط من البلاء. فأبرأه الله من سقمه ومرضه ورزقه المال والأولاد أضعافا مضاعفة.

ما أشد صبرك يا نبي الله. كنت نعم العبد الأواه الحليم الصبور. فذاع صبرك في الآفاق وفي الملأ الأعلى.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤)﴾ (ص: ٤١-٤٤)

- **النموذج الثالث: من سيرة الحبيب المصطفى (ﷺ):**

تكاد تكون حياة الحبيب الكريم والرسول الخاتم (ﷺ) كلها دروس في الصبر

والتحمل من نشأته يتيما فقد الأب، ومن بعده فقد الأم، ثم انتقاله إلى كنف الجد، ومن بعده إلى كنف عمه. وكل هذه المحطات من فقدان الأحبة لم تزده إلا قوة وصلابة وحكمة. وبعد نزول الوحي واشهار الدعوة بدأت رحلته عليه أفضل السلام ورحلة أصحابه رضوان الله عليهم مع الأذى المعنوي والجسدي من قومه.

وأي اذى أبلغ أن تمشي وراءه شرذمة من أهل قريش وكلما عرض نفسه على قبيلة وافدة على مكة في موسم الحج انبرى الأشرار من خلفه يقولون: لا تسمعوا له انه ساحر كذاب؟؟

وأي اذى أشد من وضع أحشاء حيوان بين كتفيه الشريفتين وهو ساجد بين يدي ربه؟؟

ويمتد الأذى وهو يرى أخلص أصحابه يعذبون ويضربون ويقتلون تحت ناظريه وهو لا يملك لهم إلا الدعاء.

ويمتد الأذى إلى حصاره وأصحابه في شعبة من شعاب مكة لثلاث سنوات ويمنع البيع والشراء معهم فيبلغ الوهن والضعف والهزال في أبدانهم أيما مبلغ.

ويمتد ويمتد الأذى فيضرب بالحجارة والقذارة في الطائف ويركن إلى جدار هناك والدماء تنزف من قدميه الشريفتين صابرا لا يريد إلا رضى ربه.

ويمتد الأذى فيطعن في عرضه وأهله، وتروج المدينة بشائعة الإفك التي اختلقها المنافقون لإيصال الأذى إلى قلب رسول الله (ﷺ)، إلى أن نزلت البراءة من الله تعالى جلية واضحة في قرآن يتلى إلى يوم القيامة ولتسود وجوه من اختلق الإفك ومن تولى أمرها.

الصبر امتحان على قوة الإيمان

الصبر امتحان على قوة إيمان المرء. وعندما يبتليك الله بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، أو يخطف الموت أحب الناس من بين يديك. فماذا يكون ردك عند الصدمة الأولى؟؟

هل هو الصبر والرضا والقبول واحتساب الأجر عند الله؟؟

أم هو الجزع والخوف واليأس والقنوط والجحود؟؟

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٥).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ٢٠٠).

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (هود: ١١).

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ (الفرقان: ٧٥).

وعندما يشتد الكرب وتدلهم الخطوب فإن وصية الله للمؤمنين هي الاستعانة بالصبر والصلاة على كل كرب وبلاء ومصيبة.

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة: ٤٦).

ثواب الصبر وثواب التواصي به

ويدعو الله عباده المؤمين أن يتواصوا بالصبر على الشدائد والمصائب، وعلى فعل الطاعات وترك المحرمات، وحكم الحق سبحانه بالخسار على جميع الناس إلا من أتى بهذه الأشياء الأربعة: الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر. فيكمل المرء نفسه بالإيمان والعمل الصالح ويكمل غيره بالنصح والإرشاد فيكون جمع بين حق الله وحق العباد.

﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ (العصر: ١-٣).

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٦)

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)﴾ (الرعد: ٢٣-٢٤).

﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصلت: ٣٥).

والصبر لا يكون إلا بقوة الإيمان بالله والتوكل عليه والاطمئنان بقضاءه وقدره. فالله يحب عباده الصابرين وقد دعى الله أنبياءه ورسله والمؤمنين جميعا بالصبر ووعد أن يجزيهم بما صبروا الجزاء الأوفى.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٦)

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (الأحقاف: ٣٥).

وها هو رسول الله (ﷺ) يقول:

[المسلم إذا كان مخالطا الناس ويصبر على أذاهم خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم] (الترمذي).

[ما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر] (رواه الخمسة)

ذلك أن الصبر على البلاء هو كفارة للذنوب حتى يلقى المؤمن ربه خالي الذنب.

[ما يزال البلاء بالمؤمن في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة]

(الترمذي).

[ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله من خطاياه] (البخاري، مسلم).

وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال قال رسول الله (ﷺ): [من أصيب بمصيبة في ماله أو جسده فكتمها ولم يشكها إلى الناس كان حقا على الله أن يغفر له] (المنذري).

[الصبر عند الصدمة الأولى] (البخاري، مسلم).

عن أم سلمة قالت سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: [ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله (انا لله وانا إليه راجعون. اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها) إلا خلف الله له خيرا منها] (مسلم).

ويقول عليه الصلاة والسلام [عجبا لأمر المؤمن!! ان أمره كله له خير وليس ذلك إلا المؤمن. إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له] (مسلم).

(فعند ملك المشاعر عند الحدث الجاثم، وعند الفرح الغامر، يستحق العبد مرتبة ثبات الإيمان ومنزلة رسوخه في القلب).

وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام:

[إن عظم الجزاء من عظم البلاء وإن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط] (الترمذي).

[يود اهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم في الدنيا قرضت بالمقاريض] (الألباني).

وسئل رسول الله (ﷺ) أي الناس أشد بلاء؟ قال: [الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الناس على قدر دينهم فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه، ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه، وإن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشي على الأرض ما عليه من خطيئة] (الألباني).

اقوال في الصبر

قال بعض الحكماء: العاقل يتعزى ويصبر بما نزل به من مكروه بأمرين. أحدهما: السرور بما بقي له والآخر رجاء الفرج مما نزل به.

والجاهل يجزع في محنته بأمرين: أحدهما استكثار ما أوي إليه والآخر تخوفه مما هو أشد منه.

ويقول الامام علي (كرم الله وجهه):

(ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا قطع الرأس بار الجسم. ثم رفع صوته فقال: لا إيمان لمن لا صبر له).

(الصبر مطية لا تكبوا).

وقال الامام حسن بن علي (رضي الله عنهما): (الصبر كنز من كنوز الخير لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده).

وعن عمر بن عبد العزيز أنه قال: (ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاضه مكانها الصبر إلا كان ما عوضه خير مما انتزعه).

ويقول الشيخ محمد الغزالي (رحمه الله) في كتابه (خلق المسلم): (إن الإنسان إذا أحرجه أمر أو صدمته خيبة أو نزلت به كارثة، ضاقت عليه الأرض بما رحبت وضاقت عليه الأيام مهما امتدت، ويقوم له من طبعه الجزوع ما يبغض له الصبر ويجعله في حلقه كريه المذاق، لذلك كان الصبر من معالم العظمة وشارات الكمال.

ولكن... ثمة أمر يجب أن لا يغيب عن بال أحد. وهو أن الإسلام لا يمجد الآلام لذاتها ويكرم الأوجاع والأوصاب، انما يمجد الإسلام لأهل البلوى وأصحاب المتاعب والمحن رباطة جأشهم وحسن يقينهم وقوة ايمانهم.

ومن الخلط أيضا.. أن يحسب المسلم تلاحق الأذى عليه آية على نسيان الله له وإبعاده عن رحمته، فكثيرا ما تكون الآلآم طهورا يسوقه القدر إلى المؤمنين لتصادر ما تستهويه ألبابهم من متع الدنيا فلا تطول خدعتهم بها أو ركونهم إليها).

عروة بن الزبير يعطينا درسا حقيقيا في الصبر

بترت رجل عروة بن الزبير ومات ابنه في يوم واحد فقال: اللهم لك الحمد إن كنت أخذت فقد أعطيت وإن كنت ابتليت فقد عافيت. منحتني أربعة اعضاء وأخذت عضوا واحدا، ومنحتني أربعة أولاد وأخذت ولدا واحدا.

﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ (الإنسان: ١٢)

وأخيرا يقول سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠).

وكفى بالله حسيبا.

وكفى بالله شهيدا.

٢٥- كظم الغيظ

صورتان: بين إطلاق الغيظ وكظم الغيظ

عندما ترى رجلا في قمة غضبه وفوران حدته، يرغي ويزبد منتفخ الأوداج، لا يملك على نفسه سلطانا، يسب ويلعن، لا ضابط لكلامه، وقد يتمادى في غضبه فيحطم ويكسر ويعتدي ويظلم. لا بد أنك ترثي لحاله وتشكر الله أنك لست مثله.

وإذا رأيت أن الرجل الذي يتلقى غضبة الرجل الأول قد ملك نفسه وكظم غيظه وأطرق برأسه، ساكن النفس رابط الجأش، وهو يردد بصوت خافت: (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. اللهم الهمني الرشد). ثم تعلم أن الرجل لا يفعل ذلك من ذلة وخنوع، وهو يملك القدرة على الرد والانتقام بما يخرس الرجل الأول. ولكنه يكظم غيظه ابتغاء لوجه الله تعالى وامتثالا لأمره واحتساب الأجر عنده. فلا تملك إلا أن تتعاطف مع هذا الرجل وتعظم فيه هذه الخصلة الحميدة وتغبطه عليها وتتمنى على الله أن يهبك من الحلم والأناة مثل ما وهب هذا الرجل.

كظم الغيظ طريقك إلى الجنة

وها هو رب العزة ينادي عباده المؤمنين أن بادروا إلى ما يوجب المغفرة بطاعة الله وامتثال أوامره. أي إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين لله، الذين يبذلون أموالهم في اليسر والعسر، وفي الرخاء والشدة، ويمسكون غيظهم مع قدرتهم على الانتقام، ويعفون عمن أساء إليهم. ويحب الله المتصفين بهذه الأوصاف الجليلة.

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ (آل عمران: ١٣٣-١٣٤).

كظم الغيظ صفة المؤمنين

نعم. فمن مكارم الأخلاق كظم الغيظ والتجاوز والحلم عند الغضب.

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (الشورى: ٣٧).

وهذا نبي الله والناطق بالحق يبين لنا عظم ثواب من يكظم غيظه ويملك نفسه عند الغضب. فهلا تمعنا في حديثه الشريف وجعلناه دستور حياتنا وأخلاقنا ومعاملاتنا؟

قال رسول الله (ﷺ): [ما من جرعة أعظم أجرا عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله] (ابن ماجة).

[من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس

الخلائق حتى يخيره من أي الحور العين شاء] (الترمذي، أبو داود).

[ليس الشديد بالصرعة انما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب] (البخاري).

[أشدكم من ملك نفسه عند الغضب وأحلمكم من عفا عند القدرة] (البيهقي).

هذا (وأن سعة الخلق وبسطة الخاطر نعيم عاجل وسرور لمن أراد الله به خيرا. وإن سرعة الانفعال والحدة وثورة الغضب نكد مستمر وعذاب مقيم لمن أراد بنفسه سوءا).

٢٦ـ التواضع

من معاني التواضع

التواضع هو عدم التكبر، وأن لا يلمس الناس من أقوالك وأفعالك وكل أمرك أنك تتعالى عليهم، وأنك تجد لنفسك منزلة أرفع من منزلتهم بسبب مالك أو جاهك أو علمك أو مركزك أو قوتك أو نسبك أو جمال صورتك. وكل ذلك مما أنعم الله عليك ويستوجب شكرك وحمدك له سبحانه وأن تحسن للناس كما أحسن الله إليك لا أن تتكبر وتطغى وتتفاخر عليهم.

من عرف عظمة الله تعالى تواضع لله وللناس

والتواضع ينم عن خلق رفيع ونفس زكية مطمئنة تعرف قدرة الله تعالى، وتعرف عظمته وجبروته، وتعرف أنه على كل شيء قدير. وتعلم أن الأرض والسماوات بكل أفلاكها وخلائقها وأسرارها لا تساوي عند الله جناح بعوضة. قال النبي (ﷺ): [لو ان الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء] (الترمذي).

وتدرك أن الله تعالى لا ينظر إلى أموالنا وصورنا وإنما ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا.

لا ميزان للتفاضل إلا ميزان التقوى

وتعلم أيضا أن الله تعالى هو الذي خلق الناس جميعا من نفس واحدة، فالانتماء إلى عرق دون عرق، ونسب دون نسب، واختلاف ألوانهم وألسنتهم، وتدرجهم صعودا وهبوطا في درجة ما يملكون من مال أو علم أو منصب، لا يعطي لأحد فضلا على أحد، فكل ذلك لا يزن مثقال حبة من خردل في ميزان الله تعالى.

فميزان التفاضل عنده سبحانه يزن التقوى والعمل الصالح والخلق الحسن.

وفي هذا يقول النبي (ﷺ): [لا شيء أثقل في ميزان العبد يوم القيامة من خلق حسن] (الطبراني).

التواضع مع الله

والتواضع يكون أصلا مع الله تعالى.

فأنت تستشعر بعبوديتك لله وبحاجتك إليه وحده فهو الذي يملك مفاتح الأمر كله، فإن عبدت الله أظهرت خشوعك وتضرعك له، وإن تصدقت تذللت لله الذي رزقك من فضله، وإن علمت أحدا مما تعلم من علم نافع تذكرت واستشعرت عظمة علم الله وسعة علمه وضآلة علمك. فالمسلم كلما تقرب إلى الله بطاعة أو عمل صالح ازداد تواضعا لله وللناس. وإذا رأيت من يدعي التقوى أو يعرف بين الناس بالصلاح ثم يتفاخر عليهم بعلمه وصلاحه وتقواه، فاعلم أنه قد ابتلي بالرياء، وعليك أن ترثي لحاله، وتنصحه إذا وجدت إلى ذلك سبيلا، وتدعو له أن يبرئه الله مما هو فيه من سوء خلق. لأن الوصول إلى الجاه والمال بالعبادة جناية عظيمة على دين الله.

صور من تواضع رسول الله (ﷺ)

ولنا في رسول الله (ﷺ) أسوة حسنة، فمن أعظم منه منزلة وقدرا في الدين والدنيا عند الله؟؟ ومن أكرم خلق الله وأحبهم إليه سبحانه؟؟ أليس هو عبده وحبيبه وصفيه؟؟ فكيف كانت سيرته وكيف كان تواضعه؟؟

- عن أنس (رضي الله عنه) أنه قال: (خدمت النبي (ﷺ) عشر سنين والله ما قال لي أف قط، ولا قال لشيء لم فعلت كذا؟ وهلا فعلت كذا).
- وعنه أيضا: (كنت أمشي مع رسول الله (ﷺ) وعليه برد غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله وقد أثرت بها حاشية البرد من شدة جذبته ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه رسول الله وضحك وأمر له بعطاء) (البخاري).
- وعن ابن مسعود قال: نام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على حصير فقام وقد أثر في جنبه. قلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً فقال: [ما لي وللدنيا، ما أنا والدنيا إلا كراكبٍ استظل تحت شجرة ثم راح وتركها].
- وقال جرير بن عبد الله: (ما حجبني رسول الله (ﷺ) منذ أسلمت ولا رآني إلا ابتسم، وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويجاريهم ويداعب صبيانهم ويجلسهم في حجره، ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين في أقصى المدينة، ويقبل عذر المعتذر). (جمعت من أكثر من رواية - الألباني).
- وعن أنس أيضا: (ما التقم أحد أذن رسول الله (ﷺ) - يعني ناجاه- فينحي رأسه حتى يكون الرجل هو الذي ينحي رأسه، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر، وكان يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ أصحابه بالمصافحة، لم ير قط مادا رجليه بين أصحابه فيضيق بهما على أحد، يكرم من

يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التي تحته ويعزم عليه في الجلوس عليها ان أبى، ويكني أصحابه ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوز فيقطعه بانتهاء أو قيام. وكان يقول (ﷺ): [إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد]. وكان يركب الحمار ويردف خلفه ويعود المساكين ويجالس الفقراء، ويجلس بين أصحابه حيثما انتهى به المجلس) (جمعت من أكثر من رواية - الألباني).

- وعن أنس بن مالك قال: (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحوي لها - أي لصفية بنت حيي - وراءه بعباءة، ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبته، فتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب) (البخاري).

فأي زعيم أو ملك تواضع لأهله أمام الناس مثل ما فعل نبي الرحمة محمد (ﷺ)؟ إنما هو خلق سيد الأنبياء والمرسلين الذي بعثه الله ليتم مكارم الأخلاق، ولا يحتاج إلى برهان أو بيان.

تواضع رسول الله (ﷺ) هو النموذج القدوة للبشرية كلها

عن أبي سعيد الخدري في وصف بعض شمائل النبي (ﷺ):

(كان (ﷺ) يخدم في بيته فيحلب الشاة ويخصف النعل ويرقع الثوب ويأكل مع خادمه. ويشتري الشيء من السوق ولا يمنعه الحياء أن يعلقه بيده، ويسلم مبتدئا على كل من استقبله من صغير وكبير، يجيب إذا دعي ولا يحقر ما دعي إليه، لين الخلق، جميل المعاشرة، طليق الوجه، شديد في غير عنف، متواضع في غير مذلة، جواد من غير سرف، رقيق القلب. يمنع أصحابه أن يقوموا له وكان يجلس بين أصحابه مختلطا بهم كأنه أحدهم فيأتي الغريب فلا يدري أيهم حتى يسأل عنه).

وهذا الوصف الكريم غني عن كل تعليق، فوالله ما أنجبت البشرية من قبله ولن تنجب من بعده في مثل تواضعه، من عامة الناس وليس ممن أوتوا حظا من الريادة في أقوامهم في أمور الدين أو الدنيا. وهل ثمة حظ أوفر ومقام أجل وأرفع من مقام خاتم الأنبياء والرسل حبيب الله وصفيه من خلقه؟؟؟

فهل إلى التأسي بهذا الخلق الرفيع من سبيل؟؟ أم أنه الوصف والخيال والمثالية التي لا نؤمن بجدواها في هذا الزمان؟؟

التواضع أمر إلهي

ولتعلم أن النبي (ﷺ) وهو بهذا الخلق الرفيع أمره الله تعالى أن يتواضع لإخوانه من المؤمنين. ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٥).

وعندما يأمر الله حبيبه بالتواضع فالأمر بالتواضع موصول لكل المؤمنين إذاً، ولهذا قال النبي (ﷺ): [إن الله اوحى الي أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد] (مسلم، أبو داود).

وفي هذا بيان أن التفاخر يقود إلى البغي والفساد.

التواضع صفة المؤمنين

وقد وصف الحق سبحانه المؤمنين الذين اتخذهم عبادا مقربين إليه أنهم متواضعون يمشون بتواضع وسكينة ووقار، وفي ذلك دعوة لكل من يؤمن بالله أن يقتدي بعباد الله الذين ذكر الله بعض صفاتهم في كتابه العزيز.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (الفرقان: ٦٣).

التواضع للمؤمنين هو تواضع لله ولرسوله

وتواضعك لإخوانك المؤمنين هو تواضع لله تعالى، لأنك لا تتواضع لأغنياء القوم وسادتهم ثم تتكبر على الفقراء والمساكين، ولو فعلت هذا فأنت لا تحقق مراد الله في تواضعك، بل أنت مراء، وتخلق الفرقة بين المسلمين والله جعلهم سواسية كأسنان المشط، وتجعل لهم منازل ودرجات حسب غناهم وجاههم، وميزان الله في التفاضل هو التقوى وليس المال والصورة والجاه.

موقع التواضع في الهدي النبوي الشريف

قال رسول الله (ﷺ):

[من تواضع لله درجة رفعه الله درجة حتى يجعله في عليين، ومن تكبر على الله درجة وضعه الله درجة حتى يجعله في أسفل السافلين] (ابن ماجة، أحمد).

[طوبى لمن تواضع في غير مسكنة، وأنفق مالا في غير معصية، ورحم اهل الذل والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة] (البغوي).

وفي مدرسة الحبيب المصطفى نتعلم أن التكبر لا يجلب إلا الذل والهوان وأن التواضع هو أسمى آيات الشرف.

قال رسول الله (ﷺ):

[الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين الغنى] (ابن أبي الدنيا وأسنده الحاكم).

[إنكم لتغفلون عن أفضل العبادة التواضع] (ابن حجر العسقلاني).

صور مشرقة في التواضع من تأريخنا الإسلامي

وفي تأريخنا الإسلامي صور مشرقة من التوضع يندر أن نجد منها في أسفار كل الأمم التي خلت من قبل أمة الإسلام أو التي تزامنت مع ظهورها أو تلك التي

تعاصرها الآن.

• روي عن قيس بن حازم أنه قال: (لما توجه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إلى الشام، فاستقبل الماء في الطريق فجعل عمر يخوض في الماء وهو آخذ بزمام الناقة ونعلاه تحت أبطه اليسرى، فخرج إليه أبو عبيدة الجراح وكان أميرا على الشام فقال يا أمير المؤمنين إن عظماء الشام يخرجون إليك فلا يحسن أن يروك على هذه الحالة فقال عمر: إنما أعزنا الإسلام فلا أبالي من مقالة الناس).

• يقول الامام علي (رضي الله عنه): (لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله).

• روي أن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ، فقال الضيف: أقوم إلى المصباح فأصلحه؟ فقال عمر: ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه. قال الضيف: فأنبه الغلام؟؟ فقال: هي أول نومة نامها، فقام وملأ المصباح زيتا، فقال الضيف: قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين؟ فقال: ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر ما نقص مني شيء).

وفي هذا درس بليغ في التواضع، ليس لأن أمير المؤمنين قام إلى المصباح بنفسه فملأه زيتا فقط، ولكن لأنه تواضع لغلامه فلم يشأ أن يفسد عليه نومته.

فهل ينتبه أغنياؤنا وحكامنا ومن جعل الله غيرهم لهم سخريا، فينتصفون لمن يعمل لهم، ويراعون حق الإخاء في الدين فيهم إن كانوا مسلمين، وحق الإنسانية إن كانوا على غير دينهم؟ لأن ما نراه من مظاهر غير إنسانية في التعامل مع الأجراء يرقى إلى ما يشبه العبودية - في بعض جوانبها- يجعلنا أن ننتبه وننبه غيرنا بأن الله لا يقبل هذا الفعل الآثم ولا يرضى عنه الحبيب المصطفى (ﷺ).

❊

٢٧- العدل والإقساط

من معاني العدل والإقساط

[العدل] و [المقسط] اسمان من أسماء الله الحسنى وصفتان من صفاته جل جلاله. والله تعالى منبع العدل ومصدر الإقساط بكل عمق الكلمتين وامتداداتهما في الكون كله، وفي اتساع معانيهما ودلالاتهما التطبيقية على الأرض. ولا يشرق خيط من العدل على الأرض، ولا يسري فيض منه بين الناس إلا من مشكاة نور الله وعدله.

عدل الله هو العدل المطلق

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُواْ الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ١٨).

وهذا بيان من الحق سبحانه عن نفسه وإعلام لعباده بانفراده بالوحدانية، وشهادة الحق لنفسه شهادة إظهار وبيان وتثبيت، وشهادة الملائكة وأهل العلم شهادة استدلال من دلائل خلقه وبديع صنعه، وتستكمل الشهادة لله كونه جل وعلا مقيما للعدل في ملكه فيما يقسم الآجال والأرزاق ويدبر الشؤون.

العدل لا يكون كاملا بين البشر

يأمر الله عز وجل الناس جميعا بالعدل والقسط، ويحب أن يرى آثارا من فيض عدله تسري بين عباده تشريعا ومنهجا وسلوكا وتطبيقا.

ولكن!!

ولأن النفس البشرية تتنازعها الأهواء والشهوات وتترصد لها شياطين الإنس والجن بالوسوسة والاغواء، فتضعف نفوس وتنقاد إلى هواها فتسوقها الشياطين إلى مواقف الظلم وساحات الطغيان. وتلتجئ أخرى إلى كنف الله وركنه المكين فتستعيذ به من الشيطان وكيده ومكره، فتلوذ بمرابع العدل والإقساط.

ولأن حياة البشر على الأرض من زمن ابني آدم وإلى قيام الساعة مليئة بمواقف ظلم فيها أناس كثيرون وسحقت كرامتهم وأهينت آدميتهم، واستعبدوا وعذبوا وقتلوا وأخرجوا من ديارهم، وسلبوا أعز ما يملكون من أموال وبنين. فمنهم من صبر واحتسب أجره عند الله، ومنهم من رد الظلم بظلم أكبر، ومنهم من عاش ذليلا خانعا أو ساخطا وجاحدا.

وعد الله تعالى بإقامة العدل بين الناس يوم القيامة

ان الله تعالى وعد الناس - وعد الصدق - بيوم يقام فيه العدل الإلهي المطلق، فترد المظالم وتعاد الحقوق وكل امرئ يومئذ يكون بما كسب رهين، فكل شيء محفوظ عند الله في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولا ظلم اليوم فقد ركعت الطغاة والجبابرة وغاصت في خزي استكبارها وعتوها وغيها، وترى الظالمين اليوم جثيا.

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠)﴾ (الزمر: ٦٩-٧٠)

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ

خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الأنبياء: ٤٧).

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (يونس: ٤٧).

الموازين القسط توضع يوم القيامة

ففي يوم العدل الإلهي، يوم الجزاء الموعود، توضع الموازين العادلة التي توزن الأعمال فلا ينقص محسن من إحسانه، ولا مقسط وعادل من عدله وإقساطه، ولا صابر محتسب من صبره. ولا يزيد مسيء على إساءته، أو ظالم على ظلمه وجوره، إنما هي اعمالنا نوفاها دون زيادة أو نقصان، حتى إن كان العمل الذي نعمله زنة حبة من خردل (كناية عن صغر ودقة الأعمال التي نحاسب عليها وتدخل في موازيننا يوم القيامة) جاء بها الله واحضرها وكفى بالله حسيبا. وأي محاسب؟ محاسب له من العلم فلا يشتبه عليه شيء ومن القدرة فلا يعجز عنه شيء.

والأمم جميعا تعرض على الله تعالى بحضور رسلها فيقضي بينهم جميعا بالعدل.

يأمرنا الله تعالى أن نقيم العدل بين بعضنا البعض

والله وهو [الحكم] [العدل] [المقسط] لا يرضى لعباده إلا العدل ولا يأمرهم إلا بالعدل. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠).

قال احد العلماء: العدل الذي يأمرنا الله به هو عدل مع ذاته الجلية بإيثار حقه تعالى على حظوظ أنفسنا، وتقديم رضاه على هوى أنفسنا، ومجانبتنا لكل النواهي والمزاجر وملازمة جميع الأوامر والرغائب. وعدل مع أنفسنا بمنعها عما فيه هلاكها. وعدل مع الناس ببذل النصيحة وترك الخيانة والإنصاف لهم وعدم الإساءة إليهم لا بقول ولا بفعل ولا بعزم.

العدل الذي يأمرنا الله باقامته عدل مجرد من كل الأهواء

ويستمر الخطاب الإلهي في الأمر بالعدل والقسط.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: ١٣٠).

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الانعام: ١٥٢).

وهذه دعوة صريحة من الله عز وجل للناس جميعا أن تتخطى في إقامة العدل وملازمته والدعوة إليه حدود القرابة والنسب وحواجز الغنى والفقر ومفاهيم الطبقية

والعصبية. فالنداء ياتينا صريحا صادقا صارما: يا من آمنتم بالله وصدقتم بكتابه كونوا مجتهدين في إقامة العدل والإستقامة بكل ما أوتيتم من الحرص. ودون أدنى فرصة للتردد أو الوهن على تحقيقه، وأن تكون شهاداتكم لوجه الله تعالى دون تمييز أو محاباة ولو كانت هذه الشهادات على أنفسكم أو على آبائكم أو اقربائكم فلا تمنعكم القرابة ولا المنفعة الشخصية أن تؤدوا الشهادة على الوجه الأكمل فإن الحق حاكم على كل إنسان. وإن يكن المشهود عليه غنيا فلا يراعى لغناه، أو فقيرا فلا يمتنع عن الشهادة عليه ترحما وإشفاقا، فالله أولى بالغني والفقير وأعلم بما في صلاحهما، فراعوا أمر الله فيما أمركم به فإنه أعلم بمصالح العباد منكم، فلا تتبعوا هوى النفس والعصبية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في شؤونكم. بل الزموا العدل على كل حال.

ويشتد الخطاب القرآني في الدعوة إلى العدل والاقساط.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨).

فالعدل الذي يريده الله منا يتخطى نوازع النفس في الميل عمن نكن لهم البغض من الأعداء، فيأمرنا الله تعالى أن نكون مبالغين في الاستقامة بالشهادة لله فلا نشهد إلا بالعدل وأن لا يحملنا بغضنا للأعداء على ترك العدل فيهم والاعتداء عليهم، فالعدل ركن مكين للتقوى حتى مع من نبغضهم.

فإذا كان تنبيه الباري عز وجل بهذه القوة في وجوب العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياء الله وأحباؤه.

العدل والاقساط مع غير المسلمين

ويستمر الخطاب القرآني في هذا السياق.

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة: ٨).

فالبر والعدل والإحسان من أركان المجتمع المسلم. وكان لا بد أن تشع اشراقاته على كل المجتمعات الأخرى، ولا ينهانا الله عن البر بهؤلاء الذين لم يحاربونا في ديننا وعقيدتنا ولم يخرجونا من أوطاننا، بالإحسان إليهم والعدل معهم فالله يحب العادلين في جميع أمورهم وأحكامهم. ولكن الله ينهانا عن الصداقة والمودة مع الذين ناصبونا العداوة لأجل ديننا وأرادوا إطفاء جذوة العقيدة في قلوبنا، وقاتلونا وأعانوا على اخراجنا من ديارنا، وينهانا أن نتخذهم أولياء وأنصارا وأحباء، ومن يخالف أمر الله

فيصادقهم ويعينهم على ظلمهم وعدوانهم فاولئك هم الظالمون لأنفسهم بتعريضها لعذاب الله.

كيف نقيم العدل بين طائفتين من المؤمنين

ويلتفت الخطاب القرآني المبين في العدل إلى القتال لو نشب بين فئتين مؤمنتين.

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)﴾ (الحجرات: ٩ - ١٠).

الأصل أن ننظر إلى المؤمنين جميعا أنهم إخوان لنا في الدين نتعاون وإياهم على البر والتقوى ولا نتعاون على الإثم والعدوان. وإن حدث أن فئتين من إخواننا المؤمنين جنحوا إلى القتال فنبادر إلى الإصلاح بينهما ونسعى جاهدين لإيقاف الخصومة والتقاتل فنعيد الحقوق إلى أصحابها ونعيد الأمور إلى نصابها، ولا ننظر أي الفئتين أقرب الينا رحما أو نسبا ففي دين الله وإقامة عدله تذوب كل الوشائج لصالح العدل، ولا ننظر إلا إلى الحقوق كما شرعها الله لنا.

فإن بغت إحدى الفئتين ولم تقبل الصلح وتجاوزت حدها بالظلم والطغيان وصممت على البغي، فعلينا أن نقاتل الفئة الباغية ولو كانت أقرب الينا من الفئة الأخرى حتى ترجع إلى أمر الله وشرعه وتقلع عن البغي والعدوان وتعمل بمقتضى أخوة الإسلام. فإن رجعت وكفت عن القتال علينا أن نصلح بينهما بالعدل دون حيف على إحدى الفئتين فالله أمرنا بالعدل في جميع امورنا والله يحب العادلين الذين لا يجورون في أحكامهم.

يأمرنا الله تعالى أن نقيم العدل في كل شيء

ثم يلتفت الخطاب القرآني إلى الحقوق العامة والخاصة في المجتمع. فيأمرنا بالعدل في كل شأن من شؤون حياتنا كالعدل في المكيال والميزان وأن لا ننقص من حقوق الناس شيئا.

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (هود: ٨٥).

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن: ٩)

والميزان هنا هو ميزان الحقوق كلها المادية منها والمعنوية فعلى المؤمن أن يراعي العدل والإقساط في حقوق الناس جميعا.

كما دعانا المنهج القرآني أن نراعي العدل في توثيق العقود والمكاتبات بين الناس وفي تثبيت حقوق كل الأطراف فيها والشهادة والإقرار بما كتبناه أو شهدنا على كتابته وتوثيقه.

ولأن الله يحب المقسطين والقائمين بالعدل فقد أعد لهم ثوابا عظيما يوم القيامة.

قال رسول الله (ﷺ): [المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا] (ابن كثير).

نماذج من عدل النبوة:

• المشهد الأول:

يهودي من سكنة المدينة له دين عند النبي (ﷺ) فيأتي إلى المسجد ليتقاضاه فخاطب النبي قائلا: إنكم يا بني عبد المطلب قوم مطل!! يرى عمر أن هذا الرجل قد تطاول على مقام الرسول فيقوم ليؤدبه ويهم بسيفه. لكن الرسول (ﷺ) يسكت عمر قائلا: [أنا وهو أولى منك بغير هذا تأمره بحسن التقاضي وتأمرني بحسن الأداء]

• المشهد الثاني: تاريخ المشهد هو قبيل وفاة رسول الله (ﷺ) ببضعةٍ وعشرين يوماً.

يبدأ المشهد بدعوة النبي الأكرم (ﷺ) لبلال أن يؤذن في الناس للصلاة، ويتقاطر المهاجرون والأنصار إلى مسجد رسول الله ومجلس قضائه وديوان حكمه فالمسجد الذي رأينا تواضع بنائه يجمع بين كل هذه المهام. يتخذ صحابة رسول الله أماكنهم كل حيث يجد الفراغ فلا منازل لفئة دون أخرى وليس من مكان للسادة وآخر للفقراء والمساكين فالكل إخوانه وصحابته. يصلي الحبيب المصطفى (ﷺ) ركعتين خفيفتين بالناس ثم يصعد المنبر ويحمد الله ويثني عليه ويخطب فيهم خطبة بليغة وجلت منها القلوب وبكت منها العيون ثم يقول: [يا معشر المسلمين إني كنت لكم نبياً وناصحاً وداعياً إلى الله بإذنه وكنتُ لكم الأخ المشفق والأب الرحيم، من كانت له مظلمة فليقم وليقتص مني قبل القصاص في يوم القيامة].

يسود سكون ورهبة ودهشة وترقب من قول رسول الله هذا والكل جالس في مكانه بلا حراك وكأن على رؤوسهم الطير. لم ينطق أحد ببنت شفة ولم يقم إلى رسول الله أحد ولسان حالهم يقول: ماذا يريد الحبيب بقوله هذا فداه آباؤنا وأمهاتنا؟؟ فيعيد النبي (ﷺ) قوله ثانيةً فتزداد حيرتهم ولا يقوم إليه أحد. ثم يقول ثالثاً فيقوم إليه رجل يقال له عكاشة بن محصن ويقف بين يدي النبي (ﷺ) ويقول: فداك أبي وأمي يا رسول الله إنك ناشدتنا مرة بعد مرة ما كنت أقدم على شيء من ذلك ولقد كنت معك في

غزوة حاذت ناقتي ناقتك فنزلت من الناقة ودنوت منك حتى أقبل فخذك فرفعت القضيب الذي تضرب به الناقة للسرعة في المشي وضربت به خاصرتي فلا أدري أعمدا كان منك يا رسول الله أم أردت به ضرب ناقتك. فيقول الحبيب المصطفى (ﷺ): [حاشا يا عكاشة أن يتعمدك رسول الله بالضرب] ثم يطلب عليه الصلاة والسلام من بلال: [يا بلال انطلق إلى منزل فاطمة فأتني بقضيبي] ويخرج بلال ويده على رأسه من هول ما رأى وسمع ويترك المجلس كله في ذهول وحيرة: ما هذا الذي يرونه؟؟ هل تصل الجرأة برجل يؤمن بالله ورسوله أن يقتص من رسول الله وفي ذنب لم يقترفه؟؟ ويقرع بلال باب فاطمة الزهراء وتقول فاطمة: من بالباب؟؟ فيقول بلال: جئتك لقضيب رسول الله. فتقول فاطمة: يا بلال ما يصنع أبي بالقضيب؟؟ فيقول بلال: يا فاطمة إن أباكِ اعطى القصاص من نفسه!! وتتساءَل فاطمة - وهي تعلم خلق النبوة والرحمة عند أبيها وتعرف منزلته في قلوب صحابته-: يا بلال من الذي يطيب قلبه أن يقتص من رسول الله؟؟ ولكن ما كان لفاطمة بضعة رسول الله أن تخالف أمرا لأبيها. يأخذ بلال القضيب ويدخل المسجد ويدفعه إلى رسول الله والرسول يدفعه إلى عكاشة.

وينظر صحابة رسول الله فيرون الرسول (ﷺ) قد أعطى ظهره لعكاشة ليقتص منه ويرون عكاشة وفي يده القضيب، فينتفض كل من أبي بكر وعمر: يا عكاشة نحن بين يديك فاقتص منا ولا تقتص من رسول الله. فيرد عليهما رسول الله (ﷺ): [أقعدا قد عرف الله تعالى مكانكما]. فيقوم علي رضي الله عنه ويقول: يا عكاشة أنا في الحياة بين يدي النبي عليه السلام لا يطيب قلبي أن تقتص من رسول الله فهذا ظهري وبطني فاقتص مني بيدك واجلدني بيدك. فيرد عليه النبي (ﷺ): [يا علي أجلس قد عرف الله مكانك ونيتك]. فيهب الحسن والحسين واقفين ويقولان: يا عكاشة ألست تعرفنا إنَّا سبطا رسول الله والقصاص منا كالقصاص من رسول الله. فيقول لهما النبي (ﷺ): [أقعدا يا قرتي عيني]، ثم يلتفت إلى عكاشة: [يا عكاشة إضرب إن كنت ضارباً]، فيقول عكاشة: يا رسول الله ضربتني وأنا عار عن ثوبي. فيكشف رسول الله عن ظهره فيضج المسجد كله بالبكاء إزاء هذا المشهد العظيم. فلما نظر عكاشة إلى بياض جسم رسول الله إنكب عليه يقبل ظهره وهو يبكي ويقول: فداك روحي يا رسول الله من يطيب قلبه أن يقتص منك، وإنما فعلت ما فعلت رجاء أن يمس جسمي جسمك الشريف ويحفظني ربي بحرمتك. فقال عليه السلام: [من يحب أن ينظر إلى رجلٍ من أهل الجنة فلينظر إلى هذا]، فقام المسلمون يقبلون بين عينيه ويقولون له: طوبى لك يا عكاشة نلت الدرجات العلى ومرافقة محمد عليه السلام في الجنة.

في هذه البيئة الغارقة في البساطة حيث المسجد من طين والبيت من طين والطرقات من طين، عاش النبي والمعلم والقدوة الحسنة، وحمل لواء أعظم رسالة سماوية أشرقت أنوارها وهبت نسائمها على هذه الأرض منذ خلقت وإلى أن يرثها الله ومن عليها، فنفهم من هذا أنَّ سمو القيم وعلو منزلتها ورقي مقاصدها لا تكون في عظمة البنيان وعلوّه وشواهق قصوره وبذخ الحياة لمن يحملها ويبشر بها، بل تكون بعظمة القلوب التي تتقد وتنمو فيها وعلو الهامات التي تتسلقها وقوة العزيمة والشكيمة لمن يحملها وسماحة من يدعو إليها ويبشر بها، لذلك أثمر الغرس الطيب الذي غرسه رسول الله (ﷺ) في قلوب صحابته فاشتدَّ بنيان الإيمان في قلوبهم وطغى على جوارحهم وأفعالهم واصطبغت بصبغتِهِ كل حياتهم فتهاوت معاقلُ الشرك والضلالة أمامهم معقلاً بعد معقل حتى أشرقت زوايا الأرض بالإيمان من بعدهم لمن ملكَ قلوباً عامرة بالإيمان كإيمانهم، وقوة اليقين مثل يقينهم، وعزائم راسخة كعزيمتهم.

لم تلد الأرض منذ أن سكن الإنسان على ظهرها رجلاً ملَكَ مقاليد الأمر كله في قومه وغرس فيهم حبه مثل ما ملك النبي الأكرم (ﷺ) قلوب صحابته. ثم كان أكثرهم تواضعاً لرعيتِهِ وأكثرهم رحمة بهم وشفقة عليهم، وحقيقة الأمر أنَّ الصحابة (رضوان الله عليهم) قد أيقنوا أنَّ الرسول (ﷺ) لا يبني دولة أو يثبت سلطاناً لنفسهِ إنَّما هو وحي من السماء وتثبيت لكلمة الله ومنهجه.

❊

٢٨ـ الوفاء

من معاني الوفاء

الوفاء... ما أعظمه من خلق كريم يرفع من يملكه مقاما عليا.

الوفاء... ما أعذبها من كلمة على اللسان عند النطق بها، وما أطربها على الاذن عند سماعها.

الوفاء... كلمة وأنت تنطق بها أو تسمعها ينشرح لها قلبك وتتهلل أساريرك، وتسترجع في لحظات كل حكايات الوفاء التي مرت معك في حياتك، أو سمعتها تروى على مسامعك، فتركت بصمات بارزة على صفحة قلبك.

الوفاء... انه خلق الأنبياء والمرسلين والأولياء الصالحين وذوي القلوب الكبيرة التي تتسع دائرتها لتشمل الناس جميعا فتلتزم بالوفاء مع القريب والبعيد، والمبغض والمحب، والمؤمن والكافر، ثم تتسع لتشمل الوفاء للأرض والوطن.

ولعل من الصواب أن يشار إلى قيمة هذه السجية ولو اتصف بها حيوان، فكلنا

نعظم سجية الوفاء عند الكلب، وفي بطون الكتب الكثير من قصص الوفاء عند هذا الحيوان، وقد ضرب الله مثلا على وفائه في قرآنه المجيد في قصة اصحاب الكهف عندما تبعهم كلبهم إلى الكهف وبسط يديه بينهم بالوصيد فخلد ذكره ووفاؤه مع خلود أصحابه ووفائهم لدينهم وعقيدتهم.

مظاهر الوفاء

• الوفاء بكل عهد ووعد قطعه العبد على نفسه مع الله تعالى أو مع أحد من خلقه.﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء: ٣٤).

• الوفاء بالعقود إلى آجالها وإتمامها حسب شروطها الموثقة.﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (المائدة: ١).

• الوفاء لرسول الله (ﷺ) باتباع سنته والسير على منهاجه وتقديم حبه على النفس والمال والأهل والولد والناس أجمعين، والاشتياق لرؤيته وكثرة الصلاة عليه.

• الوفاء لدين الله بالدعوة إليه وصيانة مكانته وقيمه في قلوب الناس، بالتخلق بالأخلاق الحميدة التي دعا إليها، وتجنب الأخلاق الذميمة التى نهى عنها.

• الوفاء للوالدين بتوقيرهما والسهر على راحتهما وتنفيذ أوامرهما في غير معصية الله. ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (الإسراء: ٢٣).

• الوفاء بين الزوجين بحفظ ما بينهما من حقوق لبعضهما البعض. وأن يستمر الوفاء بينهما لما بعد الموت، فيذكر الحي منهما محاسن الميت ويكرم أهله وأرحامه ويبر بأصدقائه وأصحابه، ويستغفر له، ويتصدق عنه. ﴿..وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (النساء: ٢١).

• الوفاء بحفظ السر لكل من استودع عنده سرا وإن أعظم الأسرار ما كان بين الزوجين.

• الوفاء للشيوخ وأهل العلم وكل من أخذ عنهم علما أو تتلمذ على أيديهم ونهل من بحور علومهم في زوايا المساجد، أوحلقات العلم، أو في أروقة الجامعات. بتوقيرهم وشكرهم وخدمتهم والاستغفار والدعاء لهم.

• الوفاء للأصحاب والخلان بحفظ ما لهم من صحبة كريمة وأخوة

صادقة، والوفاء لأهليهم وذرياتهم من بعدهم.

- الوفاء لكل من أحسن إليه بالمداومة على شكره ومبادلته الإحسان بالإحسان ولو بالكلمة الطيبة.
- الوفاء بأداء الدين برده في أجله كاملا غير منقوص، وإن لم يجد القدرة عند حلول الأجل عليه أن يعتذر عن تقصيره ويطلب تمديد الأجل. فقد ورد عن النبي (ﷺ) انه قال: [ايما رجل تدين بدين وهو مجمع أن لا يوفيه لقي الله سارقا] (ابن ماجة)
- الوفاء للأرض والوطن. بالسعي الحثيث لاستجلاب الخير للأرض التي أنجبته، ورد الفتن والعدوان عنه وأن يكون خيره لوطنه مسبوقا على خيره لغيره.

الوفاء بالعهد مع الله

﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ..﴾ (الانعام: ١٥٢).

ان أشرف العقود وأعظمها ما كان بين العبد وربه. فإن الله خلق الإنسان بقدرته، ورباه بنعمته، وطلب منه أن يعرف هذه الحقيقة ويعترف بها فيعبد الله حق عبادته، وأن يتخذ سبيل الرشد وطريق الهداية سبيلا وطريقا مستقيما يوصله إلى النعيم الأبدي. وأن لا يتبع سبيل الغي فتتفرق به السبل ويتيه بينها ويغرق في بحر شهواته وملذاته حتى يقوده الشيطان إلى ما يستحق به العذاب الأبدي.

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١)﴾ (يس: ٦٠-٦١).

﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (البقرة: ٤٠).

﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الانعام: ١٥٢).

فالعهد الذي بين الله والناس – كما نفهم من الآيات السابقة - هو ما أوصاهم وأمرهم به الله تعالى على ألسنة رسله، بعدم إطاعة الشيطان فيما يدعوهم إليه من معصية. وأن يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئا، وأن يطيعوه ويمتثلوا لما أمرهم به ونهاهم عنه سبحانه.

الخير والفلاح في وفاء العبد لربه

ووفاء العبد لربه والإيمان به، فيه خير وفلاح العبد نفسه، فالله تعالى غني عن عبادة الخلق جميعا. [إن كان أولكم وآخركم على قلب أتقى رجل منكم ما زاد ذلك في ملك الله شيئا، وإن كان أولكم وآخركم على أشقى قلب رجل منكم ما نقص ذلك

من ملك الله شيئا] (من حديث قدسي – الألباني).

إن الله تعالى هو أوفى الأوفياء

هذا الخير والفلاح هو وعد الله له بحسن [وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ...) (التوبة: ١١١). والاستفهام هنا استنكاري بمعنى النفي. أي لا أحد أوفى من الله جل وعلا، لأن أخلاف العهد أمر قبيح لا يقدم عليه الكرام من الخلق. فكيف بالغني الذي لا يجوز عليه القبح؟

صورتان متضادتان في العمل والجزاء

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥)﴾ (الرعد: ٢٠-٢٥)

نحن هنا أمام صورتين متضادتين..

الصورة الأولى مشرقة وضاءة، انها صورة المؤمنين الذين يتمون عهد الله الذي وصاهم به سبحانه وتعالى فيعملون ما أمرهم به ويجتنبون ما نهاهم عنه تكليفا لعباده، ولا يخالفون ما وثقوه به أنفسهم من العهود المؤكدة بينهم وبين الله وبينهم وبين الناس.أولئك لهم العاقبة المحمودة، وهي جنات عدن يقيمون فيها إقامة أبدية مع من كان صالحا من آبائهم ونسائهم وأولادهم ليأنسوا بلقائهم وليتم بهم سرورهم، وإن لم يكونوا يستحقون هذه المنازل العالية بأعمالهم فالله يرفع منازل هؤلاء إكراما لأولئك. فنعمت العاقبة هذه العاقبة الحميدة.

اما الصورة الثانية فهي صورة باهتة كالحة، انها صورة الكافرين الذين ينقضون عهودهم بعدما وثقوا على أنفسهم لله أن يعملوا بما عهد إليهم من طاعته والإيمان به فيكون جزاؤهم البعد من رحمة الله ولهم ما يسوؤهم يوم الآخرة وهو عذاب جهنم وبئس العاقبة هذه العاقبة السيئة.

ويستمر السرد القرآني لبيان جزاء من يخالف عهده مع الله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ٧٧).

نعم فالذين يستبدلون بالعهد الذي عاهدوا عليه الله - من التصديق بالله وبرسله جميعا وبما أرسلوا به وبما أنزل عليهم من آيات وكتب - حطام الدنيا وعرضها الخسيس الزائل، فهؤلاء لا حظ لهم ولا نصيب من رحمة الله، ولا يكلمهم الله كلام أنس ولطف، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة يوم القيامة، ولا يطهرهم من أوزارهم، ولهم عذاب مؤلم لما ارتكبوه من معاصٍ.

الوفاء مع الناس

والأصل في العهد أوالعقد انه وثاق يوثق أمرا يتفق عليه طرفان أو عدة أطراف ليحقق لهم مصلحة أو مصالح محددة، قد تكون مشتركة بين الأطراف وقد تكون مصالح مختلفة لكل طرف. ولو شك طرف أن من يريد أن يعاهده ويتعاقد معه، معروف بنقض العهود والعقود والمواثيق، وإنه امرؤ لا ذمة له، لما جلس إليه وما عاهده. ولما كان الأصل أيضا أن يكون بين الناس تعاون وتآزر وتعارف وتلاقي مصالح. واشترط الحق سبحانه وتعالى أن تكتب العهود والعقود وتوثق الشروط التي تحكمها، وتحدد الحقوق التي تلزمها لكل طرف، وتحدد آجالها، لتكون المرجع والحكم والفيصل في أي اختلاف.

فاننا نفهم من هذا أن كل عقد يحقق مصلحة شرعية أو دنيوية - غير مخالفة لشرع الله - هو عقد يشهد الله على إبرامه وبالتالي يكون نقضه أمرا عظيما وجرما خطيرا ومخالفة صريحة لأمر الله ودينه.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (النحل: ٩١).

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء: ٣٤).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (المائدة: ١).

إنه الحق تعالى يوصينا: حافظوا على عهودكم التي عاهدتم عليها الناس أيها المؤمنون وجعلتم الله كفيلا عليها، فأدوا ما فيها من حقوق على التمام والكمال، فالله رقيب عليكم ويعلم بنياتكم ومطلع على كل أحوالكم، والله يكره أن تكون نياتكم مغشوشة. فلا يمكن أن تصان مصالح الناس وحقوقهم إلا بنيات صادقة وعهود وعقود لا تطالها الخيانة.والعهد مع الله والعهود والعقود والمواثيق مع الناس هي مقدسة والوفاء بها من تمام الإيمان.

ولهذا كان الحبيب المصطفى (ﷺ) يقول في نهاية كل خطبه:

[لا ايمان لمن لا امانة له ولا دين لمن لا عهد له] (البغوي).

الإسلام يعطي للوفاء قيمة أخلاقية عالية

نعم ان دين الله يعطي للوفاء قيمة أخلاقية عالية.. حتى يجعل الوفاء بالعهد ملزما مع المؤمن ومع الكافر. فالفضيلة التي يدعو إليها الله لا تتجزأ، ليكون المرء كريم الخلق وفيا صادقا مع قوم، ويكون سيء الخلق خائنا خسيسا مع آخرين.

ويقول النبي (ﷺ): [من أمّن رجلا ثم قتله وجبت له النار، وإن كان المقتول كافرا] (ابن خزيمة).

الوفاء مع غير المسلمين

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ٤)

نعم. فالمشركون إذا وفوا بعهودهم ولم ينكثوا، فاتموا عليهم عهودهم ولا تجعلوا الوفي منهم كالغادر، فإذا لم ينقصوا من شروط الميثاق الذي بينكم شيئا، ولم يعينوا عليكم أحدا من أعدائكم، فوفوا العهد معهم كاملا إلى انقضاء مدته فالله يحب المتقين لربهم الموفين لعهدهم.

﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ٧٦).

وهذا يدل على جواز العهد والتعاقد مع غير المسلمين لما فيه مصلحة الأمة، وعلى أن لا يحقق ذلك لغير المسلم تمكينا ضد دين الله وإضعافا للمسلمين ولو بعد حين.

أداء الدين من الأمور التي حرص الإسلام على الوفاء بها

من الشؤون التي اهتم الإسلام بها ونوه بقيمة الوفاء فيها هي الديون، وجعل سدادها من الحقوق الثابتة التي أكد عليها. وأول ما شرعه الإسلام في هذا هو أن حرم الاستدانة إلا للحاجة القاهرة، حتى لا يستسهل الناس الاقتراض في أمور يمكنهم الاستغناء عنها.

فقد ورد عن النبي (ﷺ): [إن الدَّين يقتص من صاحبه يوم القيامة إذا مات إلا في ثلاث خلال: الرجل تضعف قوته في سبيل الله فيستدين ليتقوى به على عدو الله وعدوه، ورجل يموت عنده مسلم فلا يجد ما يكفنه ويواريه إلا بدين، ورجل خاف على نفسه العزوبة فينكح خشية على دينه، فإن الله يقضي عن هؤلاء يوم القيامة] (ابن ماجة).

ونرى اليوم أن الرجل يلجأ إلى الدَّين ليتم زواج ابنه، وتراه يتعلق بأهداب هذا الحديث الشريف في ترويج اقتراض مبالغ كبيرة. ولو نظرت لرأيته يصرف المال الذي اقترضه في بذخ لا يصح أن يصرفه فيه حتى لو كان من حر ماله، من المبالغة في شراء

الذهب والملابس وإقامة الأفراح والولائم، مما يدخل في باب الإسراف والتبذير. حتى إذا هدأت طبول العرس، وسكت المغنون، رجع إلى نفسه حيران أسفا، فوجد أنه قد أفرط في الصرف، فيلزم زوج ابنه ببيع الذهب لسداد بعض الديون العاجلة، فتقع الخصومة بين الزوجين وهما في الأيام أو الأسابيع الأولى من حياتهما الزوجية، وتمتد الخصومة إلى أهل الزوجين وقد يتفاقم الأمر ويفضي إلى الطلاق، أو يبقى الزوج وأهله تحت وطأة الدين وثقله لزمن طويل. ولئن سألتهم لِمَ فعلتم هذا لأجابوك: أو تريد أن يرانا الناس أقل شأنا من فلان وفلان فيما صنعوا في أعراسهم؟ اذن هي الوجاهة ليس إلا!! وليست حاجة قاهرة. فهل بعد هذا الجهل والغباء والسفه من شيء؟

ونرى أيضاً أن الناس كثيرا ما يلجأون إلى الاقتراض في أمور كمالية بحته، ودون أن يلتفتوا إلى عاقبة عملهم هذا، ولا أن يكترثوا بكيفية سداد الدين، ومتى جاء أجل سداد الدين وطالب صاحبه برده، تهربوا منه حينا بعد حين، وحتى إذا ظفر بهم يوما أهانوه وأذلوه وأسمعوه لاذع الكلام!! فلا يجد المسكين إلا أن يلجأ إلى القضاء إذا كانت تحت يده بينة وحجة، أو يذهب لمن يرى فيهم الخير والصلاح لعلهم يناصرونه ويؤازرونه في استحصال دينه، أو يسكت ويحتسب أجره عند الله ولسان حاله يقول: (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، حسبي الله ونعم الوكيل).

بل تجد أيضا أن من يريد أن يقترض مالا من رجل لا يعرفه، يلجأ إلى رجل طيب ليكفله عند الرجل الغني، ولكن متى ما استحق موعد الوفاء بالدين، ماطل وسوّف وتهرب ثم تمنع، فيلجأ الغني إلى الكفيل ويحمله مسؤولية سداد الدين، أو يدفع ما تحت يده من عقود إلى القضاء فيقع الكفيل المسكين في ورطة، ولا يجد مخرجا مما أقحم نفسه فيه بحسن نية، وقد يخسر ماله وداره وسمعته، بينما يكون الرجل الذي اقترض المال غير آبه بذلك كله.

وفي هؤلاء وأمثالهم يقول النبي (ﷺ): [من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ومن أخذها يريد اتلافها، أتلفه الله] (البخاري).

ولهذا أيضا وفر الإسلام للدَّين ضمانات شتى واعتبرها أموالا حية، وألزم الناس بالوفاء بها، وقطع الطريق أمام كل من يريد الفرار من أداء هذه الحقوق المكتوبة، باللجوء إلى أداء عبادات أخرى رفيعة الأجر. وأي عبادة أجزل واعظم ثوابا من الشهادة في سبيل الله؟ إلا أنها لا تسقط عنه ما بذمته من دين. بمقتضى قول النبي (ﷺ): [يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدَّين] (مسلم).

وهكذا نرى أن أمرا ننظر إليه ببساطة شديدة كالدين، كيف يمكن أن ينحرف

فيحصل فيه كذب، وغدر، وخيانة، وغصب، وإيقاع أذى بمن مد يد العون والمساعدة كالذي أقرض المال، أو الذي كان شاهدا وكفيلا عليه.

ثواب الله للموفين بعهودهم ومواثيقهم

انها: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ (مريم: ٦١).

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (الاحقاف: ١٦).

اقرار الناس يوم القيامة بأن الله أوفى بعهده

﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ (التوبة: ١١١).

ويقر عباد الله بهذا الوفاء من ربهم في يوم الجزاء وبعد أن يأخذ كل ذي حق حقه وجزاءه.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف: ٤٤).

* * *

٢٩ـ الأمانة

من معاني الأمانة

الإيمان والأمانة توأمان لا يفترقان. فلا إيمان بلا أمانة ولا أمانة – بمفهومها الشامل – بلا إيمان. ولهذا قال الحبيب المصطفى (ﷺ): [لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له] (البغوي).

الإيمان والأمانة نسيج واحد

وخلق لصيق بالإيمان بهذا الشكل لا يمكن إلا أن يكون مع الإيمان نسيجا واحدا ويتشكل في هيئة لباس يلبسه المؤمن فلا يمكن أن ينزع عن نفسه لباس الأمانة لوحده، وإن حاول فإنما ينزع عن نفسه لباس الإيمان والتقوى أيضا، فتتكشف عوراته وتظهر سيئاته للناس ويصبح رجلا بغيضا يتجنبه الناس ويشيرون إليه: هذا رجل لا أمانة له فلا تعاشروه ولا تصدقوه.

الأمانة بين العبد وربه

ومن أعظم الأمانات ما كان بين المرء وربه والتي قبل الإنسان بحملها عندما عرضها الله عليه اختيارا لا إلزاما وهي كل الصفات التي ميز الله بها الإنسان عن سائر المخلوقات وكانت منشأ تكليفه بالأوامر والنواهي ليتميز من يكون أمينا عليها، مقيما

بالقسط لحدودها وحقوقها، عمن يعرض عنها ويخونها فيتجاوز الحدود ويضيع الحقوق.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٢).

وكفر المرء بالله أو الشرك به أو الكفر بأنعمه، أو جحوده وظلمه لنفسه أو لأحد من الناس، أو اقتراف الذنوب وارتكاب المعاصي. كل ذلك يدخل في خيانة الأمانة، لأن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان على فطرة سليمة وبث فيه من الصفات والإدراك ما يجعله قادرا على الالتزام بالتكاليف الإلهية ويصونها ويحافظ عليها إذا اهتدى إلى سبيل الرشد الذي يريده الله لكل الناس، اما إذا استهوته الشياطين وتملكته وقادته طيّعا مختارا ذليلا إلى طريق الضلال فإنه سيضيع الأمانة لا محال وإنه هالك وجهه.

هل امتنعت السماوات والأرض والجبال عن حمل الأمانة؟

وامتناع السماوات والأرض والجبال عن حمل الأمانة ليس امتناع مخالفة بل امتناع خشية وخوف من عدم القدرة على حفظ الأمانة العظيمة وحملها الثقيل مع مالها من العظمة والقوة، لذلك رضيت بقبول هذه الأمانة قبولا الزاميا وخشيت من قبولها قبولا اختياريا. وحملها الإنسان وهو شديد الظلم بنفسه مبالغ بالجهل بعواقب الأمور.

عظمة الإنسان تحققت في حمله للأمانة

وكأننا نستدل من الآية السابقة ﴿إنا عرضنا الأمانة... ﴾ إن المؤمن التقي الذي يحفظ العهد والأمانة مع الله تعالى فيكون أمينا على كل ما كلفه به ربه وخالقه، صادقا في نيته في قبول الأمانة وصادقا وأمينا على الوفاء بها، يكون من القوة والشموخ بما يجعل هامته باسقة تناطح السحاب، وتعلو على قمم الجبال الشامخات، ويكون يقينه أقوى وأرسخ من الجبال الراسيات التي جعلها الله تعالى أوتادا تثبت الأرض فلا تميد. وينطلق في الكون بقوة روحانية هائلة تتضاءل معها الأجرام ويخبو أمام نور إيمانه نور الشموس وضوء الكواكب، ولأجل هذا كان البغي والعدوان على هذه القوة الروحانية والإيمانية ذنبا عظيما وجرما كبيرا لا يضاهيه أي جرم. ولهذا قال النبي المصطفى (ﷺ): [لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله في النار] (رواه الترمذي).

رسول الله (ﷺ) يصف عظمة الإنسان المؤمن

وأراد رسول الله (ﷺ) أن يشرح لأصحابه عظمة الإنسان عندما يفعل الخير ويراغم الشيطان ويسمو إلى الملأ الأعلى فضرب لهم هذا المثل في سياق حديث له فقال:

[لما خلق الله الأرض جعلت تميد وتتكفأ فأرساها بالجبال فاستقرت فتعجب الملائكة من شدة الجبال فقالت: يا ربنا هل خلقت خلقا أشد من الجبال؟ قال: (نعم الحديد) قالوا: فهل خلقت خلقا أشد من الحديد؟ قال: (نعم النار) قالوا: فقل خلقت خلقا أشد من النار؟ قال: (نعم الماء) قالوا: فهل خلقت خلقا أشد من الماء؟ قال: (نعم الريح) قالوا: فهل خلقت خلقا أشد من الريح؟ قال: (نعم ابن آدم) إذا تصدق صدقة بيمينه فأخفاها عن شماله)] (الترمذي).

(إن الإنسان هذا الكائن العجيب يعتبر سيدا لعناصر الكون كلها يوازن أعتاها وأقساها فيرجحه ويربو عليه يوم يكون شخصًا فاضلا !ولكنه يُلعَن فى الأرض والسماء ويرجحه الذر والهباء يوم يكون شخصًا ساقطا).

الأمانة مع الله تمتد إلي الأمانة مع الرسول (ﷺ)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٢٧).

وخيانة الله هي خيانة ما فرض على العبد من التكاليف التي أؤتمنوا على أدائها. وخيانة الرسول هي بترك سنته وعدم احيائها والعمل بمقتضاها وهي أمانة في أعناق المؤمنين. والأمانات هي كل الأعمال التي ائتمن الله تعالى عليها العباد، وهذه الخيانة تكون عن علم بها ودراية بعواقبها.

الأمانة صفة المؤمنين

لذلك كان من صفات المؤمنين أنهم يراعون الأمانة ويحفظون العهد. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (المؤمنون: ٢٨).

فلا يليق بمن آمن بالله واحدا أحدا، وربّا رحيما، ورزاقا كريما، وعليما خبيرا، ويؤمن بنبيه ورسوله الخاتم محمد (ﷺ)، ويؤمن بما أنزل عليه وعلى جميع أخوانه من الأنبياء والرسل (عليهم السلام)، ويؤمن بالتكاليف التي أمره بها الله في محكم كتابه وعلى لسان رسوله (ﷺ). إلا أن يكون أحرص الناس على أماناته إذا اؤتمن وأشدهم وفاء بعهوده إذا عاهد.

أداء الأمانات أمر إلهي قبل أن يكون واجبا أخلاقيا

يأتي الخطاب الإلهي مباشرا وصريحا حول الأمانات.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء: ٥٨).

فالخطاب هنا جاء واضحا وشاملا لجميع المكلفين، كما أن الأمانات تعم جميع الحقوق بالذمم سواء كانت حقوق الله أو حقوق الناس.

نعم... الخطاب لكل واحد، وفي كل أمانة، وفي أي زمان. ولا يستثني عبدا أو سيدا، ولا مشركا أو مؤمنا، ولا صديقا أو عدوا. فالأمانة هي الأمانة وأداء الأمانة فرض على كل من يؤمن بالله ربا وبمحمد نبيا ورسولا.

كتابة العقود هو حرص على أداء الأمانة

ولأن المنهج الإلهي يحرص أن تبقى ذمم الناس سليمة ونظيفة، ونواياهم طيبة وصالحة، وأن لا تعصف بنفوسهم رياح الشك أو سوء الظن، أو يحاصرهم الشيطان بالوساوس ليوقع بينهم العداوة والبغضاء. فقد أمرهم الله تعالى بكتابة العقود بينهم بالعدل لتكون القلوب بمنأى عن كل ضغينة أو حقد أو شك.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٨٣).

والآية وان كانت تشير إلى السفر والرهان، فإنها تشير في الوقت نفسه إلى كل وسيلة تكفل حقوق الاطراف المتعاقدة وأيا كان موضوع العقد، شريطة ان يكون موضوع العقد وما يحويه من مواد وموضوعات – مادية أو معنوية – لا يخالف حدود الله ولا يفضي إلى إضرار مقصود أو واضح لأحد من الناس أو للمجتمع أو للبلد أو للبيئة حتى إذا كان العقد بين مؤمن ومشرك. والرهان شرع في حالة السفر والانقطاع عن الناس وعدم توفر من يكتب ويوثق ويشهد على الدين أو التعاقد – إذا كان حصول أمر كهذا ممكنا – فالرهن يكون بدل الكتابة والتوثيق يقبضها صاحب الدين وثيقة لدينه. وإذا أمن الدائن المدين واستغنى عن الرهن ثقة بأمانة صاحبه فعلى المؤتمن دفع الدين الذي عليه وليتق الله في رعاية حقوق الأمانة. وإذا دعي الشهود لأداء الشهادة فلا يجوز أن يكتموها فإن في كتمانها إثما كبيرا ويجعل القلب آثما وصاحبه فاجرا والله لا يخفى عليه شيء من أفعال الناس.

وهذه الآية دليل آخر على عظمة الإسلام وعظمة الأمانة.

نعم.. إنه دين الله الذي يحرص كل هذا الحرص على حقوق الناس بين بعضهم البعض فيفرد لها كلاما إلهيا قرآنيا مبينا لا يجرؤ على تعطيله إلا فاجر ولا يحيد عنه إلا فاسق عاص، ويجعل من خيانة الأمانة خيانة لله وعصيانا لأمره سبحانه وتعالى يستحق عنها غضب الله وعذابه.

وعامة الناس صاروا يقصرون الأمانة في أضيق معانيها وآخرها ترتيبا وهو حفظ الودائع، مع أن حقيقتها هي أعم وأسمى وأعظم.

الأمانة تشمل وجود العبد كله

- تشمل عقيدته ودينه وخلقه ومعاملاته.
- وتشمل حواسه ومواهبه.
- وتشمل أمواله وأولاده وتجارته.
- وتشمل عمله ووظيفته.
- وتشمل المشورة التي يعطيها لمن طلب منه الاستشارة.
- وتشمل حقوق المجلس الذي يجلس فيه.

فكلها ودائع الله الغالية عنده. وعليه استخدامها أو تسخيرها أو التعاطي معها في مرضاة الله وفي ظل حدوده ووفق أوامره ونواهيه.

حال المجتمع بين الأمانة والخيانة

وعلينا أن نتصور كيف يكون حال المجتمع إذا أدى كل من أؤتمن - في الحالات التي ذكرناها أعلاه – أمانته حق الأداء، الا يكون مجتمعا سليما ومعافيا ونظيفا ومتآزرا؟؟

وعلى نقيض ذلك إذا خان الطبيب والمهندس والقاضي والتاجر والعامل الأمانة التي في أعناقهم، وخان من استشار فأعطى مشورة غير صحيحة، وخان صاحب المجلس فافشى ما قيل وما رأى في المجلس. فكم تتعطل مصالح الناس وكم تفسد العلاقات وتنفرط عرى الروابط، وكيف تعم الفوضى في عموم المجتمع.

الأمانة خلق الأنبياء والمرسلين

لذلك ذكر لنا القرآن الكريم أن الأمانة هي خلق الأنبياء، ليعطيها بُعدا أخلاقيا أعظم. فهم أمناء على أداء الرسالة وأمناء ونصحاء لأقوامهم.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (الأعراف: ٦٨).

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الشعراء: ١٠٧).

ووصف الأنبياء أنفسهم بالأمانة هي تثبيت لما كانوا عليه قبل أن يبعثوا رسلا وأنبياء، ولأن اقوامهم قد خبروهم من قبل ووثقوا من أمانتهم وصدقهم وكأنما قولهم بنبوتهم هو استكمال لمسيرة الصدق والأمانة في حياتهم. وكأنما الأمانة صارت خلقا تطفح به وجوههم وترتسم على قسماتهم، فيراها المرء بكل يسر وسهولة في كل أقوالهم وأفعالهم، فلا يملك المقابل إلا أن يقر بهذه الأمانة.

فهذا ملك مصر يستخلص يوسف الصديق (عليه السلام) لنفسه ويقربه من عرشه ويجعله أمينا على خزائن الأرض. ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ (يوسف: ٥٤).

وهذه إحدى بنات سيدنا يعقوب تقول لأبيها عن كليم الله موسى (عليهما السلام): ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦).

وهذا هو الحبيب المصطفى (ﷺ) الذي كان يعرف قبل البعثة بـ (الصادق الأمين)، ولم يكن أهل مكة يجدون في من حولهم من هو خير منه وأكثر أمانة وأصدق قولا ليودعوا عنده حوائجهم وأموالهم وودائعهم التي يخافون عليها. واستمر هذا الأمر حتى بعد نبوته (ﷺ)، فقد بقي المشركون من أهل مكة يودعون عنده أماناتهم وودائعهم.

رسول الله (ﷺ) ضرب مثلا عظيما في الأمانة

وقد ضرب عليه الصلاة والسلام درسا بليغا في الأمانة عندما غادر مكة إلى المدينة فأخلف وراءه عليا (رضي الله عنه) ليسلم الودائع التي عنده إلى أهلها. وإذا درست الموقف بتمعن، وكم كان حرجا وخطرا والقوم قد مكروا واجمعوا أن يقتلوه، ورغم ذلك يفكر الحبيب بأماناتهم كيف يردها إليهم كاملة غير منقوصة -ويترك لذلك أقرب الناس وأحبهم إليه ابن عمه علي (رضي الله عنه) مع ما فيه من خطورة على حياته - لشعرت بعظمة النبي (ﷺ)، وبعظمة الأمانة عنده، وبعظمة الدرس الذي أرادنا أن نستمده من هذا الموقف. نعم إنها الأمانة والحبيب المصطفى لا يكون إلا أمينا ولا يأمر أصحابه وأتباعه إلا بالأمانة حتى مع العدو الذي يتربص بك.

الأمانة في الهدي النبوي الشريف

لنقف الان عند بعض ما قال المصطفى (ﷺ) في الأمانة:

[من سره أن يحبه الله ورسوله فليصدق حديثه إذا حدث، وليؤد أمانته إذا أؤتمن وليحسن إلى جوار من جاوره] (الألباني).

[أربع إذا كن فيك لم يضرك ما فاتك من الدنيا. صدق حديث، وحفظ أمانة، وحسن خلق، وعفة مطعم] (الألباني).

[ثلاثة يؤدين للبرّ والفاجر: الأمانة، والعهد، وصلة الرحم]

وروي عن عمر بن الخطاب انه قال: (ايها الناس لا تعجبنكم من الرجل طنطنته ولكن من أدى الأمانة، وكف عن أعراض الناس فهو الرجل).

***

٣٠ـ بر الوالدين

من معاني البر بالوالدين

والمقصود ببر الوالدين هو إيصال الخير إليهما ودفع الشر عنهما بقدر ما يستطيع الأبناء، والخير هنا هو إيصال الخير بالمال، وايصال الخير بالخدمة، وإيصال الخير

بادخال السرور عليهما بطلاقة الوجه وحسن المقال والفعال، والحرص على كل ما فيه راحتهما.

التكريم الإلهي لمقام الوالدين

بر الوالدين ليس منة يمن بها الأبناء على الآباء. بل هو أمر فرضه الله سبحانه وتعالى واجب التطبيق، والناكر لذلك أو المفرط فيه يكون قد باء بسخط وغضب من الله تعالى.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (العنكبوت: ٨).

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا... (١٥)﴾ (لقمان: ١٤-١٥).

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ (الأحقاف: ١٥).

هذا التكريم الإلهي لمقام الوالدين على الأبناء مراعاته حتى عند اختلاف الرؤى والأفكار بين الطرفين، بل وحتى عندما يصل الخلاف إلى جوهر العقيدة، وحتى إذا بذل الوالدان كل مجهوداتهما لتحريف عقيدة الأبناء من الوحدانية إلى الشرك والضلال. فإن وصية الله سبحانه وتعالى للأبناء عدم اطاعتهما في هذا الركن الأساسي مع الحرص على المصاحبة بالمعروف والمعاملة بالحسنى في كل شؤون الحياة.

قرن الله مقام الوالدين بإفراد العبادة لذاته العلية

يأخذ التكريم لمقام الوالدين شأوا أبعد ومنزلة أرفع عندما يقرن الحق عبادة الخلق له وحده سبحانه وتعالى بالإحسان للوالدين.

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)﴾ (الإسراء: ٢٣-٢٤).

وقضى ربك... والقضاء الرباني هو القضاء الذي لا رجعة فيه، وحكمه هو الحكم الذي لا استئناف ضده. لأنه قضاء وحكم صادر من معين العدل الإلهي المطلق، والإحسان هنا يمتد ليشمل السلوك والجوارح فلا يقال لهما إلا الكلام اللين الكريم الذي ينم عن احترام كبير وتودد بيّن، وتكون مظاهر الرحمة والرأفة بهما بادية على قسمات وجوه الأبناء وأعطافهم. وحتى عند احتدام الصراع وتهيج الأنفس لأي

أمر كان بين الأبناء والآباء، فإن الخالق سبحانه وتعالى قد رسم خطوطا حمراء لا يجوز للأبناء اجتيازها أو التطاول عليها... [... فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما].

لا اجتهاد للأبناء في وجوب البر بالوالدين

الله سبحانه وتعالى وهو الخالق للنفس البشرية وهو العالم بمكنوناتها، عندما يصدر قضاءه وحكمه بين الأبناء ووالديهم بهذه الصفة القطعية، فإنه لا يترك فسحة للاجتهاد لأي ولد عاق يريد التجاوز على حكم الله في اسلوب تعامله وطريقة معاشرته لوالديه. فحكم الله واضح جلي لا لبس فيه ولا مجال للاجتهاد والتبرير إذاً. والعاق لوالديه انما يرتكب كبيرة من أعظم الكبائر.

بر الوالدين في الهدي النبوي الشريف

كما نعلم أن مدرسة الحبيب المصطفى (ﷺ) هي مفسرة ومكملة لكتاب الله الكريم لذلك كان لا بد أن يكون هناك تطابق كلي في مضامين القرآن ومقاصده مع ما ورد في السنة النبوية الشريفة.

وفيما يلي الدليل على ذلك بحق البر بالوالدين:

في حديث لابن مسعود قال قلت يا رسول الله أي العمل أحب إلى الله. قال [الصلاة في وقتها]، قلت ثم. قال: [بر الوالدين]، قلت ثم. قال: [الجهاد في سبيل الله] (البخاري).

فالرسول هنا يقدم بر الوالدين على الجهاد في سبيل الله، مع ما للجهاد من قيمة عظيمة عند الله، وما للمجاهد من ثواب كريم، ومقام رفيع في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وفي حديث لأمير المؤمنين علي (رضي الله عنه) انه قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: [أنا بريء ممن لم يؤد حق والديه] فقلت: يا رسول الله فإن لم يكن معه شيء قال: [اذا سمع قولهما فليقل سمعا وطاعة ولا يقل لهما أف ولا ينهرهما وليقل لهما قولا كريما].

روي أنه جاء رجل إلى النبي (ﷺ) فقال يا رسول الله أوصني بوصية أنتفع بها في الدنيا والآخرة فقال عليه السلام: [هل لديك والد ووالدة] فقال نعم، قال: [اذا أديت حقهما وأطعمتهما لك بكل لقمة قصر في الجنة].

وعن أبي ذر الغفاري (رضي الله عنه) أنه قال: سمعت رسول الله يقول: [من مشى لزيارة والديه كتب الله له بكل خطوة مائة حسنة ومحا عنه مائة سيئة ورفع له مائة درجة. فإذا جلس بين يديهما وتكلم معهما بطيب الكلام أعطاه الله تعالى يوم القيامة

نورا يسعى بين يديه، فإذا خرج من عندهما خرج مغفورا له].

وقال بعض العلماء: ثمة آيات ثلاث نزلت مقرونة بآيات لا تقبل واحدة منها بغير الأخرى. الأولى قوله تعالى ﴿أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ فمن صلى الصلاة ولم يؤد الزكاة لا تقبل صلاته. والثانية قوله تعالى ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ فمن أطاع الله ولم يطع الرسول لا تقبل طاعته. والثالثة قوله تعالى ﴿ان اشكر لي ولوالديك﴾ فمن شكر الله ولم يشكر لوالديه لا يقبل الله شكره.

للبر بالأم درجة أعلى

للأم درجة أعلى من الأب في البر وحسن المعاشرة، ولكن دون أن ينقص ذلك من حق الوالد على الأبناء في شيء مما ورد في الآيات القرآنية آنفة الذكر.

ولكن الأم وهي تتحمل عظم المسؤولية الجسدية والنفسية ايام الحمل والوضع والرضاعة، وفي المراحل اللاحقة من العمر والى أن يصلب عود الولد ويعتمد على نفسه وكذلك خطورة المسؤولية التربوية باعتبارها المدرسة الأولى التي يتخرج فيها النشء والأجيال كان لا بد أن يكون البر للأم أضعافا مضاعفة.

قال رجل يا رسول الله من أحق الناس بحسن مصاحبتي قال:

[أمك]، قال ثم من قال: [أمك]، قال ثم من قال: [أمك]، قال ثم من قال: [أبوك] (البخاري).

جاء رجل إلى النبي (ﷺ) فقال: يا رسول الله إن لي والدة أنفق عليها وهي تؤذيني بلسانها فكيف أصنع؟ فقال عليه السلام: [أد حقها فوالله لو قطعت لحمك ما أديت ربع حقها، أما علمت أن الجنة تحت أقدام الأمهات]. فسكت الرجل وقال: والله لا أقول لها شيئا. ثم أتى الرجل والدته وقبل قدميها وقال: يا والدتي بذلك أمرني رسول الله.

وروي عن ابن عباس قال: قال رسول الله (ﷺ): [ما من رجل بار ينظر إلى والده أو والدته نظرة رحمة إلا كتب الله تلك النظرة حجة متقبلة مبرورة﴾ قالوا: يا رسول الله وإن نظر في اليوم مائة مرة قال: ﴿الله أكبر من ذلك].

طاعة الوالدين في نظر الفقه الإسلامي

ويقول الفقهاء: إن طاعة الوالدين واجبة فيما فيه نفع لهما ولا ضرر على الولد فيه. أما ما فيه ضرر عليه سواء كان ضررا دينيا كأن يأمراه بترك واجب أو فعل محرم فإنه لا طاعة لهما في ذلك، كذلك إذا كان ضررا بدنيا فلا تجب عليه طاعتهما، أما المال فيجب عليه أن يبرهما ببذله ولو كثر، إذا لم يكن عليه ضرر ولم تتعلق به حاجة.

المؤمن لا يملك إلا أن يخفض لوالديه جناح الذل من الرحمة

المؤمن إذ يرى كل هذا التعظيم والتشريع الذي شرعه الله في حق الوالدين - في

آيات بينات من قرآن يتلى إلى يوم الدين، وفي تعليم وتهذيب يضج به الهدي النبوي الشريف - لا يملك إلا أن يخفض لهما جناح الذل من الرحمة فيكون بره بهما عن طيب خاطر ومحبة صادقة وتذلل كامل. وكما يحرص على طاعة ربه والامتثال لأمره، فإنه يطيع والديه ويمتثل لكل أمرهما ما لم يكن في معصية الخالق. ولا يهنأ له بال ولا يطيب له مقام إلا بعد أن يستيقن أنهما قد رضيا عنه كل الرضا.

٣١ـ الإحسان إلى الجار

رسول الله يربط بين الإيمان بالله والإحسان إلى الجار

يقول الحبيب المصطفى (ﷺ): [من كانَ يؤمنُ باللهِ واليوم الآخر فليُحسن إلى جاره] (بخاري ومسلم).

لماذا هذا الربط الوثيق بينَ الإيمان بالله واليوم الآخر وبينَ الإحسان إلى الجار يا رسول الله؟؟

هل إنَّ الإحسان للجار مكمِّل للإيمان؟؟

أم أنَّ المؤمن الحق الذي يؤمن بالله واحداً أحداً خالقاً صمداً، ويؤمن بأنَّ الحياة الدنيا هيَ دارُ ابتلاء، وإنَّ الرجعة تكون لله في اليوم الآخر، فتُجزى كلُّ نفسٍ بما كسبت ولا يظلمُ ربُّكَ أحداً، لا يكون قولهُ وفعله وسلوكه إلا فيما يَرضى الله عنهُ ورسوله؟؟ فيؤمن أنَّ الجيرة الطيبة من مكارم الأخلاق التي بعثَ الله نبيهُ محمداً (ﷺ) ليتممِّها!!.

هاهوَ قول الحق (ﷻ) في قرآنه ودستورهِ لعباده في الإحسان إلى الجار:

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (النساء: ٣٦)

وهاهوَ الرسول الكريم (ﷺ) يقول أيضا في حق الجار:

[لا والله لا يؤمن، لا والله لا يؤمن، لا والله لا يؤمن]، قالوا: ومن ذاكَ يا رسول الله؟ قال: [جارٌ لا يأمنُ جارهُ بوائقه، قيل وما بوائقه قالَ شرَّه] مسند أحمد.

[لا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل المؤمن الجنة حتى يأمن جاره من لسانه]

[ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به] (الهيثمي).

[خير الأصحاب خيرهم لصاحبه وخير الجيران خيرهم لجاره] (الترمذي).

والربط الذي أوجدهُ الرسول الكريم بينَ الإيمان بالله والإحسان إلى الجار مستمد

من كتاب الله المُبين كما رأينا.

كيفَ تنظر إلى من يدّعي الإيمان والإستقامة والصلاح ثمّ يؤذي جاره؟:

• فتراه لا يكترث بما يجري لجاره من مصائب ومحن ولا يهب لنجدته إذا داهمَ اللصوص داره في جوف الليل أو شبّتِ النّارُ فيه.

• وتراه إذا قصدهُ جارهُ في مسألةٍ صدَّهُ ونهرهُ وأغلظَ عليهِ القول.

• وتراه يسلِّط أولادهُ وغلمانه على جارهِ إيذاءاً واعتداءاً ليضطرَّهُ إلى تركِ داره أو بيعه له بأبخس الأثمان.

• وتراه يعتدي على أرض جاره بالقوة والإكراه ويضمها إلى أرضه إذا وجدَ أنَّ جاره مسكين لا يملك أن يرد عن نفسهِ ظلمه.

• وتراه يتحيَّن الفرص للتعرُّض لشرف جاره في زوجته أو أخته أو ابنته ويسلك في ذلك كلما يملك من مكرٍ وإغواء.

• وتراه يجعل من حديقة جاره أو سطح منزله مكبًّا لنفاياته وقاذوراته فيسكت الجار المسكين إتّقاءً لشرِّه وسوء خلقه.

• وتراه يمنع نفسه وأهله وأولاده عن مخالطة الجيران حتى من كان منهم شيخا كبيرا أو امرأة عجوزا، أو فقيرا معوزا. ويقول في ذلك لو راجعه أحد (إنما نكفي أنفسنا خيرهم وشرهم).

فهل يفعل هذا من يؤمن بالله واليوم الآخر؟؟

حقوق الجار على الجار هو أن:

• تبادره بالسلام وتبش في وجهه كلما أقبلت عليه أوصادفته في طريقك لتوصل إليه رسائل المحبة التي أودعها الله في تحية الإسلام.

• ولا تطيل الكلام معه أو تكثر السؤال عن أحواله كي لا تضايقه.

• وتحفظ عرضه وماله في وجوده وغيابه.

• ولا يرى منك إلا الصحبة الطيّبة والجيرة الحسنة.

• وإن أردتَ أن تبيع دارك أو أرضك فلا تفعل إلا بعدَ أن تستشير جارك فإن رغبَ فيهما يكون هوَ الأولى بالشراء.

• وتمد إليهِ يد العون كلما جاءكَ يطلب عونك أو رأيتَ أنتَ أنَّهُ بحاجة إلى مساعدتك.

• وتصفح عن زلاته وتعفو عما بدر منه من سوء في حقك.

• ولا تتطلع من السطح أو من النوافذ إلى عوراته. وإن انكشف لك شيء منها صدفة قمت بستره.

- وتمنع عنه أي أذى منك أو من أهلك وأطفالك إلى داره وممتلكاته أو لمن يقيم في الدار منهم.
- ولا تضيق طريقه إلى الدار ولا تتبعه النظر فيما يحمل إلى داره.
- ولا تغفل عن ملاحظة داره عند غيبته.
- وتتلطف بأولاده في الكلام.
- وتهنئه في أفراحه وتظهر الشركة في السرور معه، وتدعوه إلى أفراحك.
- وتزورهُ في مرضه وتعزيه في مصيبته وتقوم معه في العزاء وتمشي في جنازته وتكون السند لأهلِهِ وأولادِهِ من بعده على قدر الاستطاعة.
- وترشده إلى ما يجهله من أمر دينه ودنياه.

الجيرة الطيبة من دعائم بناء المجتمع القوي

هذه الوشيجة الطيِّبة – التي تربطك بجيرانك والمستمدَّة من كتابِ الله وسنَّة رسوله – تخلق مناخاً تسودهُ الألفة والمحبة والتعاون في المجتمع. فتسافر وأنتَ مطمئن أن أهلك وأولادك ودارك في مأمن من جيرانك، بل هم في حماية الله ثم حماية جيرانك..

حقوق الجار تتجاوز وحدة العقيدة

والجيرة الطيبة تمتد لتشمل كل من يجاورك ولا تفرِّق بينَ غنيٍ وفقير ومسلمٍ وغير مسلم وهي مراتب.

فالجار المسلم القريب له ثلاثة حقوق: حق الإسلام وحق القرابة وحق الجوار.

والجار القريب غير المسلم له حقان: حق القرابة وحق الجوار.

والجار المسلم له حقان: حق الإسلام وحق الجوار.

والجار غير المسلم له حق الجوار.

حقوق الجار في الهدي النبوي الشريف

هذا رسول الله (ﷺ) يقول أيضا في حقوق الجوار:

[ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه] (متفق عليه).

[ان من سعادة المرء المسلم: المسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهني] (أحمد والحاكم).

[من كان له جار في حائط أو شريك فلا يبعه حتى يعرضه عليه] (ابن ماجة والحاكم).

وقيل لرسول الله (ﷺ): ان فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها، قال: [هي في النار] ثم قيل له يا رسول الله فلانة تذكر من قلة صلاتها وصومها وأنها تتصدق

بالأثوار من الأقط، (بالقطع من العجين) ولا تؤذي جيرانها قال [هي في الجنة] (أحمد والحاكم).

ونفهم من هذا أنه لا يمكن الفصل بين الدين وحسن الخلق. وحسن خلق مع قليل من طاعة خير من كثير من الطاعة مع سوء الخلق.

وكأنما يريد رسول الله (ﷺ) أن يقول: لا يليق بالمؤمنين من أمتي أن تكون لهم صفات ذميمة وأخلاق منكرة منفرة، فهي تشوه النسيج الإيماني الذي يريده الله تعالى لباسا لهم. فمن يخلع لباس حسن الخلق ويلبس ثوب الكراهية والحقد ويؤذي جيرانه فماذا يفعل الله بكثرة صلاته وصومه!!

وهكذا نرى الهدي المحمدي الشريف يثبت حقوق الجوار في أبهى صورها وأرقى معانيها حتى يجعل من عدم الوقوف عليها ومراعاتها أويتعدى عليها طريقا يفضي بصاحبه إلى النار ولا تشفعه في ذلك كثرة صومه وصلاته.

كيف فهم صحابة رسول الله حقوق الجوار؟

قال مجاهد: كنت عند عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) وغلام له يسلخ شاة، فقال: يا غلام إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي، حتى قال ذلك مرارا فقال له: كم تقول هذا؟ فقال: إن رسول الله (ﷺ) لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه.

وجاء رجل إلى ابن مسعود (رضي الله عنه) فقال له: إن لي جارا يؤذيني ويشتمني ويضيق علي، فقال: اذهب فإن هو عصى الله فيك فاطع الله فيه.

كيف تصحح فهمك لحقوق الجوار؟

فهل تستدرك امر نفسك وتنظر ما أنت عليه ثم تسأل نفسك؟ هل تحلو الحياة إذا أقفلتَ عليكَ باب دارك دونَ جيرانك فلا تصل جارك وإن كانَ من ذوي قرباك. حتى من يسلم عليكَ منهم فإنَّكَ تتثاقل في الرد عليه ولا تفعل إلا مُكرهاً وبكلامٍ غير مفهوم ووجهٍ عبوس وكأنَّكَ تدعوهم إلى عدم السلام عليك تارةً أخرى؟؟ فتكون عنصراً مشلولاً ومنبوذاً في الوسط الذي تعيش فيه؟؟

وهل تستقيم الحياة إذا كانَ الجار يتربَّص بجارهِ للإعتداء على عرضه أو ماله أو الإساءة إليه؟؟ فيعيش الجميع حياة قلقة مضطربة لا يأتمن أحدهم غدر جاره وشره ويبدأ الشك يغزو قلوبهم كلّ تجاه الآخر ويمكر بعضهم ببعض ويتجسس أحدهم على الآخر ويغتابه؟؟

هذا ما يريدُ اللّهُ ورسولهُ أن يجنبنا إيَّاه من خلال الإحسان إلى الجيران. فهل إلى اقتداء بسنته من سبيل؟؟

❊

٣٢ـ الإنفاق في سبيل الله (الكرم والجود والسخاء)

الله تعالى هو المنعم

المؤمن الذي يدرك عظَمة خالقه ويفقه كُنه مشيئته في خلقه، يَترسَّخُ في يقينه ووجدانه أنَّ ما بِهِ من نعمة وما يصيبُ من نجاحٍ وما يُبَصَّر بعلمٍ ومعرفة وحكمة وما يؤتى من أرضٍ ومالٍ ويُرزق من ولدٍ لا يكونُ إلا بمشيئةِ الله وبفضلهِ وكرمه.

بذل العطاء الرباني أو منعه وقبضه هو امتحان وابتلاء

ويدرك المؤمن أنَّ بذل العطاء الرباني لهُ أو منعه وقبضهُ لا يكون إلا ابتلاءاً وامتحاناً إلهياً وقد أفلحَ من وعى الدرس وأجتازَ الإختبار وخابَ من جَحدَ وأنكر فأعرض.

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠)﴾ (الفجر: ١٥-٢٠)

نعم إنَّ المرء مالم يكن قلبهُ وجوارحهُ كلها تنبض بالإيمان فإنهُ لا يجد في بذلِ العطاء الرباني أو قبضهُ ابتلاءاً، فها هوَ يظنُّ أنَّ الله وقد أكرمهُ وأسبغَ عليهِ نعمهُ إنما هوَ استحقَّ الكرم الرباني عن جداره وليست منةً وعطاءاً من الله.

وها هو يظن أيضاً أنَّ الله وقد قبضَ عنهُ نِعَمهُ وقترَ عليه رزقه فقد أهانَهُ بدون وجه حق.

وهذا الظن يورد صاحبهُ موارد الهلاك ويدخله في دائرة الشرك. فليسَ لمخلوق أن يصفَ فعل الله بغير وصفهِ، أو يضعهُ في غير موضعه.

وانه بذلك لا يقدِّر كرمَ الله وفضلهُ عليه عندما أجزلَ له العطاء والنعم، وينسى أنه أصبح عبداً للمال الذي وهبه الله أياه، يحبه حباً جماً أكثر من حبه لله سبحانه وتعالى، فلا يكرم يتيماً ولا يطعم مسكيناً.

والمؤمنُ الكيّس الفطن وهوَ يدرك كل هذا تكون يدهُ مبذولة بالعطاء ولسانه ناطقاً بالدعوة إلى الله والنصيحة لعباده والشكر والحمد لربه.

من يفهم كرم الله لا يكون إلا سخيا

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد: ١١)

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد: ١٨)

أنظر إلى كرم الله وسخائه مع عباده فمن بذل ماله في سبيل الله فيكرم يتيماً أو مسكيناً أو يجهز غازياً أو يعاون طالب علم أو يعمر بيتاً من بيوت الله أو يجري صدقه دائمة فإن الله يحتسب المال المبذول كقرضة حسنة من العبد فيرده مضاعفاً يوم القيامة وفوق ذلك يعطيه أجراً كريماً حسناً.

التصوير القرآني لثواب من ينفق أمواله في سبيل الله

انظر إلى عظمة وجلال التصوير القرآني لثواب من ينفق أمواله في سبيل الله.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦١).

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَا.....﴾ (البقرة: ٢٧٦).

نعم لا ريب أن الإنفاقُ في سبيلِ الله والصدقة بابٌ من أبوابِهِ يثمرُ خيراً كثيراً. والتصوير الرباني لهذا الإثمار يأتي ليضربَ حبة الحصيد مثلاً، فالحبة الواحدة تتضاعف إلى سبعمائة ضعف، وهذا المثل الرقمي من لدن رب العزَّة هو ليخلق في الذهن التصوُّر المادي لعظمة ثواب الله لمن يُنفق مالهُ في مرضاته، ثمَّ لِيُثبِّت في الفؤاد اليقين بأنَّ عطاء الله وجزاءه لا حدود لهما والله يضاعف لمن يشاء في رزقهِ الذي لا يعلم حدودهُ أحد، ويُضاعف من رحمتهِ التي لا يعلم سعتها ومداها أحد، فيتلاشى هذا التضخيم الرقمي المحسوس في مسألة إنبات الحبة ويخرج الموضوع عن نطاق الحساب، فَمَعَ عطاءِ الله تتعطَّل كل مقاييس الإحتساب الدنيوية.

عطاء الله يسبق المؤمن الصالح إلى الجنة

عطاء الله لا ينحصر في الدنيا فقط فالعطاء الرباني يشمل الإنسان في كل مراحل الحياة الدنيا وفي حياة البرزخ وفي يوم الحشر والحساب، وليسبق عطاؤهُ ﷻ العبد إلى الجنَّة فيدخلها فيرى ما أعدَّ اللَّهُ لهُ فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطرَ على قلبِ بشر.

المؤمن السخي لا يرجو إلا ثواب الله في الآخرة

الآخرة هيَ دار القرار وهيَ ما يجب أن تتجه إليها الأفئدة والأبصار لتؤمِّنَ لها مقاماً محموداً هناك. ولا يظنَّن أحد أنَّهُ إذا أعطى ديناراً لفقير فإنَّهُ يستردَّها عشراً أو سبعمائة بعدَ حين ومن يظن ذلك فإنَّ إنفاقهُ ليسَ لوجه الله بل للربح المادي المجرَّد الذي يظن أنَّهُ سيكسبهُ، وإذا نظرنا إلى عطاءِ الله بمنظار صدئ ضيِّق الرؤية لا يتعدَّى مداه أفق الحياة الدنيا يكون ثمة خلل في إيماننا والغاية من إنفاقنا الذي ندَّعي أنَّهُ ابتغاء مرضاة الله.

بركة الله تحل على المتصدقين والمتصدقات في الحياة الدنيا أيضا

صدقَ رسول الله (ﷺ)عندما قال:

[من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبه كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل] (البخاري).

نعم إنَّ الله سبحانهُ وتعالى يُبارك للمتصدِّق في رزقهِ وفي أهله وفي صحته وفي عبادته وفوقَ ذلك يؤتيهِ أجراً عظيماً.

وهذهِ البركة التي تحل على المتصدقين والمتصدقات في الحياة الدنيا لا تشعرهم إطلاقاً بأنَّهم خسروا شيئاً من مالهم جرَّاء الصدقة، ولو أنَّ غرضهم أصلاً من الإنفاق كانت مرضاة الله واحتساب الأجر عنده. فهم يدركون أن الفوز بحظٍ زائل من حظوظ الدنيا ليسَ فوزاً حقيقياً بل إنَّهُ فوز وهمي سرعان ما يتلاشى، ومن يبحث عن فوز في الدنيا فقط فلا يأمر بصدقة أو معروف ولاينفق المال في سبيل الله ولا يصلح بينَ النَّاس ابتغاء مرضاة الله فإنَّه يحجب عن نفسه فوزاً عظيماً خالداً، وهذا هوَ الخسران المبين.

القواعد الإيمانية في الإنفاق في سبيل الله

ولكن!!

للإنفاق في سبيل الله وللكرم والسخاء شروط:

اولها.. ان تبدأ بمن تعيل فلا يصح أن تكثرُ من الإنفاقِ في وجاهة الدنيا وزينتها وتكونُ بخيلاً معَ أهلك وذوي قرباك. وهذا مصداق قول الحبيب المصطفى (ﷺ): [اليد العليا أفضل من اليد السفلى وابدأ بمن تعول أمك وأباك وأختك وأخاك وأدناك فأدناك] (الهيثمي).

وثانيها.. أن لا يصل إنفاقك لحد الإسراف فتصرف كل ما عندك وتترك أهل بيتك وأولادك في حاجة وفاقة.﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ (الإسراء: ٢٩). ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: ٦٧).

وثالثها.. أن لا تتبع الصدقة بالمن والأذى وأن لا يكون تصدقك رياء وتزلفا. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ...﴾ (البقرة: ٢٧٦).

ورابعها.. أن تعطى بوجه طليق مستبشر غير مستكره.

وخامسها.. أن تكون مما تحب من مال أو طعام أو كساء. ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ٩٢). ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا

الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (البقرة: ٢٦٧).

وسادسها.. أن تكون في السر والخفاء - كلما كان ذلك ممكنا - ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٧١)

وسابعها.. أن تكون من المال الحلال، فالله تعالى غني ولا يقبل إلا الحلال.

كيف ينظر المؤمن إلى موضوع الكرم والسخاء

والمؤمن ينظر إلى الأمر هكذا:

الله هو الذي خلقه وهو الذي بث فيه صفة الكرم، ويريده أن يستخدم هذه الصفة لأقصى مداياتها، وهوَ الذي آتاهُ المال من فضلهِ، وهوَ الذي حثهُ على إنفاقه في سبيله على أهلهِ ووالديه، وذوي قرباه، وعلى اليتيم والمسكين وابن السبيل، وعلى جارهِ وعلى الفقير الذي لا يسأل الناس تعففاً، وأن يجري بهِ صدقة دائمة.

ويؤمن أنَّ كل شئ في الوجود هوَ ملكٌ لله الذي ليسَ لهُ شريكٌ في ملكهِ فهوَ إن أعطى فإنَّما يُعطي من مالِ الله واللَّهُ يمنحه أضعاف ما أنفق من ماله، وما دام يؤمنُ أنَّ المالَ مالُ الله فإنَّ مالَ الله لا ينضب ولا يقل بالصدقات والإنفاق الطيّب.

واذ يصل العبد المؤمن إلى هذه الحقيقة، أفلا يكون بعد ذلك كريما وسخيا لينال ما اعده الله من ثواب عظيم يوم القيامة للمنفقين أموالهم لوجه الله تعالى؟؟

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (لبقرة: ٢٧٤).

الكرم والسخاء في الهدي النبوي الشريف

عن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: [السخاء شجرة أصلها في الجنة وأغصانها متدليات في الدنيا فمن تعلق بغصن منها قاده الغصن إلى الجنة. والبخل شجرة أصلها في النار وأغصانها متدليات في الدنيا فمن تعلق بغصن منها قاده إلى النار] (البيهقي).

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال قال النبي (ﷺ): [السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار ولجاهل سخي أحب إلى الله من عابد بخيل وأكبر الداء البخل] (ابن جرير الطبري).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي (ﷺ) أنه قال: [من كان له مال فليتصدق بماله، ومن كان له علم فليتصدق بعلمه، ومن كان له قوة فليتصدق بقوته]

(ابن رجب).

وقال عليه الصلاة والسلام: [على كل مسلم صدقة] فقالوا: يا نبي الله فمن لم يجد قال: [يعمل بيده فينفع يده ويتصدق] قالوا: فإن لم يجد، قال: [قال يعين ذا الحاجة الملهوف] قالوا: فإن لم يجد، قال: [قال فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فإنها له صدقة] (البخاري ومسلم)

[ما من مسلم يكسو مسلما إلا كان في حفظ الله عز وجل ما دامت عليه منه رقعة] (أبو حاتم الرازي).

[الرجل في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس] (ابن حبان).

دائرة الكرم واسعة وفي متناول الجميع؟

إن الهدي المحمدي الشريف يريد أن يشدنا إلى الكرم والسخاء والإنفاق في سبيل الله، فيوسع دائرة البذل والعطاء حتى يجعلها في مقدور كل مكلف، فيكون طعاما تصنعه بنفسك، وتطعم منه أخوانك، وتكون عدل تمرة، وتكون شربة ماء، وتكون آية من كتاب الله. أو تكون بذلا وسخاء بعلمك وقوتك، أو بجاهك ومركزك.

وإننا نفهم من هدي الحبيب المصطفى (ﷺ) أن الصدقة عبادة اجتماعية فهي تقود بالنتيجة إلى تقوية روابط المحبة والإلفة والتعاون والتآزر في المجتمع. لذلك كان عليه الصلاة والسلام يحث عليها ولوكانت في أبسط صورها المادية والمعنوية كما رأينا. والله تعالى ينظر إلى القيمة الروحية للعمل، وإلى النيات التي وراءه، والى مقاصده وغاياته النهائية. لذلك قال عليه السلام: [سبق درهم مائة ألف درهم: رجل له درهمان أخذ أحدهما فتصدق به، ورجل له مال كثير فأخذ من عرضه مائة ألف فتصدق بها] (الألباني).

درهم واحد من فقير لا يملك إلا درهمين، أو يعطى من كسب حلال وبالاستبشار خير من مائة ألف درهم تعطى من غني يملك مالا كثيرا، أو تعطى مع الكراهة ولانقول من مال حرام لأن الله أصلا لا يقبل إلا المال الحلال.

ولكن ثمة امتحان امامك!!

فعليك بإخلاص النية وجعلها خالصة نقية لوجه الله تعالى. فقد سقط كثيرون قبلك في الامتحان.

وقد أنزل الله هذه الآية في كل الذين عاهدوا الله على أن يتصدقوا متى ما آتاهم الله من فضله، ثم سقطوا في الامتحان ولم يوفوا بما عاهدوا الله عليه:

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى

يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧)﴾ (التوبة: ٧٥-٧٧)

اللهم ربّي ما أعظمك، ونحنُ نقرأ قرآنك أو ندرس سنة نبيك نجد في كلِّ وقت وحين أمثلة حية لما ذكرتهُ في كتابك.

إنها النفس البشرية الأمَّارة بالسوء – وعلى مرّ الأزمنة والعصور – التي تحض صاحبها على الإتيان بما لا يرضى عنهُ الله ورسوله فمنَ الناس من يضعف أمامَ ضغط النفس الأمَّارة فيسقط في وحل المعصية والجحود والإنكار ومنهم من يقاومها ويصدها فينجو إلى رحمة من الله وجنةٍ عرضها السماوات والأرض أعدَّت للمتقين.

إنَّهُ الإبتلاءُ الرباني: ها قد أوتيتَ سؤلكَ وآتاكَ اللَّـهُ من فضلهِ، ففيمَ جحودكَ وإعراضك وبخلك؟؟ وفيمَ تنكّركَ لعهدكَ الذي قطعتهُ لله؟؟

فجزاؤك اليومَ بما أخلفت الله ما وعدته نفاقاً يتشرَّب بهِ قلبك وتصطبغ بهِ أفعالك إلى يوم الدين.

درس للأمة

فهل لنا في هذه الآية درسٌ بليغٌ لأغنيائنا وأثريائنا الذين ملؤوا بأموالهم وودائعهم بنوك العالم، وأوصلوا استثماراتهم إلى بقاع الأرض كلها، فيما أرضُ الإسلام، والمسلمون من بني جلدتهم، بل ومن ذوي قرباهم، بأمس الحاجة إلى هذه الأموال وهذه الاستثمارات؟

نزل قرآن يتلى بمن عاهد وأخلف، فكم عندنا اليوم ممن لهم أضعاف أضعاف ما كان يملك من نزلت فيهم هذه الآيات وهم أيضا قد نسوا حق الله وحق السائل والمحروم في أموالهم؟؟

نسأل الله تعالى أن يهدينا جميعا لنفهم ونتدبر القرآن كما أنزله الله على قلب حبيبه ورسوله (ﷺ). ونعلم أن المقصود بهذه الآية ليس شخصا بعينه، وإنما هو تذكير إلهي وتشريع وبيان للناس كافة وإلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

❊

٣٣- صلة الرحم

مكارم الأخلاق تشد بعضها بعضا

إن مكارم الأخلاق التي يدعو إليها منهج الإسلام تكمل إحداها الأخرى، فتنتظم مفرداتها مع بعضها البعض لتكون نسيجا قويا متماسكا جميل الشكل متناسق الزخرفة والألوان، ولو نزعت من النسيج خصلة حميدة لكان الفراغ الذي تتركه بينة وواضحة

ومشوهة لمنظر النسيج كله. أما لو نزعت من النسيج خصلة حميدة وزرعت مكانها خصلة قبيحة وذميمة تكون قد أتلفت النسيج كله فلا يصلح بعد ذلك أن يكون ثوبا لك لو حرصت أن تكون من المؤمنين.

صلة الرحم دعامة قوية من دعائم مكارم الأخلاق

وصلة الرحم من الخيوط القوية المتينة الزاهية التي تنظم النسيج الأخلاقي للمجتمع. وكما لا يمكن أن يعلو البناء بوحدات هشة متراخية من الآجر، كذلك فإن المجتمع لا يمكن أن يكون مجتمعا متراصا متآلفا موحدا إذا كان البناء الأسري لعموم المجتمع هشا متفككا، وكانت الصلة بين ذوي القربى ضعيفة أو مقطوعة أو معدومة.

والإسلام وهو يؤسس لبناء المرتكزات الإيمانية والأخلاقية للمسلم الفرد فإنه يؤسس في الوقت ذاته وبنفس القوة لبناء المجتمع المؤمن والأمة المؤمنة التي أرادها الله أن تكون خير أمة أخرجت للناس.

ولهذا نرى منهج الإسلام المستنبط من الكتاب والسنة يحرص كل الحرص على ابقاء جذوة صلة الرحم قوية وضاءة ودائمة الاتقاد في قلوب المسلمين.

صلة الرحم شجنة من الرحمن

وأي تكريم أجل وأعظم عندما يشتق الرحمٰن من اسمه الجليل اسما للرحم. ذلك يعني أن للرحم صفة القداسة ولا بد أن يصان ويوصل.

عن عبد الرحمٰن بن عوف (رضي الله عنه) قال قال رسول الله (ﷺ): [إن الله تبارك وتعالى يقول أنا الله وأنا الرحمٰن خلقت الرحم فشققت لها من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته] (متفق عليه).

صلة الرحم باب من أبواب الخير والرحمة

فصلة الرحم اذن هي الباب الذي يربطك بصراط الله المستقيم، ويوصلك إلى مرضاته وواسع جناته. فهل تبقيه مفتوحا على مصراعيه ليلج إليك من خلاله الخير الكثير وتبقى موصولا برحمة ربك؟ أم تسده دون ذوي قرباك وأنت في ظنك أنك تتقي شرا محتملا، وتسد بابا قد يأتيك منه ما يضرك؟ وأنت لا تدري لو فعلت ذلك أنك تسد على نفسك بابا للخير والرحمة وتفتح عليها بابا يستجلب عليك غضب الله وعذابه.

فعن أبي بكر (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) انه قال: [ما من ذنب أحرى أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من قطيعة الرحم والبغي] (الترمذي).

صلة الرحم طريقك إلى الجنة

والواصلون لأرحامهم من أهل الجنة، فهل ينكر أحد على نفسه خلقا يوصله إلى الجنة؟

عن رسول الله (ﷺ) انه قال: [أهل الجنة ثلاثة وذكر منهم... ورجل رقيق القلب لكل ذي رحم] (مسلم).

صلة الرحم شعار المتقين

ثم إن صلة الرحم من شعار المتقين لله فمن يتق الله فيما أمر به ونهى عنه يتق الله في أرحامه أيضا.

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١).

وكأنها كفتا ميزان..

هنا تقوى الله وهناك صلة الرحم، وميزان الله هو الميزان العدل فلا تطيش كفة بأخرى.

وجاء في الحديث النبوي أيضا مصداق ذلك. ففي حديث عن أبي أيوب الأنصاري (رضي الله عنه) أن رجلا جاء إلى رسول الله (ﷺ) فقال: يارسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار فقال عليه السلام: [تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم] (البخاري).

فنرى أن رسول الله (ﷺ) قد جعل صلة الرحم لصيقة بأركان الإسلام وكأنها صارت ركنا من أركانه لا يستقيم إيمان العبد إلا بها جميعا.

مع الهدي النبوي وصلة الرحم

ويستمر الهدي النبوي الشريف في إبراز فضل الواصلين لأرحامهم فيذكرهم بين أفضل خلق الله. فقد سئل عليه السلام: أي الناس أفضل؟ قال: [أتقاهم لله وأوصلهم لرحمه وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر] (أحمد والطبراني).

فما أشرفها من منزلة تذكر بين تقوى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي من الصفات الثابتة للمؤمنين.

ونستمر مع الهدي النبوي في صلة الرحم، فنرى رسول الله يذكر لنا أن صلة الرحم مجلبة للرزق الوفير الحلال. فقد ورد عنه (ﷺ) أنه قال: [من سره أن ينسأ له في أثره ويوسع عليه في رزقه فليصل رحمه] (متفق عليه).

القاعدة الذهبية في صلة الرحم

ثم تأتي القاعدة الذهبية التي تعطي لصلة الرحم بعدا أخلاقيا وإيمانيا راقيا جدا.

ها هو رسول الله (ﷺ) يعلن لأمته هذه القاعدة: [إن الرحم معلقة بالعرش، وليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها] (الخرائطي).

نعم إنه لشيء جميل بلا شك أن تصل ذوي رحمك وتبرهم وتتصدق عليهم بالمال إذا كنت من ذوي اليسار. ولكن الأجمل أن تدق باب من أوصد بابه دونك، وفي وجهك المرة والمرتين، فتلزم بابه حتى يفتحه لك، ويمد يده إليك، ويعيد الود الذي انقطع.

وكيف لاتكون هذه قاعدة ذهبية ولها المنزلة العلية الرفيعة وقد أوصى الله بها حبيبه ورسوله (ﷺ)؟؟

فقد ورد عنه عليه السلام أنه قال: [إن الله أمرني أن أصل من قطعني، وأن أعفو عمن ظلمني، وأن أعطي من حرمني].

وكل وصية يوصي بها الله تعالى النبي الأكرم فإنه يعكسها على أمته، وهذا دليل حبه لأمته وحرصه عليها وأنه يريد لها ما أراده الله له من الخير والثواب والخلق الحسن.

ابدأ بمن تعيل ثم الأبعد فالأبعد

لذلك عندما حث منهج الإسلام على بذل الخير والصدقة أوصى أن يبدأ بالأرحام فذلك أزكى للقلب وأقرب للتقوى. فعن النبي (ﷺ) أنه قال:

[يا أمة محمد والذي بعثني بالحق لا يقبل الله صدقة من رجل وله قرابة محتاجون إلى صلته ويصرفها في غيرهم، والذي نفسي بيده لاينظر الله إليه يوم القيامة] (الهيثمي المكي).

[الصدقة على المساكين صدقة وعلى ذي الرحم ثنتان] (الترمذي والنسائي وابن ماجة).

[أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح] (أحمد والطبراني والبيهقي).

وكذلك عندما اراد طلحة (رضي الله عنه) أن يتصدق بحائط (بستان) كان له يعجبه، عملا بقول الله تعالى: [لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون]. قال يا رسول الله هو في سبيل الله وللفقراء والمساكين. فقال عليه السلام: [بخ يا أبا طلحة، ذلك مال رابح، قبلناه منك، ورددناه عليك، فاجعله في الأقربين] (البخاري).

نعم... إنه أمر الله في كتابه العزيز: ﴿..وَأُولُواْ الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: ٧٥).

أليس البناء يبدأ من القاعدة ثم يتدرج البنيان ويعلو؟

فهكذا المعروف يبدأ بمن تعيل وبالأقرب من ذوي القربى ثم الأبعد فالأبعد. ومن يترك هذه القاعدة الإلهية فيقطع القريب ذا الحاجة ولا يصله ولا يبره ثم يصل البعيد ويبره، يكون ثمة خلل في نيته وغاياته من ذلك. وأية نية لا تكترث بمنهج الله وهدي رسوله لا تكون إلا رياء ونفاقا.

٣٤ـ الحياء

من معاني الحياء

لعل أقرب تعريف للحياء من أذهاننا هو أن الحياء:

- تغير وانكسار يعتري المرء من خوف ما يعاب به.
- خلق يبعث على ترك القبائح ويمنع التفريط في حق الله.

فما أجله من خلق يجعل المرء يتعثر في خطواته وتعتريه حالة من الإنكسار كلما أوشك أن يرتكب معصية أو يقترف ذنبا، أو بدر منه ما لا يليق، متحرجا من هذا الموقف وذاك الفعل.

وتدرك أيضاً أن هذا الحياء يكشف عن حالة إيمانية صادقة. وتعلم أن بواعث الخير في داخله لا يزال بيدها المقود ولهذا توقف على بعد خطوات من الذنب نائيا بوجهه بعيدا وقد تلون بحمرة قانية.

وتدرك أنه الحياء الذي تراه فيه وليس الجبن والخوف والخور والضعف.

الحياء حارس للإيمان

ولذلك نرى وكأن الرسول (ﷺ) جعل من الحياء حارسا على الإيمان. واذ تعلم أن الإيمان صلة بين العبد وربه وأن الإيمان إذا وقر في القلب فاطمأن إليه واستكان به، فإنه يهذب السلوك ويقوم الأخلاق. ويكون الحياء – وهو العاطفة الحية المتقدة التي تأسست في النفس – هو الحارس الذي ينأى به بعيدا عن مواطن الخطيئة.

ويقول الحبيب المصطفى (ﷺ):

[الحياء من الإيمان والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء والجفاء في النار] (الترمذي).

[الحياء شعبة من الإيمان] (ابن تيمية).

[الحياء والإيمان قرناء جميعا فإذا رفع أحدهما رفع الآخر] (الألباني).

نعم إن الحياء هو الحارس على بوابة الإيمان، فإن قتل الحارس أو طرد، يكون وصول الدنايا وجند الشيطان إلى مرابع الإيمان سهلا وميسورا، وعندها تستباح

مقومات الإيمان الواحدة تلو الأخرى، وتسقط النفس في مهاوي الرذيلة، وعندها أيضا ترى العبد يقترف الذنوب والمعاصي دونما أي اكتراث.

الحياء مقياس يتحسس للذنب

ما اجمل أن يكون ثمة مقياس لدى المسلم يتحسس للذنب والمعصية، ويتحسس لكل موطن لا يليق بالمسلم أن يكون فيه، كما يتحسس لكل أمر لا يرضاه الله ورسوله له. فيرتفع عمود اللون الأحمر في المقياس ليصل إلى وجهه وجبهته كلما دنا من معصية أو تدلى إلى موطن سوء.

أما الذي لا يملك هذا المقياس فتراه يخوض في الخطيئة وينحدر إلى مهاوي الرذيلة بشعور بليد لا يبالي ما أحدث قبله أو يترك بعده أو ما يتعلق به من أردان.

رسول الله (ﷺ) قدوة المؤمنين في الحياء

ولنا في رسول الله - في كل أمرنا وجميع خصالنا - أسوة حسنة.

فقد روي عن أبي سعيد الخدري انه قال: (كان رسول الله (ﷺ) أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئا عرفناه في وجهه) (البخاري).

إن الرسول (ﷺ) يريد أن يجعل من حساسية المسلم بما في الفضيلة من خير وما في الرذيلة من شر، أساسا للتمسك بالأولى والاشمئزاز من الأخرى، وأن تبلغ درجة الحساسية والاشمئزاز من الرذيلة مستويات عالية جدا حتى تصبح حالة مركبة من الخوف والارتباك والإنكسار كلما اقترب هو من حد من حدود الله يوشك أن يتعداها، أو رأى غيره يفعل ذلك. وهذه حالة إيمانية راقية جدا أن تستحي أنت من الله كلما وجدت نفسك في موضع تجد غيرك ينتهك فيه حرمات الله.

درس نبوي آخر

وعن أنس بن مالك ﷺ أنه قال: كان رسول الله (ﷺ) لا يواجه أحدا بما يكره.

وهذا درس نبوي آخر لأمته. فإذا رأى أحدنا أخا له في وضع لا يصح أن يكون عليه، عليه أن يستره لا أن يواجهه أو يفضحه على رؤوس الخلائق متمثلين بقول الحبيب المصطفى (ﷺ): [من ستر مسلما ستره الله يوم القيامة] (البخاري)، وإذا كنا نريد النصح له فللنصيحة شروطها وقواعدها وسلوكياتها وهي أبعد ما تكون عن المواجهة المستفزة المنفرة، أو عن إظهار الشماتة. والحبيب المصطفى (ﷺ) يحذرنا من الشماتة ببعضنا البعض.

[لا تظهر الشماتة بأخيك فيرحمه الله ويبتليك] (الترمذي).

خلق الإسلام الحياء

وفي باب الحياء أيضا يقول الرسول الكريم (ﷺ): [لكل دين خلق وخلق الإسلام

الحياء، من لا حياء له لا دين له] (ابن عبد البر).

وهنا يعلمنا الرسول (ﷺ) ان الدين أساسه الأخلاق، ولا دين بلا خلق، ولا ايمان بلا حسن خلق، وأن الخلق الأبرز في الإسلام هو الحياء وهو يحوي فضائل الأخلاق كلها.

كيف نستحي من الله

ثم يعطينا النبي الكريم (ﷺ) وصفا أخلاقيا للحياء.

فعن ابن مسعود أنه قال: قال رسول الله (ﷺ): [استحيوا من الله حق الحياء] قلنا: انا نستحي يا رسول الله – والحمد لله – قال: [ليس ذلك، الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتذكر الموت والبلا، ومن أراد ترك زينة الحياة الدنيا وآثر الآخرة على الأولى. فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله] (النووي).

فقدان الحياء بداية الانحدار

وفقدان المرء لحيائه ومن ثم لإيمانه، يؤدي به أن يتدرج من سيء إلى أسوأ ومن رذيلة إلى أرذل حتى يهوي به موج المعاصي في نار جهنم.

قال عليه الصلاة والسلام:

[الحياء لا يأتي إلا بخير] (البخاري).

[قلة الحياء كفر]

فيرشدنا النبي (ﷺ) إلى أن فقدان الحياء هو بداية الانحدار نحو الهاوية فتكون نتيجته الحتمية بالنهاية خروجا من ملة الإسلام.

فقد ورد عنه (ﷺ) انه قال: [إن الله إذا أراد أن يهلك عبدا نزع منه الحياء فإذا نزع منه الحياء لم تلقه إلا مقيتا ممقتا، فإذا لم تلقه إلا مقيتا ممقتا نزعت منه الأمانة، فإذا نزعت منه الأمانة لم تلقه إلا خائنا مخونا، فإذا لم تلقه إلا خائنا مخونا نزعت منه الرحمة، فإذا نزعت منه الرحمة لم تلقه إلا رجيما ملعنا، فإذا لم تلقه إلا رجيما ملعنا نزعت منه ربقة الإيمان] (الهيثمي).

فالأمر يبدأ كما ترى من حديث رسول الله (ﷺ) بانحدار أولي ينتج عنه انحدار متسلسل يعقب بعضه بعضا حتى يجد المرء نفسه – والعياذ بالله – في الدرك الأسفل وفي الحضيض.

ويتمزق أول ما يتمزق حجاب الحياء عن الوجه فلا يتهيب المرء على عمله حسابا، ولا يخشى في سلوكه من لومة لائم. فيخوض لسانه في أعراض الناس، وفي إيقاع الحقد والكراهية والضغائن بينهم، وتمتد يده للبطش بهم وأكل أموالهم بالباطل.

وبعد أن يتكشف للناس خلقه السيء وأفعاله المشينة يبتعد عنه الجميع. فلا يجد بعدها قلبا يعطف عليه، ولا يأتمنه أحد على شيء. وكيف يؤتمن من لا أمانة له ومن لا يخجل من أكل أموال الناس بالباطل، وكيف يؤتمن على عرض من لا يجد حرجا في التعرض لأعراض الناس، وكيف يؤتمن من لا يهمه أن يخلف وعدا أو ينقض عهدا أو يهتك سرا أو يشهد زورا أو يغش في تجارة.

فتكون نتيجته أنه فقد حياءه وأمانته وفقد الرحمة، فيصبح وحشا كاسرا ينطلق وراء شهواته ويدوس في سبيلها أزكى العواطف وأنبل القيم فيصبح خارج حصن الإيمان بل وخارج أسوار الإسلام حتى.

من الحياء أن يخجل المرء أن يذكر بسوء

ومن الحياء أيضا أن يخجل الإنسان من أن يذكر بسوء، وأن يشار إليه بازدراء، وأن يعامل باحتقار، فيدفعه ذلك إلى أن يحرص على سمعته نقية من الشوائب وسليمة من الثلمات. فيكون حرصه على سمعته حرصا على القيم والأخلاق التي تحفظ هذه السمعة.

ويستمر الهدي النبوي الشريف في باب الحياء من الأخلاق.

قال رسول الله (ﷺ): [ما كان الحياء في أمر إلا زانه ولا كان الفحش في شيء إلا شانه] (ابن عبد البر).

ويدفعك حرصك على سمعتك وحرصك على الهدي النبوي الشريف أن تستحي من الناس وتحفظ لأصحاب المقامات مقاماتهم، ولأصحاب الحقوق منازلهم، ولأصحاب العلم إكبارهم وإجلالهم والتأدب معهم.

ولكن!!

ثمة فرق بين الحياء والجبن، والحياء والخوف، والحياء والتردد السلبي. فالرجل الجبان الرعديد لا يخجل ان يقترف المعاصي والرذائل نهارا جهارا ويبذل ماء وجهه للحصول على متعة رخيصة أو حظ من حظوظ الدنيا، ولكنه يجبن عن قول الحق أمام الناس أو يدافع عنه إمام حاكم جائر ظالم.

أما الرجل الحيي فقد يفضل أن يراق دمه على أن يراق ماء وجهه وتلك هي الشجاعة بعينها وفي أرقى معانيها وأعلى درجاتها. والرجل الحيي يكون مقداما وشجاعا في نصرة الحق ووقت المنازلة والبأس لأنه يستحي أن يجد الله فيه ضعفا وخورا وخوفا في وقت يحتاج فيها إلى الشجاعة والإقدام. والرجل الحيي لا يتردد إلا في المواطن التي تقربه من هتك حرمة من حرمات الله أو إيقاع ظلم بأحد من الناس.

والتردد في هكذا مواقف لا يسمى ترددا بل هو ضبط للنفس وتحكم بالعواطف حتى لا يقدم خطوة أخرى يخجل بعدها من الله ومن الناس.

أما الرجل الفاقد للحياء فهو يصنع ما يشاء ووقت ما يشاء وبحق من يشاء فلا يردعه رادع من الحق ولا يوقفه وازع من ضمير.

ويقول النبي (ﷺ) في ذلك: [إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأول إذا لم تستح فاصنع ما شئت] (البخاري).

الحياء يكون من الله في المقام الأول

والحياء في أسمى منازلها وأكرمها يكون من الله عز وجل.

فينظر العبد في أمر نفسه فيجد فضل الله عليه في كل شأنه، في وجوده ابتداءًا، وفي مطعمه ومشربه وملبسه، في أدبه وعلمه وخلقه، وفي حب الناس له وتوددهم إليه، فكيف لا يغرق في بحر من الحياء إذا ما سولت له نفسه أن يبسط يدا، أو يمشي خطوة، أو يقول كلمة، تغضب الله تعالى.

لا تجعل حياءك من الله أقل من حيائك من رجل صالح

ولأن الرسول الكريم يدرك نوازع نفوسنا وما جبلت عليها، ويعلم أننا نتهيب من ذوي الصلاح من بني أقوامنا ونستحي أن نعمل ما يسقطنا من أعينهم، فإنه يوصينا أن لا يقل حياؤنا من الله من حيائنا من هذا الرجل الصالح وهو أضعف الإيمان.

فقد ورد أن رجلا أتى النبي (ﷺ) فقال أوصني قال: [أوصيك أن تستحي من الله كما تستحي رجلا صالحا من قومك] (أبو حاتم الرازي).

ويقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في الحياء:

(من قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه).

(من استحيا استخفى، ومن استخفى اتقى، ومن اتقى وقي)

❊

٣٥ـ القناعة

من معاني القناعة

القناعة هي الرضى بالمقسوم.

وإذ نعلم أن الإيمان بالله هو مفتاح كل خير وحافظه، فالإيمان بالله هو مفتاح كل خلق حميد وحافظه أيضا، لأن الحياة لا تستقيم والخير لا يتحقق إلا بمكارم الأخلاق.

والقناعة من الخلق اليقيني الشخصي الذي ينشأ في القلب كثمرة من ثمرات الإيمان الراسخ الذي يسكن القلب حتى تطمئن به النفس وترضى.

النفس المطمئنة بالإيمان هي التي تعرف القناعة

والنفس لا تطمئن إلا بالإيمان، ومتى ما اطمأنت رضت بالمقسوم. أما النفس القلقة التي يهجرها الإيمان، أو التي يغشاها الإيمان ساعة من نهار أو ليل ثم يهجرها اياما وليالي، فلا تعرف الاطمئنان ولا تعرف الرضى.

فاطمئنان النفس هو اطمئنان بقضاء الله وقدره، وهو اطمئنان بعدله ولطفه، واطمئنان بكمال قدرته وقوته، واطمئنان بحسن تدبيره جلا جلاله، واطمئنان بأزلية علمه الذي وسع كل شيء، ثم اطمئنان بأن الله وحده هو الرزاق والمنعم والباسط والقابض، واطمئنان بأنه ما من دابة في الأرض ولا طائر يطير في السماء إلا على الله رزقه.

واذ يطمئن العبد أنما قسمه له ربه من رزق ان هو إلا آتيه مرغما، وذلك مصداق قول الحبيب المصطفى (ﷺ): [لو فر أحدكم من رزقه أدركه كما يدركه الموت] (الألباني).

وإذ يعلم العبد المؤمن أن هذه الدنيا دار ارتحال، وأن الخلود لا يكون إلا في الحياة الأخرة، فإنه في سعيه وكسبه في الحياة الدنيا يتطلع إلى ما يربيه لنفسه من ثواب وعمل صالح ليكون خلوده في النعيم الأبدي لا في الجحيم.

القناعة تنبع في القلب الذي يسعى من أجل الآخرة

والذي يريد الآخرة ويسعى لها سعيها وهو مؤمن بالله وراض بما قسمه له ربه، فإن الله تعالى يلبسه ثوب القناعة في الدنيا فلا يأسى على ما فاته من زينة الحياة الدنيا، ويتمتع بعطاء الله الذي يسبغه عليه – قل أم كثر – ومن غير خيلاء وتفاخر، ولا يصيبه الجزع والفزع، ولا ينهار إذا خسر مالا، أو فقد عزيزا. أما الذي لا يرى في كسبه وسعيه في الحياة إلا حطام الدنيا وملذاتها، ولأجل ذلك لا يلتفت كثيرا كيف تأتيه هذه الدنيا ومن أي أبوابها يصل إلى ملذاتها، ويعيش في الدنيا وكأنه مخلد فيها، فإن الله يبتليه بمعيشة ضنكى ولا تسعفه كثرة ماله وأولاده وعلو قصوره وبنيانه، لانه قد فقد الاطمئنان من عدم الإيمان، وفقد الرضى من زوال الاطمئنان، ففقد القناعة بما يملك.

وفي هذا يقول الحبيب المصطفى (ﷺ): [من كانت الدنيا همه، فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته، جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة] (الألباني).

الغنى هو غنى النفس

صدقت يا رسول الله، فالغنى غنى النفس، والغنى غنى القلب، ومن كان قلبه خاويا من الإيمان ومن القناعة، فإن كنوز الدنيا لا تملأ الفقر الذي يصبه الله في قلبه،

فيعيش كل حياته قلقا جزعا ضجرا من صفقات تؤول إلى غيره، ومهموما من توقع شر لم يأت بعد، أو كساد قد يصيب بعض تجارته.

أما المؤمن الذي يرضى بما قسمه له ربه فيكون أغنى الناس وأكثرهم اطمئنانا، حسب المقياس النبوي الشريف للغنى والفقر.حيث يقول الحبيب المصطفى (ﷺ):

[ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس] (البخاري).

[ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس] (الألباني).

قاعدتان ذهبيتان عند طلب الدنيا

ولترسيخ قيم ومعاني القناعة في قلوب المؤمنين وضع الرسول (ﷺ) قاعدتين ذهبيتين في طلب المسلم للدنيا:

[أجملوا في طلب الدنيا، فإن كلا ميسر لما كتب له منها] (النووي).

[خصلتان من كانتا فيه كتبه الله شاكرا صابرا :من نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به، ونظر في دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على ما فضله الله به عليه، كتبه الله شاكرا صابرا، ومن نظر في دينه إلى من هو دونه، ونظر في دنياه إلى من هو فوقه، فاسف على ما فاته منه، لم يكتبه الله شاكرا ولا صابرا] (الألباني).

كيف فهم السلف الصالح معنى القناعة؟

وقد فهم صحابة رسول الله (رضوان الله عليهم) وأئمة الهدى من بعدهم مراد رسول الله واطمأنت به قلوبهم. فهذا عمر بن عبد العزيز ﷺ يقول وهو يخطب في الناس: (يا أيها الناس اتقوا الله واجملوا في الطلب فلو كان رزق أحدكم في قلة في جبل أو في حضيض أرض لأكل رزقه فاتقوا الله واجملوا في الطلب).

وهذا الحسن البصري يقول في الحرص والقناعة: (الحريص الجاهل والقانع الزاهد كل مستوفىً أكله مستوفىً رزقه فعلام التهافت على النار).

نعم.. التهافت على الدنيا ومحاربة الناس في أرزاقهم وقوت عوائلهم، واتفاق التجار وطلاب الدنيا على احتكار الأسواق، واكتناز الذهب والفضة والأموال، وعدم إنفاقها في سبيل الله، كلها أبواب تفضي إلى النار. وصدق العالم الجليل والتقي الورع الحسن البصري، فهكذا تهافت هو تهافت وتزاحم وتسابق على النار.

لا يعرف القناعة من لا يعرف التوكل على الله

والقناعة تجعل العبد يعرف معنى التوكل ويعيشه في حياته بكل معانيه وقيمه ويشير الحبيب المصطفى (ﷺ) إلى ذلك في أحاديث شريفة فيقول:

[لو أنكم كنتم تتوكلون على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير، تغدو خماصا، وتروح بطانا] (الترمذي).

[من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنه ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها] (المنذري).

لا يعرف القناعة من كان قلبه متعلقا بالدنيا

وإذ نعلم أن المنهج الإسلامي للحياة يريد للإنسان أن يكون قلبه موصولا بأبواب السماء، متعلقا بعرش الرحمٰن، مطيعا لله فيما أمر به أو نهى عنه، وأن لا يخرج سعيه في الحياة من حدود ما أحل الله وما حرم. وأن لا يتعلق قلبه بالدنيا فتكون مبلغ علمه ومنتهى مراده، وأن لا يركض فيها ركض الوحوش في البراري فيلهيه التكاثر عن ذكر الله. وأن يتحرز ويتحسس مواضع خطاه - في سعيه لكسب رزقه - أهي تقربه من الله أو تقوده إلى النار؟؟

الحياة الدنيا محطة ارتحال

والمنهج الإسلامي يصور الحياة الدنيا كمحطة ارتحال ومعبر إلى الحياة الآخرة، فلا عجب أن نجد هذا المنهج القويم يحث المسلمين على عدم الالتصاق بالأرض، وأن يلتفتوا إلى إعلاء كلمة الله في الأرض، وإعلاء مكارم الأخلاق، وإفشاء المحبة والسلام والتآلف والتآزر بين الناس. وعندما يتحقق ذلك في وجدان العبد وفي سلوكه وأفعاله، فإن قناعته ورضاه بما قسم الله له تجعله يفكر كالزاهدين ويرضى أن يعيش عيشة الزاهدين.

وقد رسم النبي الكريم (ﷺ) ملامح ذلك في هديه النبوي الشريف حين قال:

[ليكف الرجل منكم كزاد الراكب] (الألباني).

[من بات آمنا في سربه معافيا في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها] (الترمذي).

وماذا يحتاج المسافر في سفره؟؟ أليس الأمان في المسير، والمعافاة في البدن، وطعامايذهب جوعته وشرابا يذهب عطشه؟؟

[طوبى لمن أفلح من هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به] (الألباني).

[ما طلعت شمس قط إلا بعث بجنبتيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم، فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى] (المنذري).

القناعة لا ترتبط بالغنى والفقر

والقناعة لا ترتبط بالغنى والفقر كما قد يتصور البعض، ومن الجاهلين من يقول: لو أعطاني الله كذا وكذا لكنت من القانعين. وفي هذا القول جهالة ومجافاة للحقيقة، فالشواهد على بطلان هذا الالتزام في سلوك الكثير من الأقدمين والمتأخرين بارزة

وواضحة، وقد أشار القرآن الكريم إلى هؤلاء في سورة التوبة كما أسلفنا.

ولعل الانغماس في ملذات الحياة، والاحتكام على الأموال الطائلة والتجارة الرائجة لا تضع حدا للطمع، ان لم تكن تؤجج الطمع وتزيد الجشع. فكم من غني يملك مثل ما كان يملك قارون أو يزيد، وتراه جاحدا وغير راض بقسمته ويريد المزيد والمزيد. وبالمقابل كم من فقير لا يملك معشار معشار معشار ما يملك الرجل الغني وتراه راضيا وقانعا بقسمته وتراه من الشاكرين.

اللهم نسألك أن تملأ قلوبنا بالإيمان الراسخ واليقين الثابت. ونسألك اللهم أن تجعل قلوبنا مطمئنة بعدلك ولطفك وجودك وكرمك. ونسألك اللهم أن ترزقنا الرضى بما قسمته لنا وتجعلنا من القانعين الشاكرين الحامدين.

❊

٣٦ـ الرفق واللين

الرفق واللين ينبعان من القلب

الرفق واللين هما نقيض الغلظة والعنف. وككل خلق حميد أصيل لا ياتيان تكلفا، وإنما يكون القلب قد امتلأ بهما حتى يفيض على اللسان قولا لينا رقيقا، وعلى الجوارح سلوكا وعملا طيبا.

الرفق واللين خلق أهداه الله تعالى لحبيبه (ﷺ)

نرى الحق سبحانه وتعالى يمتدح في رسوله الأمين خلقه العظيم، ويصف سبحانه وتعالى الرفق واللين الذين يتصف بهما الحبيب المصطفى (ﷺ) بأنهما نسمات ربانية مباركة أودعهما الله في قلبه الشريف فجعلتاه لين الجانب طيب المعشر مع الناس جميعا، حتى الذين خالفوا أمره وعصوه، ولو كان جاف الطبع، قاسي القلب، فظًّا في تعامله، لتفرق الناس من حوله ونفروا منه، حتى مع سمو ما يدعو إليه.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

ويستمر الخطاب القرآني لنبي الرحمة.... رغم لينك ولطفك ورفقك معهم يا محمد ورغم مخالفتهم وعصيانهم وأذاهم لك، تجاوز عما نالك من أذاهم واطلب لهم من الله المغفرة وشاورهم في جميع أمورك ليقتدي بك الناس.

خطاب الله لا يبلغ إلا بالرفق واللين

والخطاب الرباني الذي يريده الله لأنبيائه أن يبلغوه لأقوامهم – حتى العصاة

والطغاة منهم – لا بد أن يتم بالرفق واللين وليس بالفظاظة والعنف.

﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤)﴾ (طه: ٤٣-٤٤).

فإذا كانت الدعوة إلى الله وهي أشرف مهمة لأسمى وأقدس غاية، يوصي الله أنبياءه – الذين اصطفاهم من بين البشر ومن أكرمهم خلقا وأشرفهم نسبا – أن يكون خطابهم لينا رقيقا ويتعاملوا مع أقوامهم بالرفق. فهذا يعني أن المنهج الإلهي الذي حمل لواءه الرسول الأكرم (ﷺ) - ليبشر به الناس جميعا – يتبنى الرفق واللين سلوكا عاما في الحياة لانهما يجلبان المودة والمحبة. وينبذ الغلظة والعنف لانهما يقودان إلى الشحناء والتنافر.

من معاني الرفق واللين

والهدي النبوي الشريف يوضح مقاصد الحق سبحانه وتعالى من الرفق حين يقول عليه الصلاة والسلام:

[ما كان الرفق في شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه] (الألباني).

[ما كان الرفق في شيء قط إلا زانه، ولا كان الخرق في شيء قط إلا شانه وإن الله رفيق يحب الرفق] (الألباني).

[إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله ، وإنه يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف] (أحمد شاكر).

ونفهم من هذه الأحاديث الشريفة...

كأنما الرفق ماء بارد يطفئ نيران الحقد والبغضاء.

أو كأنه بلسم يداوي كل جرح غائر في النفس، قد استعصى على كل دواء.

أو كأنه نسمة رحمة ربانية تصل إلى أعماق القلوب فتملأها بالرضى والقبول.

اجعل من الرفق واللين لباسك الذي تتزين به

وخلق هذا شأنه وهكذا تأثيره يكون زينة كل أمر، وإذا ما نزعت هذه الزينة عن القلوب ظهر جفاؤها وغلظتها، فلا تطرق بابا وقتئذ إلا غلقت دونك، ولا تقصد أصحابا إلا نفروا منك وتركوك قائما وسط الطريق ترغي وتزبد لوحدك.

فالرفق إذاً يكون في كل شأن!!!

يكون خلقك وأنت تدعو إلى الله.

ويكون خلقك إذا وليت أمرا من أمور الناس.

ويكون خلقك في بيتك مع زوجك وأولادك.

ويكون خلقك مع أبويك وذوي قرباك وجيرانك وأصحابك وخلاّنك.

ويكون خلقك مع الناس جميعا.

وباختصار يكون الرفق لباسك الذي تتزين به ولا يراك الناس إلا بهذا الرداء الجميل.

الرفق في الهدي النبوي الشريف

نعود إلى الهدي المحمدي المبارك لنقتبس منه مجددا...

[اللهم !من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم، فاشقق عليه. ومن ولى من أمر أمتي شيئا فرفق بهم، فارفق به] (مسلم).

[ان الله عز وجل ليعطي على الرفق ما لا يعطي على الخرق – الحمق – وإذا أحب الله عبدا أعطاه الرفق، ما من أهل بيت يحرمون من الرفق إلا حرموا الخير] (الألباني).

من يحرم الرفق يحرم الخير. فالحرمان من الرفق حرمان من الخير كله!!!

الإسلام دين رفق ولين

وإن ديننا سمحا يدعو إلى مكارم الأخلاق، ويصون كرامة الإنسان، ويخلص الإنسان من كل العبوديات المتعارف عليها عبر التأريخ، ويجعل عبوديته للواحد الأحد الخالق الصمد وحده تعالى، عبودية تسمو بروحه إلى أعلى عليين، لا يمكن إلا أن يكون دين رفق ولين وعفو وتسامح.

هذا هو الإسلام الذي جاء به النبي الأكرم (ﷺ)، انه دين يدعو إلى الرفق وينبذ العنف.وانه دين يرى أن المؤمن يكون كالنحلة فهي تحط على الأزهار برفق ولين، وتمتص منها أطيب ما فيها، لتصنع منه غذاءا مفيدا ودواءا نافعا.

[مثل المؤمن مثل النحلة، إن أكلت طيبا، وإن وضعت وضعت طيبا، وإن وقعت على عود نخر لم تكسره] (الألباني).

نعم... المؤمن لا يؤذي أحدا.

المؤمن لا يكون إلا رقيق القلب طيب المعشر

وإذا رأيت من يدعي الإيمان بالله والاقتداء برسول الهدى والرحمة ثم يكون قاسي القلب، صعب المعشر، عنيفا في معاملته مع أولاده وأهله وجيرانه، لا يعرف الرفق واللين سبيلهما إلى طبعه وسلوكه، فاعلم أنه يشكو خللا إيمانيا في قلبه.

الرفق واللين خلقان قد غيبا في مجتمعاتنا الإسلامية

ولكن....في الحقيقة ان الرفق واللين يكادان يكونان خلقين مغيبين في مجتمعاتنا الإسلامية في الوقت الحاضر– إذا صح التعبير – فقد جرى التثقيف عبر عقود طويلة من الزمن أن تتم تنشئة الطفل – الذكر على وجه الخصوص - ليكون عنيفا في سلوكه

مع أقرانه من الأطفال والصبية، لأنهم يرون في العنف مظهرا من مظاهر القوة. والكثير من هؤلاء يرون أن الإسلام يدعو إلى الخشونة، حتى غرز هذا الفهم في عقول الأطفال والصبية ووصل الأمر ان يعير الصِبية من يكون كريم الخلق، ويغلب اللين والرفق على طبعه وتصرفه ويكره الخشونة والعنف– من بينهم –فيقولون عنه انه ربيب الشوكولاتة أو أنه شبيه بالفتيات.

كيف نفرق بين الرفق واللين والخشونة التي دعا إليهما النبي (ﷺ) معا

لقد نسينا أن الخشونة التي دعا إليها الرسول الكريم (ﷺ) ليست خشونة الطبع والخلق ولا الغلظة والعنف في التعامل مع الناس، إنما المقصود من هديه الشريف هو:

أن لا يتحرج المرء من العمل والكسب والسعي الشاق من أجل توفير الرزق الحلال لمن يعول حتى إذا اخشوشنت يداه من حمل الفأس، فهذا السعي وهذه الخشونة في الكسب الحلال من أجل أن يعف المرء نفسه وأهله وعياله هو في مقام العبادة، بل هو في أعلى مراتبها.

وكذلك تحمل الخشونة في ساحات العمل الجماعي، وفي ساحات الجهاد المقدس ضد طغيان ظاهر لعدو مقتحم يريد النيل من الإسلام عقيدة وأرضا وخيرات.

أما خشونة الطبع والغلظة والعنف فهي من الأخلاق الذميمة التي نهى عنها الإسلام.

الرفق واللين مع الأطفال في الهدي النبوي الشريف

وكذلك...

كان الرفق مع الأطفال وملاطفتهم والمسح على رؤوسهم من أخلاق النبوة التي ثبتها الرسول الكريم (ﷺ) في هديه وسيرته، وسار على نهجه، وتأسى بسنته الصحابة الكرام في حياته (ﷺ) من بعد رحيله إلى الرفيق الأعلى.

فهذا رسول الله يدعو أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) إلى الرفق مع الأطفال فيقول: [اذا دخل عليك صبي جارك فضعي في يده شيئا فإن ذلك يجر المودة].

[إني لأدخل في الصلاة، فأريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي فأتجوز، مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه] (البخاري).

عمر الفاروق يترك درسا عظيما في الرفق للبشرية كلها

قد ورد أن الأقرع بن حابس دخل على عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فوجده يلعب مع صبيانه وهم متعلقون بذراعه وفوق ظهره فقال: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ أهكذا تفعلون مع أولادكم؟ فانتبه عمر وسأله: وأنت يا أقرع ماذا تفعل في بنيك؟ قال: أما أنا فإذا دخلت وقف الجالس، وسكت المتكلم، واعتدل النائم، وإن لي عشرة أولاد

ما قبلت واحدا منهم. فقال عمر: اذن أنت لا تصلح أن تكون واليا على المسلمين وأمر فعزل.

وهذه الواقعة تعكس رقي الخلق وسمو مقاصده عند صحابة رسول الله (ﷺ) بأن يكون عدم الرفق واللين لرجل مع أولاده وداخل جدران بيته سببا في عدم أهليته لإمارة المسلمين، باعتبار أن من لا يكون رفيقا بأولاده لا يكون رفيقا برعيته. فالخلق في الإسلام كل شامل فلا يلبس في موضع وينزع في آخر.

من مظاهر الرفق بالحيوان في الهدي النبوي الشريف

بل يمتد طلب الرفق في الهدي النبوي الشريف ليشمل حتى الحيوان. فقد ورد عنه عليه الصلاة والسلام انه قال:

[بينما رجل يمشي بطريق إذ اشتد عليه العطش، فوجد بئرا فنزل فيها فشرب وخرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه حتى رقي فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له] فقالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجرا؟ فقال: [إن في كل ذات كبد رطبة أجر] (البخاري).

[بينما كلب يطيف بركية كاد يقتله العطش إذ راته بغي من بغايا بني اسرائيل فنزعت موقها فسقته فغفر لها به])البخاري).

[دخلت امراة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من حشاش الأرض] (البخاري).

فإذا كان الدين الذي ينظر إلى الرفق بكلب يلهث من العطش فيسقيه رجل أو تسقيه امرأة سقية ماء فتكون سببا في غفران ذنوبهما ودخولهما الجنة. وينظر إلى حبس هرة ومنع الطعام عنها سببا في دخول النار.!

أفلا يكون دينا في قمة الرقي الأخلاقي والإنساني؟ وهل يعقل أن يدعو نفس هذا الدين بعد ذلك إلى العنف ضد البشر الذين كرمهم الله، أو يدعو إلى إرهاب أحد الناس وايقاع الأذى والظلم به؟؟

مر النبي صلى الله عليه وسلم بقوم من الأنصار وقد نصبوا حمامة يرمونها فقال: [لا تتخذوا شيئا فيه الروح غرضا] (الجورقاني).

وعن الوضين بن عطاء: إن جزارا فتح بابا على شاة ليذبحها فانفلتت منه حتى جاءت النبي صلى الله عليه وسلم فأتبعها فأخذ يسحبها برجلها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: [اصبري لأمر الله وأنت يا جزار فسقها سوقا رفيقا] (المنذري).

علينا أن نفهم نحن المسلمين أولا، سمو الأخلاق والمبادئ والمثل التي يدعو إليها الإسلام، ونحققها في أنفسنا وفي مجتمعاتنا. فيكون سلوكا يصاحبنا في كل خطواتنا مع الأهل والأصحاب، أو مع الغرباء سواء بسواء. ومع القريب أو البعيد سواء بسواء. ومع المسلم أو غير المسلم سواء بسواء.

وعند ذاك فقط يكون انتماؤنا إلى الأمة التي أرادها الله أن تكون خير أمة أخرجت للناس انتماءا حقيقيا وأصيلا.

***

٣٧ـ الإتقان

خلق الله كل شيء فأحسن خلقه

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)﴾ (الملك: ١-٤).

﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧)﴾ (السجدة: ٦-٧).

لا يمكن أن ترى في خلق الرحمن وفي بديع صنعه – وما فيه من تشامخ وثبات واستقرار، وما فيه من كمال وزينة وجمال – من نقص أو خلل أو اختلاف أو تنافر أو اضطراب، بل هو صنع محكم ومتقن يأخذ بالألباب والعقول. ومهما كررت النظر في خلق الرحمن المرة تلو المرة لم يرجع إليك بصرك بما طلبته من وجود خلل أو عيب، بل يرجع بصرك خاسئا خاشعا صاغرا متباعدا عن أن يرى من ذلك العيب والخلل والنقص الذي توقعته بحكم عقلك البشري الناقص.

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (النمل: ٨٨).

ولو وقفت أسفل جبل عظيم ترنو إلى هامته الشامخة المنتصبة التي تناطح السحب وتلفها الغيوم معظم أيام السنة، وعجز نظرك عن متابعة مسالكه ودروبه وقممه من كثرة تشعبها والتواءاتها وعلوها، تأخذك ظنونك لحظتئذ أنه ليس بالإمكان – بل من المحال – تحريك هذه الكتلة الهائلة من الصخور التي تزن ملايين الأطنان والتي تعلو آلاف الأمتار فوق الأرض ومثلها أو تزيد أو تنقص تحت الأرض، وتمتد سلسلتها الطويلة مئات أو آلاف الكيلومترات.

ولكن الذي خلق هذه الجبال وأرساها هو الذي يجعلها تمر مر السحاب، فالصانع خبير بما يصنع والخالق قادر على ما يخلق، وإن شاء دكها دكا فجعلها هباء منبثّا وان شاء جعلها كالعهن المنفوش تسوقها الرياح أنى شاءت.

ما من شيء في الأرض ولا في السماء إلا يسبح بحمد الله

وهذه الجبال والصخور والرمال والبحار والقفار والشجر التي تراها خرساء لا تنطق، فإنها تسبح بحمد الله وتسجد له وتطيعه فيما يأمرها، فلا تخرج عن طاعته لحظة من ليل أو نهار.

﴿قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت: ٩-١١).

وهل تملك السماء أو الأرض أن تتحدى أمر خالقها وبارئها؟؟

ولكن الإنسان الظلوم الجهول ليفعل!! حين يستمع إلى وسوسة الشيطان، ويذعن لنفخه ونفثه، فيتحدى أمر الله ويفسد في الأرض ويسفك الدماء ويظلم الناس.

اللهم أنت الخالق وليس كمثلك شيء، وأنت الصانع وليس لمثل صنعك شيء.

اللهم ما أبدع ما خلقت وما أتقن ما صنعت.

الاتقان منهج الأنبياء والمرسلين في التبليغ

والخالق المبدع والصانع الذي اتقن كل شيء خلقه لا يرضى لعباده إلا الإتقان منهجا للحياة.

ولأجل ذلك كان تبليغ الأنبياء والرسل لرسالات ربهم في غاية الاتقان. فلم يصبهم فتور أو وهن أو امتعاض من إعراض أقوامهم عن دعوتهم، ولم يكلوا أو يملوا من تكرار دعوتهم ليلا أو نهارا، سرا أو جهرا، ولم يخافوا أو يفروا من طغيان وظلم الطغاة والظالمين من أقوامهم إلا من أمره الله بالهجرة أو ترك الديار التي بعث فيها إلى ديار أخرى لحكمة ربانية كانت تدرك بعض جوانبها فيما بعد.

من معاني الاتقان

لذلك فإن الاتقان لا يشمل الحرفة التي تحترفها فقط فتتقن فيها أو لا تتقن كما يتصور البعض. إنما الإتقان بمفهومه الشامل هو إنجاز العمل بأكمل وجوهه وأبهى صوره وأدق صفاته وأرقى مقاصده، ليحقق بعد ذلك المنفعة المرجوة منه بالكمال والتمام.

التقوى هي الاتقان في التوحيد والطاعات ومكارم الأخلاق

فانك عندما توحد الله ربك لا يصل توحيدك إلى حد الإتقان:

ان ظننت أن غير الله قادر على تملك بعض امرك أو رزقك أو دفع الضر عنك أو جلب الخير إليك دون علم الله ومشيئته. وإن استقر الأمر في ظنك فإنما أنت تشرك بالله وتشك في ربوبيته.

أو أن تتقن كيف تنزه ربك وخالقك عن كل شريك أو شبيه أو مثيل في نهارك وتؤمن بغير ذلك في ليلك، فتأرجحك هذا هو دليل عدم اتقانك لحقيقة التوحيد.

ويعرف الإتقان في التوحيد والإيمان والطاعات بالتقوى، فمن اتقى الله حق تقاته فقد أتقن الإيمان.

ويسري الإتقان على العبادات أيضا.

فإتمامك للوضوء على هدي الحبيب المصطفى (ﷺ) وقيامك إلى الصلاة وإتمامك لأركانها كلها، تلاوة وركوعا وسجودا في تأن وخشوع تكون قد اتقنت أداء صلاتك شرط أن يكون قيامك إلى الصلاة ابتداء وإتقانك لأركانها تضرعا إلى الله وتقربا منه وليس رياء وتصنعا.

وهكذا في صومك وزكاتك وحجك فإخلاصك للنية وإتمامك لأركانها هو إتقان لتلك العبادات.

الاتقان في الصحبة والمعاملات

ويسري الإتقان كذلك على الصحبة، فإن صاحبت وعاشرت عليك أن تتقن شروط الصحبة والعشرة وتلتزم بآدابها وأخلاقها، وإلا فما أكثر من يدعي الصداقة ويتركك في أول محنة تواجهك أو يدير لك ظهره في أقل حاجة منك إليه.

وكذا في المعاملات فإن عاهدت أتممت عهدك بما يرضي الله وإن واعدت وفيت بوعدك، وإن عملت أجيرا أتممت عملك كما يريده صاحبه ولو كان يهوديا أو مجوسيا على أن لا يكون في العمل الذي تؤديه - أو ينجم عنه- ضرر أو إضرار بأحد من خلق الله وأن لا يكون عملا منهيا عنه شرعا.

عدم الاتقان خيانة

إن عرفت أنك لا تتقن العمل الذي كلفت به عليك أن تصرح بذلك لصاحب العمل حتى لا تأخذ أجرا لاتستحقه أو تتلف شيئا لا تتقن صنعه أو استخدامه.

الإتقان في مزرعتك أنت

وحتى عندما تعمل في أرضك أنت عليك أن تتقن فنون الزراعة فتعرف كيف ومتى تحرث ارضك، ومتى تختار بذر حبك أو زرع شتلك، وكيف تتعهدها رعاية

وسقيا. ثم تحرسها فلا تتلفها أو تعبث فيها البهائم، أو يسرق ثمرها وغلتها لص مستطرق أو متعمد. وهكذا تكون أتقنت عملك وتركت أمرك بعد ذلك - وقبل ذلك - لله وحده وأنت متيقن أن الله هو الذي يرسل الرياح لواقحا وهو الذي ينزل الغيث من المزن، وهو الذي يفلق الحب ويمهد الأرض لها تمهيدا لتنبت وتحمل الحب والثمر.

الإتقان في مصنعك أنت

وإذا كنت صاحب مصنع فعليك أن تتقن ما تصنع، ولا تأخذك الرغبة في الكسب السريع والثراء الفاحش في أن تنتج بضاعة غير متقنة الصنع أو تقتصد في مواد أو وسائل إنتاجها، فتحصل بالنتيجة على بضاعة لا تحقق لمن يشتريها ما يتوقع منها من فائدة. أما إذا دعاك الشيطان أن تروج لبضاعتك وتعطيها من المزايا ما ليس فيها فما أنت إلا لصّ وغشاش ومخادع وعليك أن تدرك أنك بفعلتك هذه تكون ممن ذكرهم الحبيب المصطفى (ﷺ) في حديثه الشريف: [من غش فليس مني] (مسلم).

الإتقان عندما تعمل لصالح الغير

وكذلك إذا كنت تعمل على إنتاج صناعة لصالح الغير وجب أن تكون الدقة في العمل وإتقانه شعارك في عملك، فلا تسرق الوقت الذي أؤتمنت عليه، أو تقتصد في الجهد الذي تؤجر عليه مقابل راحتك، فتكون النتيجة بضاعة غير متقنة الصنع بسبب عدم دقتك وإهمالك في عملك.

غياب مفهوم الاتقان من حياتنا

لقد غاب مفهوم الإتقان عن حياتنا ومناهجنا فتخلفنا عن غيرنا في زراعتنا وصناعاتنا. بل غاب الإتقان حتى في استخدامنا لما يصنعه الغير، فصرنا نشتري ما يلزمنا بأغلى الأثمان ثم نتلفه قبل أوانه من سوء الاستخدام أو عدم الإتقان في العناية والصيانة.

عدم الإتقان خلق لا يليق بالمؤمنين

والذي يفهم منهج الله يعلم أن الله تعالى لا يرضى من العمل إلا أتمه وأتقنه وعلى قدر الإتقان يكون الثواب.

وفي الهدي النبوي الشريف نرى أن رسول الله (ﷺ) يقول: [وإن العبد إذا عمل عملا أحب الله أن يتقنه] (الألباني).

فعدم الإتقان عمل لا يليق بالمؤمن حتى إذا كان العمل الذي ينجزه يخصه هو وحده، أما إذا كان عدم الإتقان في عمل لصالح الغير أو يستفيد الغير مما ينتج أو يصنع، يضاف إلى ذنب عدم الإتقان ذنب الغش والخيانة كما أسلفنا.

ضرورة أعادة خلق الاتقان إلى مناهجنا الأخلاقية والتربوية

لذلك كان حريا بنا أن نعيد خلق الاتقان وفنونه إلى حياتنا فنزرع بذوره في وجدان أطفالنا منذ الصغر لينشأ ويشب معهم خلقٌ يلتزمون به في كل أمر من أمور حياتهم، على مقاعد الدراسة في إتقان وفهم ما يدرسون، وفي البيت فيما يطلب منهم من عمل، وفي الورشة والمزرعة والمصنع والمخبر، وفي ساحات الحياة كلها. لنكون بعد ذلك أمة تصنع وتنتج ما تحتاج إليه وتتقن ما تصنع وما تنتج.

❊

٣٨ـ الاستئذان

من معاني الاستئذان

الاستئذان هو طلب الإذن لإنجاز عمل أو فعل أوقول ممن يملك الحق في إعطاء الإذن أو رده. والحاجة إلى طلب الإذن مطلوبة في الكثير من المواقف، وقد تعرض القرآن الكريم إلى أهم هذه المواقف.

من كان يستأذن النبي (ﷺ) للتخلف عن الجهاد؟

وبالعودة إلى كتاب الله المنهج، نرى أن الله تعالى قد وضع قاعدة الاستئذان في الكثير من المواضع وعلى رأسها في الاستئذان من رسول الله (ﷺ). ففي معرض بيان تثبت العقيدة في قلوب المؤمنين والتردد والريب منه في قلوب المنافقين، يبرز قتال المشركين الذين يحاربون الله ورسوله ودينه الذي ارتضاه للناس كافة، قسما بين الفريقين. فكان المؤمنون من صحابة رسول الله يتسابقون في الجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. والجهاد كما يصوره القرآن الكريم هو أرقى معاني الاستشهاد التي عرفتها البشرية فهو ليس من أجل مال يصيبه المرء، أو جاه يريد استرجاعه، أو ملك يريد تثبيت أركانه، بل هو من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا في الأرض ودون أن يختلط بهذا المعنى أي مطلب دنيوي مهما كبر أو صغر، فكان القعود عن الجهاد بدون عذر شرعي وبدون الاستئذان من الرسول (ﷺ) أمرا لا يقدم عليه إلا من كان في قلبه مرض أو تتنازعه أهواء الدنيا أو يكون قلبه مشربا بالنفاق.

﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥)﴾ (التوبة: ٤٤-٤٥).

إن ساعة المنازلة قد قربت والرسول (ﷺ) يهيئ أصحابه لأمر عظيم، لقتال المشركين الذين يريدون شرا برسول الله وبعقيدة التوحيد التي يدعو لها، ويريدون أن

يطفئوا نور الله. وفي موقف كهذا لا يتأتى لأحد أن يتخلف، والصحابة الكرام الذين تمكن الإيمان من قلوبهم فاطمأنت به واستكانت، يعرفون أن الرسول حق وأن الدعوة حق وأن الجنة حق والنار حق، وأن هذا سبيل الله الذي يربطهم بالجنة ونعيمها وأي سبيل آخر غير هذا لا يكون إلا سبيل هوى وغي وخسران.

فالمؤمنون إذن لا يأتون إلى رسول الله (ﷺ) ليسألوه، أيلتحقون بالركب المؤمن أم لا يلتحقون؟؟ أيجهزون جيش الإسلام أم لا يجهزون؟؟ أيدخلون المعركة لما يحمي وطيسها أم ينتظرون؟؟ فالكل في سباق إلى الجنة، وفي شوق إليها، فهل يمنعهم من ذلك غرض زائل من أغراض الدنيا، مالا كان أم زوجة جميلة ومحبة، أم أولادا صغارا قد تعلقت قلوبهم بهم؟ فهم يدركون أن الهدف أسمى وأجل، وهو نصرة دين الله، ورسول الله، ومنهج الله. والثواب أعظم وأدوم، وهو الخلود في جنات عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

أما المنافقون والذين في قلوبهم مرض فيفعلون!!!

وتراهم يختلقون الأعذار من أجل ذلك:

إن بيوتنا لعورة!

إننا تواقون إلى الجهاد ولكننا نشعر بسقم ووجع يقعدنا عن ذلك!

إن لنا آباء شيوخا وأمهات عجائز نقوم على خدمتهم!

تراهم لم يفعلون ذلك؟؟

لأنهم لا يؤمنون بالله وباليوم الآخر، ولأنهم ملتصقون بحطام الدنيا أيما التصاق، ولأنهم يرون في الوقوف مع رسول الله أمرا خطيرا لا يرون مبررا لخوضه، ولولا الخشية أو الخجل لأعلنوا تنكرهم لهذا الدين الجديد، واصطفوا مع الركب المشرك الذي يطرق أبواب مدينة رسول الله، أو يعد العدة لفعل ذلك، وإنهم ليتطلعون إلى يوم ينتصرون فيه لأصنامهم التي كسروها أو واروها عن الأنظار وراء أبواب مغلقة.

استئذان الصحابة من رسول الله (ﷺ)

وهكذا في كل أمر جامع يدعو إليه الرسول (ﷺ) فإن الله قد أمر المؤمنين أن يستأذنوا من رسول الله إذا شغلهم شاغل يمنعهم من الالتحاق بهذا الأمر، وأن لا يتخلفوا هكذا ثم يأتون إلى رسول الله ويعلنون أمامه أسباب تخلفهم. وعليهم أن يدركوا أن الرسول (ﷺ) أدرى بمجريات الأمور وبمصالح الأمة – بل وحتى بمصالحهم الشخصية – منهم، ويعرف لمن يأذن أو لا يأذن. والاستئذان منه عليه الصلاة والسلام وترك الأمر له ليقرر، هو دليل تمكن الإيمان بالله وبرسوله من قلوبهم،

وعليهم أن يدركوا أن عدم الاستئذان من رسول الله أو خلق الأعذار الكاذبة لتخلفهم هو خلق المنافقين ولا يليق بالمؤمنين إتباعه.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور: ٦٢).

الدروس المستنبطة من هذين النوعين من الاستئذان

والقرآن الكريم أذ تعرض إلى حالتين مختلفتين في الاستئذان من رسول الله (ﷺ)، وهما حالة المنافقين وحالة المؤمنين وكما سبقت الإشارة إليهما، فإنما هو تثبيت من الحق سبحانه وتعالى على إنكار الخلق السلبي الذي قد يلجأ إليه من وهنت نفسه وخارت عزائمه فينفلت من بين الجمع المؤمن في وقت يحتاج فيه هذا الجمع إلى إمضاء في العزم والحزم، والى جمع الكلمة. ويتساوى في ذلك من هرب منهم دون استئذان، ومن ساق الذرائع والحجج الباطلة أمام صاحب الأمر ليجعل لهروبه غطاء شرعيا وينسى هذا النفر الضال أن الله يعلم سرائر عباده ولا تخفى عليه خافية.

وكذلك لابراز الخلق الايجابي الذي يجب أن يلتزم به الجمع المؤمن، وهو التعاون والتعاضد وشد الأزر، والاصطفاف جميعا كبالبنيان المرصوص فيما يهم المسلمين ويجمع كلمتهم على كل أمر يجلب الخير للأمة أو يدفع الشر عنها. وإن عرض لأحدهم عارض يمنعه من المشاركة والإسهام حينا من الدهر عرض أمره على صاحب الأمر فيأذن له أو لا يأذن حسب ما تقتضيه مصلحة البلاد والعباد.

الاستئذان في دخول البيوت والمجالس

قد يرى الكثيرون منا في الاستئذان خلقا مقيدا لحرية العلاقات الاجتماعية، ولا يترك تلك العلاقات تنمو على سجيتها وبساطتها لتعمق وشائج المحبة والمودة بين الناس. ويفهمون أن دعوة الإسلام إلى الإخاء والمحبة والمودة بين المسلمين هي دعوة إلى رفع القيود والمراسيم في طلب الاستئذان وقبوله أو رده.

وعلى هدي هذا التصور الخاطئ والفهم القاصر غاب خلق الاستئذان من يوميات الكثير من مجتمعاتنا لعقود وربما قرون من الزمن، وكان من السهل جدا أن ترى من يقتحم عليك دارك دون استئذان، ودون أن يشعر بأدنى حرج من فعلته هذه وحتى عندما يرى الارتباك على وجهك كونك في وضع لم تكن مستعدا لاستقباله فإنه لا يأبه بذلك بل قد لا يحس به أصلا، وياخذ كامل حريته في الجلوس والحديث رغم أنفك. وحذار حذار لو بدر منك ما يشعره انك غير راغب في قدومه أو مجالسته فإنه

يعلن عليك حربا شعواء، ويشيع عنك أنك رجل لا تعرف الأصول والواجب، وتتحرج من الضيوف وتستثقل مجالستهم بخلا أو ترفعا وتكبرا.

ومن الطبيعي أيضا أن ترى – وقد ضمك مجلس خاص مع بعض أصحابك – من يقتحم مجلسك دون استئذان ويتكلم دون استئذان في موضوع كان بإمكانه أن يؤجله إلى وقت آخر تكون فيه لوحدك فيتحدث إليك بما يريد. وتراه لا يأبه لعلامات الاستغراب التي ترتسم على وجوه مجالسيك. والويل لك إن طلبت منه أن يؤجل حديثه إلى وقت آخر لانشغالك بأمر مهم مع من في المجلس، فإنه سيرى فيك رجلا فظاً غليظ القلب متكبرا وتجعل للناس مقامات فهذا تجالسه وتبش في وجهه، وذاك تتحرج من مجالسته والتحدث إليه.

وقد غاب عن ذهن هذا وأمثاله أن الاستئذان في دخول البيوت والمجالس، بل حتى داخل البيت الواحد وبين أفراد الأسرة الواحدة دليل على رقي الذوق وسمو الفكر الذي يحترم الخصوصيات الشخصية ويعطيها حرمتها ويصونها بسياج الاستئذان الكريم والقبول أو الرفض الكريم. وهو خلق نزلت فيه آيات بينات من كتاب الله بيانا للناس جميعا. والالتزام بهذا الخلق هو الذي يخلق المودة بين الناس لأنه يشعرهم أنك من كثر محبتك لهم تحرص على راحتهم فلا يجدون منك ما يشق عليهم أو يضجرهم منك.

وبعد أن اختلط بعضنا بالمجتمعات الغربية منذ عقود وعرف كيف أن الناس هناك تحترم خصوصيات بعضها البعض وتستأذن في الدخول وفي الكلام، ولا تجد من يقتحم عليك دارك أو مجلسك أو يقطع عليك حديثك، ولا يأتيك زائر إلا بعد استئذان منه وقبول منك، وكذلك كيف أن هذا الخلق يعلم للأطفال في أعمار متقدمة جدا. وصرنا نثني على هذه الخصلة الحسنة فيهم ونود أن يكون لمجتمعاتنا نصيب منها.

سبحان الله!!

خلق إسلامي تركناه وراء ظهورنا - كمعظم الأخلاق الحميدة التي جاء بها الإسلام وكانت جزءا من الدين ولا يكتمل الإيمان إلا بها – ووضعنا حواجز بين الدين والأخلاق، وصرنا ننظر إلى الأخلاق كأنها ترف فكري وحظ من حظوظ الدنيا ولم يعد يضيرنا أن تكون صلواتنا الخمس في المسجد ثم نغتاب من يشاركنا الصلاة ونغش في تجارتنا، ونؤذي جيراننا، وأن لا نتحرج من الكذب و..و.. ونسينا الهدي النبوي الشريف وارث السلف الصالح في تثبيتها لنا قيما عليا تسمو بالنفس البشرية إلى أعلى عليين. وتركوا لنا قصصا ونماذج حقيقية وصادقة في الإيثار والإخلاص والإحسان

والوفاء والعدل والتواضع وغيرها من الأخلاق ما لم يكن في البشرية مثيلاتها من قبل ولن تكون مثلها من بعد.

الاستئذان داخل جدران البيت الواحد

والإسلام يعطي للحرية الشخصية حتى داخل جدران البيت الواحد قدرا كبيرا من الاهتمام الواجبة مراعاته، فلا يقتحم أحد الحجرات الأخرى دون استئذان، وحتى الأطفال وبمجرد أن يبلغوا الحلم تشملهم قاعدة الاستئذان الشرعية. وإذ يسور الإسلام حرية الأفراد داخل غرفهم في الأسرة الواحدة بسور منيع لا يجوز تخطيه بأمر إلهي مبين، فذلك ليحفظ العفة ويستر العورات ويزكي الأنفس. وليس المقصود بالطبع هنا أن يجعل كل فرد في البيت من غرفته حصنا منيعا يلوذ به ويتحول الأمر بالتدريج إلى عزلة خانقة تغلف أجواء البيت كله بالكآبة، فالأسرة لا تبنى إلا على المحبة والتعاون، ولكن المقصود أن لكل شخص أوقاتا خاصة يرتاح فيها قد ينزع بعض ملابسه أو يريد أن يقوم بأمر خاص، وما دام قد أوصد باب الغرفة على نفسه فلا يجوز دخولها إلا من بعد استئذان.

والاستئذان في الدخول أو الكلام خلق راق جدا يدل على أنك تحترم الطرف الآخر وتحترم خصوصياته فلا تقتحم عليه بابا قد أوصده على نفسه، وتحترم فكره ورأيه فلا تقطع عليه حديثا قد بدأه. وهكذا كان خلق الرسول عليه الصلاة والسلام وهكذا علم أصحابه.

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النور: ٥٩).

عودة إلى الاستئذان في دخول البيوت

وإذا كان الإسلام يحترم خصوصية أفراد الأسرة الواحدة ويضع لها ضابط الاستئذان عند الدخول على بعضهم البعض في غرفهم، أفلا يكون ثمة ضابط للاستئذان على بعضنا البعض في البيوت؟؟

أنظر إلى مشهدين مختلفين!!

المشهد الأول: تريد أن تزور صديقا أو جارا لك ورأيت باب داره مفتوحا فولجته ودخلت إلى فناء داره ففرت النسوة من أمامك مذعورات وهن في أوضاع لا يجوز لك شرعا أن تراهن فيه، وحاولت عندها أن تحجب نظرك عنهن، وهبّ إليك صاحبك وهو لا يزال يحاول أن يضع على جسده ثوبا يستره.

المشهد الثاني: انك تحمل نفس الود لصاحبك أو جارك، وأتيت إلى داره بقصد الزيارة ووجدت باب الدار مفتوحا أيضا، فطرقته ووقفت جانبا وعينك باتجاه آخر،

وجاءك صوت من الداخل من الطارق؟ فألقيت عليهم السلام وسألت إن كان صاحبك في الدار؟ وسواء جاءك صاحبك أو قيل لك أنه نائم، أو أنه يطلب منك المجيء بعد حين، فتقبلت الأمر بحسن نية ورجعت أدراجك من دون أن تستنكر على صاحبك أنه لم يستقبلك في حينه.

إن تصرفك في المشهد الثاني يدل على رقي أخلاقك وصدق محبتك لصاحبك، وحرصك على أهل بيته وعلى راحتهم جميعا. بينما يدل المشهد الأول على عكس ذلك تماما؟؟

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨)﴾ (النور: ٢٧-٢٨)

عبرة لمن ألقى السمع ثم فكر وتدبر

لقد جاء هذا التوجيه الإلهي قبل ألف وأربعمائة عام ونيف، وجاء إلى مجتمع بسيط جدا حيث كانت المساكن غارقة في التواضع. أفلا يدل هذا على سمو المنهج الذي جاء به الإسلام؟؟ وأنه يحترم في الإنسان إنسانيته لا مظاهر الثراء والبذخ لديه؟؟

أفلا يجدر بنا أن نعود إلى دستور الأخلاق الذي أنزله الله إلينا وارتضاه لنا وللناس كافة ونبني أخلاقنا على هديه لبنة لبنة حتى يصل بنيان الأخلاق في مجتمعاتنا إلى ذرى السمو والشموخ والرفعة كما أراد الله للمجتمع المؤمن أن يكون؟؟

٣٩ـ الحوار مع المخالفين

التعارف والتقارب بين الشعوب والقبائل دعوة إلهية

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣)

وإذ نعلم أن الخطاب القرآني هو خطاب الله جل جلاله للبشرية جمعاء، فهي دعوة ربانية مباركة للمجتمعات البشرية كلها وفي كل زمان ومكان لأن تتآلف وتتعاون وتتعارف لما فيه خير البشر.

ومن أجل ذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يريد للبشرية أن تسير على هدي الرسالات السماوية التي تعاقبت منذ هبوط آدم إلى الأرض وانتهاء بالرسالة المحمدية الخاتمة التي أتمت وختمت وحي السماء وأكملت دين الله كما ارتضاه للناس جميعا.

ميزان الله تعالى في التفاضل بين الناس هو ميزان التقوى فقط

وخطاب الباري عز وجل (الآنف الذكر) هو دعوة للناس جميعا لعدم التناحر والهيمنة على بعضهم البعض، أو استعباد البعض للآخر، أو التفاضل بسبب العرق أو اللون فالكل سواسية في ميزان الله وهم عبيده، وميزان التكريم هو ميزان رباني وليس ميزانا بشريا. وحتى إذا ظن أحد أنه يتقي الله حق تقاته ويقترب من تكريم الله - والرجل التقي لا يدعي ذلك أبدا لأنه أمر غيبي محض - فإن هذا الاقتراب لا يكون مدعاة للتفاخر أو التمايز أو التفاضل على بقية خلق الله، بل يكون مدعاة إلى التواضع والعدل والإحسان مع الناس.

كلكم من آدم وآدم من تراب

وهذا هو سيد الأنبياء والمرسلين (ﷺ) يقرر المعنى نفسه في هديه الشريف:

[لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى، الناس من آدم، وآدم من تراب] (الألباني).

الناس من آدم، وآدم من تراب....

فلا تمييز لعرق على عرق، وليس ثمة عرق أرقى وآخر أدنى فالأصل واحد والمنبع واحد والرب واحد. وميزان الله في التفاضل ينظر في العمل الصالح الذي تفعله وليس في اللون أو القبيلة أو الجاه والمنصب.

الناس سواسية كأسنان المشط

الناس سواسية كأسنان المشط لا يعلو بعضها على بعض، وتجاورها مع بعضها في اصطفاف جميل هو الذي يحقق منها المنفعة. ولو كانت هذه الأسنان متشابكة، وبعضها ملتوية وأخرى مستقيمة، وبعضها عالية وأخرى ناصية، لما تحققت المنفعة المرجوة منها.

أحب الخلق إلى الله أنفعهم إلى الناس

[الخلق عيال الله وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله] (الطبراني).

أليس الأحمر والأسود والأبيض - وأين كان موطنهم - جميعهم خلق الله؟ فلو مكنك الله من أن تنفع الناس فلا تتردد ولا تضع الحواجز والقيود بين عيال الله بسبب العرق أو اللون أو الدين. ولكن ابدأ بمن تعول أولا وأبدأ بذوي القربى والجيران ثم الأبعد فالأبعد حتى تنتشر في كل بقاع الأرض لو تمكنت.

فإذا كان إطعامك لطير أو بهيمة، بشكل مباشر أو غير مباشر، يحسبها الله لك صدقة تجزى عليها يوم القيامة. أفلا يكون إطعامك لفقير بوذي في الهند صدقة؟ أو إسعافك لطفلة تشرف على الموت جوعا في أرض قد غزاها الجفاف في أفريقيا

صدقة؟؟

في كل ذي كبد رطبة صدقة

هذا هو قول الحبيب المصطفى وهذا هو الدين الذي ارتضاه الله للناس جميعا وبشر به الرسول الأكرم (ﷺ). دين يحقق مراد الله ويخدم عياله جميعا.. دين يقفز فوق حواجز العرق واللون والدين ليحقق الخير للبشرية جمعاء. دين ينظر بالفرق واللين حتى إلى الحيوان.

[بينا رجل بطريق، اشتد عليه العطش، فوجد بئرا فنزل فيها، فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء، فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له .قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجرا؟ فقال: في كل ذات كبد رطبة أجرا] (البخاري).

لا غلو ولا تشدد في دين الله

فهل الغلو الذي يظهر هنا أوهناك، وفي هذه الحقبة أو تلك، ويشتد أحيانا ليصل إلى حد أن يكفر بعضنا بعضا، بسبب خلاف على منهج فكري، أو مذهب فقهي، أو مسلك تعبدي، وداخل إطار العقيدة الإسلامية الواحدة، هل هذا من الدين في شيء؟

وعندما يصل هذا التشدد والانغلاق الفكري أحيانا إلى حد الاحتراب والاقتتال وإراقة دماء الأبرياء، فهل ذلك كله يتناغم ويتجانس مع مراد الله ووحي السماء وسماحة الدين ويسره؟؟

اللهم كلا!!!!!!

لا إكراه في الدين

ها هو رب العزة الكريم المتعالي يخاطب نبي الهدى محمد (ﷺ) في آيات صريحة وواضحة ليبلغ الناس جميعا:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩).

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩).

ورغم أن الطريق إلى الله الذي رسمه القرآن الكريم وجسّده الرسول الخاتم (ﷺ) في هديه الشريف هو الطريق الذي يلبي طموحات البشر جميعا، ويحقق لهم الخير في الدنيا والآخرة معا بلا أدنى شك، وهو طريق مستقيم واضح المعالم والمسالك لا اعوجاج فيها، وكان بمقدور الله وهو الخلاق العليم بخلقه أن يخلقهم ليكونوا مؤمنين

جميعا. إلا أن مشيئته سبحانه وتعالى ارتضت أن تعطي الإنسان – وبعد أن هداه النجدين – حق الاختيار فمن تواضع لله وسلك طريق النجاة هداه الله للايمان. ومن استكبر وسلك طريق الشيطان هداه الله إلى الكفر الذي ارتضاه هو لنفسه وبمحض اختياره.

وما كان أنبياء الله ورسله إلا مبشرين ومنذرين.

دعوة الأنبياء جميعا كانت تقوم على الحوار

والمتتبع لسيرة أنبياء الله يرى أن دعوتهم إلى الله كانت قائمة على الحوار، الحوار الهادئ المليء بالحكمة والموعظة الحسنة، وكان خطابهم صريحا وواضحا: نحن لا نملك لكم شيئا إنما نحن رسل ربكم إليكم نبشركم بالجنة ونعيمها لو تمسكتم بحبل الله ومنهجه، ونحذركم من جهنم وأهوالها لو سلكتم سبيل الغي وتتبعتم خطى إبليس وجنده.

ومن يرى جهاد رسول الله ضد المشركين خروجا عن هذه القاعدة، وأن غزواته إنما كانت لفرض عقيدة الإسلام بالقوة والإكراه فإنه مخطئ، فقد بقي الحبيب المصطفى (ﷺ) في مكة ثلاث عشرة سنة من بعثته الشريفة يدعو أهله وقومه والقبائل الوافدة إلى مكة إلى الإسلام بالحوار والموعظة الحسنة الهادئة، وما كانت غزواته (ﷺ) بعد خروجه من مكة إلى المدينة إلا دفاعا عن دين الله ضد الذين كانوا لا يألون جهدا لإطفاء نوره. ودفاعا عن منهج يكرم الإنسان، ويعطيه الريادة في الأرض، ويحقق فيه إنسانيته ويصون شخصيته وكيانه وحريته، بتعاليم وقواعد ثابتة راسخة، وضد منهج أخرق غارق في التخلف والعبث بحقوق الإنسان وكرامته.

ولا يمكن وصف هذا الدفاع إلا انه دفاع مشروع ومقدس بل وواجب وبمقاييس كل العصور والأزمنة.

العقيدة غرس مبارك يغرس في القلب في تودة وسكينة

لا إكراه في الدين....

فالعقيدة لا تغرس في قلوب الناس بالإكراه والعنف والقوة... عليك أن تدعو إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، ولك أن تنصح وترشد، ولكن عليك أن تترك حق الرضا والقبول أو الرفض للطرف الذي تحاوره.

فالإكراه ليس من الدين في شيء، والعقيدة ليست لباسا نلبسه أو ننزعه، انها غرز مبارك يغرز في القلوب في تودة ولين وحكمة، ليؤتي أكله بعد حين، سلوكا مهذبا، وخلقا كريما وحسنا، وتقربا إلى الله بالطاعات والعمل الصالح، والإكراه لا يخلق أي شيء من ذلك بل يخلق نفورا من الحق، وغلظة في الطبع، ونفاقا في القلب، وهذا ما

لا يريده الله لخلقه وعياله.

الحوار شعار المؤمنين الصادقين

فإذا كان الحوار هو السبيل الذي ارتضاه الله لأنبيائه ورسله في دعوة الناس إلى دينه وصراطه المستقيم. أفلا يكون الحوار والخطاب اللين والتواضع هو السبيل الذي يرتضيه الله لعباده المؤمنين فيما بينهم إذا تقاطعت آراؤهم واختلفت رؤاهم واجتهاداتهم في مسألة فقهية أو تعبدية أو منهج سياسي؟؟

التشدد وفرض الرأي بالإكراه هو ابتعاد عن منهج الله

فلماذا هذا التشتت في الفكر الواحد، والانغلاق على رأي بعينه، والقتامة في تعميق الخلاف بين طوائف المسلمين وهم يعبدون ربا واحدا، ويتوجهون إلى قبلة واحدة، ويقرؤون قرآنا مبينا واحدا؟؟

أليس ذلك ابتعادا عن منهج الله - ومهما حاولنا أن نسوق الأدلة الشرعية أو نلوي أعناق الآيات لتخدم فكرتنا نحن فقط -؟؟

وكأن بعضنا يريد أن يحتكر دين الله لنفسه ويتولى الوصاية على الآخرين؟؟

كيف يسعى هذا النفر أو ذاك – ليس إلى تسفيه الرأي المقابل فقط ولمن يدينون بدينه- بل السعي والتحريض على قتله وتهجيره وتدمير مصادر رزقه.

وحتى إذا انجرف بعض المتخلفين إلى ذلك....... فهل من المعقول أن تكون ردة فعل بعض علمائنا ومفكرينا أكثر ظلامية وأشد قتامة وأمضى قساوة؟؟

وكيف يقف هذا النفر الذي ينزلق هذا المنزلق الخطير الآثم أمام الله في سجود وركوع، وأياديهم لم تزل ملطخة بدماء الأبرياء الذين قتلوا غدرا أو انتهكت حرماتهم؟؟ لا لشيء إلا لأن آراءهم اختلفت أو تقاطعت مع هذا النفر من الناس.

دين الله دين سماحة ورحمة

منهج الله منهج سمح يدعو إلى الحوار مع الإنسان لا إلى قتله...

ويدعو إلى احترام الإنسان لأخيه الإنسان...

ودين الله هو دين تحبب ورحمة، وتعاضد وتعايش مع بقية أطياف المجتمع الإنساني.. ولا وجود فيه لمن يضع الحواجز بين الإنسان وأخيه الإنسان بدعوى اختلاف المنهج وتقاطع العقيدة.

ودين الله يدعو إلى الحب والإيثار والتكافل الاجتماعي والابتسامة في وجوه الآخرين. وينبذ العنف والانغلاق والتطرف.

صن عقيدتك وثوابتك الإيمانية، وحافظ على منهجك، ثم مد يد الألفة والمحبة والتعاون لكل من في الأرض.

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة: ٨).

﴿..... وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد: ٢٢).

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (الفرقان: ٢٣).

أليس الرقي الفكري والأخلاقي كله في دين الله إذاً؟؟

وأن العزة تكون في الاعتداد السليم بالمنهج السليم، منهج كتاب الله وسنة رسوله، وكما رسمه لنا الحبيب المصطفى (ﷺ)، منهجا سمحا يدعو إلى الخير وكل ما يقود إليه، وينبذ الشر وكل ما يقود إليه.

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة: ٢).

الحوار يكون أصلا عند الاختلاف في الرأي

علينا أن نعلم أن الأصل في دعوة الأنبياء هو الحوار مع من يخالفهم في الرأي وإلا إذا كانت الأقوام التي بُعثوا إليها تؤمن بالله وأنبيائه ورسالاته فلمن يوجه النبي خطابه وقتئذ؟؟

وعلينا أن نفهم ثقافة القرآن في مخاطبة المشركين، والتحاور مع المخالفين.

وإلا فإن خطابنا الإسلامي سيظلّ ضعيفا متشنجا مرتبكا ولا يحقق غاياته وأهدافه. ويبقى حال المسلمين على ما هو عليه من التخلف والتشرذم والتقزم.

❊

٤٠ـ الحرص على الوقت

ما هو الوقت؟

حياة الإنسان هي الوقت الذي يعيشه على الأرض من لحظة مولده إلى يوم مماته. وهذه الحقبة أو المسافة الزمنية ليس للإنسان سلطان عليها من حيث ابتداؤها أو انتهاؤها بل هي ارادة إلهية وقضاء رباني في مخلوقاته جميعا.

الوقت هو الذي يؤرخ عمل الإنسان

وبما أن الأمر كذلك كان حريا بالإنسان أن يستغل كل لحظات هذه الفسحة – التي لا يرى أفقا واضحا لنهايتها وقد تفاجئه في اية لحظة – أفضل استغلال وأن يعض عليها من أجل ذلك بالنواجز، حتى لا تذهب أوقاته هباء منبثا أو تذهب نفسه حسرات عليها متى أزف موعد الرحيل وبلغت روحه الحلقوم وكُشف عنه غطاؤه، أو حين يقف أمام الله ﷻ في يوم الحساب. والحساب جله يومئذ يكون على الوقت فالوقت هو الذي

يؤرخ لعمل العبد صالحه وطالحه ويثبته الملك الرقيب في سجله بشكل دقيق جدا وباللحظة والهنيهة.

حياة المرء مهما امتدت فهي قصيرة

إنها أيام وليالٍ تكاد تفر منه وهو يركض وراءها لاهثا لاهيا، حتى يحس بأنفاسه قد تثاقلت وضاقت بها صدره، فيلتفت يمينا وشمالا ويدرك أنه الرحيل لا مفر منه. ثم يلتفت يمينا لينظر في الأوقات التي قضاها في مرضاة الله فلا يرى إلا سويعات أو أياما معدودات، ثم يلتفت شمالا فيرى ركام الأيام والسنين التي قضاها في العبث واللهو والبعد عن الله. فيدرك أنه قد أضاع عمره سدى وفرط فيه فيما لا ينفعه، ويدرك أيضا أنه قد خسر زمنا لا يعود إليه أبدا وهذا هو الخسران المبين.

نعم.. إن الحياة إلا لحظات أو كما يقول شوقي أمير الشعراء:

إن دقات قلب المرء تعلمه أن الحياة دقائق وثوانٍ

نعم.. ومتى توقفت دقات القلب يكون المرء قد استنفذ ما كتبه الله له من دقائق وثواني، وليس إلى مرد من سبيل ليستدرك ما يمكن استدراكه أو يصلح ما ملأ بها تلك الأوقات أو أفسد فيها من عمل غير صالح.

قيمة الوقت في المنهج الإسلامي

والمسلم الفطن وهو يعود إلى كتاب الله وهدي رسوله (ﷺ) يرى إشارات ودلالات واضحة على أهمية قيمة الوقت في حياة الإنسان ووجوب الحرص عليه.

قال تعالى:

﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ (العصر: ١-٣) ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤)﴾ (الفجر: ١-٤)

﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢)﴾ (الضحى: ١-٢)

رب العزة يقسم بالعصر وهو الدهر، أو هي الساعات الأخيرة من النهار، ويقسم بالفجر والليل، ويقسم بالضحى. فكأنما أقسم الله جل جلاله بكل ساعات الليل والنهار وأقسم بالدهر والزمان، لينبهنا إلى أهمية الوقت في حياة الإنسان.

فالوقت هو الخلق الذي خلقه الحق ﷻ، وجعل النهار فيه معاشا والليل فيه سباتا. فهو إذاً رأسمال الإنسان فمن تمسك بوقته وملأه بالطاعات والعمل الصالح والذكر الحميد، كان من الفائزين، ومن ملأه باللهو والعبث والمعاصي، كان من الخاسرين الخائبين.

الوقت هو حجة علينا لا حجة لنا

والوقت ليس ملكا صرفا وهبنا الله إياه...

فإن شئنا ملأناه طاعة وعملا صالحا، وأمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر، وسعيا في مناكب الأرض في الكسب الحلال، وإسهاما في عمارة الأرض واسعاد الناس.

وإن شئنا ملأناه فراغا مطبقا، أو لهوا عابثا، أو تسمرا أمام شاشات التلفاز، أو جلوسا في المقاهي لساعات.

بل الوقت سجل يعطيه الله ﷻ لكل امرئ منا مقسم إلى سنوات وأيام وساعات ودقائق بل وحتى أنفاس. وسيسجل الملك الرقيب أمام كل نفس أو ثانية ودقيقة ماذا كسبنا وصنعنا فيها، وكل امرئ بما كسب فيها جميعا رهين.

وتصطف الأنفاس والدقائق التي قضيناها فيما يرضي الله مع بعضها البعض ليشكل عمرنا الحقيقي المفيد. بينما تصطف الأنفاس والدقائق التي قضيناها فيما لا يرضي الله ولا ينفعنا مع بعضها البعض حيث يكون عمرنا المهدور الذي فرطنا فيه.

وعندما تثبت موازين الربح والخسارة على أعمارنا يكون كل الناس خسارى إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، لأنهم جعلوا أوقاتهم أوقاتا مثمرة متصلة لا تنقطع، إلى أن تفضي بهم إلى جنات عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين. أما الخاسرون فتكون اوقاتهم متقطعة بانقطاع الدنيا وملتصقة بالأرض والملذات الرخيصة، إلى أن تدفنهم في قبور ضيقة موحشة ثم تهوي بهم بعد ذلك في نار جهنم.

الحرص على الوقت في الهدي النبوي الشريف

وفي نفس هذا السياق تقريبا يقول الحبيب المصطفى (ﷺ) في تقرير أهمية الوقت في حياة الإنسان:

[اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك] (البيهقي).

وعن موازين الربح والخسارة يوم القيامة لعمل العبد في حياته الدنيا يقول عليه الصلاة والسلام:

[لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم انفقه، وعن علمه ماذا عمل به] (المنذري).

قول بليغ في إدراك قيمة الوقت

وهذا صحابي جليل وهو عبدالله بن مسعود قد أدرك قيمة الوقت، فترك لنا أثرا

خالدا وقولا بليغا يرنو إليه أصحاب القلوب الخاشعة والعزائم القوية والهمم العالية: (ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت فيه شمسه نقص فيه أجلي ولم يزد فيه عملي. إن الساعات ثلاث: ساعة مضت لا تعب فيها على العبد كيفما انقضت في مشقة أو رفاهية، وساعة مستقبلة لم تأت بعد.. لا يدري العبد أيعيش إليها ولا يدري ما يقضي الله فيها، وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه ولما تأتي الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى حقه من الأولى).

الوقت الذي تملكه حقا هو اللحظة التي تعيشها الآن فقط

نعم....لما كانت لحظة الموت أمرا غيبيا لايعلمها إلا من خلق الموت والحياة، وقد تكون أقرب الينا مما نتصور فقد يدركنا الموت قبل أن يقوم أحدنا من مقامه أو قبل أن يرتد إليه طرفه، وقد يحتسي أحدنا نفسا فينحبس في صدره ولا يقدر على إطلاقه، فوقتنا اذن هو اللحظة التي نعيشها فقط فما مضى من أوقاتنا ليس لنا عليها سلطان، فقد مضت بكل ما كان فيها لنا أو علينا، والوقت الآتي ليس بمقدورنا التثبت منه لذلك كان السلف الصالح موصولين بالله في كل لحظات حياتهم بالطاعة والذكر والعمل الصالح.

كيف نسيطر على الوقت؟

ولا تمكن السيطرة على الوقت إلا من خلال:

- إدراك أهميته وقيمته في حياتنا.
- التخطيط والتنظيم لاستغلاله.
- وضع الأولويات والبدء بالأهم ثم المهم وكذا...
- الحرص عى تطبيق ما خطط له ونظم فيه.
- التقييم والمراجعة في كل حين.

ووقت الإنسان يمر سريعا فلا تولد لحظة حتى تموت ولا انتظار البتة لكي يقرر المرء كيف يستغله وكيف يحقق طموحه فيه. لذلك قيل في المثل (الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك).

ولا بد أن يؤمن العبد بأن الوقت هو حياته نفسها، لذلك فهو أغلى موارد حياته. وهو هبة من الله تعالى له لا يدفع فيه أجرا ولا يبذل في استحصاله جهدا. وهذا من كرم الله على عبيده بأن جعل أثمن ما في الحياة مبذولا للجميع بلا مقابل. وتلك حجة على الإنسان، لذلك يسأل المولى عز وجل عبيده يوم القيامة عن عمرهم فيم أفنوه.

ويقول أمير المؤمنين علي (رضي الله عنه) قولا بليغا في الوقت:

(إن أوقاتك أجزاء عمرك فلا تنفذ لك وقتا إلا فيما ينجيك).

(ما نقصت ساعة من دهرك إلا بقطعة منك)

(خذ من نفسك لنفسك، وتزود من يومك لغدك، واغتنم غفو الزمان، وانتهز فرصة الامكان)

ويقول الحسن البصري (رحمه الله) في نفس المعنى: (ابن آدم إنما أنت أنفاس وأيام كلما ذهب نفس أو يوم ذهب بعضك).

التوازن في توزيع الوقت

ومن الأمور المهمة أيضا في كيفية التعامل مع الوقت هو التوازن في توزيعه لأن البعض يركزون جل وقتهم في أمر محدد بينما يهملون أمورا جوهرية أخرى. والشخص الحكيم هو الذي يوزع وقته بعدل، فيعطي وقتا للطاعة والعبادة، ووقتا للسعي في كسب الرزق بالحلال، ووقتا لأسرته، ووقتا آخر لصحته، ووقتا آخر لتنمية قدراته ومهاراته وتثقيف نفسه، ووقتا للتعاون مع الآخرين في جهد جماعي أو خدمة اجتماعية، ووقتا لراحة بدنه فلا يصح أن تكون الحياة شدا مستمرا.

وفي الأمور السالفة الذكر كلها، إذا كان العبد خالص النية في التوجه إلى الله ﷻ يكون الوقت الذي يسعى فيه وراء رزقه، والوقت الذي يريح فيها بدنه موصولٌ بالله تعالى. لأن العبد المؤمن لا يؤمن بالمقولة الشائعة (ساعة لربك وساعة لقلبك) بل تكون كل ساعاته وأوقاته لربه بإخلاص النية لوجهه الكريم في كل وقت وحين وفي كل كسب وعمل.

ضاع المسلمون عندما ضاعت أوقاتهم سدى

ولكن...!!

الناظر إلى حال المسلمين اليوم يجد ارتدادا خطيرا في فهم قيمة الوقت والحرص على استغلاله لدى الغالبية العظمى من المسلمين. ارتدادا بدأ منذ قرون حتى أصبحنا أمة إتكالية غوغائية يكاد لا يوجد للوقت مقياس لديها. وتخلفت الأمة بأن هدرت وقتها بالفراغ والكسل والخمول، حتى أن الإحصائيات الدولية حول انتاجية الفرد خلال ساعات العمل المقررة تشير إلى أن انتاجية الفرد في الدول العربية ومعظم الدول الإسلامية هي في أدنى مستوياتها، وهذه ظاهرة خطيرة جدا لأن ساعات العمل عادة لا تكون ملك صاحبها حتى يفرط فيها لأنه إما أجير لدى الدولة أو في مصلحة خاصة أو يعمل لدى رجل آخر، فيكون تفريطه بوقت العمل خيانة للأمانة أيضا بهدره وقتا قد أؤتمن عليه. ويكاد يتساوى في ذلك الملتزم بالأمور الشرعية مع المتهاون فيها أو المهاجر لها.

كيف فهم السلف الصالح قيمة الوقت

وعندما نقلب الصفحات المشرقة لعلماء الأمة وعظمائها نجد أنهم كانوا يحرصون على أوقاتهم أيما حرص فلم يمنعهم طاعة الله وذكره أو السعي وراء الرزق من تسخير جل وقتهم للعلم والمثابرة والمذاكرة والتأليف، والإرث الخالد الذي تركه علماء المسلمين في الفقه والحديث والتشريع والدعوة والإرشاد وفي الفلك والطب وكل العلوم الأخرى والتي صارت الركيزة الأساس لنهضة الأمم من بعدهم هو خير دليل على ذلك.

عرف غير المسلمين من تراث أعلام الأمة قيمة الوقت، فانبرى له كتابهم ومفكروهم وعلماؤهم، يدرسون أهمية الوقت وكيفية استغلاله الاستغلال الأمثل، ووضعوا في ذلك نظريات وأبحاثا ودراسات، وصار عنصرا مهما في تسيير أمور الحياة كلها، وذلك أمر محمود يشرف أصحابه.

التفريط في الوقت خيانة

وكان الأولى بالمسلمين أن تبقى لهم الريادة في ذلك، لأن الوقت في التشريع الإسلامي هو العنصر الذي يرتكز عليه حياة العبد كلها فإن فرط في بعض وقته كان كمن يحرق بعض عمره هكذا هدرا وبلا مبالاة.

ومن فرط في وقت يأخذ عليه أجرا كان خائنا للأمانة وبكل ما للخيانة من معنى ودلالات.

ومن تولى أمرا من أمور المسلمين، ثم لم يهب لذلك كل وقته وجهده، بل سهى عنهم وانصرف إلى المجون، أو إلى كل أشكال الرفاهية والتنعم بملذات الحياة، والتفريط بحقوق الناس، كانت خيانته خيانة مركبة في حق نفسه وفي حقوق رعيته وفي حق الله.

والأوقات كلها أمانات في أعناقنا سنسأل عنها يوم القيامة.

لا يليق بأمة محمد أن تكون أمة كسولة

فهل يليق بالأمة التي أرادها الله أن تكون خير أمة أخرجت للناس، أن تكون أمة كسولة اتكالية لا تعرف قيمة الوقت ولا تحرص على استغلاله فتكون بذلك في ذيل الأمم من حيث الانتاجية واستغلال الوقت وفي تلمس وتبني مقومات النهضة فيها؟؟

لا بد من وقفة

ولا بد أن يدق ناقوس الخطر في داخل كل واحد منا دقا شديدا مدويا متواصلا حتى نصحو من غفوتنا وغفلتنا ونستدرك أمرنا وننتبه إلى التيه والفراغ الذي يغلف كل حياتنا. فتنظم أوقاتنا:

على مستوى الفرد الواحد.

وعلى مستوى العائلة الواحدة.

وعلى مستوى المدارس والجامعات.

وعلى مستوى المؤسسات والمصالح الرسمية والخاصة.

وعلى مستوى دواوين الحكم والسلطات.

لعلنا بذلك نعيد الحرص على الوقت إلى مفهومه الشرعي والعقائدي، فنملأ أوقاتنا بالطاعة والعمل الصالح، ونملأها بالبر والإحسان، ونملأها بالعلم المفيد، ونملأها بالتعاون المثمر البناء، ونملأها بالعمل النافع والكسب الحلال، ونملأها بالتنظيم المتقن.

لنقطف ثمار كل ذلك بعد حين:

رقيا في الأخلاق والسلوك الفردي.

ورقيا في السلوك الاجتماعي العام.

ورقيا في المناهج والمدارس ومعاهد العلم.

ورقيا في العلوم كلها وفي أساليب البحث والتطوير.

ورقيا في أساليب الادارة والحكم وتداول السلطة.

ورقيا في أساليب وأهداف وغايات النهظة الفتية - التي تولد وقتئذ - التي تضع أقدامها الطرية على طريق النهظة الشاملة الناصعة المشرقة.

درس محمدي عظيم

وخاتمة القول......

لنا في القول البليغ للحبيب المصطفى (ﷺ) أسوة حسنة: [إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها] (الألباني).

وهذا بيان عظيم لاستغلال الوقت حتى في أحلك الظروف فالتفريط بالوقت هو تفريط بالحياة التي وهبك الله إياها.

وهو وبيان وحث على قيمة العمل وقدسيته في المنهج الإلهي في الوقت نفسه فهل من مدكر؟؟

❊

٤١- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الإسلام أمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤)

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (التوبة: ٧١).

ما هو المعروف، وما هو المنكر؟

المعروف: ما حسنه الشرع من خير وطاعة وعمل مفروضا كان أم مندوبا.

والمنكر: ما قبحه الشرع من شر ومعصية حراما كان أم مكروها.

الأمر بالعروف والنهي عن المنكر، فريضة شرعية

ومن سياق هذه الآيات الكريمة نستدل أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة شرعية عينية، وكل من رأى منكرا عليه أن يغيره باليد أو اللسان أو القلب. فعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله (ﷺ) قال: [من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان] (مسلم).

أين تكمن خطورة الأمر بالعروف والنهي عن المنكر؟

في الحقيقة ان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي قضية بالغة الخطورة والحساسية في بناء وتماسك المجتمع المؤمن. فإن أهملت هذه الفريضة تقوضت أركان المجتمع المؤمن، وتداعت أركانه ركنا بعد ركن، ثم برز على أنقاض هذا الركن المكين من يامر بالمنكر وينهى عن المعروف جهارا أمام الناس. أو يبرز للأمر غير أهله فيتصدى كل واحد للمنكر حسب هواه، وليس على أساس شرعي متين، فيظهر الفساد وتتفشى الفتن والاقتتال والفوضى، وهو أمر أخطر من وجود منكر في بعض حلقات المجتمع.

ومتى كان الأمر هكذا فإن المجتمع يكون مجتمعا هشا متراخيا يزحف نحو هاوية مخيفة دون أن يكون ثمة من ينبري لوقف هذا الزحف.

شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لذلك..... كان لا بد من اللجوء إلى الميزان الشرعي في تداول قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولتطبيق هذه الفريضة وضع الشارع شروطا لا بد من توفرها فيمن يتصدى لهذا الأمر.

- الإخلاص: فمقياس كل طاعة وعمل في المنهج الإسلامي هو إخلاص النية لله تعالى، وأن لا يكون رياء، أو تفاخرا، أو كسبا لريادة وزعامة، أو اظهارا لقوة شخصية مجردة.

- العلم: فالذي يتصدى لهذا الأمر لا بد أن يكون عالما مطلعا على الرأي الشرعي كون هذا الأمر معروفا فيدعو الناس إليه، أو منكرا متفقا عليه فينكره، وأنى للجاهل أن يجتهد ويتصرف في أمر يخص تصويب معروف أو إنكار منكر.
- الاتفاق على حكمه: أن يكون المنكر المنهي عنه متفقا عليه بين العلماء وليس محل خلاف أو اجتهاد.
- ان يكون فعل المنكر ظاهرا بحيث لا يصل إليه عن طريق التجسس والترصد للايقاع بالاخرين، فلا يجوز إنكار منكر بمنكر.
- أن لايترتب على الأمر بالمعروف تفويت معروف أعظم، ولا على النهي عن المنكر تحصيل منكر أشد.
- أن يكون مقدورا عليه بلا إكراه حقيقي، يعرض نفسه أو ماله أو عرضه لخطر حقيقي، إلا إذا كان في ترك هذا الأمر مفسدة كبيرة فيؤخذ بالعزم حينئذ.
- مراعاة التدرج في التعامل مع المنكر، وأن يترك التغيير باليد لصاحب الأمر والسلطة المخولة.

كيف ننهى عن المنكر بالمعروف؟

والأمر بالمعروف يسبق النهي عن المنكر في كل الآيات القرانية والأحاديث النبوية الشريفة التي تصدت لهذه الفريضة، وهذا يعني أن نبدأ بالمعروف حتى في إنكار المنكر.

فلو أردنا أن ننكر على شارب الخمر شربه للخمر مثلا علينا أن نشير إلى طيب أخلاقه وبعض فضائله وننبهه أن هذه الفضائل ستهتز إذا استمر في شرب الخمر وعندها تسقط منزلته في عيون محبيه وفي عيون الناس، ثم نذكر له أنه يلحق بنفسه أذى آخر لأنه يتلف ماله فيما يضره ولا ينفعه. أيكون هذا القول المعروف أبلغ تأثيرا في نفسه أم إذا أتيناه زاجرين مستغلظين عليه القول أمام الناس: إنك رجل عاص تعاقر الخمر ونار جهنم أولى بك، فإذا ضاق بهذا الحديث وتململ أو رد بما لا يليق أشبعناه ضربا مبرحا وتشابكنا معه بالنواصي والأقدام. ثم نقول: أردنا تغيير المنكر باللسان فلما لم ينفع أنكرناه باليد؟؟

أو سمعنا أن فلانا يصلي ولكنه يشرب الخمر!!!

فهل نبادره بقول معروف: انك رجل تؤمن بالله وتصلي لأجله فبارك الله فيك،

ولكن هذه الصلاة وهذه العبادة تتلوث بمعاقرة الخمر والجلوس على موائده، والأولى أن تحافظ على نقاء صلاتك وعبادتك بترك هذه المجالس. أم نأتيه وقد تملكنا الغضب فنصرخ في وجهه: ألا تعلم يا عدو الله أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والخمر أم الخبائث فلا صلاة لك، وإنك تشوه جمهور المصلين بعملك القبيح هذا والله ليس بحاجة إلى صلاة عاص فاجر مثلك!!!!

فأي القولين أبلغ في إنكار المنكر وردع صاحب المنكر؟؟؟

وقد روي أن أحد أصحاب الامام الصادق (رضي الله عنه) كان يرتكب محرما، فعندما رآه الامام قال له: (الحسن من كل الناس حسن ومنك أحسن لمكانك منا، والقبيح من كل أحد قبيح ومنك أقبح لمكانك منا)، فلم يسمّ له المحرم الذي يرتكبه بل حثه على تركه بطريقة غير مباشرة.

فعل هذا وهو الإمام الحجة في عصره وزمانه بل وفي كل عصر وزمان، أفلا يكون لنا في قول الإمام الصادق درسا وعبرة؟؟

إن الهجر المخزي لهذه الفريضة من قبل المسلمين، أو التعامل السمج المقرف المتشدد معها، قد أوصلا الأمة إلى حافة الانهيار الذي تعيشه.

ماذا جنت الأمة عندما هجرت هذه الفريضة؟

لم يكن المنكر ليستشري ويتعاظم شره لولا هجرنا عن قول المعروف ونهي المنكر. ولم ينزل علينا هذا الكم الهائل من المنكر دفعة واحدة، بل برز المنكر خجولا هنا وهناك فلم ينبر له علماؤنا ومفكرونا وأولو الأمر منا، ولم نقم نحن بواجبنا كأمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فصارت للمنكر مواطئ أقدام داخل مجتمعاتنا ومؤسساتنا وبيوتنا، وانفرط عقد الولاية والود والتآزر بين المؤمنين فلم يعودوا أولياء ولم يعودوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (التوبة: ٧١).

وانشغل كل بهمّ نفسه والسعي لنفسه بمعزل عن هموم الأمة، وانشغلت المجتمعات المسلمة بهمومها منفرة فلم يعد ثمة ترابط وثيق يجمع كلمة الأمة على أمر سواء، فلم نعد خير أمة أخرجت للناس لأننا تركنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

وفرغت الساحة للمنافقين

فصارت لهم شوكة، وتجمعت خيوط الأعلام المؤثر في أيديهم، وعلى زعيقهم وصاروا يتعاطون المنكر في نواديهم، بل يروّجون له جهارا. ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ

بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (التوبة: ٦٧)

ماذا حصل عندما أعرض الصالحون عن أداء هذه فريضة

نعم..

- اذا سكت الصالحون.... وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر استشرى الفساد وبرزت الفتن وفي ذلك يقول الحق سبحانه تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال: ٢٥)
- وإذا سكت الصالحون.... أنزل الله عقابا منه على الناس وتسلط شرار الأمة على خيارها ولا يقبل الله دعاء الصالحين حينئذ.

قال رسول الله (ﷺ):

[والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعون فلا يستجاب لكم] (سنن الترمذي).

- وإذا سكت الصالحون... وتعطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما أراده الله ورسوله. ضعفت العقائد في القلوب وانهارت قواعد الإيمان في النفوس. وهذا مصداق قول الحق سبحانه وتعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ....﴾ (آل عمران: ١١٠).

وكأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يسبقان الإيمان أو يحرسانه، أو هما من الإيمان بمثابة قطبي الرحى فبتعطلهما يتعطل الإيمان في القلب.

- وإذا سكت الصالحون....انبرى للأمر غير أهله فيقود تصديهم للمنكر على غير بصيرة ولا علم شرعي متين إلى منكر أشد والى فساد وإفساد كبيرين.

ما هو خلق من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟

ذلك لأنهم لايملكون خلق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- فخلقه الورع والتقوى ومطابقة القول للفعل... وهم على غير ذلك تماما!!
- وخلقه الرفق واللين... وهم قساة جفاة متشددون لا يردعهم رادع من ضمير.
- وخلقه التواضع... وهم متكبرون يرون لأنفسهم حقا مقدسا على رقاب الناس وفي دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

- وخلقه الصبر والحلم... وهم متهورون يتملكهم الغضب لأتفه الأسباب فيفسدون ولا يصلحون.
- وخلقه الوصول إلى إنكار المنكر بالمعروف... وهم يرومون الوصول إليه ولو بمنكر أشد وأقبح.

التطبيق الجاهل لهذه الفريضة

كثيرا ما نسمع ان مجموعة من الشبان في بلد مسلم قامت: بالقاء قنبلة في محل لبيع الأقراص المدمجة بدعوى أنه يتعامل بالأقراص المدمجة الإباحية، أو بتفجير خمارة أو بيع لمحل الخمور، أو قتل صاحب محل حلاقة مع زبائنه بحجة أنه يقوم بنتف الشعر من وجوه الشبان!!!

فإذا كان التعامل بالمواد الإباحية وبيع الخمور منكرا متفقا عليه، وإذا كان نتف الشعر من الوجه أمرا مكروها للرجال، فهل يكون إنكار كل ذلك باراقة الدماء، واتلاف الأموال، وإلحاق الأضرار بكثير ممن وجدوا صدفة هناك، أو تقع محالهم وبيوتهم في الجوار.

وأي منكر أشد!! نتف الشعر من وجه رجل أو إراقة دم لم يحلله الله؟؟

لا بد من وقفة حكيمة ومراجعة شاملة

إذاً...!!!!!

- لا بد من وقفة لمراجعة فهم المجتمع وتطبيقاته لهذه الفريضة وهذا الخلق.
- ولا بد من وقفة ومراجعة ودراسة وفهم جديد لموازينه وأحكامه وشروطه.
- ولا بد من وقفة ومراجعة لكيفية إدخال هذا الخلق في مناهج التربية والتعليم وتربية النشأ الجديد عليها.

كيف استفاد غير المسلمين من تطبيق هذا الخلق لحماية مصالحهم؟

كل من يذهب إلى بلاد الغرب يتعجب من حرصهم جميعا - صغارا وكبارا - على احترام القانون، والإلتزام بالتعليمات التي تنظم شؤون حياتهم واحترام الملكية العامة، وعدم قبولهم أن يتجاوز غيرهم عليها حتى.

وسمعنا الكثير من الحكايات والقصص الحقيقية، وعلى سبيل المثال لا الحصر، ان كنت تعيش في بلد غربي وكانت لك جارة مسنة تحسن جوارها وتساعدها في بعض شؤونها بلا مقابل، ثم رأتك في مخالفة صريحة لقانون أو أمر ما، أو رأتك تتلف مالا عاما، أو لا تتقيد بتعليمات حددتها السلطات، فلا يثنيها إحسانك إليها أن تسكت عن

تجاوزك أو خرقك بأن لا تبلغ عنك، وهذه قمة في الحرص والالتزام وفي إنكار الخطأ. لذلك تسير مصالحهم وأنظمتهم بشكل دقيق ومتقن لأن كل فرد فيهم يجد نفسه مسؤولا عن تطبيق القانون والتعليمات.

العودة العودة إلى تطبيق هذه الفريضة

أفلا يجدر أن يثير فينا حرص هذه العجوز على إنكار الخطأ، حرصا مقابلا بأن نعيد فريضة وخلق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى حياتنا؟؟

فإذا راينا أولي الأمر يعيثون في الأرض فسادا انبرى لهم الصالحون والمفكرون ومن يهمهم مصلحة البلاد والعباد لتصحيح اعوجاجهم دون خوف من ملاحقة. تماما كما انبرى أعرابي في مجلس الخليفة عمر الفاروق ليرد على قول الفاروق عندما طلب أن يقوموا أي اعوجاج يرونه فيه: (والله يا عمر لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا).

وأن يكون هذا هو المعيار في التعامل مع كل المسؤولين الذين يعبثون بالمال العام وقوت الشعب، أو يغلبون مصلحتهم الشخصية على المصلحة العامة أو يرتشون.

أو كل من يشيع الفاحشة والمنكر بين الناس.

أو يعتدي على القانون الذي ينظم شؤون الناس وحياتهم ومصالحهم.

أو يعطل مصالح العباد أو يعبث بها.

أو يفسد خدمة يستفيد منها جمهور من الناس.

أو يؤذي الناس في أموالهم وأعراضهم وممتلكاتهم.

أو... أو....

وهكذا أن يكون هناك دوما من يتصدى بإيجابية لكل هذه المفاسد والمنكرات، فينصح ويأمر بالمعروف كلما وجد إلى ذلك سبيلا، أو يبلغ أولي الأمر والسلطات إذا لم يثمر قول المعروف ولم تثمر النصيحة.

تلك العجوز اهتمت بإنكار الخطأ حتى لا تتعطل مصلحتها في الحصول على خدمات وتسهيلات تعودت عليها، ونحن إذ نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر إنما نفعل ذلك امتثالا لأمر إلهي كريم نؤجر على تطبيقه ونحاسب على تركه وتعطيله. فأي الفريقين أولى باتباع المعروف والنهي عن المفاسد والمنكرات؟؟

❊

٤٢ـ العزة

العزة لله وحده

العزة: هي القوة والغلبة.

والقوة المطلقة والغلبة الكاملة لا تكون إلا لله وحده.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا.....﴾ (فاطر: ١٠).

﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (يونس: ٦٥).

إنه القول الفصل من الحق سبحانه وتعالى... فله العزة جميعا لا ينازعه فيها أحد. وكل مظاهر العزة أو الجبروت أو القوة أو مما تعارف عليه الناس أنها مظهر عز، ان هي إلا قشور وإن هي إلا وهم. فالله هو العزيز الجبار المقتدر، وهو الغني المغني وكل ما عداه إلى زوال وفناء.

درس من الأمم التي خلت من قبلنا

كم عرفت الأرض من الطغاة والجبابرة مِمن كان يظنهم الناس أن لهم العزة جميعا؟؟ أين هم الآن؟؟ زال سلطانهم، وأفلتْ أنجمهم وأندرست قصورهم وصروحهم، أو هي شاخصة لتكون عبرة للناس فيعرفون أن العزة جميعا لله وحده.

يشرق سلطان دولة ويأفل سلطان أخرى، وتتسارع خطى معسكر صعودا إلى القمة بينما تتعثر قوى آخر نزولا نحو الهاوية.

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٠).

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آَخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩)﴾ (الدخان: ٢٥-٢٨).

هذه سنة الله في خلقه.. ولا دوام إلا للدائم الأزلي.

العزة لا تكون إلا بالقوة المطلقة العادلة ولا يملكها إلا الله تعالى!

وتأكيد الحق ﷻ على أن العزة لله جميعا، هو لبيان أن العزة لا تكون إلا بالقوة المطلقة العادلة والتي تكون الغلبة فيها للحق فقط. والقوة المطلقة القاهرة العادلة لا تكون إلا للحكم العدل الأحد الصمد ﷻ.

مصدر العزة في التمسك بحبل الله

ومهما أوتي هذا الفريق أو ذاك من مرتكزات القوة المادية المجردة، أو من مصادر الغنى المفرط، ومهما طال بهم الدهر وهم يمتلكون هذه القوة وذاك الغنى،

فإنها لا يمكن أن تكون مصدر عز وفخار لهم إلا إذا تمسكوا بحبل متين من الله، وحبل الله المتين هو منهج الله فقط.

والتمسك بحبل الله لا يكون بالتمني، ولا يكون قولا يخالف الفعل، ولا يكون شعارات يطلقها هذا الحاكم أو تدعيها تلك الجماعة، بل يكون تطبيقا عادلا لمضامين ما أراده الله من الناس وللناس وبين الناس، بكل مرتكزات منهجه من القيم والعدالة والمساواة والأخلاق الفاضلة.

لا خير في عز يورث ذلا حتى للدائرين في فلكه!!

حين نقرأ التأريخ القديم والحديث نرى بروز امبراطوريات حكمت نصف العالم أو ثلثه أو ربعه حكما مباشرا أو غير مباشر، ولكنها حين وجدت بين أيديها مصائر الشعوب طغت وظلمت وتجبرت وأذاقت الناس الذل والهوان، لذلك لما أفلت انجمها، كشف عنها غطائها وعرف الناس أن ما كانت عليه هذه الامبراطوريات لم يكن عزا لها ولا لأقوامها أو للتابعين لسلطانها.

المؤمن يستمد العزة من تطبيق منهج الله

الله جل جلاله هو العزيز الجبار، وهو مصدر العزة والجبروت، ومنهجه هو الذي يورث العزة، لذلك فإن من يؤمن بالله إيمانا راسخا ويتمكن الإيمان من قلبه وفكره وجوارحه، يتيقن أن الله عادل فلا يظلم أحدا، ويعلم أن الله عفو غفور وتواب رحيم فيصفح ويسامح ويرحم، ويعلم أن الله حكيم خبير فيدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويعلم أن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى فيصل رحمه، وأن الله ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي فينكرها ويتجنبها، ويعلم أن الله هو الكبير المتعال فلا يتكبر على عباد الله ويجعل التواضع رداءه، ويعلم أن الله يعلم سره ونجواه فيكون ذلك مقياس عمله في السر والعلن، ويعلم أن الله قد أرسل حبيبه محمدا (ﷺ) ليتم مكارم الأخلاق فيكسبها ويخالق الناس بها... وهكذا فإن كل صفات الله ﷻ وكل أسمائه الحسنى تشده إلى منهج الله اعتقادا يقينيا راسخا بأنه سبيل الله وطريقه المستقيم الذي به تستقيم حياة الناس جميعا وتفضي بمن يتمسك به إلى الجنة وبمن ينكره ويتركه إلى النار، ثم يطبق منهج الله على نفسه ويدعو أهله والناس جميعا إليه.

والمؤمن الذي يذوق قلبه حلاوة الإيمان، ويتّقي الله حق تقاته، يدين لله وحده ولا يحني هامته لأحد سواه، ولا يطلب شيئا من غيره، لأن الله هو القوي عنده والقاهر فوق عباده، والعباد كلهم ضعفاء لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضرا أو نفعا. والله وحده هو المانح المانع والباسط القابض فلا حاجة به إلى أن يتوجه إلى غيره وهو الغني والخلق كلهم فقراء.

فيكسيه الله جزاء ذلك ثوب العزة فلا يعيش إلا عزيزا في نفسه وعزيزا في عيون الناس، ولا يعرف الذل والانكسار والخنوع سبيلا إلى حياته.. ومهما عاش في الدنيا عيشة الفقراء ولم يصب مالا ولا أولادا ولا سلطانا.

لنا في صحابة رسول الله أسوة حسنة

ولنا في صحابة رسول الله (ﷺ) أسوة حسنة، كانوا يسكنون بيوتا من طين، وتكسو أجسادهم ثياب خشنة خرقة مرقعة، ويبيتون الكثير من لياليهم على الطوى، وكانوا رغم ذلك أطوادا عظيمة في العزة والفخار والثبات.

نعم... هذا هو طريق العزة والكرامة.

انه طريق الإيمان بالله والتمسك بمنهجه القويم وحبله المتين.

وأي طريق آخر لا يورث عزا ولا فخارا.

مظاهر الدنيا لا تورث العزة

فكل مظاهر الدنيا الزائفة بقصورها وضياعها وخدمها وحشمها وكنوزها، لا تقابل حقيقة العز الذي يملأ قلب المؤمن. ذلك لأن عز المؤمن مشدود بحبل عزة الله المتين المكين وكل الحبال الأخرى منقطعة إلى غرض من أغراض الدنيا أو إلى قوة ظالمة غاشمة أو إلى فكر أخرق منحرف.

لذلك أشار الحق ﷻ إلى المنافقين والذين في قلوبهم مرض من أمراض الجاهلية، الذين يتخذون الكافرين والفجار والظالمين أولياء من دون الله ومن دون المؤمنين، طمعا في كسب دنيوي لا يغني من الحق شيئا وبشرهم بعذاب اليم.

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩)﴾ (النساء: ١٣٨-١٣٩).

كيف فهم عمر الفاروق معنى العزة

لقد فهمها الفاروق عمر (رضي الله عنه) فقال:

(نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب بغير الله بديلا) (تأريخ الطبري).

(نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العزة بغيره يذلنا الله).

ويمكن الجزم جزما لا يخالطه شك، أن من يبتغي العزة من غير الله، وبغير منهج الله، فيلجأ إلى كافر يعلن عداوته لدين الله نهارا جهارا، ويلجأ في الإضرار بالمسلمين إلى كل وسائل الشر لديه، فإن هذا المنافق الأخرق لا يمكن أن يشعر بأي شعور من العز، حتى لو خلع عليه أسياده جاها ومالا، أو أجلسوه على عرش من ذهب، أو ألبسوه تاجا مرصعا بالزمرد والياقوت. ذلك لأن العزة تنبع من داخل قلب مفعم بالإيمان

الصادق الراسخ، ولا تنبع من قلوب منافقة ونفوس مريضة، ولا توهب ممن لا يملك مفاتح العزة لنفسه أو لغيره.

كيف نصحح فهمنا لمعاني العزة

فهل نصحح فهمنا لمعاني العزة ومصادرها.

- لنعلم أنه الإيمان بالله والتمسك بكتابه وسنة رسوله!
- ونعلم أنه تقوى الله والثبات على القيم والأخلاق الفاضلة التي جاء بها منهج الله.
- ونعلم أنه التآزر بين المؤمنين ومصاحبة الصالحين.
- ونعلم أن الغنى لا يورث عزا وأن الفقر لا يورث ذلا، كما يظن الكثير منا.

وعندها فقط نكون قد تلمسنا بداية الطريق الصحيح إلى العزة الحقيقية، وليس إلى سراب كاذب ووهم خادع.

وقد قالها أمير المؤمنين على بن أبي طالب (رضي الله عنه):

(من أراد غنى بلا مال، وهيبة بلا سلطان، وعزا بلا عشيرة، فليتق الله، فإن الله يأبى أن يذل إلا الكفار).

٤٣ـ العزم والجد والتوكل

من معاني العزم والجد والتوكل

العزم: قطع بالرأي وعقد بالقلب على إمضاء الأمر (وهي الإرادة).

الجد: بكسر الجيم، ضد الهزل، أو هو الاجتهاد في الأمر.

التوكل على الله: إظهار العجز والتوكل على الله ﷻ.

كيف يكمل العزم والجد والتوكل بعضه بعضا

العزم والجد والتوكل خلق يكمل بعضه بعضا، فلو وقف عقلك عند رأي معين واستقر في قلبك ثم عقدت العزم على امضائه، فما عليك إلا أن تعتمد على الله وتفوض أمرك إليه ثم تشمر عن ساعد الجد لإنجاز ما عزمت عليه.

أما لو تهاونت أو تلكأت أو تباطأت فيه فلم تنجزه بالجدية التي يستحقه ولا بالوقت الذي خصصته له ابتداءا، ولا بالشروط والنوعية التي وقف عندها رايك، فلا بد أنك اما لم تكن عازما تمام العزم على إنجازه، أو أنك إنسان مهمل وغير منضبط في عملك، ولا إرادة لك، وعليك أن تراجع أمر نفسك.

﴿...فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

والعزيمة مطلوبة في أمور الخير كلها ولكنها تكون أشد في الأمور التي ينبغي الثبات عليها كالطاعات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على المصائب.

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (لقمان: ١٧).

ومن معنى العزيمة نفهم أنه تقصد بها الدراسة والتشاور والتخطيط والتدبير لإنجاز أمر ما.

التوكل على الله قبل الأخذ بالأسباب وبعده

وحسب المفهوم الإسلامي للعمل والحياة فإنك بعد أن تأخذ بالأسباب المادية كلها، من الدراسة والتحقق والتشاور والتخطيط والتدبير، فإنك تتوكل على الله حق التوكل، لأنك تعلم أن الله ﷻ هو موجد الأسباب، وإنك تؤمن أنه ما من شيء في الأرض ولا في السماء إلا هو بين إصبعين من أصابعه سبحانه يديرها كيفما يشاء. ولا أمر يخرج عن إرادته ولا علمه، وتدرك - وأنك قد هيأت الأسباب المادية كلها- عليك أن تدعو من الله أن يبارك لك في مسعاك ويسدد على طريق الخير والنجاح خطاك. ثم تقوم بإنجاز الأمر كما خططت له دون تفريط في الوقت ولا تفريط بالجهد ودون حيود عن شروط وتفاصيل العمل، وكذلك بلا إخلال بهيكلية التنفيذ وبرنامجه وأولوياته.

الرضى بالنتائج

فان أكرمك الله بأن تحقق لك ما أردت تشكر الله أن هداك أولا وأعانك على إتمامه وإنجازه ثانيا. وإن حدث ما يعطل جهودك كليا أو جزئيا أو يربك لك بعض شأنك، فعليك أن تكون حاذقا، حازما رابط الجأش في التعامل مع الحدث لتقدر على إصلاح ما تضرر وتصويب ما تغير، أما إن كان الضرر أكبر من أن يعالج أو يرمم فعليك بالصبر واحتساب أجرك عند الله، وتعلم أنك بذلت كلما أعانك الله وأقدرك عليه فلا تذهب نفسك حسرات على أمر ذهبت كل جهودك فيه سدى. وتعلم أن الله لا يضيع عنده جهد خالص صادق حتى لو كان من أجل كسب رزقك وقوت عيالك لأن الله يؤجرك على صبرك عليها يوم القيامة، وهذا منتهى الكرم الرباني.

درس في العزم والجد والتوكل من مدرسة النبوة

رسول الله (ﷺ) أسوة حسنة في أمور الحياة كلها لكل من كان له قلب سليم ورأي رشيد ويريد أن يمشي على خطاه ويجاوره في جنان الخلد عند مليك مقتدر.

وفي الموضوع الذي نحن بصدده، وهو العزيمة والجدية والتوكل فإنه عليه الصلاة والسلام كان خير معلم وخير قدوة في هذا الأمر كما هو في الأمور كلها.

ولعل حادثة حفر الخندق في سيرة الحبيب المصطفى (ﷺ) وما فيها من دروس بليغة في العزم والتصميم والتنفيذ الدقيق وفي الحزم مع المستجدات تكون خير دليل نستدل منهاعلى خلق الحبيب في هذه الأمور كلها ونأخذ منها العبر والعظات.

فبعد أن عقدت الأحزاب أمرها على مهاجمة مدينة رسول الله (ﷺ) وبعد أن تشاور الحبيب مع صحابته وتدارس معهم حول إمكانيات المسلمين في المدينة وإمكانيات جيوش الأحزاب التي تتجه صوبها استقر الأمر بعد المشاورة على ما يلي:

- إن الأمر جلل وجد خطير وان جيوش الأحزاب تتقاطر إلى المدينة بهدف الإجهاز على المسلمين واطفاء نور النبوة. ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (الصف: ٨).
- المواجهة المفتوحة في غير صالح المسلمين لتفوق جيوش الأحزاب على جيش المسلمين عددا وعدة.
- لا بد من خطة بديلة تربك خطط العدو وتحيد تفوقه المادي، وكان حفر خندق حول المدينة هو الخيار الأفضل.
- استطلع الرسول (ﷺ) مع بعض صحابته ضواحي المدينة وتم اختيار الموقع المناسب للخندق في شمال المدينة - وهو الجانب الوحيد المكشوف أمام العدو - ليصد جيوش الأحزاب عن المدينة، وتتوافر فيه الحماية للجيش ويحمي ظهور المسلمين بجبل منيع.
- وضع التصميم المناسب للخندق لعدم تمكين العدو من اختراقه.
- وضع الخطة وقسم العمل بين الصحابة بالتساوي.
- وضع برنامجا زمنيا للتنفيذ.
- وضع عوائل المقاتلين المسلمين في حصن آمن خلف المسلمين.
- وضع خطة محكمة للرقابة والسيطرة على التنفيذ.

ويكون الرسول (ﷺ) بهذا قد أكمل متطلبات الدفاع عن المدينة بعزيمة قوية وتخطيط محكم.

فماذا بعد!!

هل ذهب رسول الله (ﷺ) إلى مسجده وترك أمر الاشراف على التنفيذ لبعض صحابته؟

أم انه:

- شارك أصحابه بهمة عالية لا تعرف الكلل فأعطى القدوة الحسنة لأصحابه في العمل الدؤوب رغم قساوة الظروف.
- وشاركهم في الحفر وحمل التراب.
- وشاركهم في قسوة الجوع حيث وصل به الأمر أن ربط حجرا على بطنه الشريف من شدة الجوع.
- وشاركهم في ترديد كلمات كان قالها ابن رواحة لرفع معنوياتهم وادخال السرور إلى صدورهم.

إذاً!!!

مع الأخذ بالأسباب ومع العزيمة القوية الصلبة في الاعداد والتهيئة. كان عليه الصلاة والسلام جادا في تنفيذ الخطة كقائد ومشرف وقدوة.

وقبل ذلك وبعد ذلك كان دائم التوكل على الله كثير التضرع إليه والدعاء له والاستعانة به ﷻ.

وكان شديد الحزم رابط الجأش في التصدي للآمور الخطيرة التي برزت خلال تنفيذ الخطة والتي كادت أن تهدد أمن المسلمين وتأخذهم على حين غرة. وهي نقض اليهود لعهدهم مع المسلمين، وترك المنافقين لصفوف المقاومين عن المدينة والرجوع إلى بيوتهم بحجة أنها عورة.

لذلك!!

كانت معركة الخندق درسا للأمة كلها في العزم والحزم والجد والتوكل.

لماذا خارت عزائم المسلمين في العهود الأخيرة

والملفت للأمر...

أن هجر المسلمين لدستور أخلاقهم الذي ارتضاه الله لهم ورسوله، قد أوقع في قلوبهم الوهن والعجز والكسل، فما عادت لهم من عزيمة تشدهم لأمور دينهم ودنياهم، وارتبكت خطواتهم في الحياة وتعثرت، وتفرق شملهم، فتسلط عليهم أعداؤهم، وصاروا يخططون للإيقاع بهم والنيل منهم أكثر وأكثر، وهم ساهمون نائمون، وانزوى الصالحون منهم إلى الخطوط الخلفية، فلم تعد تسمع لهم كلمة حق تحث الناس على العمل الصالح وتحثهم على التآزر والتآلف، وتوقظهم من غفلتهم، وتشد من عزائمهم، وتبعث فيهم روح الجد والمثابرة.

كيف استفاد أعداء الإسلام من فقدان العزيمة عند المسلمين

نعم... أعداء الإسلام يخططون للإضرار بالمسلمين عقيدة وأمنا واقتصادا

وأخلاقا، وتوظف في ذلك أيضا منافقين من بين ظهرانيهم، ودون أن يكون للمسلمين عزيمة مقابلة لدفع الضر عن بلدانهم وعن أنفسهم وأجيالهم، حتى إذا وصل الضرر إلى داخل أزقتهم وبيوتهم أو اشعلت فتنة كأداء في هذا البلد أو ذاك، تنبهوا إلى حالهم وما يحاك ضدهم أو يكاد يطبق عليهم، فلا يكون ردهم إلا ردا آنيا منفعلا غير محسوب العواقب، فيزيدهم ذلك وهنا على وهن، وتربك خطواتهم المتعثرة أصلا، فيزيد من تخلفهم. ذلك أن العمل غير المدروس بعناية، وغير المخطط له بدقة، لا يمكن أن تكون له نتائج إيجابية، فكيف إذا كان العمل برمته هو ردرد أفعال متشنجة ازاء مخططات بالغة في المكر والدهاء والخبث.

فتخلفت الأمة.... لأنه لا توجد نهضةٌ بدون عزيمة راشدة قوية في التخطيط وقوية في التنفيذ.

كيف هي أحوال المسلمين اليوم؟

ومن يرى حال المسلمين يظن أنهم قد ضربوا على آذانهم فلا يرون كيف أن الأمم من حولهم ومن مشارق الأرض ومغاربها، تتسابق للنهوضِ بأوطانها وتطوير مجتمعاتها واقتصادياتها بخطوات واثقة محسوبة، وبعزائم قوية راسخة، بينما المسلمون منشغلون بالفتن والقلاقل والاضطرابات التي تكاد تكون السمة المميزة لكل بلاد المسلمين. وهذه الفتن والاضطرابات إما يخلقها لهم أعداؤهم، أو تنبعث ذاتيا من رحم التخلف والتعصب والتشرّذم والفقر والجهل الذي يسود هذه المجتمعات.

لا بد من وقفة إذاً.. ولا بد من مراجعة.. ولا بد من الرجوع إلى دستور الأخلاق إذا أردنا أن نعيش أحرارا في أوطاننا، أحرارا في مناهجنا، وأحرارا في اقتصادياتنا.

❊

٤٤- النظافة

الإسلام دين يحث على النظافة

من يفهم الإسلام ومنهجه، ومن يقرأ سيرة الحبيب المصطفى (ﷺ)، ومن يمس الإيمان شغاف قلبه ثم يملؤه بنوره، لا بد أن يتيقن أن الإسلام دين يحث على النظافة ويدعو إليه، ولا يمكن أن يتصور أن يترك هذا الدين من ينتمي إليه ويؤمن به، حرا في نفسه إن شاء كان نظيفا في جسده، وملبسه، ومجلسه، وفي داره وطريقه، وإن شاء لم يأبه بذلك كله فعاش قذرا في هيأته وفي ملبسه ومسكنه وفي صلاته وعبادته.

من مظاهر النظافة التي دعا إليها منهج الله

ولعل الوضوء وغسل الجنابة هما أكبر دلالتين على أن الإسلام هو دين يدعو

ويهتم بالنظافة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ (المائدة: ٦).

فالغسل بعد الجماع نظافة وتنشيط للجسد، ولا يختلف اثنان على أنه أمر مطلوب ومرغوب، ناهيك أنه تهيؤ روحاني جديد، فبعد أن يقطف العبد من ثمار نعمة ربه في الحلال، يغتسل ويتقرب إلى الله في تواصل روحاني يعطيه شحنة إيمانية قوية جديدة.

أما الوضوء وبالشكل الذي ورد في الآية الكريمة، أو كما ورد تفصيلا في سنة الحبيب المصطفى (ﷺ). فغسل اليدين والقدمين والوجه والاذنين والمنخرين والمضمضة بالماء، ولمرات عدة خلال ساعات الليل والنهار، فإنها عناية حقيقية بنظافة الجسم أيما عناية. ولا نعلم أن أحدا من غير المسلمين قد يواظبُ على فعل ذلك يوميا ولمرات عدة وبنفس الكيفية، فيضمن نظافة كل أجزاء جسمه المعرضة للتلوث الخارجي، وهي الأجزاء التي تكون سببا في نقل الكثير من الأمراض إذ ما تركت ملوثة.

ودون الخوض في الحكمة الإلهية من وراء الوضوء بهذه الكيفية، هل هو تنشيط للدورة الدموية؟ أم تنشيط لعمل العضلات؟ أم هو مجرد أمر غيبي على العبد أن يؤديه دون الالتفات إلى ما وراءه من حكمة؟ فيكفينا أنه برنامج يومي للنظافة ولا يتركه المؤمن إلا في حالات نادرة جدا عندما يكون له عذر شرعي في تركه مؤقتا والاستعاضة عنه بالتيمم وعلى أن يعود إلى الوضوء فور زوال العذر.

ما هي الحكمة من الوضوء؟

وفي حديث لأبي هريرة عن النبي (ﷺ) أنه قال: [أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء] قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: [فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا] (البخاري).

ان هذا الربط الوثيق بين الوضوء وبين أداء أجل وأقدس وأعظم عبادة يؤديها العبد المؤمن لخالقه وهي الصلاة لأمر يبعث على التساؤل!! فنحن نفهم أن من يذهب في شأن من شؤونه الدنيوية لمقابلة زعيم أو أمير، تراه يتنظف ويتجمل ويتطيب، فهل يكون الوقوف بين يدي الحق ﷻ - وله المثل الأعلى وليس كمثله شيء جل جلاله وعظم سلطانه – قياسا على ذلك، وحتى يشعر العبد أنه مقبل على أمر عظيم وهو الوقوف بين يدي ملك الملوك، ورب الأرباب، في مناجاة مباشرة،؟؟ وأنه سيكون في هذا التواصل الروحاني ثاني اثنين لا ثالث لهما، ومثلما حط ماء الوضوء من درنه فلم

يُبقِ منها شيئا يحط الله من ذنوبه وخطاياه فيمحوها جميعا.؟؟

كيف يربط الإسلام بين الدين والحياة؟

نعم... إن دين الله الذي ارتضاه للناس كافة، ليس دين صوامع وبيع يتعبد فيها الناس ثم يخرجون منها فلا يربطهم بعدها بدين الله رابط. ففي كل شأن من شؤون الحياة، وفي كل عمل يعمله العبد المؤمن بنية التقرب من الله، نرى أن رسول الله (ﷺ) يربط هذا العمل بثواب يثوب الله عليه في الآخرة.

فروي عن رسول الله (ﷺ) انه قال: [لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر، ويدهن من دهنه، أو يمس من طيب أهله، ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين، ثم يصلي ما كتب الله له، ثم ينصت إذا تكلم الإمام، إلا غفر له ما بين الجمعة والجمعة الأخرى] (البخاري).

وقال أيضا عليه الصلاة والسلام: [السواك مطهرة للفم مرضاة للرب] (النسائي).

وهذا مزج نبوي محمدي فريد بين الحظ على نظافة الجسم وطيب رائحته وبين حسن التصرف وأدب الجلوس إلى الصلاة، وبين مغفرة الله للذنب.

ها هو النبي المصطفى (ﷺ) يعود فيحث على النظافة حثا مباشرا فيقول في حديث شريف: [ان الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فتنظفوا....] (الترمذي)

مع وسطية الإسلام

وككل شأن في الحياة فإن الله يدعو إلى التوسط في الأمور، وفي الزينة والمأكل والمشرب والتمتع بالطيبات من الرزق أيضا تأكيد على هذه الوسطية فيقول الحق ﷻ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢)﴾ (الأعراف: ٣١-٣٢). فاتخاذ الزينة من غير سرف ولا بطر ولا خيلاء، والتمتع بالطيبات من الرزق والمأكل والمشرب من غير تبذير أمر قد أحله الله تعالى فمن يحرمه؟

والمؤمن.... يكون ثوبه ساترا نظيفا متآلف التركيب والترتيب خاليا من القاذورات والروائح الكريهة، ويكون طعامه حلالا زلالا من غير تبذير ولا تقتير، ولا يدخل تعاهد العبد لمظهره انزلاقا نحو الإسراف والتبذير، بل هو أمر محمود يقره الإسلام.

وهناك فرق شاسع بين حياة الزهد وبين النظافة واتخاذ الزينة بالشكل الذي أحله

الله، ومن يدعي الزهد فيرى أن الزهد هو في ترك الاهتمام بملبسه ومنظره وتنظيف بدنه، فيعتزله الناس لقذارة ملبسه ورداءة صورته وعفونة رائحته، فإنه لا يفهم من أمر هذا الدين الحنيف النظيف شيئا.

الرائحة الطيبة من مكملات النظافة في الإسلام

والمؤمن.... تكون رائحته طيبة غير كريهة ولا منفرة لذلك رأينا كيف أن النبي (ﷺ) يدعو الآمين إلى المساجد أن يضعوا من الطيب، وكان عليه الصلاة والسلام لا يرد من يقدم له الطيب أبدا، وروي عنه (ﷺ) انه قال: [حبب إليّ من دنياكم ثلاث: النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة] (النسائي وأحمد).

النهي عن الروائح الكريهة في مجامع الناس

نرى في المقابل كيف أنه عليه الصلاة والسلام نهى المؤمنين أن يخرجوا إلى الصلاة أو إلى مجامع الناس برائحة كريهة غير مقبولة، فقال عليه الصلاة والسلام: [من أكل ثوما أو بصلا فليعتزلنا أو ليعتزل مجالسنا] (البخاري ومسلم).

وإذا كان في أكل الثوم والبصل فوائد صحية جمة إلا أن الرسول (ﷺ) نهى من أكلها أن يضايق برائحتها الناس في المساجد والمجالس، فكيف يكون مقبولا أن يخرج المرء إلى الناس أو المساجد وهو مشبع برائحة السجائر المنفرة؟ وفيها ما فيها من الضرر البالغ على صحة المدخن وصحة الجالسين معه، وفيها ما فيها أيضا من ضرر بالغ بالمال؟

آفة التدخين

لقد وجدت عند من ابتلي بالتدخين المفرط خصالا غريبة مخالفة لسلوكهم الشخصي حتى!! فقد تجد رجلا طيب المعشر، حلو الكلام، كريم الخصال، ثم تراه يضايقك بنفث دخان سيجارته في وجهك في مجلس جمعك به، أو في عربة تغذ السير بكما في المدينة، وعندما تعلن له صراحة أنك متضايق من دخانه تراه لا يأبه لكلامك بل يضحك من قولك ويستمر في ملء الأجواء بالدخان.

وتراه لا يرضى أن يؤذي أحدا قط ولكن إن وجد إلى جواره من يدخن مثله تراه يحثه ويلح عليه بأخذ المزيد ويقدم له السيجارة تلو الأخرى.

والأمر الأول مخالف للذوق العام لأنه يفرض ما يراه حريته الشخصية على حريتك أنت، وهذه من الأنانية ومع ما في هذه الممارسة من أذى وضرر لكما معا، وفي الأمر الثاني فإنه يحرض غيره على إتيان أمر ثبت ضرره وأذاه، وثبت قطعيا أنه يقع في دائرة المكروهات شرعا أو من المحرمات، بينما الأحوط له – وهو ما عليه من دماثة خلق ورجاحة عقل – أن يكف عن التدخين فورا، أو يترك التدخين في الأماكن

العامة والمجالس الخاصة خشية أن يكون فيها من يتضايق من التدخين، وأن يمتنع عن تقديم الدخان لغيره حتى إن وصف فعله بقلة الذوق أو البخل، حتى يهديه الله ويشد من عزيمته وإرادته فيترك الدخان إلى غير رجعة.

الروائح الكريهة في المسجد

وكيف يكون مقبولا أيضا أن يدخل الرجل إلى المسجد في يوم صيفي قائظ بملابس متسخة تفوح منها رائحة منكرة تزكم الأنوف فلا يعرف من يصلي إلى جواره كيف يؤدي ركوعه وسجوده. وكيف يكون مقبولا أن تهمل نظافة المسجد فلا يجد المصلي موضعا لسجوده لا تفوح منها رائحة الأقدام.

السواك والسنة النبوية الشريفة

وقد حث الرسول الكريم (ﷺ) على نظافة الأسنان في حثه وترغيبه الناس على استعمال السواك.

[السواك مطهرة للفم مرضاة للرب] (النسائي).

[لولا أن اشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة] (البخاري ومسلم).

وعن شرعة بن هاني قال: قلت لعائشة (رضي الله عنها) بأي شي كان يبدأ رسول الله (ﷺ) إذا دخل بيته؟ قالت بالسواك. (مسلم).

ونعلم أن السواك ينظف الأسنان ويزيل منها بقايا الطعام، فهو اذن يحافظ على صحة الأسنان واللثة وصحة الفم اجمالا وفوق ذلك كله يطيب رائحة الفم.

تهذيب الشعر في السنة النبوية الشريفة

وحث الرسول (ﷺ) أيضا على نظافة الشعر وتهذيبه وترتيبه فقد روي عنه أنه قال: [من كان له شعر فليكرمه] (أبو داود).

إن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا ثائر الشعر فقال: [أما وجد هذا ما يسكن به شعره] (الامام أحمد).

خصال الفطرة

ودعا الحبيب المصطفى (ﷺ) أيضا إلى جملة من المسائل الخاصة بنظافة البدن عموما، فحض على أداء خصال الفطرة التي فطر الله الناس عليها فقال: [عشر من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظافر، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء] قال الراوي ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة. (مسلم).

النظافة في كل شيء

وإذا كان الإسلام يحض هذا الحض الشديد المباشر على تنظيف الجسم – وهو

أمر شخصي بحت - فمن سياق ذلك يستدل أن يكون الحض والترغيب على نظافة المساكن والمساجد والطرقات والأماكن العامة أكثر وأشد، ذلك أن الإسلام دين حياتي اجتماعي يدعو إلى التعاون في البر وينهى عن إيذاء الغير.

لذلك فمن لا يكترث بالمحافظة على نظافة مسكن يجمعه بأفراد أسرته فإنه يؤذيهم ويضايقهم ويحملهم عبئ تنظيف وترتيب ما يتركه من وسخ وفوضى.

وإذا كان الرسول ينهانا أن يؤذي أحدنا صاحبه برائحة البصل والثوم والكراث فالنهي يكون أشد وأغلظ لو عبثنا بنظافة المساجد والطرقات والمحلات العامة. يقول النبي (ﷺ): [عرضت علي أعمال أمتي حسنها وسيئها فوجدت من محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق، ووجدت من مساوئ أعمالها النخامة تكون في المسجد لا تدفن] (مسلم).

كيف يفرط المسلمون في نظافة المرافق العامة

وقد نرى أن المجتمعات الغربية قد لا تلتفت كثيرا إلى النظافة الشخصية ونظافة المسكن أحيانا، إلا أنها تحرص كل الحرص على عدم قبول التجاوز على نظافة الشوارع والحدائق والأماكن العامة وتعاقب المتجاوزين بدفع غرامات مالية كبيرة.

بينما نجد الكثير من المجتمعات المسلمة إما تهمل الأمرين معا- النظافة الشخصية والنظافة العامة - أو أن بعضهم يهتم بنظافته الشخصية ونظافة مسكنه ولكن الغالبية العظمى من الناس لا تعير اهتماما ولا تهتم بالنظافة العامة في الشوارع والمتنزهات والأماكن العامة. ولا يستغرب أحدنا أن يرى رجلا أنيقا يقود سيارة فارهة في شوارع مدننا مع زوجته وأولاده، وترى أطفاله يرمون بالمغلفات والعلب الفارغة في أرض الشارع بينما هو وزوجته لا يحركون ساكنا، لأنك قد تراه هو أيضا يرمي بعلبة سجائر فارغة قبل ذلك أو بعده، وكذلك تفعل زوجته فترمي بمحارم ورقية مستعملة دون أي خجل أو اكتراث بمن في الشارع. وكذلك عندما نزور الحدائق والمتنزهات العامة نرى أن الكثير من الأطفال يعبثون بالمكان وبموجوداته ويتلفون الأزهار، بينما الكبار إلى جوارهم يتسامرون ويتحدثون بلا أدنى مبالاة، وعندما تغادر العوائل هذا المكان تترك وراءها العبث والقذارة والنفايات وإذا عاتبت أحدهم على ذلك كان رده قبيحا ينم عن جهالة كبيرة: (وهل نحن عمال تنظيف؟؟ وماذا يفعل عمال البلدية إذاً؟؟ لماذا يأخذون الرواتب أليس من أجل التنظيف؟؟).

شعار أهملناه: تنظفوا فإن الإسلام نظيف

خلق أهملناه كثيرا، حتى صار الإهمال والفوضى وعدم الاهتمام بالنظافة سمة بارزة للعوائل المسلمة وهي تجوب مدن العالم للراحة والاستجمام أو للاستبضاع، كما

صارت سمة بارزة للجاليات المسلمة في الضواحي التي يسكنها المسلمون في المدن الأوربية، والمسافر إلى هذه الأحياء يجد فرقا واضحا بينها وبين أحياء المدينة الأخرى، هنا قذارة وفوضى وروائح كريهة، وهناك حدائق وزهور وشوارع نظيفة!!

فهل نعود إلى دستور الأخلاق من جديد لنتعرف على بنوده ومفرداته فنستلهم منها ما نتخلق به ونربي أولادنا وأجيالنا عليها؟؟

❊

٤٥ـ النظام

فرض الله تعالى نظاما لكل عبادة

النظام في الإسلام ليس خلقا بسيطا تعرض له كتاب الله تعرضا عابرا ضمن تعرضه لمجموعة خلقية معينة. بل نرى أن النظام الدقيق والترتيب المتسلسل هما السمة البارزة للعبادات كلها، والعبادة كما نعلم أساس خلق الله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).

والله تعالى إذ فرض نظاما لكل عبادة إنما ليشدنا إلى هذه العبادات، ويجعلنا أكثر انتباها لنوع العبادة، وأشد حرصا على تطبيق مفرداتها وشروطها.

كل خلق الله بني على نظام محكم متقن

والله جل جلاله الذي أتقن كل شيء خلقه، وجعل لجميع ما خلق نظاما دقيقا محكما هو الذي يعرف سره وكنهه، وهو الذي يعرف أوله وآخره، وهو الذي يمسك نظامه فلا يضطرب أو ينفلت، وهو الذي يحدد وقت زوال كل نظام.

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)﴾ (يس: ٣٧-٤٠).

وكتاب الله زاخر بالآيات التي تحث على التفكر في خلق الله وتناسق وتوازن وانتظام ما خلق وماصنع.

هذا الخالق العظيم العليم المهيمن، لا بد أن يختار نظاما للعبادات يليق بذاته العلية الجليلة، نظاما يأخذ بالحسبان العبادة الفردية فتكون خالصة بين العبد وربه أحيانا، وتكون بين طائفة من المسلمين في جمع مبارك أحيانا، فيجتمع أهل القرية أو أهل الحي في مسجد يضمهم ويجمعهم على عبادة الحق سبحانه وتعالى فتتآلف قلوبهم على محبة الله ورسوله، وتكون العبادة مشتركة بين المسلمين كلهم في مشارق

الأرض ومغاربها أحيانا أخرى. وفي هذه الحالة وتلك تكون العبادة بنسق منظم يتبعه المسلمون جميعا.

الاهتمام الشديد للنبي (ﷺ) بالنظام في الصلوات الخمس

فلو أخذنا الصلوات الخمس مثلا، نرى أن لها أوقاتا وركعات محددة، والركعة فيها نظام معين من القراءات وحركات الركوع والسجود، ويشترك المسلمون جميعا بأدائها بنفس الشاكلة فرادا كانوا أم في جماعة. ويسبق الصلاة الوضوء، والوضوء فيه ترتيب في غسل أعضاء الوضوء يقتدي المسلمون بالسنة النبوية الشريفة في أدائها. وللأذان للصلاة أوقات معينة وألفاظ محددة لا تزيد ولا تنقص. والنظام في الصلاة يظهر قبل بدايتها والى ختامها، فيصف الرجال ثم الأطفال ثم النساء، ويتم اتمام الصف الأول فالذي يليه ولا يكون نقص إلا في الصف الأخير.

قال رسول الله (ﷺ): [أتموا الصف الأول ثم الذي يليه فما كان من نقص فليكن في الصف المؤخر] (أبو داود).

ثم تسوى الصفوف منتظمة في المسافات بين صف وصف، ومنتظمة ومستقيمة في الصفوف كلها، ولا تترك فرجات بين الصفوف. قال النبي (ﷺ): [اقيموا الصفوف وحاذوا بين المناكب وسدوا الخلل ولينوا بأيدي إخوانكم ولا تذروا فرجات للشيطان ومن وصل صفا وصله الله ومن قطع صفا قطعه الله] (أبو داود).

ولا يسبق أحد على الامام في ركوع أو سجود أو قيام، ولا يتأخر فيفوت بعض الأركان.

حقا إن من ينظر إلى جمع مؤمن يصلون في جماعة، ويراقب حركاتهم المنسقة المنتظمة في صفوف متراصة متلاحمة، يحس بعظمة هذا الدين، وبعظمة الرب الذي أنزله وارتضاه للناس كافة.

النظام في الصوم وفي الحج

وهكذا الصوم يكون في أيام معدودات في شهر معلوم، ويمسك الصائمون جميعا عن مفطرات معلومة في وقت معلوم إلى زمن معلوم.

كما أن للحج أركاناً محددة وأياما محددة في أشهر معلومات، ولكل ركن نسقه ونظامه، ولا يسبق ركن على ركن، ومن ترك ركنا نقص حجه.

النظام في الحرب

ولأن الحرب فرضت على المسلمين وكان المشركون يتسابقون على الحاق الأذى والضرر بدين الله، وبرسول الله، وبالجمع المؤمن، فكان لما أنجزه النبي (ﷺ) - وبعد أن اذن الله له - من الاستعداد للحرب وتنظيم شؤونها لرد كيد الكافرين

والانتصار لدين الله، بعدا ايمانيا في قلوب صحابته في قوة العزيمة والاعتماد على الله والتوكل عليه في طلب النصر، كما أعطاه بعدا تنظيميا في ساحة المعركة، من صف الصفوف وتأمير الأمراء وتحديد المواقع ورسم المهام.

نظام الله في خلقه تحفيز للإنسان ليجعل النظام أساس حياته

إن خالقا عظيما جبارا خلق السماوات والأرض وخلق الموت والحياة، وجعل لكل شيء خلقه نظاما محكما متقنا يستمد منه حركته وديمومته، وإن خالقا حكيما خبيرا سن نظاما دقيقا للعبادات، ودعى عباده إلى التأمل في سنن الكون ونظامه، وفي سنن الحياة وأنظمتها، وشرع لهم من العبادات ما يملؤها بالترتيب والتنسيق والتنظيم، ما جعل ذلك كله إلا ليكون دافعا قويا للاسترشاد به في صياغة الأنظمة التي تنظم شؤون حياتهم.

والرجل الذي لايحفزه هذا التأمل وهذه العبادة، إلى ترتيب وتنظيم حياته وشؤونه الشخصية والأسرية. والمجتمع الذي لا تحفزه العبادات الجماعية كالصلوات الخمس وصلاة الجمعة في المساجد وبكل ما فيها من وقار وهيبة وتنظيم، فإنه لايفهم المغزى من دعوة الله في التأمل ولا يفهم مراد الله من جعل العبادات بهذا التنسيق البديع.

كيف استفاد المسلمون الأوائل من التأمل في نظام الكون

ولقد انتبه المسلمون الأوائل وفي عصور النهظة الإسلامية كلها إلى مقاصد وغايات الحق ﷻ في دعوة الناس جميعا إلى التفكر في خلق السماوات والأرض، وفي النظام الذي يغلف العبادات كلها، وحفزهم فهمهم الصحيح لمراد الله إلى خلق أنظمة بالغة في الروعة والإتقان تنظم شؤون الناس وتراعي مصالحهم على هدي كتاب الله وسنة رسوله، وقاموا بتطوير تلك الانظمة جيلا بعد جيل، فكان لهم نظام لشؤون القضاء، ونظام لشؤون السياسة والحكم، ونظام لشؤون الجند، ونظام لشؤون بيت المال... وأنظمة أخرى كثيرة. لذلك كانت لهم السيادة والريادة، وكانت لهم هيبة ورهبة.

تفريط المسلمين في حفظ النظام هو الذي عجل انهيار صرح دولتهم

وعندما انفرطت حلقات هذه الانظمة وأصبحت من الهشاشة بمكان، وعجز من كان في قلبه بقية من خير من القائمين على شؤون هذه الانظمة في المحافظة عليها متماسكة راسخة، لم يعد بمقدور دولة الإسلام أن تراعي شؤون أقاليمها وولاياتها ولا ان تحقق مصالح رعاياها، أو تحافظ على أمن ثغورها، أو تمنع الفساد في التصرف بالمال العام بدون حق. فضعفت شوكة المسلمين وتفرق شملهم وتكالب عليهم الأعداء كما تتكالب الأكلة على قصعتها وصدق ظن رسول الله في ذلك كله.

ضعف الوعي عند المسلمين بأهمية النظام

وضعف الوعي عند جمهور المسلمين من أهمية النظام وأهمية تطبيقه والمحافظة على هيبته، وعاشت بلاد المسلمين عقودا طويلة - بل قرونا- بلا أنظمة صلبة رصينة تنظم شؤونهم وترعى مصالحهم، ورجع الناس إلى منطق القبيلة والعصبة والعشيرة.

وحتى عندما تشكلت نواة دول إسلامية حديثة كان الوعي بضرورة وجود نظام واحترامه وتطبيقه يكاد يكون معدوما ومفقودا ليس عند عامة الناس فقط بل حتى عند القائمين على إدراة شؤون هذه البلدان أنفسهم.

والمجتمع غير المنضبط بنظام دقيق في كل شأن من شؤونه، لا يمكن إلا أن يكون مجتمعا مضطربا قلقا تعصف به الرياح يمنة ويسرة، ولا يمكن البتة أن يضبط خطاه ويرسخها- وهو في هذا الحال - على طريق مستقيم يخدم مصالح أفراده ويؤسس لحياة كريمة لهم ولأجيالهم، ولا أن يرتقي بهم في مضمار الرقي والتقدم، فتقدمت المجتمعات الأخرى وتأخر المجتمع الإسلامي، ونهض غيره وتعثر هو في خطاه. ذلك أن النظام ليس ترفا أخلاقيا أو اجتماعيا ان شئنا أردناه لأنفسنا وأردناه لأسرنا ومدارسنا ومساجدنا ومؤسساتنا ودواوين حكمنا، وإن شئنا نبذناه وراء ظهورنا.

النظام شطر من الإيمان

لا بد أن نفهم ونعتقد أن النظام شطر من الإيمان، وأن أي شيء يعطل مصالح المسلمين، ويعطل نهضتهم وتقدمهم فهو عمل منكر علينا اجتنابه، وليس أضر بمصالح المسلمين من فوضى عارمة تهدد وجودهم كله وليس مصالحهم فقط.

ولا بد أن نفهم أيضا أن كل من يخرق نظاما بني ليحقق مصالح الناس على أسس من العدل والمساواة، وليس فيه تحريم لحلال ولا تحليل لحرام، فإنه يقترف سيئة يحاسب عليها يوم القيامة حتى إذا حدث الخرق في بلد لا يدين بدين الإسلام.

تذكرة أخيرة في هذا الباب

نريد أن نعود إلى مسجد رسول الله (ﷺ) في المدينة، فنراه عليه الصلاة والسلام يقف مهيبا وقورا ثابتا أمام المصلين وينظر إلى صفوفهم فيقوم اعوجاجها ويسد فرجاتها، ويطلب من صحابته الكرام الوقوف منكبا بمنكب وقدما بقدم، حتى يخيل إليك أنك لو أردت أن تزحزح أحدا من مكانه عليك أن تزحزح الصف بأكمله. ونراه عليه الصلاة والسلام يعاود ذلك في كل الصلوات وطوال حياته الشريفة.

فلماذا يا ترى هذا التأكيد النبوي الشريف على هذا النظام في الصلاة؟؟ ولماذا تأكيده الصارم، أن من وصل صفا وصله الله، ومن قطع صفا قطعه الله؟؟ أليس لترسيخ مفهومين عظيمين في قلوب صحابته وقلوب المسلمين جميعا وفي كل زمان وكل

مكان؟؟

المفهوم الأول: إن قوة المسلمين هي في وحدتهم وفي وقوفهم صفا كأنهم بنيان مرصوص، فإن تخلخل تماسكهم وتراصهم وحدثت فرج بينهم، ضعفت قوتهم وخارت عزائمهم.

والمفهوم الثاني: أن يكون هذا التنظيم والترتيب في المسجد عنوانا ومثالا في تنظيم وترتيب شؤون حياتهم كلها.

ولا بد أن نعلم أن الخير كله في هدي الحبيب المصطفى (ﷺ)، والضياع والهلاك في هجر هذا الهدي وترك العمل به.

٤٦ـ رهافة الحس

إحساس المؤمن بما حوله

إن من يؤمن بالله يحس بالرابط الذي بينه وبين كل ما خلق الله في هذا الكون، فهو وكل من حوله وفي مدى بصره وإدراكه صنع يد الله الكريم الحليم، فلا يحس بالغربة أبدا بل يشعر بالانتماء إلى محيطه، ويشعر أنه يعيش في كون صديق، في كون يكمل بعضه بعضا.

المؤمن يستأنس بكل ما خلق الله

يقول النبي (ﷺ): [أحد جبل يحبنا ونحبه] (البخاري).

ان المؤمن يحس أن يد الله الرؤوفة الرحيمة الشفوقة في كل ماحوله فيستأنس بكل ما تقع عليه عينه أو تمسها يده.

يستأنس بالنجوم والكواكب وهي تسبح في صفحة السماء، ويستأنس بالجبل والبحر والقفار، ويستأنس بالشجر والطير والدواب، وتطرب أذناه لخرير الماء الذي فجره الله من الصخرة الصماء، وللطير وهي تغدو خماصا وتعود بطانا إلى أعشاشها جذلة فرحة ذاكرة لربها.

ويستأنس بأخيه الإنسان ويرى فيه نفسه، ومثلما يتطلع أن يحقق لذاته ما تصبو إليه نفسه من خير وعمل صالح، وحياة كريمة هنية، يريد لأخيه مثل ذلك كله.

وتراه وقد استأنس بكل ما حوله من خلق الله من البشر والحيوان والجماد، فإنه يتحرج من إيذاء أحد أو اتلاف شيء أو الاستفراد بنعمة دون غيره، ولا يتصرف مع الناس أو مع ما حوله إلا كما أمره الله خالق كل شيء ومليكه.

مفهوم الاستئناس بين المؤمن والكافر

إن القلب الذي يطمئن بالإيمان يطمئن إلى كل ما خلق الله. فالإيمان هو مصدر الاطمئنان ومنبعه، وأنى لقلب الكافر الجاحد أن يعرف الطمأنينة، وهو يرى نفسه في عالم غريب لا يعاطفه ولا يتعاطف معه، ولا يرى لحياته إلا ما يراه الحيوان فيشبع غرائزه هو ولا يلتفت في ذلك إلى حلال أو حرام، ولا يتحرج أن يصل أذاه وضره إلى أي أحد والى كل شيء في طريقه إلى مبتغاه.

المؤمن ورهافة الحس

لذلك فإن رهافة الحس عند المؤمن تجمع بين طياتها خلقا عالية جمة تجمع بين الشكر لله أن خلقه في أحسن صورة ما شاء خلقه، وأن أوجده في كون أليف جميل متناسق، وسخر له ما فيه من نجوم وشموس وكواكب، ومن بر وبحر وهواء، ومن مطر وسحاب وطير ودواب.. وتجمع بين رقة القلب فيحس بألم المتألمين وفرح المستبشرين... وتجمع أيضا بين الإحسان بالوالدين وبالزوج والأولاد وبذوي القربى واليتامى والجيران بل وحتى الطير والدواب.... وتجمع بين الحياء بمفهومه ومقاصده الربانية، كما تجمع بين الإيثار برقيه وعلوه، وتجمع بين كمال الذوق وكمال الأدب. كل ذلك الخلق وكثير غيره يتشكل في هيئة خلق رفيع سام اسمه رهافة الحس.

فرهيف الحس يستشعر بما يؤذي الغير أويشق عليهم من قول أو فعل، فلا يقول قولا، ولا يطأ موضعا يغيظهم منه، بل يدفع عنهم ما يقلقهم أو يؤرقهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

رهافة الحس ترسيخ للايمان

وككل خلق أو عمل يعمله العبد المؤمن في حياته فإنه يتحسس أول ما يتحسس مما يقول ويفعل ان كان وهو في موضعه هذا يقترب من الله أم يبتعد؟ فإذا كان اقترابا شكر الله على ذلك وإذا كان ابتعادا ندم وتاب إلى الله متابا.

ويقول الحبيب المصطفى (ﷺ) في هذا المعنى [من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن] (الطبراني).

والسرور هنا هو ما يثبته على الحسنة ويشكر الله عليها لا سرور عجب وغرور، والأسى هو أن يندم ويتوب لا أن يحزن ويقنط.

رهافة الحس في الهدي النبوي الشريف

ولأن الهدي النبوي الشريف مدرسة أخلاقية عظيمة للبشرية كلها، وعلى مر العصور والأزمان، نراه عليه الصلاة والسلام يجعل من رهافة الحس عند المؤمنين بابا ليقرب بين قلوبهم.

قال النبي (ﷺ): [اذا عطس أحدكم فليضع كفيه على وجهه وليخفضْ صوته] (الحاكم).

وقال أيضا عليه الصلاة والسلام في حق المسلم على المسلم [... وإذا عطس فحمد الله فشمته] (مسلم).

وذلك لكي يقي العاطس جالسيه من الرذاذ المتطاير مع عطاسه، ولا يزعجهم بصوته لو أطلقه على عنانه. ويكون أيضا تشميت المؤمن لأخيه ترسيخا للمحبة بينهما.

وأمر الرسول الكريم (ﷺ) أصحابه بأن لايرفعوا أصواتهم بجشاء الشبع. روي أن رجلا تجشأ عند النبي (ﷺ) فقال له: [كف عن جشائك فإن أكثرهم شبعا في الدنيا أطولهم جوعا يوم القيامة] (الترمذي وابن ماجة).

ونرى أن هدي النبي (ﷺ) يكون دوما في تقويم الاعوجاج والخطأ عند الفرد ليكون درسا للجميع، واطلاق الصوت بالجشأ أمر يمكن للمرء ضبطه وكتمه، أما اطلاقه عاليا متكررا فليس من الذوق في شيء.

وقال أيضا عليه الصلاة والسلام: [اذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى إثنان دون الآخر حتى تختلطوا، من أجل أن ذلك يحزنه] (البخاري).

فلا يريد النبي (ﷺ) أن يخدش هذا الأمر الأخوة التي أسسها وأرادها بين المؤمنين جميعا، وأمر كهذا قد يدخل الحزن في قلب أحدهم فيلتمس الشيطان منه بابا لإدخال البغض إلى قلبه.

ورهيف الحس لا يسخر من أحد، ولا يتجسس عليه، ولا يلقبه أويدعوه بما يكره من الأسماء والألقاب، لأن كل ذلك مما تستهجنه النفس السوية السليمة، وهو يتحسس لكل ما يكرهه إخوانه فلا يؤتيه.

رهافة الحس حتى في العبادة

وحتى في الصلاة - وهي أشرف وأعظم عبادة بين المؤمن وربه – أراد النبي (ﷺ) أن يعلمنا أننا في أدائنا لهذه العبادة علينا أن نحس بمن معنا ويشاركنا هذه العبادة فنطول فيها أو نقصر على ضوء ذلك.

قال النبي (ﷺ): [اذا صلى أحدكم للناس فليخفف فإن منهم الضعيف والسقيم والكبير وذا الحاجة، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء] (البخاري).

وقال أيضا عليه الصلاة والسلام: [إني لأدخل في الصلاة، فأريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي فأتجوز، مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه] (البخاري).

وكان النبي (ﷺ) معتكفا في المسجد فسمع صوتا عاليا في المصلين فقال: [ألا إن

كلكم مناج ربه فلا يؤذين بعضكم بعضا ولا يرفع بعضكم على بعض في القراءة] (أحمد، أبو داود والحاكم).

كيف نستفيد من مفاهيم رهافة الحس في الهدي النبوي الشريف

لذلك وبناء على هذا الهدي النبوي الشريف فإن على الكثيرين من خطبائنا وأئمة مساجدنا أن يرجعوا إلى الهدي المحمدي المبارك فلا تسكرهم الحماسة أو يأخذهم العجب أو الرياء – أبعد الله عنا وعنهم كل ذلك – في إطالة خطبة الجمعة أو الصلاة في أيام القر والقيظ أو في الأيام العادية فيشقوا على المصلين أو يرهقوهم.

فإذا كان الأمر كما رأينا مع الصلاة ولها ما لها من قدسية عظيمة ومكانة علية، فكيف بالمتكلمين والمتحدثين في أمور أخرى وخارج المساجد، في المؤتمرات وقاعات النقاش فيلتصق أحد المتكلمين بمنصة الحديث لا يبارحه، أو يتداخل معه أحد المعقبين في نقاش سفسطائي عقيم دون احساس بأهمية الوقت أو مبالاة براحة الآخرين.

رهافة الحس ضمن اطار الأسرة والعائلة كيف؟

والإحساس يكون في أمور الحياة كلها، يكون بين الرجل وزوجته في عدم ايذاء أحدهما للآخر بكلام جارح في حقهما أو حق أهليهما، وأن لا تقع عين أحدهما على قبيح ولا يشم منهما إلا الطيب.

ويكون بين الآباء والأبناء فلا يقرب أحد الأولاد دون الآخرين، ولا يستأثر أحدهم بمحبة زائدة أو مزية خاصة في الملبس والمأكل والمشرب وفي التربية، ولا يفضل الذكر على الأنثى في ذلك كله، لأن في ذلك تجريح لمشاعر ألاخرين وقد يكون طريقا في إدخال الكراهية بين الأشقاء.

رهافة الحس مع الخدم والأجراء

ويسري هذا الاحساس العالي في المنهج النبوي مع الخادم والأجير أيضا، فلا يكلفه ربه من العمل ما لا يطيق، ولا يسخر منه، ولا ينظر إليه بعين الكبر أو الازدراء، ويطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس، ويعفو عن زلته ولا يكثر من تعنيفه.

يقول النبي (ﷺ): [اذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقمتين، أو أكلة أو أكلتين فإنه ولي علاجه] (البخاري).

ويقول أيضا (ﷺ): [إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم] (البخاري).

من منا يلتزم بكلام وأخلاق سيد الأنبياء والمرسلين في معاملة الخدم؟؟ إننا

لنسمع قصصا محزنة ومبكية ومريعة يندى لها جبين أي إنسان يحترم نفسه كإنسان. وأبطال هذه القصص عوائل مسلمة وأرباب عمل مسلمون يستخدمون خدما وعمالا من جنسيات فقيرة مسلمة وغير مسلمة. بعضهم يعامل من تحت يده من الخدم والأجراء بما لا يليق حتى بمعاملة الكافر لعبد تحته، ويذيقهم الذل والمهانة، ويسخرهم كالدواب دونما أدنى شفقة ورحمة، ولا يعطيهم كل حقوقهم وأجورهم، والخدم والاجراء يكونون قد سقطوا في شرك ظالم لا يرحم، فإن اشتكى أحدهم فلا أحد يسمع شكواه، وإن هرب قبض عليه وأعادوه إلى مخدومه ليزيد من عذابه، وقد يلفق له تهمة بهدف التهرب مما عليه من حقوق له فيخسره حريته فوق ذلك كله.

فهل يليق بمن يدعي الإسلام ادعاء وليس إيمانا واحتسابا أن ينزلق إلى هذا الدرك السفلي من سوء المعاملة وسوء الخلق؟

ألا يحسون بأن لهؤلاء المساكين ذريات ضعافا وآباء وامهات يعيشون في كمد من ضنك العيش الذي هم فيه، ومن تغرب فلذات اكبادهم أو آبائهم أو أمهاتهم عنهم لشهور وسنين؟ ويتطلعون إلى ما يبعثون من مال ليعينهم على بؤسهم وحرمانهم؟

رهافة الحس مع الحيوان

ألا يدري هؤلاء أن الخلق المحمدي يدعونا للإحساس حتى مع الحيوان؟؟ فقد روي أن النبي (ﷺ) مر ببعير وقد لحق ظهره ببطنه فقال: [اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة] (أبو داود وأحمد).

دلائل ضعف الإحساس عند المسلمين

والأدلة على فقدان الاحساس في مجتمعاتنا لا تعد ولا تحصى، بل ان البحث عمن يتصف بهذا الخلق العظيم - وبمقياس الهدي النبوي الشريف - يكون مضنيا لتجد من كانت عنده بقايا من هذا الخلق الرفيع.

فترى أخا شقيقا غارقا في ملذات الحياة ونعيمها ويترك إخوته الأشقاء في حاجة وفاقة وضنك، وإن أوصل إليهم شيئا يسيرا فبالمن والأذى.

وترى الجار الغني يقيم الأفراح والولائم لأسباب تافهة، ويدعو إلى موائده الناس من أماكن قصية وينسى أقرب جيرانه فلا يصلهم منه إلا ضجيج الأغاني ودقات الطبول والهرج والمرج الذي يحدثه هو وضيوفه على أبوابهم.

بل كثيرا ما كنا نرى أن أحد الجيران في الحي يقيم حفلة زفاف لأحد أبنائه وجاره اللصيق قد أودع التراب ابنه الشاب منذ ساعات، من غير أن يحس هذا الجار بمصاب جاره فيؤخر زواج ابنه أو على الأقل يبعد الفرح عن الحي حتى لا يؤذي إحساس جاره.

وكثيرا ما ترى رهطا من المارقين والماجنين يجوبون الشوارع أو المحلات العامة فيضايقون العوائل ويتحرشون بالنساء من غير حرج ولا استحياء.

وهكذا كلما تلتفت يمنة أو يسرة تجد مظهرا من مظاهر عدم الإحساس يبرز امامك صارخا قبيحا يشعرك بالمأزق الأخلاقي الذي وصلنا إليه، ويشعرك في الوقت ذاته بالحاجة الملحة إلى الرجوع إلى دستور الأخلاق الإسلامي لكي نعيد إلى مجتمعاتنا أصالتها، فنعيد إليها بذلك بذور النهظة والرقي التي تخلت عنها وبحثت عن بذور أخرى لم تنتج لها إلا التخلف والتقزم والتشرذم.

٤٧ـ الإخلاص

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ (البينة: ٥).

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣)﴾ (الزمر: ٢-٣).

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (غافر: ١٤).

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ (البقرة: ١٣٩).

من معاني الإخلاص

كل شيء يمكن أن يشوبه غيره فإذا صفا عن شوائبه سمي خالصا.

والإخلاص وضده يتواردان على القلب في المقاصد والغايات والنيات. ويحدد الإخلاص من ضده بقصد النية، فالذي يتصدق وقصده الرياء فهو مخلص، والذي يتصدق وقصده محض التقرب إلى الله فهو مخلص. وفي ذلك يقول الحبيب المصطفى (ﷺ): [انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى] (الألباني).

ولكن جرى العرف بتعريف الإخلاص بأنه تجريد قصد التقرب من الله تعالى من جميع الشوائب.

ميزان الإخلاص

لذلك فميزان الإخلاص ميزان شديد الدقة حتى قيل: من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا، وذلك لعزة الإخلاص وصعوبة تنقية القلب من الشوائب.

والإخلاص بهذا المعنى الدقيق هو أمل العارفين، ومن مدارج السالكين، وليس سهلا ميسورا. فمن منا لا تتنازعه أهواء النفس وحب الشهوات من أموال وبنين، ومن جاه وسلطة؟ وقلما يسلم عمل من أعمالنا أو عبادة من عباداتنا من حظ من هذه الأهواء.

القصد من النية هو الذي يحدد الإخلاص

والإخلاص الذي نتكلم عنه هو أن يكون القصد العام للنية خالصا لله ونقيا من الشوائب، ونحاول أن نعبر عنه بهذا المثل:

فان نويت أن تزور مدينة مجاورة لمدينتك، لزيارة صديق لك وأعددت لذلك عدته من زاد ومركوب ثم سلكت الطريق المؤدية إليها، تكون مخلصا في نيتك وعزمك بالوصول إلى تلك المدينة، وحتى إن شغلك شاغل في الطريق فتوقفت هنا وهناك بقصد الراحة أو التزود بالمؤن أو الوقود، أو مر بك صديق فأشار إليك فركنت وجلست وإياه في ظل شجرة تريحون أنفسكم على جانب الطريق، إلا أن وجهتك صوب المدينة دوما وكل الذي مر إن هي إلا عوارض وقتية تعطلك عن المسير حينا من الدهر ولكنها لا تعطل قصدك وتصميمك للوصول إلى المدينة رغم أنك تهاونت وتلكأت في المسير وفرطت في الكثير من الوقت. فإذا ما وصلت، قصدت أخاك الذي جئت إلى زيارته ومكثت عنده ما شاء الله لكما من الوقت. وبعدما خرجت من عنده مررت بسوق المدينة فوجدت بضاعة جيدة فاشتريتها بقصد البيع والربح. فإنك تكون مخلصا في توجهك للمدينة وتكون مخلصا في قصدك ونيتك بزيارة أخيك وان هذه التجارة لا تشوه القصد من نيتك.

ولكن إذا كان أصل القصد من نيتك في زيارة المدينة هي زيارة أخيك وشراء البضاعة من سوق المدينة في آن واحد، فإن ثمة مشاركة في قصد النية وقد يغلب أحدهما على الآخر في قوة المقصد، كقولك سأزور أخي في المدينة وبعدها سأمر بالسوق لغرض التجارة، وهذا يختلف عن قولك سأزور المدينة بهدف التجارة فإن كان ثمة وقت مررت بأخي لزيارته.

فالقصد من النية إذا هو الذي يحدد الإخلاص من ضده ويحدد درجة الإخلاص ونقائه.

وما دام القصد ثابتا وراسخا، وما دام الجهد مبذولا في الحفاظ على نقائه، فإن الله يكفل أمرك ويبارك لك في مسعاك، ويغفر لك زلاتك وتقصيرك.

والعمل الخالص لوجه الله هو الذي لا باعث عليه إلا التقرب من الله تعالى. وإذا

كان القصد هو التقرب وانضافت إليه بواعث نفسية وحظوظ دنيوية، فهي اما أن تكون مثل باعث التقرب أو أقوى منه أو أضعف، وهنا يحتاج إلى تمييز الباعث نفسه إذا كان مباحا أو مطلوبا أو حراما، وكذلك يحتاج إلى معرفة درجة انشغال القلب به ومدى تأثيره على باعث التقرب.

وعموما فإن العبد المؤمن وهو يخلص النية لوجه الله الكريم في كل عمله، عليه أن يكون شديد التفقد والمراقبة لهذه الهواجس والبواعث النفسية العارضة أحيانا، وشديدة الثقل والتأثير أحيانا أخرى، فيجدد نيته حينا بعد حين ويخلصها من هذه الشوائب.

الإخلاص جهاز يرشح العمل المبذول لوجه الله تعالى فقط

والإخلاص هو بمثابة الجهاز المرشح بين العمل المقبول من الله تعالى والعمل المردود على صاحبه، فهذا المرشح لا يرشح من العمل إلا ما كان عملا صائبا موافقا لشريعة الله ومنهاجه، وكان خالصا لوجهه تعالى.

الإخلاص غير محصور بالعبادات فقط

لذلك فإن الإخلاص لا ينحصر في العبادات فقط بل يسري في كل الأعمال الصالحة التي دعانا إليها الحق سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أو على لسان نبيه المصطفى (ﷺ).

فالذي يتولى أمرا من أمور الناس ثم لا يجعل الله تعالى رقيبا على عمله، ولا يقيم شروط الأمر الذي وكل إليه، وفق منهج الله، فيجعل من حظوظ نفسه أو مصالح ذوي قرباه أكثر من حظوظ الناس جميعا، لا يكون مخلصا في عمله لأن الله يأمر بالعدل والإحسان وهو لا يقيم العدل، والله تعالى يأمر بعدم التفريط في حقوق الناس وهو قد أفرط.

وكذلك الذي يتولى حفظ أمن المسلمين في ثغورهم أو في بواديهم وحواضرهم ثم يتقاعس ويتهاون، ويلتفت إلى تأمين نفسه وهيبته أكثر مما يلتفت إلى أمن الناس وهيبة الدولة والقانون، فينفلت الأمن هنا وهناك بفعل الأعداء المتربصين من الخارج، أو العابثين والمارقين من الداخل، ويتأذى الناس في أموالهم وأعراضهم وأرواحهم وفي مصادر رزقهم. هذا الرجل لا يكون مخلصا البتة.

وهكذا في كل شأن من الشؤون التي نراها دنيوية، إذا كان الأمر يتعلق بمصلحة مشروعة لمجموعة من الناس أو حتى لفرد واحد، وفي كل مجالات الحياة الادارية والتنظيمية، والأمنية، والصحية، والتعليمية، والقضائية والتجارية....إلخ ولم يحفظ الراعي لهذا الشأن حقوق هذه الرعاية وفق المنهج الإلهي، لا يكون مخلصا في عمله،

وسيكون مساءَلاً يوم القيامة فيما فرط فيها من الحقوق.

اجعل شعلة الإخلاص في قلبك وضاءة متوهجة

والأحوال التي تنتاب المرء حينا وتفارقه أحيانا أخرى لا تندرج في خانة الإخلاص، فالإخلاص أن يكون هذا الخلق مكينا في القلب طافحا على اللسان والجوارح والسلوك.

وشعلة الإخلاص في قلبك تبقى مضيئة وهاجة مالم تخلطها نوازع الثناء والتطلع إلى الجاه والرغبة في العلو والافتخار. فإن وُجد منها شيء في قلبك تكدر صفاؤه وذهب نقاؤه وبهاؤه، فتخبو شعلة الإخلاص رويدا رويدا حتى تنطفئ في قلبك وتتركه في ظلمات وعتمة حالكة من القسوة والبعد عن الله.

وإنك حين تنظر إلى شعلة الإخلاص وهي تخبو ويخفت أوارها، فلا يأخذك العزم والتوكل على الله لتخليص قلبك من الشوائب المكدرة التي رانت عليه، تكون تعمدت إطفاء شعلة الإخلاص في قلبك بانقيادك إلى حظوظ النفس وهواها، والإصغاء لنفث الشيطان ونفخه.

وإذا كان الإخلاص لله في العبادات أمرا غيبيا بين العبد وربه، ولا يمكن لغيره جل وعلا أن يكشف ستره وسره، فإن الإخلاص في وظيفة من الوظائف التي أشرنا إليها آنفا ليس بالأمر الغيبي الذي يعجز الخلق عن معرفته وكشف سره، فالغش والخيانة والرشوة والمحاباة والتستر على الجرائم واستغلال المنصب، وغيرها من الأخلاق والأعمال المنهية عنها في شرع الله، يمكن كشفها بسهولة، بل هي في الكثير من الحالات بارزة صارخة لا يمكن لصاحبها أن يسترها، بل الأدهى من ذلك أنه قد لايبالي هو نفسه لو اطلع عليها الناس جميعا وكأنما يفاخر بها.

وعندها يكون الجرح عميقا وغائرا في المجتمع ويحتاج إلى الكثير من الحكمة والصبر والعلم والحزم لمداواته وعلاجه، ليعود المجتمع الإسلامي مجتمعا معافيا سليما غير آيل للسقوط فيما لو ترك جرحه دون شفاء وبراء.

أقوال في الإخلاص:

خير الكلام ما جرى على لسان النبي الأكرم (ﷺ) ففي حديث ابن أنس أن رسول الله (ﷺ) قال: [ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم] (أحمد وابن ماجة).

فالقلب الذي يغل على الشرك وعلى الغش وعلى البدعة والضلالة، لا ينقى إلا بصدق الإخلاص في التوجه إلى الله تعالى، وبالنصح ومتابعة سنة الرسول الكريم (ﷺ).

الإخلاص: استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن، والرياء أن يكون ظاهره خيرا

من باطنه، والصدق في الإخلاص أن يكون باطنه خير من ظاهره.

الإخلاص: أن لا تطلب على عملك شاهدا غير الله، ولا مجازيا سواه.

قال الجنيد: الإخلاص سر بين الله وبين العبد، لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله.

وقال مكحول: ما أخلص عبد قط أربعين يوما إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه.

وقال يوسف بن الحسن: أعز شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي فكأنه ينبت على لون آخر.

❊

٤٨ـ الثبات

التثبيت لا يكون إلا من عند الله تعالى

الحق سبحانه وتعالى هو الذي يثبت عباده المؤمنين على كلمة التوحيد وعلى الإيمان بالله فلا يزيغون ولا يفتنون.

والإيمان بالله هو منبع كل خلق حميد. وكمال الإيمان ورسوخه في القلب يمنحان الثبات للعبد في كل المواقف التي يحتاج فيها المرء إلى الثبات والقوة.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (إبراهيم: ٢٧).

والثبات خلق لا يليق بالمسلم إلا أن يتخلق به. فلا يليق بالمسلم أن يكون مهزوزا لا يثبت على أمر، ضعيفا لا يعرف الحزم.

رسوخ العقيدة في قلب المؤمن هو محور ثباته

ورسوخ العقيدة في قلب المؤمن هو المحور الذي يرتكز عليه خلق الثبات كله، وهو الذي يجعل القلب صلدا قويا ثقيلا ككرة ضخمة من الرصاص ثابتة إلى الأرض لا يقدر أحد على تحريكها، أو يجعله كشجرة طيبة مدت جذورها في باطن الأرض وفرعها في السماء تقاوم الأعاصير والرياح العاتيات.

أما القلب الخاوي من الإيمان أو الذي لا يخزن في طياته عقيدة صحيحة راسخة، فيكون ككرة من المطاط يتقاذفها الأعداء والمرجفون وأصدقاء السوء بين أقدامهم ولا تكاد تستقر في مكان ثابت. أو يكون كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض وتركت بلا جذور تمدها بالماء والغذاء وتثبتها في الأرض.

شعار المؤمن: (تثبيت العقيدة أولا)

لذلك كان حريا بالمؤمن أن يوطن نفسه على تثبيت العقيدة في قلبه ويعد لذلك عدته ووسائله، من الفهم الصحيح لأركان العقيدة الإسلامية، واللجوء في ذلك إلى المصادر المعتمدة من ارث السلف الصالح في شرح العقيدة، وأن يأخذ العلم من شيوخ ثقات تقات، وأن يجالس الصالحين وأهل العلم، ويترك مجالس اللغو الفارغ واللهو الفاسد.

حتى إذا ملكت العقيدة كل قلبه وتناغمت مع فكره وفطرته وانسابت على جوارحه، ثبتت في صدره فلا تتأثر بأي فكر منحرف أو ثقافة ضالة، لأن الله يفتح بصيرته فيرى الأشياء على حقيقتها وبألوانها، فيرى صفاء منهج الله وعكارة أي منهج أرضي بديل، ويرى عظمة الله وكمال صفاته، ويرى ذل وهوان آلهة الآخرين وعجزهم، فلا يخاف على دينه وعقيدته إذا وضع قسرا أو ساقته الأقدار إلى مجتمع يسيطر عليه الانحراف والضلالة، ويستعين في ذلك بالله ربه وخالقه، ويكون له في دعاء رسول الله (ﷺ) الملاذ والملجأ: [يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك] (الترمذي)

ثبات العقيدة يجعل المؤمن شجاعا حازما

وثبات العقيدة في القلب يجعله قلبا شجاعا حازما لا يخشى في الله لومة لائم، ولا تسلط ظالم، ولا تكالب عدوان. فعندما تنتهك حرمات الله، ويحارب دين الله في أرضه، وتدلهم الأخطار وينتشر الفساد، ويفتتن الناس، يكون المؤمن ثابت العقيدة راسخ الإيمان متوجه القلب مع إخوانه المؤمنين في تضرع وخشوع، داعين الله أن يفيض عليهم الصبر على المحنة والفتنة، والثبات على الحق والإيمان، والنصر على البغي والعدوان.

﴿...رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٠).

وعندما يشن الظالمون والكفار حربا على المسلمين ويغزون ديارهم، ويصل عدوانهم حدا يخشى منه على دينهم وعقيدتهم، وتجتمع كلمة المؤمنين على رد العدوان، ولا يبقى من سبيل لرد الظلم إلا بحمل السلاح، فإن المؤمنين يعدون للجهاد ما يستطيعون من قوة، ويدعون الله أن يثبتهم على الحق فلا تستميل نفوسهم لإغراءات يقدمها الأعداء لشراء ذممهم مهما بلغت هذه الإغراءات من قوة، ويدعون من الله أن يثبتهم في ميدان الحرب وأن لا يجعل للخوف والرهبة من العدو سبيلا إلى قلوبهم، وأن ينصرهم على من كفر به وأراد بالمؤمنين سوءا وشرا. ويستفتحون دعاءهم بالاستغفار والاكثار من ذكر الله ليستمطروا نصر الله وعونه، ويفوزوا بالظفر على

أعدائهم وأعداء الله.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٧).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأنفال: ٤٥).

الثبات على القيم الإسلامية في الحرب

وفي الوقت الذي يطلب المؤمنون الثبات والنصر على الأعداء من الله، فإنهم يدعون منه أيضا جل جلاله أن يثبتهم على القيم الإسلامية في الحرب فلا يجورون ولا يعتدون، بل يلتزمون بالهدي النبوي الشريف، لا يقتلون إلا المحارب المهاجم، ولا يتعرضون للنساء والأطفال والشيوخ، ولا يهدمون أماكن العبادة، ولا يقطعون شجرة مثمرة، ولا يتلفون زرعا، ولا يحرقون دارا.

الثبات لا يكون إلا على الحق والعدل

والثبات في منهج الله لا يكون إلا ثباتا على الحق والعدل، ولا يمكن أن يثبت في قلب المؤمن إيمان خالص بالله ومنهجه وإيمان بالباطل وأهله في آن واحد. وإن بدا أن ثمة من يلبس ثوب الإيمان ثم يعادي الحق ويناصر البغي والمنكر والعدوان، لا يكون إلا منافقا كشف الله عنه ستره.

الثبات على الباطل خزي في الدنيا وخسران مبين في الآخرة

وفي الحياة أمثلة كثيرة على الثبات على الباطل.

- ولعل في قوم نوح وعاد وثمود وفي فرعون وهامان أمثلة قرآنية شديدة الدلالة على ذلك فإذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا وفي الآخرة وكانوا من الخاسرين.
- ولعلنا أيضا قرأنا وسمعنا ورأينا الكثير من حكام المسلمين ممن يضطهدون شعوبهم ويعاونهم في ذلك الكثير من المساعدين والمؤازرين من طلاب الدنيا، وكيف أنهم يثبتون على ظلمهم وبغيهم حتى تسحقهم شعوبهم، أو يغتالهم أحد المقربين منهم، أو يموتون موتة شنيعة، فيكونون من الخاسرين.
- ولعلنا نرى الكثير من المسلمين ممن تتلوث عقولهم بأفكار الحادية، وتتسرب إلى قلوبهم عقائد باطلة تخالف عقيدة الإسلام السمحاء، فلا يرجعون عن غيهم بل يثبتون على هذه الضلالة ويموتون عليها فيكونون من الخاسرين.

• ولعلنا نرى أيضاً أن الكثير من المسلمين اليوم ليس لهم من العقيدة الإسلامية إلا الهوية فقط، فلا صوم ولا صلاة، ولا حج ولا زكاة، ولا يهمهم تحليل حرام أو تحريم حلال، ويعيشون للدنيا فقط دون خوف من عذاب وويل ينتظر العاصين لأمر الله، وكأن الله تعالى لم ينزل إليهم قرآنه ودستوره، ولم يبعث فيهم حبيبه ورسوله. ثم تراهم يثبتون على نهجهم الأخرق هذا فيولدون ويموتون دون أن تكون لهم لحظة واحدة من الخشوع أو التقرب من الله تعالى، فيكونون من الخاسرين.

خير الثبات هو الثبات على منهج الله

لذلك فإن خير الثبات هو الثبات على العقيدة الصحيحة والمنهج الصحيح والأخلاق الفاضلة، وبئس الثبات هو الثبات على الشرك والإلحاد، وعلى البغي والفساد، وعلى الأخلاق الذميمة.

ولما كانت الهداية لدين الله وهدي نبيه نعمة ربانية كريمة لا تدانيها أية نعمة. لذلك كان حريا بالمسلم أن يجعل من ثابت ورده ودعائه الدعوة من الله أن يثبت قلبه على دينه وطاعته، وأن يهديه لأرشد أمره، وهذا ما كان يفعل خير الخلق محمد (ﷺ).فمما ورد من دعائه عليه الصلاة والسلام:

[يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك] (الترمذي)

[اللهم اني استهديك لأرشد أمري......] (أبو داود).

قصة سحرة فرعون درس قرآني عظيم في الثبات على منهج الله

ولعل قصة سحرة فرعون هي من أروع القصص القرآنية في الثبات على الحق فلنعرج عليها وندرس قيم الثبات فيها:

انه يوم الزينة، وجمع فرعون كل سحار عليم ليدحضوا على رؤوس الخلائق كذب ودجل سيدنا موسى عليه السلام - كما كان يتصور - فيعلم الناس إن هو إلا ساحر يريد أن يخرج القوم من ديارهم.

وحشر القوم في مكان معلوم وميقات معلوم من أجل ذلك. وبعد أن تيقن السحرة أن فرعون سيقربهم ويخلع عليهم العطايا إذا كانوا هم الفائزين، جمعوا كيدهم وتشاوروا أي سحر يفعلون، فرموا حبالهم وعصيهم أمام سيدنا موسى وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون، فخيل لموسى وللناس أن حبالهم أضحت ثعابين تسعى للفتك بنبي الله، فأمر الله تعالى موسى أن يلقي عصاه فإذا هي تبتلع ما صنعوا.

وعرف السحرة وبما يمتلكون من أدوات السحر وفنونه وعلومه أن ما رأوه الآن لم يكن ضربا من السحر أبدا، بل لم يكن من صنع البشر أصلا، وتيقنوا حينئذ أن الإله

الواحد الأحد القادر المقتدر الذي يدعو إليه موسى، هو الإله الحق، وهو الذي أجرى هذه المعجزة على يدي نبيه موسى، فخروا لله ساجدين مقرين بالوهيته وربوبيته، وأعلنوا أمام فرعون وكهنته ورجال حكمه وجنوده وأمام حشود الناس جميعا أنهم آمنوا برب موسى وهارون.

وبهت فرعون، وبهت الذين كفروا معه...

قبل قليل كان السحرة يحلفون بعزة فرعون ويطمعون بالفوز بكرمه وعطاياه!! فما سر هذا الانقلاب الشديد في موقفهم وسلوكهم في لحظات؟

لم يكن أمام فرعون من بد - ليحفظ ماء وجهه ازاء الذي يحصل - إلا أن يتهمهم بأنهم تلامذة موسى، وأنه كبيرهم الذي علمهم السحر، وتوعدهم بعذاب أليم شديد بأن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وأن يصلبهم في جذوع النخل.

ولولا أن ما جاءَهم من البينات من الله تعالى كانت قوية دافقة دامغة غمرت قلوبهم بالإيمان الصادق في لحظات، فتعلقت بأعتاب الله تعالى ترجو عفوه وغفرانه، لكان هذا التهديد والوعيد الحقيقيين كافيين أن يثيرا في أنفسهم نوازع الخوف الشديد، فيلتمسون من فرعون العفو والصفح ويرجعون إلى دينه وطاعته أذلاء صاغرين، وكان بامكانهم أن يدعوا أمام الملأ من قومهم أن ما رأوه من أمر موسى كان ضربا من السحر لم يعهدوه من قبل ولا قدرة لهم عليه، ويحذروا القوم منه، فيرضي ذلك غرور فرعون فيعفو عنهم.

ولكن الله تعالى قد ثبت الإيمان في قلوبهم فعرفوا أن هذه الدنيا فانية، وأن عطايا فرعون مهما كثرت، أو أن عذابه مهما اشتد، فلن يغير من أمرها شيئا، فاشتروا آخرتهم بدنياهم، واشتروا رضى الله وثوابه بسخط فرعون وعذابه.

لذلك كان جوابهم لفرعون عندما توعدهم بالعذاب الشديد، جوابا بليغا ينم عن عقيدة ترسخت في قلوبهم فجعلتها تسبح بنور الله وفي ملكوته، فقالوا له: (افعل ما بدا لك أن تفعل، فحدود سلطانك وجبروتك تقف عند أعتاب هذه الحياة الدنيا لا تتعداها، وقد رضينا أن نبيع هذه الحياة القصيرة الفانية بالحياة الأبدية الخالدة).

فنعم البيع بيعهم ونعم التجارة تجارتهم.

درس في رسوخ العقيدة، والثبات عليها، نتعلمها من سحرة فرعون الذين تلقوا برهان ربهم وآياته للحظات معدودات قبل أن ينزل فرعون بهم أشد العذاب.

ونحن إذ نملك بين أيدينا كتاب الله وهدي نبيه المصطفى (ﷺ)، أفلا تحفزنا قصة سحرة فرعون لكي نفهم عقيدتنا على أصولها وكما أرادها الله لنا ورسوله، عقيدة

سمحة نقية، صافية،، خالية من أية شائبة، ثم نثبت عليها ثبات العارفين المتقين؟؟

٤٩ـ أدب العلاقات البشرية

الإنسان كائن اجتماعي سريع الألفة

فطر الله الإنسان على أن يكون كائنا اجتماعيا سريع الألفة، محبا للعشرة والاختلاط، وأمره بالتعاون والتآزر والتعارف مع أقرانه من البشر من الأقوام والملل الأخرى مهما اختلفت ألوانهم وألسنتهم وأعراقهم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

كيف رسم النبي (ﷺ) منهج التعايش بين المسلمين

والهدي النبوي المحمدي الشريف يرسم خيوطا بالغة الروعة في أسلوب التواصل بين الناس، تأخذ بالحسبان أدق التفاصيل في احترام شخصية وخصوصيات المقابل وعدم خدش مشاعره. والرسول الكريم (ﷺ) يستمد منهجه في وضع هذه التربية الأخلاقية والسلوكية من الأدب الرباني الجليل حين قال عليه الصلاة والسلام: [أدبني ربي فأحسن تأديبي] (الزرقاني).

وهذه التربية المحمدية المباركة تنظر إلى المؤمنين ككتلة متوحدة متكاملة وكبنيان قوي يشد بعضه بعضا.

قال رسول الله (ﷺ):

[مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائره بالحمى والسهر] (متفق عليه).

[المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا] (متفق عليه).

لذلك كان حريا بالمسلمين أن يلتفتوا وينتبهوا إلى أدب العلاقات الإنسانية لأنها وسيلة التواصل والتخاطب مع الغير، وكان لا بد أن تكون هذه الوسيلة راقية وناضجة وحكيمة لتؤتي ثمارها من الود والعطف والرحمة بين المؤمنين وتشد من تلاحمهم وتآزرهم، وكذلك لبناء علاقة طيبة مع الأمم والأقوام التي تجاورهم أو تعيش معهم على هذا الكوكب.

وفي الهدي النبوي الشريف محطات لا بد لكل مسلم أن يمر بها ليأخذ من الأدب النبوي الرشيد دروسا بليغة ناصعة، ويتعلم فيها قواعد الآداب الاجتماعية والإنسانية ويعرف موازينها ومقاييسها الإسلامية، وليرسم له طريقا نحو كمال الأدب

فيصل إلى مشارفه ومرابعه كلما أمكنه الله من ذلك، فالكمال المطلق لله وحده جل جلاله. ذلك حتى تكون للمسلم هويته الخاصة المميزة الصافية التي لا يشوبها شائبة أو غبش أو كدر فتكون أليفة ومتآلفة وسمحة ومتسامحة.

وقد رسم المنهج الإسلامي المستنبط من كتاب الله وهدي نبيه المصطفى (ﷺ) ملامح هذه الشخصية في آيات محكمات من آي الكتاب المبين ومن الهدي النبوي الشريف فلنستعرض معا بعضا منها.

- [المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده] (متفق عليه).

فالمسلم لا يبطش ولا يظلم ولا يعتدي على أخيه المسلم بيده ولا يؤذيه بلسانه وبكلامه.

والخطاب موجه للمجتمع المسلم في ظاهر المعنى، ولكنه يمتد ليشمل علاقة المسلم بغير المسلم أيضا، فيكون المسلم من سلم الناس من لسانه ويده، فلا يليق بالمسلم أن يكون حليما، لينا، سهلا، وحلو المعشر مع المسلم ثم يكون ظلوما، جهولا، قاسيا، وفظاً غليظاً القلب مع غير المسلم. وعلى المسلم أن يكون مرآة صافية تعكس عظمة هذا الدين وسمو رسالته ونبل الأخلاق والآداب التي يدعو إليها. وما نراه أو نسمعه حول جواز الغلظة والشدة مع غير المسلمين بل والتجاوز على أعراضهم وممتلكاتهم - والذي ظهر عند بعض الفئات الضالة التي تدعي أنها مسلمة - ما هي من أخلاق الإسلام في شيء والإسلام منهم ومن فعلهم ونهجهم الأخرق هذا براء.

- لا يقف الأدب النبوي عند أمر المسلمين بكف أذاهم عن بعضهم البعض، بل يذهب أبعد من ذلك ليوصي بالمجاهدة في منع الأذى - أي أذى - عن المسلمين حتى إذا كان يضيق عليهم طريقهم.

يقول (ﷺ): [لقد رأيت رجلا يتقلب في الجنة في شجرة قطعهاعن ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين]. (مسلم).

وقال أبو هريرة (رضي الله عنه) قلت: يا رسول الله علمني شيئا أنتفع به. قال: [اعزل الأذى عن طريق المسلمين] (مسلم).

والأمر هنا يحتاج إلى وقفة.

فالرجل الذي يرى عارضا في طريق الناس يؤذيهم فيزيله تقربا إلى الله واحتسابا للأجر عنده، فإنه يفتح بعمله هذا طريقا للمحبة والمودة إلى قلوبهم، ويسن سنة حسنة في فعل الخير تطوعا لا تكلفا، يؤجره الله عليه ثوابا بأن

يجعله يتقلب في الجنة ونعيمها، وهي دعوة محمدية مباركة للحظ على العمل التطوعي في خدمة المجتمع وبما يؤلفْ بين قلوب الناس ويوثق عرى المحبة والتعايش الآمن بين البشر.

وقال جابر وأبو طلحة: سمعنا رسول الله (ﷺ) يقول: [ما من مسلم ينصر مسلما في موضع ينتهك فيه عرضه ويستحل حرمته إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصره، وما من امرئ خذل مسلما في موطن ينتهك فيه عرضه ويستحل حرمته إلا خذله الله في موضع يحب فيه نصرته] (أبو داود).

والذي يتمعن في هذا الحديث النبوي الشريف ثم ينظر إلى واقع المسلمين يرى بجلاء ووضوح كم أضعنا هدي الرسول الحبيب، وكم هجرنا سنته الطاهرة، حتى صار الواقع هو عكس ما يدعو إليه المصطفى (ﷺ) فصرنا نحن ننتهك أعراض بعضنا البعض ونستحل أموال ودماء بعضنا البعض.

فيا للخزي الذي وقعنا فيه، فأوصلنا إلى الذل الذي نعيشه في أوطاننا حيث نتكالب على بعضنا البعض ويتكالب علينا الأعداء من كل حدب وصوب، فيا محمداه ويا إسلاماه على ما فرطنا في جنب الله وهدي حبيبه المصطفى (ﷺ).

• أن يتواضع المرء للناس وينزلهم منازلهم، وأن يؤمن بأن الجاه أو المال أو السلطان أو العلم لا يعطيه أي منها -مجتمعة أو منفردة – أي عز أو فخار، ولكنه إن ملك تواضعا وسكينة وحلما، ثم ملك أو لم يملك شيئا مما يفتخر به الناس، قذف الله محبته في قلوب من حوله فأحبوه وأكرموه.

قال رسول الله (ﷺ): [إن الله أوصاني أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد] (أبو داود).

فالتواضع أيضا باب من أبواب ادخال الألفة بين الناس ووسيلة راقية لكسب قلوبهم ومحبتهم.

• يقول الله في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢)﴾ (الحجرات:

١٠-١٢)

وهذه آداب قرآنية من أدب العلاقات بين الناس، فرب العزة ينهانا أن يسخر أو يعيب بعضنا بعضا، أو نلقب بعضنا بالألقاب المستكرهة، أو نتجسس على بعضنا، أو يغتاب بعضنا بعضا، فكل هذه الأخلاق الذميمة هي أبواب شيطانية بغيضة تقود إلى الفرقة والبغضاء والحقد بين الناس لذلك جعلها الله تعالى ظلما وإثما ونهى عباده المؤمنين عنها. وفي مجتمعاتنا آلاف الأمثلة الحية التي يمكن الاستدلال منها كيف يقود كل خلق ذميم من هذه الأخلاق إلى ويلات ومصائب وآفات اجتماعية، وكيف يؤجج كل منها الخلاف والتباغض والفرقة بين أقرب الناس، فجاء النهي عنها نهيا وعن كل ما يعكر صفو العلاقات السليمة المستقيمة بين أفراد المجتمع.

• ليكن لك في رسول الله أسوة حسنة فقد روي عن أنس في أخلاق النبي (ﷺ) فقال: (ما التقم أحد أذن رسول الله (ﷺ) - يعني ناجاه - فينحي رأسه حتى يكون الرجل هو الذي ينحي رأسه، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر، وكان يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ أصحابه بالمصافحة، لم ير قط مادا رجليه بين أصحابه فيضيق بهما على أحد، يكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التي تحته ويعزم عليه في الجلوس عليها إن أبى، ويكني أصحابه ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوز فيقطعه بانتهاء أو قيام).

• للمجالس آدابها في الاستئذان والدخول والجلوس والكلام فلا يجوز اقتحام المجالس الخاصة اقتحاما من غير استئذان ولا قبول، ولا يجوز الاستفراد فيها بالكلام أو التقعر أو الاطالة فيه من غير موجب، ولا يجوز أن يغلب عليها الهزل والمراء والجدال.

وإن دعوت لمجلس عليك بالجلوس حيث تجد متسعا، ولا تتخطى رقاب من سبقك لتحشر نفسك بين الجالسين في الصفوف الأولى، وسلم بصوت منخفض لمن جلست قربه، وأصغ للمتكلم بكليتك ولا تلتفت يمينا وشمالا، وإن أعجبك حديث المتكلم فلا تبالغ في الإطراء، وإن لم يعجبك فلا تتململ في مقعدك لتظهر للناس ضجرك وسأمك، وإن أعطيت فرصة - بعد الاستئذان- للتعقيب ووجدت في نفسك قدرة على إثراء الموضوع بقيم علمية ربما غابت عن المتكلم، وإن إغفالها لا يعطي الموضوع كل حقه،

عليك أن لا تشير صراحة إلى النقص أو الخطأ الذي وقع فيه المتكلم فتحرجه أو تقلل من علمه والمامه بالموضوع فربما رد عليك بغلظه فيتدخل غيرك مصيبا أو مخطئا لرأيك أو لرأي المتكلم فيغلب المراء والجدال، وتكون أنت من قاد المجلس إلى ذلك. ولكنك لو اثنيت على المتكلم أولا ثم عرجت على ما تريد قوله بشكل مختصر تكون قد أضفت ما تريد إضافته دون أن تثير حفيظة المتكلم ضدك ودون أن تفتح بابا للمراء والجدال.

يقول رسول الله (ﷺ): [ذروا المراء لقلة خيره، وذروا المراء فإن نفعه قليل وانه يهيج العداوة بين الإخوان] (العراقي).

ذلك لأن الباعث على المماراة هو اظهار التمييز بمزيد من العقل والعلم والفضل واحتقار المردود عليه باظهار جهله أو عدم المامه الواسع بالموضوع الذي تحدث فيه.

كذلك إن جمعك مجلس مع اثنين فلا تناجِ أحدهما دون الآخر لأن ذلك مدعاة للبغضة والفتور. وإن وجدت أثنين قاما إلى ركن بعيد يتجاذبان أطراف الحديث، فلا تلحق بهما وتقحم نفسك إقحاما بينهما دون استئذان، وإن وجدت أن بينهما حديث خاص لا شأن لك به فتراجع بأدب وهدوء.

● للبيوت حرمة لا يجوز انتهاكها فلا تدخل بيتا إلا بعد استئذان كريم وقبول واستئناس من أهل البيت، فإن أذن لك فسلم عليهم ولا تضايقهم بطول المكوث أو اللجاجة في الحديث.

يقول الباري عز وجل في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨)﴾ (النور: ٢٦ -٢٧).

الإسلام يحث على الجيرة الطيبة، ويفرد لها حقوقا كثيرة فهذا نبي الهدى (ﷺ) يقول: [لا والله لا يؤمن، لا والله لا يؤمن، لا والله لا يؤمن]، قالوا: ومن ذاكَ يا رسول الله؟ قال: [جارٌ لا يأمنُ جارهُ بوائقه، قيل وما بوائقه قالَ شرَّه] مسند أحمد. [لا يستقيم ايمان العبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل المؤمن الجنة حتى يأمن جاره من لسانه] وحق الجوار ليس كف الأذى فقط بل احتمال الأذى أيضا، بل لا بدّ أن يكون فوقه من إسداء الخير والمعروف.

وإذا كنا نعلم أن ميزان حياة المسلم لا يستقيم إلا بالإيمان وأن الإيمان يرتبط هذا الارتباط الوثيق باكرام الجار وحفظ حقوقه، عرفنا عظمة هذا الدين الذي ارتضاه الله للناس جميعا.

وإنه لشعور جميل ومطمئن وأنت تنتقل إلى حي آخر أو مدينة جديدة، فيهب جيرانك الجدد لمساعدتك وتوضيب منزلك وتسهيل أمرك وإرسال الطعام إليك، فينفرج همك وينبسط صدرك وتذهب وحشتك. وكذلك أيضاً أي شعور طيب يحمله أهل حي غير مسلم عندما يحل بينهم جار مسلم فيرون فيه خصالا كريمة وأخلاقا عالية ما تعهدوها من قبل ويرون فيه الطيبة والألفة وحسن الجوار. وأي شعور بالأمان هو الذي تحسه أنت ويحسه معك كل جيرانك عندما تتيقنون أنكم في مأمن من بوائق الجيران، ودونما خوف على ممتلكاتكم أو وضع الحراسة عليها في غيابكم لأن الجيران هم الحارسون وهم المؤتمنون على أموال وأعراض وممتلكات بعضهم البعض، فتشيع الطمأنينة في النفوس وتصفى القلوب فلا ضغائن ولا مكائد ولا تلصص ولا اعتداء في الحي، بل جيرة طيبة كريمة ونفوس متآلفة منشرحة.

• الوفاء بالعهد، وحفظ الأمانات، وصدق الحديث، وعدم الغش في تجارة أو بيع أو بضاعة كلها خلق تسبق المسلم في علاقاته ومعاملاته مع الآخرين لا يفرق في ذلك بين قريب جار مسلم وبين غريب مستطرق أو بين يهودي أو بوذي، فهو كالمعدن النقي لا يفقد نقاوته متى انتقل بين أيادٍ نظيفة وأخرى ملوثة. وشخصية المسلم التي تتأدب بالأدب النبوي الشريف لا تكون إلا كالنبع الصافي لا يخرج إلا الماء العذب الرقراق أيا كان المستسقي منها.

يقول الحبيب المصطفى (ﷺ): [ثلاث من كن فيه فهو منافق وان صام وصلى: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان] (المنذري).

• المسلم لا يكون إلا ايجابيا في حياته، متعاونا على البر والتقوى، محبا للخير، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، يمشي في مصالح الناس ويصلح ذات بينهم، ولا يتدخل فيما لا يعنيه.

إن أدب العلاقات الاجتماعية التي أشرنا إلى باقة منها هي التي أدت إلى قبول ملايين الناس في آسيا وأفريقيا وغيرها من بقاع الأرض، للإسلام على أنه دين قيم وأخلاق راقية أصيلة، ودين عقيدة لا تجانب فطرة الإنسان التي فطر الله الناس عليها، بل تتواءَم معها لتنطلق بالنفس الإنسانية في أعلى عليين وتسحبها من

قاع الأرض حيث الرغبات والشهوات لوحدها فيكون الإنسان عبدا ذليلا لها بدل العبودية لله سبحانه وتعالى. ودخلت شعوب وأقوام في الإسلام بهدي من الله ثم بهدي الآداب والأخلاق التي رأوها في المسلمين الذين عاشروهم وجاوروهم وتعاملوا معهم..

لذلك عندما طمسنا هذه الآداب وصار البون بيننا وبين التأدب بها شاسعا ومخيفا، لم نعد نمتلك حينها ذلك الألق البهي الذي كان يبهر أبصار وقلوب غير المسلمين والمؤلفة قلوبهم من المسلمين على حد سواء. ذلك أن الضوء الذي ينعكس من مرآة أخلاقنا صار لا يعكس إلا جهالة وسفاهة وضحالة في الفكر وفي العقيدة، فمن يلتفت بعدها لكلام لا يزيل الغبرة والسوء عن وجه المتكلم نفسه؟

٥٠ـ الشجاعة

من معاني الشجاعة

الشجاعة: هي شدة القلب عند البأس

ولا يملك هذه الخصلة الرفيعة المتميزة - ومن منظورها الإسلامي - إلا من ملك الإيمان كل قلبه وجوارحه فاستمد منه رباطة الجأش، والثبات على المبدأ، وعرف أن العزة كل العزة في بذل أغلى ما يمكن أن يبذل من أجل الحق، ورفع الظلم والبغي، والانتصار للمظلوم.

ومن يتملكه هذا الشعور النبيل لا يحلْ دونه حائل، ولا يتردد، ولا تهن عزيمته من تحقيق مبتغاه أو الموت دونه شهيدا.

الشجاعة موقف

الشجاعة ليست خلقا يدعيه البعض منا ادعاء، وليست نظما للشعر في مدح النفس يتقنه البعض الآخر، ولا مرتبة توهب جزافا، فنفتخر على القوم ببسالتنا وشجاعتنا على ضوء ما سبق.

إنما الشجاعة هي مواقف ينجلي فيها الفرق وبوضوح بين المعدن النقي الصلب وبين المعدن الصدأ الذي يتكسر ويتهشم في أول اختبار.

الشجاعة لا تمتحن إلا عند البأس والشدائد

الشجاعة لا ترى ولا تمتحن إلا عند البأس والشدائد، فتبقى رؤوس مرفوعة في عز وإباء تشرق نورا وبهاء، وتنتكس رؤوس في ذل وخنوع يغشاها صغار وهوان.

وتبقى عيون متقدة تقدح شواظا من نار الحق تحرق وجوه الظالمين وتجفل منها

قلوبهم، وتنطفيء عيون فلا تجرؤ أن تنظر في عيون من يسومها سوء العذاب.

وترتفع هامات تشمخ في عنفوان، وتتهاوى أخرى تجر أذيال الخيبة.

وتثبت أقدام في الأرض وكأنها تنبت منها انباتا، وتزل أخرى وتتعثر.

نعم عند البأس والشدائد يظهر كل على حقيقته فالشجاع يحمل على الأعناق ويهتف الناس باسمه، والجبان الذليل المنكسر ينزوي بعيدا يحمل عار جبنه وخذلانه.

الشجاع يبعث البأس والقوة في قلوب المترددين من حوله

والشخصية الشجاعة تفيض من قوتها وأصالتها وعنفوانها وبأسها على المترددين من حولها، والذين ربما دب الوهن والضعف في نفوسهم، فتستمد منها ما يعيد إليها الثقة بالنفس، والثبات على الحق، والحرص على النصر.

الشجاعة لا تكون في القتال فحسب

الشجاعة لا تكون في ساحة الحرب فقط، بل تكون قبل ذلك وبعد ذلك أيضا. تكون في الموقف الشجاع والقول الشجاع في الوقوف مع الحق والعدل، وفي الوقوف في وجه الظلم والبغي والعدوان.

وتكون في قبول التحدي عندما يلجئك الكفار والمنافقون إلى خيار الحرب والمنازلة، فتكون عندها شجاعا في ثباتك على مبادئك، وشجاعا في ساحة الجهاد لطرد الغزاة، وشجاعا في الحفاظ على القيم الإسلامية في الحرب، وشجاعا في قبول السلم إذا جنح الآخرون للسلم.

مفهوم الشجاعة الايجابية في الإسلام

الشجاعة التي يعتز بها المسلم هي الشجاعة المدافعة عن العقيدة والمبادئ والقيم الإسلامية والإنسانية، والشجاعة المدافعة عن الأرض والعرض والمقدسات، والشجاعة التي تعيد الحقوق لمن سلبت منه حقوقه المشروعة ظلما وعدوانا.

والشجاعة التي تنتفض كما ينتفض المارد عندما يضرب الكسل والتواكل بجدرانه بين الناس، وتفيض أفئدتهم بحب الشهوات والمعاصي فيقبلون الذل والمسكنة.

مفهوم الشجاعة السلبية في الإسلام

أما غير ذلك من ألوان الشجاعة التي تتكئ على العصبية العمياء، أو التفاخر الأحمق، أو التي تلبس الحق بالباطل، أو التي تتجاوز حدودها فتصل إلى الظلم والبغي والطغيان، أو التي تستهين بكرامة الإنسان، فكلها مستهجنة ومنبوذة وفق الفهم الإسلامي الصحيح لمعاني وقيم الشجاعة. وهي وإن ملكت مقومات الشجاعة المجردة وفي أَطرها المادية في الثبات على المبدأ - ولو كان باطلا- وشدة البأس عند المنازلة، والشخصية الفذة التي تستقطب الناس من حولها، غير أنها عندما توزن في

ميزان المنهج الإسلامي فإنها لا تساوي شيئا وتوصف بالشجاعة السلبية التي لا تميز بين الحق والباطل وبين الخير والشر.

الشجاعة خلق الأنبياء

والشجاعة في أبهى صورها وأرقى معانيها هي خلق الأنبياء والمرسلين. فقد تجلى لهم الحق من الباطل في أدق تفاصيله ومضامينه ومقاصده من لدن الحق سبحانه وتعالى، الذي جعل الحق حقا وحث على اتباعه وجعل الباطل باطلا وحث على اجتنابه.

وتبليغ الأنبياء لرسالات ربهم هي بحد ذاتها شجاعة لأن هذا التبليغ يكون لأقوام تمرسوا في البغي والعدوان، وتدنسوا بألوان شتى من الرذائل والأخلاق والعقائد الباطلة والفاسدة، وعادة تأخذهم العزة بالإثم أمام كل قول أو دعوة مباركة لثنيهم عن هذه العقائد الفاسدة ودعوتهم لعبادة الواحد الأحد الحق الصمد وإلى مكارم الأخلاق. فيلجأون إلى الاعراض عن الأنبياء بل وكثيرا ما يلجأون إلى العنف والايذاء والتهديد والقتل، بعد أن تفشل محاولاتهم لثني أنبيائهم عن هذه الدعوات أو تفشل جهودهم في إقناعهم بانهم سيخلعون عليهم الملك والسلطان إن هم تركوا أمر الرسالة.

ألم يقذفوا خليل الرحمٰن إبراهيم (عليه السلام) في أتون النار العظيمة التي أنشؤوها من أجل حرقه فيها، لولا أن الله جعل النار بردا وسلاما عليه؟

وتعقبوا كليم الله موسىٰ (عليه السلام) ليفتكوا به وبمن معه ففلق الله البحر له ونجاه من فرعون وجنوده.

ومكروا لكلمة الله عيسى بن مريم (عليه السلام) ليصلبوه لولا أن الله سبحانه وتعالى رفعه إليه.

شجاعة رسول الله (ﷺ) نموذج للأمة

كان النبي الأكرم محمد (ﷺ) أشجع الناس، وتجلت هذه الشجاعة في مواقف كثيرة.

فكان شجاعا في تبليغ الدعوة، وشجاعا في الثبات عليها.

وكان شجاعا في الوقوف في وجه كل أشكال الظلم والقهر والجوع والأذى الذي تعرض له مع أصحابه.

وكان شجاعا في ساحات الجهاد والمنازلة. فيوم حنين يوم ضاقت الأرض بما رحبت على المسلمين وزلزلوا زلزالا شديدا، وتسبب الطلقاء وحديثو العهد بالإسلام في هروب يكاد يكون جماعيا. وبقي الرسول (ﷺ) في نفر قليل من أصحابه يقلّ عن

المئتين، عندها وقف النبي (ﷺ) ثابتا راسخا مدافعا عن قيم السماء والعقيدة السمحاء وهو يقول: [أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب] (بخاري ومسلم). وشجاعة الرسول (ﷺ) هنا لا تتجلى في بقائه في نفر قليل من أصحابه وسط المعركة فقط، بل في إعلانه (ﷺ) عن نفسه وهو يعلم يقينا أنه هو المستهدف وليس من حوله، لأنه هو الذي يحمل مشكاة نور النبوة في قلبه. وكان لهذا الاعلان وثبات من بقي معه، الأثر الأكبر في عودة بعض الصحابة إلى المنازلة للذود عن نبيهم وحبيبهم محمد (ﷺ). فأنعم الله عليهم بنصر من عنده.

الشجاعة الإيجابية تحسم الموقف الصعب

ولأن الرسول (ﷺ) يعلم يقينا أن الحسم في المعركة يحتاج إلى رجال أفذاذ أقوياء لذلك كان يختار للمنازلة من يرى أن هذه الخصلة الحميدة متأصلة فيه، أو يدعو للمنازلة من يجد نفسه أهلا لها، وفي كلتا الحالتين لا يخرج إلا الرجل الذي لا غبار على بأسه وشجاعته وتقواه، وكان الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) أكثر من يخرج في كلتا الحالتين وهذا يدل على المنزلة العليّة التي كان عليها علي بن أبي طالب في الشجاعة والإقدام.

شجاعة الثبات على المبدأ عند أبي بكر (رضي الله عنه)

ضرب أمير المؤمنين أبو بكر (رضي الله عنه) مثلا عظيما خالدا خلود الدهر في شجاعة الموقف، عندما تصدى للمرتدين والمتنبين الكاذبين، فالحزم والصلابة وقوة الموقف التي كانت عند أبي بكر هي التي حافظت- وبفضل من الله - على أركان عقيدة الإسلام ونظامه وتشريعه كما كانت في عهد رسول الله (ﷺ).

شجاعة عمر الفاروق (رضي الله عنه)

العمر الفاروق (رضي الله عنه) كان شجاعا لا يخشى لومة لائم في كل شيء. في القول وفي الفعل، وفي الموقف والقرار، كما كان شجاعا في العدل والتواضع.

شجاعة الفرسان عند صلاح الدين الأيوبي.

الناصر صلاح الدين الأيوبي كان مقداما وشجاعا في ساحة الحرب، وكان قمة وجبلا أشما في الفروسية وفي تحقيق أخلاق ومبادئ الإسلام في الحرب حتى عندما كان في قمة انتصاره وكان اعداؤه في وضع الاستكانة والمذلة والهزيمة.

❊

تم بعون الله الباب الأول

الباب الثاني

الأخلاق الذميمة

تمهيد

كما أحصى دستور الأخلاق الإسلامي الأخلاق الحميدة خلقا خلقا، فقد أحصى أيضا الأخلاق الذميمة خلقا خلقا، وحث المسلمين على تجنبها جميعا، والابتعاد عن الدروب والمسالك والمجالس المفضية إليها. ورسم الإطار الذي تتحرك، وحدد الشرر الخبيث الذي ينبعث منها، والآثار السيئة الناجمة عنها، والنتائج الخطيرة التي تتحقق من ممارستها، على الصعيد الشخصي، في تشويه صورة المتصف بها، والحط من كرامته، وجعله عرضة للمقت والازدراء وهدفا للنقد والذم من الناس. وليبوء بعد ذلك، بكل خطوة سوء يخطوها، إثما يستحق به غضب وسخط رب الناس. أما على صعيد المجتمع ولما كان سوء الخلق ليس كمرض يصيب شخصا بعينه فتعتل صحته، ويهزل بدنه، وقد يبرأ من سقمه بعد حين، أو يشتد عليه المرض فيهلكه وحده. إنما هو كمرض خبيث خطير معد، ينتشر كالوباء إذا لم يعزل ويحاصر فور ظهوره، ليعالج من ثم في هدوء وحكمة. فسوء الخلق متى ما وجد البيئة المناسبة لنموه استشرى واستفحل وأمتد شرره كامتداد النار في الهشيم، وينشر إعصارا من الفساد في ثنايا المجتمع، فتتأزم العلاقات، وتضطرب النفوس، وتضيع الحقوق، ويبغي الناس بعضهم على بعض.

فسيء الخلق اذا، لا يجلب لنفسه إلا الهم والغم والكدر وضيق الفؤاد، ولا يجلب لغيره إلا الشقاء.

ولعل أبلغ كلام نجعله مدخلا لهذا الباب أيضا هو قبس من كلام الحبيب المصطفى (ﷺ).

قال النبي (ﷺ): [ما من ذنب أعظم عند الله عز وجل من سوء الخلق وذلك ان صاحبه لا يخرج من ذنب إلا وقع في ذنب] (المنذري). ذلك أن الأخلاق الذميمة يولد بعضها بعضا، فالذي يخوض في الغيبة يستسهل النميمة والبهتان والكذب، ومن يعق والديه لا يكترث لقطيعة الرحم أو الإساءة إلى جاره. ويكون سيء الخلق في هبوط وانحدار أخلاقي درجة بعد درجة - وكأن الذنب الذي يخوض فيه لا يدعه إلا بعد أن يخوض في ذنب أقبح - حتى يجد نفسه في أسفل درجة في جهنم.

ويقول النبي (ﷺ) في هذا الشأن: [إن المرء ليبلغ بحسن خلقه أعظم درجات الآخرة وأشرف المنازل وهو ضعيف العبادة، وإنه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درجة في جهنم] (المنذري).

وهكذا فإن صلاة المرء وصومه وزكاته وصدقاته تكون هباء منبثا إذا كان يفسد كل ذلك بسوء الخلق. يقول النبي (ﷺ): [إن الخلق السيء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل] (الهيثمي المكي).

ويأتي العبد يوم القيامة بعمل كثير مما كان يظن - ويظن الناس معه - أنه عمل خير سيجزيه الله عنه ثوابا عظيما، ولكن..!! عند الوقوف بين يدي الملك العلام، العدل المنان، فإن حسابه لا يكون على ما فعل من عمل صالح لنفسه فقط، بل يكون على ما صنع مع غيره أيضا، وما غمط من حقوقهم، فيجد الرجل نفسه في النهاية مفلسا، صفر اليدين، وقد باء بآثام غيره بسبب سوء خلقه مع الناس في الدنيا.

سأل النبي (ﷺ) أصحابه يوما: [أتدرون من المفلس؟] قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال (ﷺ): [المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، اخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار] (مسلم).

فطريق الإيمان واضح وجلي، كما أن طريق الفساد وسوء الخلق واضح وجلي، وهما طريقان متوازيان لا يلتقيان، ولكن بينهما معابر كثيرة في الإتجاهين. فمعابر التوبة يسلكها الخطاؤون المذنبون التائبون ليعودوا إلى صراط الإيمان. وثمة معابر يتخطف الشيطان منها من يراه وقد حام حول الشبهات أو اقترب منها، فيدفعهم جميعا في طريق الشر والفساد.

ولا يظنن أحد ان بمقدوره سلوك طريق الإيمان وهو مثقل بخصال سوء الخلق. يقول النبي (ﷺ): [خصلتان لا تجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق] (الطبري).

وروي أن رجلا قال: يا رسول الله إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها قال: [هي في النار]، ثم قال يا رسول الله فلانة تذكر من قلة صلاتها وصدقتها وصومها وإنها تتصدق بالأثوار من الأقط - بالقطع من العجين - ولا تؤذي جيرانها، قال: [هي في الجنة] (احمد).

فهل ثمة قول أوضح وأدل من كلام سيد الأنام محمد (ﷺ) حيث يقرر: أن الإيمان القوي الراسخ قرين الخلق القوي الحميد، وأن انهيار الأخلاق مرده إلى ضعف الإيمان أو فقدانه بمقدار الخوض في الباطل والمفاسد وسوء الخلق.

ولأن مقام النبي (ﷺ) في الجنة مقام علي لا يصله إلا الأتقياء المقربون، الذين يجمعون بين كمال الدين وكمال الخلق، فإن درجة القرب والبعد عن محبة النبي (ﷺ)

وعن مجلسه يوم القيامة، تكون بدرجة حسن خلق المسلم وسوء خلقه. يقول النبي (ﷺ): [إن أحبكم الي وأقربكم مني في الآخرة أحاسنكم أخلاقا، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني في الآخرة أسوأكم أخلاقا] (أحمد).

وعن أبي هريرة عن النبي (ﷺ) أنه قال: [إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ثم ذكر: [الرجل يطيل السفر أشعث أغبر - ساعيا للحج والعمرة ونحوهما - يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟] (الألباني).

ان لهذا الحديث دلالات عظيمة ودروس بالغة ما أجدر أن نتمعن فيها فنفهم مراد رسول الله (ﷺ) من حديثه الشريف هذا:

- رجل ترك أهله وأحبته وتجارته وقصد بيت الله الحرام ساعيا لأداء فريضة مقدسة فرضها الله عليه.
- يطول سفره إلى الديار المقدسة، ويصل البيت العتيق أشعث أغبر، هزيل البدن، جاحظ العينين، وقد هده التعب وأضناه طول الطريق.
- يطوف حول الكعبة رافعا كفيه إلى السماء يقول في انكسار وذلة: يا رب، يا رب.
- ولكن..!! ثمة حجاب يحول بينه وبين السماء.
- ابعد كل هذا يا رب؟
- نعم..!! ان الله طيب لا يقبل إلا طيبا.
- فرجل مطعمه حرام، ومشربه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب له؟
- ورجل يغدر بالناس، ويكذب على الناس، ويبغي على الناس، فأنى يستجاب له؟
- ورجل يعق والديه، ويقطع رحمه، ويسيء إلى جاره، فأنى يستجاب له؟
- اذا أردت أن تستمطر رحمة ربك، فإن رحمة الله قريب من المحسنين، فأحسن مطعمك ومشربك، وأحسن إلى أبويك وذوي رحمك، وأحسن إلى جارك.
- **وإذا أردت أن تستمطر رحمة ربك فحسن خلقك.**

وقد وصف الإمام الغزالي (رحمه الله) الأخلاق السيئة فقال:

(الأخلاق السيئة هي السموم القاتلة، والمهلكات الدامغة، والمخازي الفاضحة، والرذائل الواضحة، والخبائث المبعدة عن جوار ربّ العالمين، المنخرطة بصاحبها في سلك الشياطين، وهي الأبواب المفتوحة إلى نار الله تعالى الموقدة التي تتطلع على الأفئدة).

فتعالوا أحبتي في الله نستعرض باب الأخلاق الذميمة في دستور الأخلاق خلقا بعد خلق، ثم نعمد إلى هذه الأبواب المفتوحة إلى النار فنغلقها بابا بعد باب، لعل الله يهدينا إلى سبيل الهدى والرشاد فنلزمه ونتخذه سبيلا، ويبعدنا عن سبيل الغي وسوء الخلق، فندعه ولا نتخذه سبيلا.



١- الفظاظة والغلظة

من معاني الفظاظة والغلظة

الفَظاظة: هي جفاء الطبع.

والغلظة: هي الخشونة والقسوة وشدة الطبع.

ولا يليق بالمسلم أن يتخلق بكل ذلك، ومن وجد في نفسه شيئا منها عليه أن يتداركها بكثرة الاستغفار، والمداومة على قراءة القرآن حتى يلين قلبه ويستكين، وتنفرج أساريره، وتذهب عنه هذه الفظاظة وتلك الغلظة.

بعض نماذج الفظاظة والغلظة في المجتمع

وفي الحياة نماذج كثيرة لا حصر لها لمن ابتلي بالفظاظة والغلظة.

فترى صاحب بقالة ينهرك ويعاملك بجفوة وقسوة إن حركت حاجة من محلها أو رفعتها لتنظر أتلائمك أم لا؟ أو إذا اعترضت على السعر الذي طلبه في البضاعة.

وترى موظفا يكاد يهينك، أو يرمي الملف الذي وضعته أمامه في وجهك، ويرغي ويزبد، ويلعن الوظيفة، إذا طلبت منه ولو بأدب جم أن ينظر في طلبك.

وقد يكون لك جار لصيق بدارك أو حائطك، لكنه يقطع كل حبال المودة والمحبة الخالصتين التي تمدها أنت أو يمدها جيرانه الآخرون إليه، ويبقى على صلفه وجفوته وفظاظته.

وفي الغالب لا يكون ثمة مبرر لهذا الخلق السيء، فهو لا يأتي بعد استفزاز أو مضايقة أو تجريح، لتعطي الرجل بعض الحق. بل إنه هكذا لا يرى إلا فظا غليظ القلب في البيت وفي الطريق وفي العمل بل حتى في المسجد.

التفاتة ربانية

واذ نرجع إلى كتاب الله ونرى أن الحق سبحانه وتعالى يخاطب نبي الرحمة محمداً (ﷺ) أنه تعالى قد أسبغ عليه نعمة اللين في ايصال هدي الله ودين الحق لقومه رغم فظاظتهم وجلفهم، لأنه لو كان فظا غليظ القلب في الدعوة إلى الله لانفضوا من حوله وما سمع له أحد. فالفظاظة والغلظة خلقان منفران ولا يليقان بإيصال وحي السماء للناس، وحاشا لنبي رسول إلا أن يكون حليما، لينا، حكيما، عذب اللسان. إنما هي التفاتة ربانية كريمة للمؤمنين لكي يجتنبوا ما ينكره الله على رسله.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

وهذا هو الحق سبحانه يرشدنا أن الفظاظة والغلظة تقودان إلى الوحشة والنفور، لأن المتخلق بهما تصعب عشرته والتآلف معه، ولا تلذ له إلا المهاترة والتقريع والتكلم بالعبارات النابية القبيحة.

المؤمن بين اللين وبين الفظاظة والغلظة

ولا يليق بالمؤمن الذي أمره الله ورسوله أن يكون لينا، طلق الوجه، غير قائل إلا التي هي أحسن، أن يتصف بهذه الصفات المنافية للمنهج الأخلاقي الإسلامي. وعليه أن يختار بين رضى الله تعالى، ومحبة الأهل والخلان والجيران والناس، وبين البقاء على فظاظته وغلظته فيكون منبوذا بين الناس، وينفرط عقد المحبين والمقربين من حوله، ويصبح أقل الناس أصدقاء وأخلاء وأناسي.

والمبتلى بالفظاظة لا يرى إلا عابس الوجه، مقطب الجبين، لا تعرف البسمة سبيلا إلى شفتيه، وتراه متشنجا يرمق كل الناس شزرا ودون أن يستفزه أو يخطئ في حقه أحد، وإنما هكذا يوحي إليه طبعه المريض.

والركون إلى الفظاظة والغلظة والعبوس تورث الكآبة والانقباض في النفس لصاحبها أولا ولمن يحيط به من أهل بيته المقربين ثانيا.

٢ـ الفضول

الاتزان المطلوب في شخصية المسلم

المنهج الأخلاقي في الإسلام يحرص على جعل شخصية المسلم شخصية سوية، قويمة، ومرنة، وذلك من خلال احاطتها بكل خلق يهذب هذه الشخصية ويجعلها مطمئنة راكدة يكتنفها جو من السكينة والإلفة، ويبعد عنها كل خلق يقودها إلى الاضطراب والكآبة وسوء العشرة. ومن هذه الخلق المستهجنة المنهي عنها والتي تقود إلى ذلك هو الفضول.

من معاني الفضول

والفضول هو أن يحشر المرء نفسه في أمر لا يعنيه، ويكثر من السؤال عن أخبار الناس وتتبع عوراتهم وأحوالهم، والتدخل في شؤونهم، وبما يضيق عليهم.

والمسلم العاقل السوي يتجنب ذلك بكل تأكيد، لأنه يريد دوما أن يحقق الخير لنفسه وأهله ومجتمعه، والفضول لا يحقق له شيئا من ذلك البتة، بل على العكس يعطيه دورا سلبيا جدا ينافي الدور المطلوب من كل مسلم ازاء المجتمع.

هل عالج القرآن خلق الفضول؟

والقرآن الكريم وهو يخاطب الجمع المؤمن ويأمرهم ألا يسألوا رسول الله (ﷺ) عن أمور لا حاجة لهم بها، أي عن تكاليف شرعية شاقة عليهم، وعليهم أن يتركوا ذلك لنزول الوحي وتوجيه الرسول وهديه لهم بعد ذلك.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ

يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (المائدة: ١٠١).

فإذا كان هذا هو المطلوب والحال مع الإلحاح في السؤال عن تكاليف شرعية قد تكون شاقة على المؤمنين إذا كلفهم بها رسول الله (ﷺ). فكيف يكون الحال مع أمر لا يحقق خيرا ولا يجلب منفعة للسائل؟؟

كيف عالج رسول الله (ﷺ) خلق الفضول

وقد كان قول الرسول (ﷺ) واضحا وقويا في الربط بين حسن الإسلام وترك الفضول حين قال: [من حسن إسلام المرء تركه ما لايعنيه] (الترمذي).

ومن الفضول المكروه (وكل الفضول مكروه) أن تحاول معرفة ما يجري داخل البيوت فتتلصص وتسترق السمع. وقد نهى النبي (ﷺ) عن ذلك نهيا شديدا حين قال:

[من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم فقد حل لهم أن يفقأوا عينه] (مسلم وأبو داود).

[من استمع لحديث قوم وهم له كارهون أو يفرون منه، صب في أذنيه الأنك يوم القيامة] (البخاري ومسلم).

ومن يترصد أحوال الناس ويحوم حولهم يريد أن يعرف ماذا يصنعون، وماذا يأكلون وماذا يشربون، وأين يذهبون، ومن زارهم و..و..و... يكون قد فرط جل وقته في أمور لا تعنيه ولا تغنيه في شيء، ويكون ضايق إخوانه وجيرانه وربما كرهوا منه ذلك فعمدوا إلى مجافاته ومقاطعته، وهذا يربك العلاقات الاجتماعية ويكدرها، والإسلام يريد أن ينشر الإلفة والمحبة بين الناس.

❊

٣ـ الاختيال والعجب

منهج الله يذيب الفوارق بين الناس

المؤمن الصادق في إيمانه يتواضع لإخوانه المؤمنين ولا يرى لنفسه منزلة أو درجة إعلى منهم، ومهما أوتي من جاه أومال أوعلم أو سلطان، فهو يعلم أن منهج الله قد أذاب كل مظاهر التمايز والتفاخر بين المؤمنين، وجعل التكريم الإلهي في التقوى فقط، والتقوى أمر غيبي بين العبد وربه لا يقاس بمقاييسنا الدنيوية.

العبادات الجماعية تهدف إلى إزالة آثار الاختيال والعجب من النفوس

ولكي يرسخ الله هذا المبدأ في عقول المسلمين وفي قلوبهم، جعل أفضل الصلوات المفروضة وأتمها وأكثرها ثوابا ما كان في الجماعة وفي المسجد. حيث تختفي كل الألقاب والعناوين الدنيوية ويقف الأمير صاحب السطوة والقوة بجانب

الحاجب الذي يقف على بابه منكبا بمنكب، ويقف الغني صاحب الضياع والقصور إلى جانب الفقير الذي يكد ويشقى لكسب قوت يومه.

ولم يجرؤ أحد على مر التأريخ أن يكسر هذه القاعدة الإيمانية فيجعل الصفوف الأولى لذوي السطوة والمال والجاه، ويترك الأخيرة للفقراء والمعدمين وأبناء السبيل.

وجعل الله تعالى للحج مواسم ومناسك موحدة لكل الحجيج يتساوى فيها الحكام والرعية، والأغنياء والفقراء، ويختلطون جميْعا في الطواف وفي السعي وفي الوقوف في عرفات وفي رمي الجمرات، ومن لم يكمل منسكا من مناسك الحج ليتحاشى الاختلاط، لم تقبل حجته وعبادته.

هذه الصلوات الخمس في المساجد، وهذه المناسك في الحج في أيام معلومات، والتي تمزج بين كل أطياف المجتمع الإسلامي، إنما جاءت بهذه الصورة لتؤسس للأخوة الإيمانية في الله، ولتمد جسور الود والمحبة بين المسلمين جميعا، ولتزيل كل أشكال ومصادر التفاخر والطبقية بينهم.

ثبات القاعدة الإيمانية

لذلك فإن من يتجرأ على الله ويكسر هذه القاعدة الإيمانية، فيتوهم أن ماله وغناه، أو مركزه وسلطانه، أو قصوره وضياعه، تؤهله لأن يتفاخر على من هم دونه في ذلك كله، إنما يكسب إثما وذنبا كبيرا. فالله تعالى هو المانح والمانع، وهو الباسط والقابض، ففيم الاختيال والعجب إذاً؟ وفيم الجزع والآسى على ما فات، والفرح والانبهار بما أتى.

خلق الاختيال والعجب يجلب غضب الرب

فهل تستحق اللحظات التي يتبختر فيها المرء معجبا بنفسه ومتفاخرا على خلق الله بما يملك، ومهما امتدت هذه اللحظات لأيام وسنين أن يكسب بها غضب الله تعالى؟

لا يفعل ذلك إلا جاهل أحمق مهما وجد لنفسه عقلا راجحا، وفكرا ثاقبا، وعلما غزيرا، لأن المعادلة بسيطة وواضحة:

تفاخر واختيال وعجب، تقابلها غضب من الله وعذاب اليم.

وتواضع ولين ورحمة، يقابلها رحمة من الله وثواب كريم وجنة نعيم.

فأي عاقل يختار المعادلة الأولى؟؟

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (لقمان: ١٨).

﴿لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ

فَخُورٍ﴾ (الحديد: ٢٣).

هكذا يكون العقاب الإلهي

عن النبي (ﷺ) أنه قال: [بينما رجل ممن كان قبلكم يجر إزاره من الخيلاء خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة] (البخاري).

وهذا الخسف الإلهي للرجل وجعله يغوص وينزل في الأرض إلى يوم القيامة، ليس لأنه فرح فرحا عفويا بثوبه وازاره، فإن الله جميل يحب الجمال، ولكن لأن ما فعله الرجل لم يكن فرحا عفويا، بل كان زهوا وعجبا وخيلاء وتفاخرا على الناس، فاستحق غضب الله عليه واستحق عقابه.

٤ـ التكبر

من معاني الكبرياء

التكبر هو بطر الحق أي إنكاره تكبرا وترفعا.

والتكبر هو احتقار الناس وجعل المرء لنفسه منزلة أعلى وأرفع من منزلة من حوله من الناس.

الكبرياء لله وحده

وكل مظاهر الكبرياء ممقوتة عند الله تعالى، فالكبرياء لا يكون إلا له جل ثناؤه وتقدست آلاؤه، فهو صاحب الأمر كله ومالك الملك كله، وهو الذي يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، وهو الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء.

لذلك فمن حمل في قلبه شيئا من الكبرياء – أظهره للناس أم لم يظهره – فكأنما ينازع الله تعالى في أمره وفي ملكه، ويكون اكتسب سيئة وإثما مبينا.

فعن النبي (ﷺ)أنه قال: [قال الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما قذفته في النار] (مسلم وأبو داود).

اين الخلل في فكر المتكبرين؟

فالتكبر اذن هو إنكار وجود الله تعالى أو إنكار وحدانيته، أو إنكار خلق الله للسماوات والأرض وما بينهما وما عليهما، أو إنكار صفات الله التي وصف بها ذاته العلية (كلها أو بعضها)، أو إنكار الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث والنشور والحساب، أو إنكار أوامره ونواهيه، أو إنكار أن الله خلق الناس جميعا من نفس واحدة وأن الناس جميعا سواسية في خلقهم وفي عبوديتهم لله.

ولأن المسلم لا يصح إسلامه إلا بعد أن تصح عقيدته في المقام الأول، فيؤمن بوحدانية الله، ويؤمن بملائكته وكتبه ورسله، ويؤمن بالبعث والنشور، ويؤمن بيوم

الحساب ويؤمن بالجنة والنار.لذلك لا يخشى على المسلم من التكبر وإنكار ما سبق. ولكن يخشى عليه مما يقع فيه البعض من التكبر على أوامر الله ونواهيه فيؤمن ببعض ويكفر ببعض، ويحلل بعض ما حرم الله أو يحرم بعض ما حلل.

درجات التكبر

ويجب الانتباه والتفريق بين من يتكبر ويستنكف أوامر الله ونواهيه أو ينكرها – كلها أو بعضها – فيصبح من المستكبرين ويخرج من الملة، وبين من يؤمن بأن كل ما أمر الله به أو نهى عنه حق يستوجب الاتباع. ولكن تضعف نفسه حينا بعد حين وتغلب عليه الشهوات في لحظات الضعف هذه، فيعصي الله فيما أمر أو فيما نهى فيكتب من العاصين إلى أن يرتد عن غيه ويندم ويتوب فيقبل الله توبته وأوبته.

التكبر على الناس خلق مذموم

كما يخشى على المسلم من التكبر والتعالي على عباد الله واحتقارهم، حيث يرى المتكبر لنفسه منزلة أعلى وأرفع منهم، وهذا اعتراض على خلق الله وعلى أمره، الذي خلق الناس جميعا من نفس واحدة فلا يجوز احتقار الناس أو التكبر والتفاخر عليهم بسبب اللون أو العرق أو النسب أو الفقر وضعف الحال.

ويقول الحبيب المصطفى (ﷺ):

[لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا إنما هم فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله عز وجل من الجعل الذي يدهده الخرء بأنفه إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء. إنما هو مؤمن تقي، وفاجر شقي، الناس بنو آدم، وآدم خلق من تراب] (المنذري).

المتكبر يمشي على خطى إبليس

ولما كان إبليس أول من استكبر على أمر الله فاستحق اللعنة الأبدية واستحق الخلود في النار هو وجنوده. فإن كل متكبر في الحقيقة يمشي على خطى إبليس ويكون من جنده فيخرج من دائرة الرحمة الإلهية كما خرج إبليس من قبل.

❊

٥ـ السخرية بالآخرين

لا يسخر قوم من قوم

يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ (الحجرات: ١١)

تنقية المجتمع من الأخلاق الذميمة

ها هو منهج الله يحرص أيضا على نبذ ممارسات أخلاقية اجتماعية قد تكون محصورة بنفر محدد من الناس وقد لا تمارس إلا في حدود ضيقة. ولكن منهج الله - وفي أحيان كثيرة - يدخل إلى حاراتنا والى داخل بيوتنا، ويخاطب عقولنا على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع والأمة، لأن هذا المنهج العظيم يريد أن يلتقط كل خلق يعكر صفو العلاقة الإيمانية والإنسانية والاجتماعية بين المؤمنين التقاطا، ويقلعه من جذوره وفروعه وأصوله، ليعيش المؤمنون فيما بينهم إخوانا متحابين، متعاونين، متآزرين، ويؤدون دورهم في الحياة، يعمرون الأرض، وينشرون هدي السماء في بقاعه بالحكمة والموعظة الحسنة، بعد أن يضربوا للناس كافة نموذجا حيا صادقا شامخا في السماحة والأخلاق العالية، والتنزه عن كل ما يشوه الشخصية المؤمنة النموذجية التي وصفها الله تعالى في كتابه وحققها الرسول (ﷺ) في مجتمع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

الحكمة في نبذ السخرية بالناس

والسخرية بالآخرين من الخلق السيء الذي يريدنا الله تعالى أن نتجنبه لأسباب عدة:

إن الله هو الذي يصورنا في الأرحام كيف نشاء، فإذا ولد أحدنا قصيرا والآخر طويلا، وولد هذا بصيرا وذاك أعمى، وهذا أجدع الأنف وذاك طويله، وهذا بارز الأسنان وذاك جاحظ العينين، وهذا أبيض بلون البرد وذاك أسود بلون الليل، وهذا سليم البدن وذاك يشكو من عوق يرتج في مشيته. فذلك كله بأمر الله وبعلمه - حتى إذا كان للوراثة أو لدواء تعاطته المرأة في فترة حملها شأن وسبب في ذلك - فالله سبحانه وتعالى هو مسبب الأسباب ولا شيء يضر أو ينفع إلا بعلمه وباذنه. ولا يدري أحدنا السر وراء ابتلاء البعض دون البعض، ولكننا نعلم أن للصبر على الابتلاء ثواب عظيم من خالق عظيم ورب رحيم.

فهل يجوز لمن يؤمن بهذا كله أن يعترض على أمر الله وعلى خلقه؟؟ وهل السخرية برجل أو امرأة بسبب شيء في خلقهما إلا اعتراض على أمر الله؟؟

- إن ضعف الحال وقلة المال قد يُلجِئان الرجل لأن يلبس ثيابا رثة أو ينتعل حذاء قديما مقطعا، ولكنه يملك خلقا كريما، ونفسا عزيزة، وقلبا ذاكرا وشكورا. فهل يليق بمسلم أن يسخر من أخيه هذا لرثاثة ثيابه أو بلي نعله؟؟

ويقول الحبيب المصطفى (ﷺ):

[رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره] (مسلم).

[إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم] (مسلم).

• كثيرا ما نرى رجلا ابتلاه الله بمزاج حاد يثور ويرغي ويزبد، ويخرج من طوره ووقاره لأتفه الأسباب. أفلا يدعونا المنهج الأخلاقي الإسلامي أن نخفف عنه حدته كلما استطعنا إلى ذلك سبيلا بالتعامل اللين والوجه البشوش والكلمة الطيبة؟؟ فهل يجوز لنا أن نستدرجه في الكلام ونستفزه ونغيظَهُ ليثور ثم نجعله موضع سخريتنا وضحكنا؟؟ فنكسب إثما بسخريتنا منه ونبوء بإثمه بأن تعمدنا استفزازه وإثارته، ودفعناه إلى السباب واللعن دفعا.

• السخرية ولأي سبب كانت، ان هي إلا مكيدة شيطانية ولا تقودنا إلا إلى التباغض، والشحناء، والتلاعن والسباب، والقطيعة.

ورسول الله (ﷺ) يوصينا أن نكون اخوة تجمعنا المودة والمرحمة: [لا تحاسدوا. ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض .وكونوا، عباد الله! إخوانا. المسلم أخو المسلم. لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره. التقوى ههنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات. بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام. دمه وماله وعرضه] (مسلم).

فهل نقتدي بهدي الحبيب المصطفى أم نقع في شرك الشيطان وكيده، فنستحق العذاب الذي أعده الله لمن يسخر بالناس؟؟

فعن النبي (ﷺ) أنه قال: [ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم، ويل له، ويل له] (الألباني).

❊

٦ـ التنابز بالألقاب

التنابز بالألقاب وضعف الوعي الإيماني

يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الحجرات: ١١)

كثيرا ما نمر على آيات النهي الإلهي مرورا عابرا - ولا نقول مرور الكرام، بل مرور الغافلين — دون أن نتحسس القيمة الإيمانية والأخلاقية والاجتماعية للإلتزام بهذا الأمر الإلهي الصريح.

نعم كم من المواظبين منا على قراءة القرآن مر على الآية القرآنية السابقة ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ.....﴾، ثم مر بعدها بقريب أو صديق أو ذكر عنده رجل فناداه أو سماه بلقب يعلم يقينا انه يكره أن ينادى به.

ونبي الرحمة (ﷺ)يوصينا أن ننادي إخواننا بأحب أسمائهم حين قال عليه الصلاة والسلام: [من حق المؤمن على أخيه أن يسميه بأحب الأسماء إليه] (ابن حجر العسقلاني).

وعن أبي جبيرة بن الضحاك الأنصاري أنه قال: فينا نزلت معشر الأنصار (ولا تنابزوا بالألقاب)، قدم علينا النبي صلى الله عليه وسلم والرجل منا له الإسمان والثلاثة فكان النبي صلى الله عليه وسلم ربما دعاهم ببعض تلك الأسماء فيقال: يا رسول الله إنه يغضب من هذا. فنزلت ولا تنابزوا بالألقاب.

اختراع الألقاب للناس صارت بضاعة رائجة

إن بعض مجتمعاتنا تتفنن في اختراع ألقاب للناس ما أنزل الله بها من سلطان، وقد تكون في البداية مجرد مزحة يطلقها شخص في مجلس لغو عابث، ثم يتم تداول هذا اللقب في حلقة ضيقة من الأصدقاء، ثم لا يلبث إلا أن يكون كنية لصاحبه بعد حين، حيث تلتصق به التصاق الجلد بالجسد، حتى يصبح الرجل لا يعرف باسمه المجرد إلا إذا ذكرت كنيته المستحدثة معه. ثم ينتقل هذا اللقب القبيح إلى أهل بيته جميعا، ثم تتوارثه العائلة جيلا بعد جيل، وكلهم لهذا اللقب كارهون.

وإذا كان المكنى رجلا فظاً بذيء اللسان، فإنه يسب ويلعن آباء وأجداد من يناديه بهذا اللقب، وقد لا يزيد ذلك البعض إلا أن يتمادوا ويكثروا من مناداته بهذا اللقب الذي يكرهه، ليثيروا غضبه وحنقه ثم ليجعلوا منه مادة للتفكه المج والسخرية التي نهانا الله عنهما ورسوله..

التنابز بالألقاب يولد العداوة والبغضاء

أفلا يثير التنابز بهذه الألقاب المستكرهة العداوة بين الأصحاب والخلان، ويسبب الشحناء ويقود إلى الخصام؟؟

ان مجرد ورود النهي الإلهي عنه والتأكيد النبوي الشريف عليه، كاف لأن نستدل أن هذا الفعل الأخرق والخلق الفظ السمج يقوضان عرى الأخوة والمحبة بين الناس.

ثم هل يريد أحدنا لنفسه أن تلصق به كنية قبيحة ينادى بها، فتكون سببا في انقباض نفسه وتسرب الهم إلى قلبه، ثم يهجر أحب الناس وأقربهم إليه إذا عمدوا هم أيضا إلى مناداته باللقب الذي يكره؟

اللهم ما أعظم ما أنزلته في كتابك أو أجريته على لسان نبيك وحبيبك المصطفى

(ﷺ) من مكارم الأخلاق ثم أمرتنا باتباعها، ومن الخلق السيء التي أمرتنا باجتنابها، والتي ان التزمنا بها جميعا كنا خير أمة اخرجت للناس.

اللهم فاهدنا لأفضل الأخلاق لا يهدي لأفضلها إلا أنت، واصرفنا اللهم عن سيء الأخلاق لا يصرف عن سيئها إلا أنت.

❊

٧ـ الغضب

من معاني الغضب

الغضب هو حدة في الطبع تستحيل نارا في الأحشاء، فتستثير مكامن الحقد والكراهية والانتقام في قلب المرء، وتتهيج نفسه وتثور، فإن لم يبادر بكبح جماحها وضبط زمامها فإنها تقوده إلى سبيل الغي والبغي والعدوان.

تصور كيف يكون الغضب العارم؟

لتدرك آفاق الخطورة التي تكمن في الغضب المنفلت عقاله. تصور أن رجلا يقود عربته في طريق خالية، ثم يضغط على مكبس الوقود لتصل سرعة العربة إلى أقصى مداها، ولسبب أو لآخر يفقد السيطرة على المقود بشكل كلي. فماذا يمكن أن يحدث للرجل؟؟

لا بد أن ينتهي به الحال محشورا في عربته المحطمة، التي هوت به في واد سحيق. أو تكون اصطدمت بصخرة أو جدار صلب فتهشمت وتهشم جسده فيها. أو تكون انزلقت عن الطريق وانقلبت ثم تدحرجت وتحطمت أيما تحطم!!

واذ تعلم أن الغضب لا يكون إلا عند الاحتكاك مع الناس، تصور ثانية أن ما جرى مع صاحب العربة لم يكن في أرض خالية بل في طريق مزدحمة بالناس والعربات أو في سوق مكتظة، فكيف تكون الكارثة؟ عندها لا يكون الضرر في الرجل وعربته فقط، بل يصل الأذى والضرر إلى أموال الناس والى ممتلكاتهم وأرواحهم أيضا.

الغضب لا يورث إلا الندامة

الرجل الذي يغضب ويفقد السيطرة على زمام أمره يكون تماما كالسائق الذي فقد السيطرة عل مقود العربة.

وهو في قمة حدته وفوران غضبه لا يدري كم عرضا شتم، أو حدا تجاوز، أو ضررا ألحق بمن حوله. وعندما يسكت عنه الغضب وتبرد الجمرة المتقدة في صدره، ويتفقد ما صنعت يداه، يدرك عندها فقط مبلغ جهله وحمقه، وضآلة عقله ورشده،

ومنتهى تهوره فيندم على فعلته أشد الندم.

وإذا كان الرجل ممن يجد في قلبه بقية من خير سيعتذر لمن وصلهم جهله وبغيه وقذفه، وقد يجد من الناس من يملك عقولا كبيرة ونفوسا طيبة فيقبلون عذره والتماسه، وقد يكون الرجل أوغل في جوره وسفهه وانتقامه إلى حد يصعب عليه أن يجد من يقبل أعذاره ويتجاوز عن سيئاته.

الغضب جهل مستحكم

وتصور لو أن الغضب قد استوطن قلب هذا الرجل وترسخ في نفسه فلا يجد من حدته انفكاكا، ولا من سطوته خلاصا، وتتوالى ثورات غضبه فتتكدس من حوله مآثمه، وينفر الناس منه ومن طبعه السيء هذا فيعيش وحيدا منبوذا محاطا بركام بغيه وسيئاته فقط.

النهي عن الغضب في الهدي النبوي الشريف

والنبي (ﷺ) وقد آتاه ربه مكارم الأخلاق كلها وفجر في قلبه ينابيع الحكمة، قد عبر عن الغضب بالجمرة التي تتقد في القلب حيث قال عليه الصلاة والسلام: [الغضب جمرة توقد في جوف ابن آدم] (البخاري ومسلم).

والجمرة هذه عندما تتقد ويشتد أوارها ويستعر لظاها، تدعو إلى السطوة والبغي والانتقام. والرجل إذ يضبط نفسه ويكبح جماحها عند اشتداد سورة غضبه، إنما يحفظ على نفسه عزتها وكرامتها، وينأى بها عن ذل الاعتذار، ومغبة الندم، ومذمة الانتقام.

وقد قال في ذلك النبي (ﷺ): [ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب] (البخاري).

وصية النبي (ﷺ) إليك: لا تغضب

ولأن النبي (ﷺ) يريدنا أن نتجنب ما يقود إليه الغضب من جهل وبغي وسفه، أراد للمؤمنين أن لا يتسوروا أسوار الغضب، ولا يلجوا أبوابه أبدا. لذلك عندما جاءه من يطلب النصح أوصاه عليه الصلاة والسلام بعدم الغضب. فعن أبو هريرة (رضي الله عنه) انه قال: جاء رجل فقال أوصني يا رسول الله فقال: [لا تغضب] ثم ردّدها مرارا فقال (ﷺ): [لا تغضب] (البخاري).

ذلك أن الغضب يجمع الشر كله أو يقود إليه.

كظم الغيض من صفات المؤمنين

وكظم الغيظ من صفات المؤمنين الذين ذكرهم الله في كتابه العزيز: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٤).

وصايا نبوية في كسر حدة الغضب

ولأننا بشر قد يصادفنا في خضم الحياة ما لا يمكننا من دفع الغضب ورده كلية فقد أوصانا الحبيب المصطفى (ﷺ) بما يعيننا على ترك تنفيذه وإمضائه حين قال:

[إن الغضب من الشيطان وان الشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ] (أبو دواد وأحمد)

[اذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع] (المشكاة: ٥١١٤)

فداك أرواحنا يا نبي الرحمة، يا طبيب القلوب والأبدان.

أي علاج سحري هذا الذي وصفته لمن ابتلي بالغضب؟. إذا غضب أحدكم فليتوضأ....

هل يمكن للغضب أن ينفذ إذا تذكرت قول حبيبك ونبيك (ﷺ) فقمت وتوضأت؟؟ ألا يكون الماء الذي تسبغه على المكاره أنفع لإطفاء نيران الغضب المتقدة في صدرك من أي علاج كيميائي مهما كان متقن الصنع كبير الأثر؟؟

وإذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس.... وإلا فليضطجع...

فالمرء حين يكون قائما يكون متحفزا لإمضاء غضبه وإيصال أذاه وقد يبطش بيده، والجلوس يمنعه من ذلك، وإذا لم يخمد بركان الغضب ولم تزل فيه حمم وأوار اضطجع، فيكون اتخذ مجلسا لا يمكن معه أن يبطش ويبغي كما لو كان قائما. وهذا التسلسل في الحركات وتذكر وصية الحبيب المصطفى (ﷺ) يكون كفيلا بإخماد كل غيظه وغضبه.

بالله عليكم يا أخوة الإيمان كم منا يهتدي بهذا الهدي المبارك ومن منا يلتمس هذا العلاج النبوي الشريف ليمسك غيظ قلبه ويبرد حدة طبعه عندما يوقد الشيطان في جوفه جمرة الغضب؟؟

❊

٨ـ التجسس

ولا تجسَّسوا

يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ (الحجرات: ١٢)

ورَد هذا النهي الإلهي في القرآن الكريم في بابِ النهي عن السلوكياتِ

الإجتماعية الخاطئة والتي لا تقودُ إلا إلى المفسدة والتباغض والتنافر وتفكك المجتمع.

ضعف الاحساس بالكثير من النواهي الإلهية

المتتبع لأحوالِ المسلمين وسلوكياتهم اليوم يرى أنَّ هذهِ الحدود قدِ انتُهكَت عندَ السواد الأعظم منَ الناس ولم تنجُ منها إلا القلة القليلة مِمَّن عمَّرَ الله قلوبهم بالإيمان وزيَّنها بالتقوى.

الكثيرُ منا يقشعرُّ بدنهُ عندَ ذكرِ بعضِ المعاصي كالقتلِ والزنا والسرقة لأنَّها مرتبطة بأذهانِنا بإقامةِ الحد الشرعي لمرتكبي هذهِ المعاصي، ولكنَّنا نمرُّ على الآيات التي تنهانا عن عقوقِ الوالدين أوالتجسس على بعضِنا البعض أوالغيبة والنميمة مروراً عابراً دونَ أن يرفَّ لنا جفن أو يخفق لنا فؤاد عندَ قراءتها أو سماعها.

ماذا خسرنا من عدم الإلتزام بالنواهي الإلهية

وفي الحقيقة إن تفشي هذهِ السلوكيات الخاطئة التي نهانا عنها ربُّ العزة جل جلاله وأكدَّ عليها الرسول الكريم (ﷺ) في أحاديثَ صحيحةٍ كثيرة قد جعلَ مجتمعاتنا الإسلامية تشكو من ظواهر مرضية خطيرة تعصِفُ بها عصفا، فالحقدُ والحسدُ والتحايل والتنافر والتفكك وعدمِ الإجتماع على أمرٍ سواء صارَتْ سمةً ملازمة لمجتمعاتنا حتى أصبحنا نعتقد أنَّ السلوكيات والخصائِل الحميدة إن هيَ إلا حصر على المجتمعات غيرِ الإسلامية في الغرب ونتمنَّى أن نقتبسَ منها هذهِ السلوكيات والخصائل.

وننسى أنَّ كلَّ هذهِ السلوكيات الحميدة قد أفردَ لها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة مساحاتٍ واسعة جداً لتبيانِ فضائل من يتمسَّك بها وسوء العاقبة لمن يتهاون بشأنها ويتعدَّى حدودَ الله فيها.

تصور أنك وحدك المخاطب بالنواهي الإلهية

لو أخذنا هذا النهي الإلهي بالمنظارِ التالي.

ربُّ العزة يخاطبكَ أنتَ من فوقِ سبعِ سماوات: لا تَتَجَسَّس...

تصوَّر أنتَ العبد الضعيف لا حولَ لكَ ولا قوة ومخاطِبُكَ ربُّ العزة، الخالق الكريم، خالق هذا الكون والذي إذا أرادَ أن يهلككَ أو يهلك هذا الكون الكبير الشاسع المترامي الأطراف فإن الأمرَ لا يتعدَّى..... (كنْ فيكون).

أنتَ العبد الضعيف يخاطبُكَ ربُّكَ وخالقكَ مباشرة: لا تَتَجَسَّس......

أفلا يجب أن ترتعِد فرائصك خوفاً وهلعاً من لفظةِ التَجَسّس، أفلا يجدرُ بكَ أن تفر من مجالسِ ومصائدِ التجسس فرارَ المذعور منَ القسورة.

لماذا ينهانا الله عن التجسس الإجتماعي؟؟

تَجَسُّس الأخِ على أخيه، تَجَسُّس التاجرِ على زميله، تَجَسُّس الزوجِ على زوجه، تَجَسُّس الصديق علَى صديقه، تَجَسُّس الجارِ على جاره.

وأيّاً كانت وسائل التَجَسُّس منَ الترصُّد أو التنصُّت أو بثِّ العيون أو سرقةِ الوثائق أو الإستحواذ عليها أو المكر والخديعة أو غيرَ ذلك من آليات التَجَسُّس فإنَّها لاتقودُ إلا إلى المفسدة، لأنَّها تجلبُ التباغض والتناحر أوِ التنكيل والتشهير.

ذلكَ لأنَّ التَجَسُّس الإجتماعي يؤهلكَ لمعرفةِ ما لا يجب أن تعرفه عن شخصٍ معين أو أسرةٍ بعينها وهذهِ المعرفة تدفعكَ إلى سلوكٍ خاطئ. والذي يتتبع عثرات الناس ليمسك عليهم زلة ثم يشيعها وينشرها بين الناس وكأنه أوتي فتحا مبينا إذ يكشف عورة اخيه أو يهتك عنه ستره، وينسى قول نبيه (ﷺ): [من علم من أخيه سيئة فسترها ستر الله عليه يوم القيامة].

النهي الإلهي عن التجسس صيانة للمجتمع المسلم

وربُّ العزة عندما ينهانا من فوق سبعِ سماوات عن هذا الخلق القبيح، فلأنَّه سبحانهُ وتعالى يريدُ للمجتمع الإسلامي أن يكونَ معافياً قوياً كالبنيانِ المرصوص متآزراً متعاوناً ساعياً ومُحبًّا للخير، ولأنَّ هذا الدين وهو دينُ الفطرة لا يمكنُ أنْ ينهضَ بدورهِ في قيادةِ المجتمعِ الإنساني إلا إذا نشأ في جوٍ سليمٍ ومعافىً.

فانظر أخيَ المسلم إلى التَجَسُّس الإجتماعي بأنَّه تعطيلٌ لما يريدهُ الله لهذهِ الأمة من رفعةٍ وسموِ خلقٍ وريادة في المجتمع الإنساني وتصوَّر عِظَمَ ذنبِ من لا يقيمُ حدودَ الله في هذا النهي الرباني.

٩ـ سوء الظن

من معاني سوء الظن

الظن هو اعتقاد لا يستند إلى أي دليل أو برهان، بل مجرد أوهام ليس لها حظ من اليقين.

واعتقاد هذا شأنه لا يمكن للمرء أن يتخذه أساسا لبناء عقيدته، أو يستند إليه في تعامله مع الآخرين، فالظن لا يجدي شيئا ولا يقوم مقام الحق أبدا.

كل من يكفر أو يشرك بالله لا يتبع إلا الظن السيء

وكل الذين كفروا بوحي السماء، وعبدوا الأصنام، إنما اتبعوا أوهاما باطلة وخرافات فاسدة. ولم يكن تكذيبهم لوحي السماء أو عبادتهم للأصنام، أو اتباعهم لما وجدوا عليه آباءَهم من ضلالة، قائما على أي دليل من العلم أو حظ من اليقين.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (يونس: ٣٦).

﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (النجم: ٢٨).

الإغفال عن آيات الله في كونه لا يكون إلا عن جهل

إن الذي لا يلتفت إلى آيات ربه المبثوثة في الآفاق وفي نفسه، ولا يلتفت إلى ما جاءت به رسل الله تعالى من الحق واليقين، ثم يستمع إلى ما توسوس به نفسه من الظنون والأوهام، فيستنكف عن عبادة ربه وخالقه، أو يعبد حجرا أو بشرا أو أي شيء مما خلق الله، لا يكون إلا رجلا جاهلا مهما وجد لنفسه وصفا خلاف ذلك.

الآثار السيئة لسوء الظن

وكان الحبيب المصطفى (ﷺ) واضحا صريحا في النهي عن الركون إلى الظن حين قال: [إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث] (البخاري).

وإذا كان الركون إلى الظن فيما يمس العقيدة لا يهدي بصاحبه إلا إلى الكفر والشرك والعصيان، فإن الركون إلى الظن في مجال العلاقات الاجتماعية لا يقود أيضا إلا إلى التكدر في الأخوة، والى المخاصمة على الحقوق، والقطيعة بين ذوي الرحم، والتدابر بين الخلان والأصحاب، فيكون هذا الركون انقيادا إلى ما يريده إبليس، واقترافا لذنب نهانا الله عنه ورسوله.

فقد جاء النهي الإلهي عنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ...﴾ (الحجرات: ١٢).

فالحق سبحانه وتعالى يوصينا بالابتعاد عن التهمة والتخون وإساءة الظن بالناس.

سوء الظن مكيدة شيطانية فاحذره

وإذ تعلم أن الشيطان هو أفسق الفساق، وأشدهم مكرا وكيدا، وأكثرهم حرصا على تعكير جو الصفاء بين عباد الله المؤمنين، فإن وقع في قلبك شيء من سوء الظن فاعلم انه وسوسة من الشيطان، واحرص أن تكذبه وأن تتبين وجه الحقيقة في هذا الأمر، ولا تركن إلى ما يلقيه الشيطان في رشدك أبدا فتكون من النادمين.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات: ٦).

نعم.. إن إبليس لا يألو جهدا في تصوير سوء الظن في ثوب براق جميل ليرتاح إليه قلبك، وتطمئن به نفسك، ويوسوس لك: انها فراستك وسرعة تنبهك أن كشفت السوء في صاحبك. أليس المؤمن ينظر بنور الله؟ لك الحق أن تحتاط من شره وتحذر

الناس منه.

كيف تتغلب على مكر الشيطان؟

لذلك.. مهما خطر في قلبك سوء الظن بأخيك المؤمن فزد في إكرامه ومراعاته فإن ذلك يغيظ الشيطان، ويدفع الله عنك شره وكيده. ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة قوية لا شك فيها فانصحه بالسر، ولا يخدعنك الشيطان فيدعوك لتغتابه وتنشر على الناس معايبه. وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على نقصه والوقوف على زلته، لأنك عندها تدفعه أن يشعر بالإنكسار وينظر إليك بعين التعظيم، ويدفعك الشيطان أن تشعر بالكبر فتنظر إليه بعين الاستصغار. وليكن مرادك هو تخليصه مما وجدت عنده من نقص، وليكن حزنك على إثمه أو نقصه كحزنك على إثم تبوأت به، أو نقص تدليت إليه أنت.

وينبغي أن يكون تركه لذلك النقص بغير وعظك أحب إليك من تركه بوعظك.

تصديق الظن

وتصديق الظن هو أن تركن إليه نفسك ويميل إليه قلبك فيقودك هذا الظن أن تحكم على غيرك بالسوء، ويتغير قلبك معه عما كان عليه فتنفر منه وتنفر الناس منه، وتفتر عن مراعاته وإكرامه.

سوء الظن لا يورث إلا القلق

وسيء الظن يعيش في غم وهم وكمد وقلق، فيحسب أن كل صيحة عليه وكل مكروه قاصده، وأن الناس لا همّ ولا شأن لهم إلا الكيد له والتربص به. فيضيق صدره بالدنيا حتى يصل به الأمر أن يسيء الظن بعدل الله ورحمته، وهذا جل ما يريده إبليس أن يصله ابن آدم، فلا يقنط من رحمة الله إلا القوم الفاسقون.

لذلك قال النبي (ﷺ): [لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه] (أحمد، ابن ماجة، الدارمي).

سوء الظن غيبة بالقلب

وسوء الظن باب من أبواب الغيبة، وهو الغيبة بالقلب، فإن حدثتك نفسك بمساوئ إنسان وأسأت الظن به فاعلم أنك ترتكب حراما دعاك الله إلى اجتنابه.

متى تهتم بسوء الظن؟

ولا يكون جواز الاهتمام بسوء الظن إلا إذا دعت إليه مصلحة شرعية تنشأ عن اتمامها مفسدة كبيرة، وأن يكون تصديك للأمر بنية إبطال هذه المفسدة.

❊

١٠ـ الغيبة

من معاني الغيبة

القول الجامع في تعريف الغيبة هو ما جاء من قول النبي (ﷺ): [الغيبة أن تذكر من المرء ما يكره أن يسمعه] (موطأ مالك).

وقد جاء النهي الإلهي عن الغيبة صريحا ومخيفا مشبها من يأتي الغيبة بآكل لحم أخيه الميت، وهو تشبيه إلهي لبيان عظم هذه السيئة وقبحها.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (الحجرات: ١٢).

الغيبة تطرد الإيمان من القلب

ولأن الإيمان إذا استقر في قلب المؤمن جعله قلبا خاشعا ذاكرا مقبلا على طاعة الله وأوامره، مدبرا عن نواهيه. لذلك فمن يغتاب أخاه يكون الإيمان قد هجر قلبه أو يكاد، وهذا مصداق قول النبي (ﷺ): [يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته] (أبو داود).

من مظاهر الغيبة

والغيبة تشمل كل ما يكره المرء أن يسمعه، ويشمل أي نقص في نفسه أو عقله أو قوله أو نسبه أو مسكنه أو مركوبه، أو أي شيء مما يتعلق به حتى قولك انه طويل القامة أو قصيرها أو أدنى من ذلك بكثير كقولك أن كمه طويل أو أن لون ثوبه قبيح.

الشيطان هو الذي يحرك بواعث الغيبة في قلبك

والأسباب الباعثة على الغيبة كثيرة منها الحقد والغضب، ومنها مجالس السوء واللغو، ومنها السخرية والاستهزاء لاستحقار الآخرين.

وترى الشيطان في كل ذلك يمسك بطرف الأسباب الباعثة على الغيبة ليجرك إليها ويجعلك تخوض فيها وأنت لا تدري.

مسلك قبيح وعذر أقبح

وكثيرا ما نرى في المجالس من يريد أن يغتاب أحدا فيبدأ قوله: (اللهم لا تجعلها غيبة.....!!).

سبحان الله وهل يملك أحد من الخلائق أن يفرض على الله إفعل كذا ولا تفعل كذا؟؟؟ ألا يعرف هذا الأحمق في قرارة نفسه أن الله قد نهى عن الغيبة وأنها محض معصية بحكم قرآني مبين – كما رأينا – فكيف يتجرأ على الله ويطلب منه تعالى أن لا يجعلها معصية؟؟ وهل يتخيل أحد أنه من المقبول شرعا أو عرفا أن يقول من يهم بالزنا

(والعياذ بالله): اللهم لا تجعلها زنا، ثم يزني؟؟

وإنه لسفه وإنها لجهالة أن يكون المرء بكامل وعيه ويهم بالمعصية ويفعلها ويطلب من الله أن لا يجعلها معصية. وهذا ما لا يقبله عقل أو منطق.

ولا يشفع لأحد أيضا أن يغتاب أخاه ثم يقول: أنا والله أحبه ولا أغتابه، ولكني أكره أن أراه بهذه الخصال. ولو كان هذا الدعي صادقا في قوله كان لجأ إلى النصح الرشيد وفق شروطه وضوابطه الشرعية، ولم يكن ليلجأ إلى الإشهار بأخيه في المجالس.

التصوير القرآني لا يأتي إلا للتنبيه والتحذير

إن التشبيه الإلهي للغيبة بأكل لحم الميتة إنماجاء ليثير فينا الاشمئزاز من هذا الخلق القبيح ويحثنا على الانصراف عنه. وحاشا أن يكون هذا التشبيه جاء عارضا في القرآن الكريم دون قصد وإنذار من الله تعالى بأن يجعل من هذا التشبيه رادعا قويا مخيفا لكل من أراد أن يخوض في الغيبة. ودون أن يكون المقصود بهذا التشبيه أيضا، أن الغيبة تفوق في دناءتها وخستها أكل لحم أخ ميت.

الآثار السلبية للغيبة

وللغيبة آثار سلبية كثيرة وحسبنا أن نذكر ما جاء على لسان النبي (ﷺ) في رواية عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه): [إياكم والغيبة فإن فيها ثلاث آفات الأولى لا يستجاب له الدعاء والثانية لا تقبل له الحسنات والثالثة تزداد عليه السيئات].

أليس الثمن باهظاً وعظيما أن تكون ثمرة اللحظات التي تقضيها في غيبة أخيك في مجلس لهو عابث كل هذه الآفات التي تسد عليك أبواب الخير وتفتح دونك أبواب الشر؟؟

ألا ترون يا أخوة الإيمان كيف أن دستور الأخلاق ينظر في دقائق الأمور مما قد يكدر العلاقة الطيبة الحميمة، والأخوة الحقيقية الصادقة، التي يريدها أن تنشأ بين المؤمنين؟؟

مقارنة بين عصيان أوامر الطبيب وأوامر الله تعالى

ترى هل يعقل أن يأخذ أحدنا علاجا حسب وصف الطبيب لمرض يشكو منه، فيأمره الطبيب بالالتزام بمقدار الجرعة وبأوقات تناولها بدقة، ويأمره بالحمية فلا يتقرب من هذا الطعام أو ذاك البتة. فإذا تعمدنا عدم تطبيق ما أمر به الطبيب فأفرطنا في تناول طعام نهانا عنه، واستخدمنا الدواء دونما أي التفات بكمية الجرعة أو أوقاتها، فاشتد بذلك مرضنا وألمنا. ماذا يقال بحق من يفعل ذلك؟ ألا يقال إنه رجل أحمق لا يعرف مصلحة نفسه ويوردها موارد الهلاك؟

ألم ينبهنا الحق سبحانه وتعالى – وهو المهيمن على كل أمرنا والعارف بكل شأننا – ما هي الغيبة وما هي مساوئها؟ ورغم ذلك لا يحلو لنا مجلس ومقام إلا بالغيبة وبالتعرض للناس في أعراضهم وأخلاقهم وسلوكهم؟؟

فمن أكثر حمقا وسفها إذاً؟؟

من لا يلتزم بأوامر طبيبه فيزيد مرضه ويتفاقم ألمه؟

أم من لا يلتزم بأوامر خالقه وبارئه فتكون النار مستقره ومقامه؟؟

١١- النميمة

من معاني النميمة

النميمة: هي نقل الكلام بين الناس على جهة الإفساد. أو هي كشف الستر عما يكره كشفه.

النميمة تفوق على الغيبة بهذه السيئات:

والنميمة هي من افرازات الغيبة غير أنها أكثر خسة ودناءة، وأكبر جرما وأقبح ذنبا. والنمام يفوق على المغتاب بهذه السيئات:

- إنه يشارك المغتاب في إثم الغيبة أولا، لأنه إما يكون قد خاض فيها معه، أو يكون حضر مجلسها واستأنس بها، أو لم ينكرها ولم يردها عن أخيه.
- إنه يكشف الستر عن شيء مكروه مذموم.
- إنه ينقل الكلام بين الناس على جهة الإفساد وليس الإصلاح.
- إنه يتسبب في إذكاء نار الخصومة والأحقاد والكراهية والقطيعة بين المسلمين.
- إنه يتسبب في قطع المعروف والإحسان بين الناس.

النميمة طريق يجلب عليك غضب الله تعالى

والنمام، وهو ينوء بحمل هذه السيئات:

- يكون سلك طريقا غير طريق الجنة. فعن النبي (ﷺ) أنه قال: [لا يدخل الجنة نمام] (مسلم).
- ويكون استحق غضب النبي فقد ورد عنه (ﷺ) أنه قال: [إن أحبكم إليّ أحاسنكم أخلاقا الموطؤون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون، وإن أبغضكم إلي المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الملتمسون للبراء العنت] (الألباني).

- ويكون استحق عذاب القبر، فعن النبي (ﷺ) فيما رواه ابن عباس (رضي الله عنه): مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبرين فقال: [إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير أما هذا فكان لا يستنزه من البول وأما هذا فكان يمشي بالنميمة]، ثم دعا بعسيب رطب فشقه باثنين ثم غرس على هذا واحدا وعلى هذا واحدا وقال: [لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا] (الألباني).

نقل الكلام يكون بالقول أو بالكتابة أو بالإشارة

وكشف الستر أو نقل الكلام يكون بالقول أو بالكتابة أو بالإشارة. والذنب هو في الكشف أو النقل وليس بالطريقة التي تمت بها.

الأسباب الباعثة على النميمة

والأسباب الباعثة على النميمة هي نفسها الباعثة على الغيبة مضافة إليها في النميمة إرادة السوء للمحكي عنه، أو إظهار الحب للمحكي له، أو التفرج بالحديث والخوض في الفضول والباطل.

النميمة تزداد قبحا عندما تجد لها آذانا صاغية

ومما يزيد النميمة قبحا أن تجد من ينصت ويصغي إليها. فلو جاءك مشاء بنميم فردعته ونهرته ثم نصحت له، لما تجرأ أن ينم لك مرة أخرى، ومن لم يرتدع بعد ذلك يكون لك أن تبغضه ولا تثق بقوله ولا بصداقته لأن ما يفعله يحسب في الخيانة والإفساد والسعي بالشر بين الناس.

وقال بعض العارفين: (لو صح ما نقله النمام إليك لكان هو المجترئ بالشتم عليك والمنقول عنه أولى بحلمك لأنه لم يقابلك بشتمك).

كيف تشارك النمام في إثمه

ولكنك لو أصغيت للنمام، ثم قبلت ما نقله إليك قبولا حسنا لشاركته في الذنب، لأنك بهذا تكافئ النمام وتجيز ما قام به من فعل منكر، وتحمل ما ينقله محمل الصدق. وفي ذلك يقول الإمام الشافعي (رضي الله عنه): (قبول السعاية شر من السعاية لأن السعاية دلالة والقبول إجازة، وليس من دل على شيء كمن قبل وأجاز).

❊

١٢ـ البهتان

من معاني البهتان

البهتان: هو اختلاق فسق أو كفر أو نفاق أو جرم أو نقص أو عيب أو أي شيء مما يعيب، لأحد من الناس.

البهتان أقبح من الغيبة ومن النميمة

والبهتان أقبح من الغيبة ومن النميمة، فالغيبة كما علمنا هو ذكر أحد من الناس بما يكره أن يسمعه، والنميمة هي نقل هذا الكلام للمحكي عنه. أما البهتان فهو ذكره بما ليس فيه. واختلاق خلق أو قول أو فعل يسيئه أو يضره، أو لا يرضى أن يذكر بما ليس فيه.

قال النبي (ﷺ): [أتدرون ما الغيبة؟] قالوا: الله ورسوله أعلم قال: [ذكرك أخاك بما يكره] قيل: أرايت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: [ان كان فيه فقد اغتبته وان لم يكن فيه فقد بهته] (مسلم).

وقيل: (إن البهتان أشد من الغيبة والنميمة لأنه يحتاج إلى التوبة في ثلاثة مواضع، الأول أن يرجع إلى القوم الذي تكلم بالبهتان عندهم ويقول: ذكرت فلانا عندكم بكذا فاعلموا أني قد كذبت فيه، والثاني أن يذهب إلى من قال عليه بالهتان ويطلب منه الاستحلال، والثالث أن يستغفر الله ويتوب إليه).

البهتان دناءة وخسة

والبهتان يدل على دناءة وخسة الفاعل، ولا يمكن لمؤمن كريم طيب الخصال أن يتجرأ على الله وعلى الناس بأمر كهذا. فالقلب الذي يؤمن بالله ويخشى عقابه لا يمكنه أن ينسج ثوب البهتان في رحابه ثم يلقيه على رجل من الناس ومهما كان بينه وبين الرجل من بغض وكراهية، أو من حقوق متنازع عليها. لذلك كان الخطاب الإلهي واضحا وصارما في وصف البهتان بالإثم المبين: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (الأحزاب: ٥٨).

من يتعاطى البهتان يسحق مروءته تحت قدميه

والذي يتعاطى البهتان يسحق كل مقومات المروءة تحت قدميه، لأن من يملك مثقال حبة منها لا يمكن أن يلفق تهمة أو شيئا مما يعيب لأحد من الناس، وتراه يحمل في جوفه حقدا وحسدا وكراهية، وهي لم تزل تؤرقه وتدفعه للتجني على الناس.

الأسباب الباعثة على البهتان

والأسباب الباعثة على البهتان هي نفسها الباعثة على الغيبة والنميمة، غير أنها تكون أرسخ وأكثر استشراء في قلبه في حالة البهتان.

التحذير النبوي من البهتان

وقد حذرنا نبي الرحمة (ﷺ) من الخوض في البهتان أو سلوك طريقه لأن ما نرمي به إخواننا بما ليس فيهم يرده الله علينا نحن لأننا نكون قد ارتضيناه لأنفسنا – دون أن ندري – عندما ارتضينا مثله لإخواننا.

يقول النبي (ﷺ): [لا يرمي رجل رجلا بالفسوق ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه ان لم يكن صاحبه كذلك] (بخاري ومسلم).

ما هي أشد انواع البهتان قبحا وأكثرها دناءة وخسة؟

وأشد انواع البهتان قبحا وأكثرها دناءة وخسة هي أن يكسب المرء سيئة أو خطيئة أو جرما ثم يرمي به بريئا لا شأن له بذلك الأمر كله، ذلك انه لم يرض لنفسه بالبهتان فقط فقام بتلفيق تهمة باطلة لصاحبه. بل أقترف جرما بنفسه ثم رمى به صاحبه، فيكون باء بإثمين عظيمين، إثم ارتكاب الجرم أو المعصية، وإثم البهتان.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (النساء: ١١٢).

كيف أمرنا الله أن نتصدى للبهاتين والواشين

والله تعالى يوصينا في مثل هذه المواقف كلها أن نتحرى الحقيقة ونتبين اليقين، ويحذرنا من أن يدفعنا التهور أو تأخذنا الحماقة فنظلم من لا ذنب له عندما نستمع للواشين والنمامين والبهاتين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات: ٦).

❊

١٣ـ شهادة الزور

توزيع أدوار الشر بين البهات وشاهد الزور

اذا كان من ابتلي بالبهتان يختلق السيئات والمثالب للناس جزافا، أو يقترف سيئة أو ذنبا ثم يرمي به بريئا – ورغم عظم وقبح ما يفعل – إلا أنه يحتاج إلى بينة ودليل، وألا يبقى ضرر ادعائه وبهتانه محصورا في فئة قليلة تملك خلقا سيئا مثل خلقه.

وإذا كانت الشهادة لا تصح إلا لمن حضر الواقعة ورآها رأي العين وأشهد الله على ما رأى. فإن شهادة الزور تكون كمن أضفى الشرعية وأعطى الدليل والبينة لقول ذلك الدعي البهات.

وإذا كان التربص بالجريمة لنشرها أقبح من وقوع الجريمة نفسها، فإن شهادة الزور أيضا هي أقبح من البهتان ذاته، ذلك أنها تعطي الغطاء الاجتماعي المطلوب لنشر ما يقال في حق الأبرياء أو يحاك ضدهم.

شهادة الزور إعانة على الظلم

وهكذا وبين عشية وضحاها قد وُجدَ رجل أمين، صادق، مسالم، نزيه وقد اتهم في نزاهته وأمانته، أو في عرضه وشرفه، أو سلب منه ما يملك، أو أقيل من عمله أو

طرد من داره، وبلا ذنب أو جريرة يكون ارتكبها أو إساءة بدرت منه في حق إنسان.

والرجل وهو لم يزل في ذهوله وحيرته، يفكر في أي سبب أو خيط مهما كان واهيا وضعيفا يربطه بما لفق له فلا يجد. يرى من يتواطأ مع هذا الظالم ويشهد له زورا أمام الناس وأمام القضاء.

المؤمنون يتنزهون عن قول الزور

والمؤمنون يترفعون من أن ينزلقوا إلى هذا الدرك الأسفل من الخسة والدناءة وموت الضمير بمقتضى وصف الله تعالى لهم في كتابه العزيز: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (الفرقان: ٧٢).

نعم.. لا ينحدر إلى هذا الخلق السيء إلا من هجر الإيمان قلبه، وسلم قياد نفسه للشيطان، وقد خاب من جعل لنفسه من الشيطان قرينا وصاحبا وزعيما.

النهي النبوي الشديد عن شهادة الزور

قال رسول الله (ﷺ): [عدلت شهادة الزور الشرك بالله] – قالها ثلاثا- ثم تلى قول الله تعالى: [فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور] (الترمذي وأبو داود).

والحبيب المطفى (ﷺ) عندما يريد أن يثبت أمرا في قلوب صحابته ويرسخه في أذهانهم وعقولهم، كان يخرج عن مألوف عادته في التعبير عما يريد بكلمات موجزة عميقة المعنى واضحة المقصد، فيعمد إلى تكرار ما يريد مرتين أو ثلاث مرات لجذب الانتباه. ولأن شهادة الزور أمر خطير وتتعلق به صيانة حقوق الناس وحفظ أعراضهم وأموالهم وأرواحهم، بل صيانة كيان الأمة كلها من أن يتزلزل إذا أصبحت الشهادة تباع وتشترى بثمن بخس، وإذا شاعت شهادة الزور في المجتمع. لذلك فإن عليه الصلاة والسلام كرر قبح شهادة الزور مرات ومرات حتى جزع الصحابة وتمنوا لو أن الرسول يسكت.

ورد انه ذكرت الكبائر عند النبي فقال (ﷺ): [الاشراك بالله وعقوق الوالدين] وكان متكئا فجلس فقال: [وشهادة الزور وقول الزور... وشهادة الزور وقول الزور...] فما زال رسول الله (ﷺ) يكررها حتى قلنا ليته سكت. (أحمد).

درس محمدي في التبليغ

وإذا كان لنا أن نحضر هذا المجلس المبارك فنرى النبي (ﷺ) يتوسط أصحابه (رضوان الله تعالى عليهم أجمعين)، وهو متكئ على وسادة من أدم، ويسأل أحدهم عن الكبائر، وعندما يهم الحبيب بالاجابة ينصت الجميع وكأن على رؤوسهم الطير، أبصارهم متعلقة بشفاه سيد الخلق، وقلوبهم مصغية لحديثه. فيذكر الكبائر ويبدأ بالشرك بالله ثم بعقوق الوالدين، ثم يجلس (ﷺ) ليزيد من انتباههم وتحفزهم لتلقي ما

يأتي بعد ذلك فيقول (ﷺ): وشهادة الزور.. وقول الزور، وشهادة الزور.. وقول الزور. ويضل يكرر هذا القول فيثير ذلك الجزع والخوف في قلوب الصحابة من أمرين: خشيتهم على رسول الله من كثرة التكرار، وخشيتهم من قبح شهادة الزور.

شاهد الزور يبيع دينه وآخرته بعرض من عروض الدنيا

وشاهد الزور يضع دينه وآخرته في كفة، ويضع عرضا من عروض الدنيا الزائلة في الكفة الأخرى ثم يختار كفة الدنيا.

نعم إن شاهد الزور يبيع دينه وآخرته بحفنة من المال يضعها في كفه رجل ظالم فاسق، أو يبيعهما مقابل منصب يغريه به مسؤول أو حاكم جائر، أو يفعل ذلك لقرابة دم فينتصر لقريب معتد آثم ضد مظلوم بريء، أو يشهد زورا لأنه يحمل حقدا وضغينة لمن يشهد ضده. وهكذا ومهما تعددت الدوافع والبواعث على شهادة الزور يظلّ الجرم كبيرا وقبيحا يتناكب مع الشرك ويصطف في خانة كبائر الذنوب.

١٤ـ ذو اللسانين وذو الوجهين

من معاني ذو اللسانين وذو الوجهين

ذو اللسانين: هو الذي يتردد بين رجلين بينهما خصومة وينقل الكلام بينهما، ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه.

ذو الوجهين: هو الذي يقابل جليسه بالموافقة في الرأي، ويشعره بالمودة الطيبة، ويلقاه بالبشر والترحاب، فإذا غاب عنه أعقبه بالشتم والسباب.

شخصية المسلم شخصية شفافة يرى ظاهرها من باطنها

ورجل بهذا الخلق أشر من النمام فالنمام ينقل من أحد إلى آخر فقط، وهذا ينقل بين الاثنين، ثم إنه يظهر غير ما يضمر ويأتي كل طائفة بما يرضيها، فيجمع بين مساوئ النميمة وشرور النفاق، وبين الكذب والمداهنة المحرمة.

وإذا كان يجوز للمسلم أن يتلقى شرار الناس بلطف ولين اتقاء شرهم – حتى إن كان لا يضمر لهم المحبة في قلبه – إلا أن ذلك يجوز فقط لدفع الشر واتقاء الفتنة والفساد التي تأتي من الأشرار فقط. أما أن تكون خصلة وسجية، أو يكون للمرء أكثر من لسان وأكثر من وجه فذلك منهي عنه شرعا، لأن منهج الله يريد أن تكون للمسلم شخصية ثابتة شفافة يرى ظاهرها من باطنها، شخصية واضحة المعالم لا تتلون كالحرباء وفق المصلحة والهوى والمجلس الذي تكون فيه. فيحتار القوم في أمره. هل هو كيس فطن يناصر الحق أينما ثقفه فيفتحون له قلوبهم ويصغون إليه السمع؟ أم أنه

أحمق سفيه إمعة لا رأي له ولا قرار فيتحاشونه؟ أم أنه حاقد يضمر الشر وينوي السوء فيحذرونه؟

التحذير النبوي الشديد من ذو الوجهين وذو اللسانين

وكان نهي النبي (ﷺ) عن هذا الخلق واضحا وجليا، وكان بيانه لسوء عاقبته شديدا ومخيفا. ففي حديث لعمار بن ياسر قال: قال النبي: [من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة] (البخاري)

وعن أبي هريرة قال: قال النبي (ﷺ): [تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذو الوجهين يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه] (البخاري).

والأسباب الباعثة على هذا الخلق هي ضعف في الإيمان، وانقياد للشيطان، وطمع في عرض من عروض الدنيا وحظ من حظوظها، وهوان النفس وانحطاطها.

١٥ـ الجهر بالسوء

كل ابن آدم خطاؤون

ان دستور الأخلاق الإسلامي وهو يرسم ملامح الشخصية المسلمة النموذج في رقيها وسموها، وفي انحيازها للخير. أو في ترفعها عن السقوط في أحضان الرذيلة، أو خشيتها من أن تتلبس بخلق ذميم. إنما ليبرز البعدين الإيماني والأخلاقي لهذه الشخصية النموذج.

ثم إن الله تعالى هو خالق النفس البشرية وهو يعلم ما بث فيها من مقومات الخير والشر، وهو الذي أعطى القدرة للشيطان على غواية الناس. لذلك فإن وقوع الناس في المعاصي والآثام، وفي الخطأ والزلات، أمر محتم، فلا عصمة إلا للانبياء فقط.

وأيضا.... إن الوقوع في المعاصي أو الإيغال في السيئات، أو تجنبها والحذر من بواعثها ومسالكها والدروب المفضية إليها، تقررها درجة التقوى.

يقول النبي (ﷺ): [كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون] (الألباني).

لذلك فكل الناس معرضون لاقتراف خطأ أو سيئة، أو الوقوع في إثم أو معصية.

ولكنْ ثمة فرق!!!

نعم هناك فرق بين من يستزله الشيطان في لحظات ضعف الإيمان وخفوت جذوته في القلب، أو عندما يستسهل المرء إتيان الشبهات أو يقترب من حماها بلا تحوط فيقترف سيئة.

ولكن!!

عندما يتدارك أمر نفسه، وتذهب الغشاوة عن بصره، والظلمة عن قلبه، ويجد أنه ارتكب خطيئة أو اقترف ذنبا، يأخذه الخجل والحياء من ربه كل مأخذ، ويشعر بالذل والهوان من سوء ما صنعت يداه، فيندم على فعلته تلك ويستغفر ربه ويتوب إليه متابا.

وبين من لا يأبه بارتكابه المعاصي - صغرت أم كبرت - أو يستسهلها، أو يفتخر بما يصنع، فيجهر بما يفعل أمام الناس.

الجهر بالمعصية تحريض عليها وترغيب بها

والعبرة في ذلك أن الوقوع في المعصية والخجل منها كما رأينا في الشق الأول مما سبق، يبقيها في حيز ضيق مكتوم فلا تجد المتنفس الذي يمكن أن يظهرها للنور، ولا المناخ الذي يعطيها زخم الاستمرار والانتشار، وتبقى حبيسة الصدر، والله يتكفل بها، والله لطيف بالعباد وهو تواب رحيم.

أما الجهر بها ليطلع الناس من حوله على المعصية، ومكان وزمان وقوعها، وكل ما يتعلق بها من تفاصيل في سرد كامل مفصل، عندها ينقسم الناس من حوله إلى فريقين. فريق يستحقر فعلته فيقع من نظرهم وتنحرف عنه قلوبهم، ولا يمكنه تصحيح سمعته بعد ذلك إلا بشق الأنفس - حتى إذا تاب من ذنبه توبة نصوحا - وقد يبقى كدر منها معلقا بأذهانهم يلاحقه مدى العمر، ومتى حدث بينه وبين أحدهم خلاف في شأن آخر لا صلة بهذا من قريب أو من بعيد، عيره ألست من ارتكب الذنب كذا يوم كذا؟؟؟

وفريق يستلذ بما سمع وقد يقتدي بهذه السنة السيئة التي سنها الرجل فيتتبع خطاه في تلك المعصية، فتشيع الفاحشة فيمن حوله ويبوء هو بإثمه وبإثم من اقتدى به جميعا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النور: ١٩).

وكأنما المجاهرة بارتكاب المعصية هو تحريض عليها، أو تمنٍّ بانتشارها بين المسلمين.

منهج الله يهدف إلى محاصرة السيئة في مهدها

ويقول النبي (ﷺ): [كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله فيقول يا فلان عملت البارحة كذا، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه] (بخاري ومسلم).

بل وإن المنهج الأخلاقي الإسلامي يذهب أبعد من ذلك فهو ينهى عن الجهر بأي كلام فاحش وبذيء مخدش للحياء عموما بين الناس وفي المجالس. ولا يرضى أيضا أن يدعو أحد على أحد إلا من وقع عليه ظلم بين، فأجاز للمظلوم أن يجهر

بالدعاء على من ظلمه وأن يذكره بما وجد منه من سوء ودون أن يضيف أو يؤلف عليه شيئا من عند نفسه.

قال تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (النساء: ١٤٨).

وقال النبي (ﷺ): [ليس المؤمن بالطعان واللعان والفاحش والبذيء] (الترمذي).

فالمؤمن أرفع شأنا من أن تنحط خلقه وينفلت لسانه بكلام فاحش وقدح بذيء.

وهكذا فأن المنهج الأخلاقي الإسلامي يريد أن تحاصر السيئة في وكرها ومنبعثها، ويريد للمؤمنين أن يختموا على أفواههم فلا تنطق بالفحش واللعن وسيء الألفاظ، ومن يتمرد فيجهر بالمعصية أو بقول السوء يكون مزق سترا وحجابا أسدلهما الله عليه وتحدى أمر الله بشكل فاضح فيستحق غضبه وعقابه.

١٦ـ السباب وبذاءة اللسان

من معاني السباب وبذاءة اللسان

السباب أو بذاءة اللسان هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة. وهو آفة من آفات اللسان وثمرة من ثمار الغضب. والباعث عليه هو الخبث واللؤم، أو قصد الايذاء، أو اعتياد اللسان عليه من كثرة مخالطة أهل الفسق وأهل الخبث. وهو خلق مذموم منهي عنه.

هل تصبح بذاءة اللسان طبعا مستحكما

وكثيرا ما نرى رجلا تبدو عليه علامات الوقار والصلاح ولكنه متى ما استفز – ولو لسبب بسيط – يتفجر بركان الغضب في جوفه، فيضطرب كيانه، وينفلت لسانه بسباب فاحش وقدح بذيء. ولا يمكنك أن تتخيل أن الذي تراه يطلق كل هذا الفحش من الكلام والسباب، هو نفسه الذي أعجبت بوقاره وهدوئه قبل لحظات.

ومن الناس من لا يجد حلاوة في الحديث إلا إذا حشاه بعبارات بذيئة فاحشة ودونما أي حرج أو خجل مما يقول.

بذاءة اللسان والسباب خلق يحجب عنك محبة الله تعالى

وسواء أإستفز الرجل فغضب فنطق بالفحش والكلام البذيء، أو كانت عادة متأصلة تجري على لسانه كل وقت وحين. فإنه يصبح بعلته هذه خارج أسوار محبة الله. فقد ورد عن النبي (ﷺ): [إن الله لا يحب الفاحش والمتفحش] (الطبراني).

ولا ترى مسلما كامل الإيمان يرضى لنفسه أن يحرم من محبة الله عز وجل أو أن

يستحق غضبه. قال النبي (ﷺ): [إن الفحش والتفاحش ليسا من الإسلام في شيء] (أحمد وابن أبي الدنيا).

هل تريد أن تدخل السرور إلى قلب إبليس؟

ولأن الشيطان يفرح بالمجالس التي يكثر فيها الفحش والسباب. فمن يكون سببا في إدخال السرور إلى قلب إبليس، يكون رضي به قرينا وصاحبا. قال النبي (ﷺ): [المتسابان شيطانان يتعاديان ويتهارجان] (أبو دواود).

كيف نتحصن ضد السباب؟

ووصية الرسول لنا جميعا أن نحصن أنفسنا عن السباب حتى إذا أصابنا منه شيء. فقد ورد أن أعرابيا سأل رسول الله: أوصني. فقال (ﷺ): [عليك بتقوى الله وإن امرؤ عيرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيره بشيء تعلمه، يكن وباله عليه وأجره لك. ولا تسبن شيئا] (أحمد والطبراني).

وقال الامام الشافعي (رضي الله عنه):

اذا سبني نذل تزايدت رفعة وما العيب إلا أن أكون مسابيه

السباب درجات بعضهافوق بعض في درجة القبح والسوء

ويزاد السباب هبوطا في القبح والسوء عندما يتجرأ امرؤ على سب مؤمن. قال رسول الله (ﷺ): [سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر] (أبو داود).

ثم يهبط درجة أخرى ليصل من يسب إلى درجة مرتكب الكبيرة عندما يسب هو والديه، أو يتسبب في أن يسب غيره والديه. قال النبي (ﷺ): [ملعون من سب والديه] وفي رواية: [من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه] قالوا: يا رسول الله كيف يسب الرجل والديه قال: [يسب أبا الرجل فيسب الآخر أباه] (أحمد والطبراني).

السباب الغارق في السفه والاجرام

ومن أقبح ما نراه اليوم في بعض مجتمعاتنا الإسلامية أن تصل الجرأة برجل قد استفزه الناس فلا يقدر على صدهم أو زجرهم أو سبهم، فيسب الدين ويتطاول على مقام النبي وعلى ذات الله العلية بالشتم والسباب، وهذا منتهى الجهل والسفه والجرم المشين. وقد يحدث ذلك أمام جمع من المسلمين دون أن ينكره أحدهم بيده أو بلسانه ولا نعلم ان كان هناك من ينكره بقلبه أم لا!!.

واذ يرى الصبية آباءهم يسبون الله ورسوله أمامهم كلما أفقدهم الغضب المجنون صوابهم، تراهم أيضا يلجأون إلى هذا الفعل الآثم فيسبون الله والرسول كلما زلت بهم قدم في الطريق، أو خسر أحدهم في لعبة يلعبها مع أقرانه في زقاق الحي.

ألم يقرأ هؤلاء قول الحق تبارك وتعالى لعباده المؤمنين: ﴿ولا تسبوا الذين

يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم﴾ (الأنعام: ١٠٨). فإذا كان رب العزة ينهانا أن نسب آلهة المشركين وأصنامهم حتى لا يتجرأ هولاء المشركون على مسبة الله جهرا، لجهلهم بعظمة الله، وحتى لا يحل علينا – نحن أيضا – غضب من عنده تعالى، لأننا رضينا أن نخوض في اللغو مع المشركين والجاهلين، ويكون من نتاج هذا اللغو أن يتجرؤوا على ذات الله العلية. فأية جرأة مستقبحة ومشينة ومضلة هي التي تدفع أقواما يظنون أنهم مسلمون، أن يتطاولوا على جبار السماوات والأرض بالسباب؟

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)﴾ (التوبة: ٦٥-٦٦).

لذلك لا غرابة أن نصل إلى هذا الانحطاط في السلوك والأخلاق والاستهانة بالقيم والمبادئ إذا وجد بيننا من يتطاول على ذات الله سبحانه وتعالى دونما أي خوف أو خجل.

ومن الغرابة والاستهجان الشديدين أن يلاحق القضاء من يتطاول على الحاكم بالقذف وسيء الألفاظ، ولا يلاحق الرجل نفسه إذا تطاول على ذات الله العلية بمثل ذلك. فأي هوان هذا الذي نعيشه ونراه؟؟

اللهم لا تؤاخذنا بما يفعل السفهاء منا.

❁

١٧ـ اللعن

من معاني اللعن

اللعن هو الطرد والإبعاد من الله تعالى.

ولا يملك بشر أن يقرر أو يجزم هذا الطرد والإبعاد في حق أحد من خلق الله، أو يطلع عليه غير الله تعالى، وغير رسول الله (ﷺ) إذا أطلعه الله عليه.

ومن هنا تكمن الخطورة في تهاون الناس باللعن وإطلاق اللسان بها.

ومن يبتغ إلى ذي العرش سبيل الإيمان والإحسان يتنزه عن اللعن فإن فيه خطراً كبيراً، لأنه يكون كمن يحكم على الله عز وجل بأنه قد أبعد الملعون عن رحمته، وذلك محض غيب لا يمكن للمؤمن أن يدعي به.

النهي عن اللعن في الهدي النبوي الشريف

قال رسول الله (ﷺ): [المؤمن ليس بلعان] (الترمذي).

وقال أيضا (ﷺ): [لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بجهنم] (الترمذي).

اللعن مذموم حتى للحيوان والجماد

بل إن اللعن مذموم حتى لحيوان أو جماد فناهيك عن الإنسان الذي كرمه الله. قال أنس: كان رجل يسير مع رسول الله (ﷺ) على بعير فلعن بعيره فقال (ﷺ): [يا عبد الله لا تسر معنا على جمل ملعون].وقال ذلك منكرا عليه إطلاق اللسان باللعن عموما.

ما هي الصفاة المقتضية للعن

والصفات المقتضية للعن ثلاث: هي الكفر والبدعة والفسق. وحتى لا تقع في خطورة تخصيص اللعن، جاز لك اللعن بالوصف العام كقولك: لعنة الله على الكافرين والمشركين والمبتدعين والفسقة. أي للذين يصرون على الكفر والشرك والبدعة والفسق ويجهرون بها، دون أن يفهم من قولك أنك تخص أحدا بعينه أو مجموعة بعينها.

لا يجوز اللعن بأوصاف خاصة

أما اللعن بأوصاف أخص كقولك لعنة الله على اليهود والنصارى أو نحو ذلك، فينبغي عدم تعميمه، أو عدم لجوء العوام إليه، لأن ذلك يستدعي المعارضة ويثير النزاع والفتن والفساد بين الناس.

اللعن لشخص بعينه فيه حكمان

أما اللعن لشخص بعينه ففيه حكمان. شخص ثبت كفره ومات على الكفر، ولعنه الله أو لعنه الرسول (ﷺ)، فلك أن تلعنه أيضا كقولك لعن الله فرعون ولعن الله أبا جهل. أما قولك لعن الله فلانا لأنه كافر أو فاسق فلا يجوز، فربما يسلم الكافر ويحسن إسلامه، أو يتوب الفاسق من فسقه، فيموتان مقربين من الله تعالى. فكيف تحكم كونهما ملعونين من الله، مطرودين من رحمته؟؟ فكأنك تدعو أن يثبت الله الكافر أو الفاسق على ما هو سبب للعنة. وهذا طلب للكفر وهو في نفسه كفر.

الحذر الحذر من إطلاق خلق اللعن بين الناس

فإذا كان اللعن لشخص كافر أو فاسق بعينه غير جائز. فكيف باللعن على رجل يجهر أنه يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله؟ أليست جريرة كبيرة وعلى المسلمين جميعا أن يترفعوا من السقوط فيها وأن يتواصوا بالكف عنها؟؟

ولكن!!!!

ككل خلق مذموم منهي عنه شرعا، نجد أنفسنا لا نأخذ أي حذر أو تحوط من جعل التلاعن خلقا نتخلق به، ليصبح الإقلاع عنه بعد حين أمرا مضنيا يحتاج إلى الكثير من الصبر والمجاهدة.

حتى صرنا نستسهل لعن آباء وأجداد كل من يقول قولا أو يعمل عملا لا يوافق أهواءَنا، ولا يطابق آرآءنا. بل ان شر البلية ما يضحك – كما يقال – فمن كثر استخفافنا باللعن صرنا ومتى ما أردنا أن نلاطف صبياننا أو صبيان الغير، لاطفناهم بلعنهم ولعن آبائهم تحببا، حتى إذا ما كبروا ألفوا اللعن وصارت الصبية تتلاعن في الأزقة والحارات.

فأي خلق نغرسه في نفوس أطفالنا وفلذات أكبادنا؟؟ وأية جريمة نقترفها بحقهم وبحق ديننا ومجتمعاتنا؟؟

اللهم نسألك العفو والعافية.

❊

١٨ـ الخوض في الباطل

من معاني الخوض في الباطل

الخوض في الباطل هو الكلام في المعاصي، كذكر مجالس الفحش والرذيلة والفسق، ومجالس الخمر والميسر، وما يدور فيها على وجه التلذذ وليس على وجه الإنكار. ويدخل فيه أيضا حكاية البدع والمذاهب الفاسدة – إلا لرد وإنكار – والخوض في الفتن والقتال الذي كان بين الصحابة بقصد الطعن والتشويه والتحوير والتكفير.

من مظاهر الخوض في الباطل

الخوض في المعاصي.

وذم الخوض في المعاصي يأتي لثلاثة أسباب الأول: إنه يكشف الستر عما يكره كشفه، والثاني: أن الخوض فيها من باب التلذذ بسماع ما يدور فيه قد يكون مدخلا لترغيب الناس على ورود تلك المجالس من باب الفضول، ومن ثَمّ التعود عليها والوقوع في براثنها وشراكها. والثالث: أن الخوض فيها لا يأتي بمنفعة دينية أو دنيوية ويبعد الناس عن ذكر الله.

الخوض في البدع والمذاهب الفاسدة

أما ذم الخوض في البدع والمذاهب الفاسدة، فيكون خوفا من أن يكون الخوض فيها بغير علم ولا تقوى كمن يسعى إلى الحرب بدون سلاح، فيكون ترك الخوض فيها أسلم وأحوط للمسلم.

الخوض في ما كان من قتال بين الصحابة

وأما ذم الخوض في ما كان من قتال بين الصحابة فيأتي لثلاثة أسباب أيضا.

الأول: أنهم أمم قد خلت لهم ما كسبوا وعليهم ما اكتسبوا. وذهبوا إلى رب

غفور رحيم، وهو أعلم بأحوالهم ونواياهم، وهو أعدل للحكم بينهم.

والثاني: ان الخوض في هذا الأمر مما يثير الفتنة والاختلاف، ويثير الشجن والأهواء. ونحن نعلم أنهم (رضوان الله تعالى عليهم جميعا) لم يختلفوا على أصول العقيدة أو شروط استكمال الإيمان ولا في أصول الفرائض أو في أصول الأخلاق. وقد يبوب اختلافهم في نطاق الاجتهاد في أمور تتعلق بتسيير أمور البلاد والعباد، أو هذا أصلح للحكم من ذاك، أو في فروع العقائد والفرائض. وهذا ما يجوز الاجتهاد فيه في كل زمان ومكان.

والثالث: ان الخوض فيه أيضا لا يحقق أية منافع دينية أو دنيوية بل على العكس فإنه يضعف شوكة المسلمين، ويشتت شملهم وإجماعم أمام التحديات الكبيرة التي تواجههم.

تحذير نبوي شديد

لذلك ورد عن النبي (ﷺ)انه قال: [أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضا في الباطل] (الطبراني وابن أبي الدنيا).

كذلك ورد النهي الإلهي عنه في قول الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آَيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (النساء: ١٤٠).

عود نفسك أن لا ترتاد مجالس الخوض في الباطل

فالذي يرضى لنفسه بارتياد مجالس الخوض في الباطل، ويصغي السمع لها، ويقعد مع القاعدين فيها، يكون قد رضي بما يدار فيها، مشاركا في فسادها، ويكون باء بإثم مثل إثم الخائضين. كإشارة الله تعالى إلى قول أهل النار: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ (المدثر: ٤٥).

لذلك حري بالمسلم – وهو يعلم جزاء هذا الخلق المذموم – أن يتحرز من مواطنه وبواعثه ومن أهله. فرب كلمة يخوض فيها بالباطل تكون سببا في أن يكون من أهل النار. فعن النبي (ﷺ): [إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله عليه به سخطه إلى يوم القيامة] (ابن أبي الدنيا).

❁

١٩ـ المراء والجدال

من معاني المراء والجدال

المراء: هو الاعتراض على كلام الغير باظهار الخلل فيه.

والجدال: القصد في إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه.

من بواعث المراء والجدال

والمراء والجدال من الخلق المذموم لأن الباعث عليها هو الترفع على الغير باظهار العلم والفضل عليهم، وذلك من آثار العلو والكبرياء في النفس. أو التهجم عليهم باظهار النقص فيهم وهو من آثار الطغيان ورغبة النفس في ايذاء الآخرين وإظهار عجزهم.

النهي عن المراء والجدال في الهدي النبوي الشريف

والمواضبة على المراء والجدال مقو لكل هذه الصفات والآفات المهلكة. لذلك نهانا عنهما نبي الهدى (ﷺ): [لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعدا فتخلفه] (ألترمذي).

وقال (ﷺ): [من ترك المراء وهو محق بني له بيت في أعلى الجنة ومن ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في ربض الجنة] (الترمذي).

وقال أيضا (ﷺ): [ما ضل قوم بعد أن هداهم الله تعالى إلا وأوتوا الجدل] (الترمذي).

البدعة الجديدة في وصف المراء والجدال

وقد يرى الكثير منا اليوم أن القدرة على إفحام الغير واظهار عجزهم وقلة حيلتهم دليل على قوة الشخصية، والقدرة على المناورة، ووضع الخصم في زاوية ضيقة لا يملك بعدها إلا أن يصمت فلا ينطق ببنت شفة. ويكون ثمار هذا النصر أن يحتسي المنتصر كؤوس العلو والفخار بين هتافات الاستحسان وازدياد المعجبين والمريدين من حوله. ودون أن ينظر هؤلاء من أين أستقى هذا الدعي الدجال براهينه؟ أو إن كانت على حق وصواب، أو مجرد أباطيل وأكاذيب؟

وتكمن الخطوره هنا في أن من اعتاد على المراء والجدال مدة وأثنى الناس عليه ووجد لنفسه بسببهما عزا وقبولا قويت فيه هذه المهلكات فتكون طبعا يتطبع به ولا يستطيع عنه نزوعا بعد ذلك.

الفرق بين المناظرات العلمية والفكرية وبين الجدل الفارغ

إن لمجالس العلم أصولها، وللمناظرات الفكرية أخلاقياتها، أما أن تتحول هذه المجالس والمناظرات إلى جدل أجوف ومماراة حمقاء فذلك الجهل بعينه. لذلك قال

أحد العارفين: (أياكم والمراء فإنه ساعة جهل العالم وعندها يبتغي الشيطان زلته). وقال آخر: (لا أماري صاحبي فإما أن أكذبه وإما أن أغضبه). وفي كلتا الحالتين يحدث شرخ في الود الذي بينهما، فيفرح الشيطان بذلك ويعمل على زرع بذور الشقاق والنفور بينهما.

وصية جليلة من عمر الفاروق

ولعمر الفاروق (رضي الله عنه) وصية عظيمة جليلة في هذا الشأن: (لا تتعلم العلم لثلاث ولا تتركه لثلاث. لا تتعلمه لتماري به، ولا لتباهي به، ولا لترائي به. ولا تتركه حياء من طلبه، ولا زهادة فيه، ولا رضا بالجهل عنه).

الإمام الغزالي والتنبيه لعلاج المراء والجدال

وقد نبه الإمام الغزالي إلى علاج المراء والجدال فقال: (إن ترك المراء يكون بترك الإنكار والاعتراض، فكل كلام سمعته إن كان حقا فصدق به وإن كان باطلا أو كذبا – ولم يكن متعلقا بأمور الدين ولا يترتب عليه فساد – فاسكت عنه. أما ترك الجدال فيكون بكسر الكبر الباعث له).

❊

٢٠ـ كثرة المزاح

من معاني المزاح

المزاح المحمود هو الذي ليس فيه إلا الحق ولا يؤذي قلبا ولا يكون فيه إفراط أو إسفاف.

والمزاح المذموم هو الذي يتخذه البعض حرفة يواظبون عليها ويفرطون فيها، وغرضهم اضحاك الناس كيفما كان. دون النظر ان كان مما يمزحون به ويتفكهون، غيبة أو نميمة أو بهتانا أو استهزاء وسخرية بالآخرين، أو حتى إن كان في بعض ما يقولون كلمات نابية أو لعنٌ وسبابٌ.

النهي عن المزاح في الهدي النبوي الشريف

هذا المزاح المذموم هو الذي نهى عنه رسول (ﷺ) حين قال: [لا تمار أخاك ولا تمازحه] (الترمذي).

وقال أيضا (ﷺ): [إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوي بها في النار أبعد من الثريا] (متفق عليه).

والإفراط في المزاح يورث الافراط في الضحك، وكثرة الضحك تميت القلب، وتسقط المهابة والوقار، وتفسد الأخاء، وتورث الضغينة في الكثير من الأحيان.

قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): (من كثر ضحكه قلت هيبته، ومن مزح

استخف به).

الإسلام دين يدعو إلى الإنشراح والبشاشة

ولا يعني هذا بأي حال من الأحوال ان الإسلام دين يدعو إلى الصرامة والشدة والتزمت، ولا يترك مجالا لفسحة تطيب فيها القلوب وتنبسط، فالمزاح الخفيف البريء اللطيف الذي يدخل المسرة إلى القلوب، ويزيل الوحشة والملل من النفوس، ويعمق أواصر الود والمحبة بين الإخوان، مرغوب ومطلوب. أما المزاح المنبوذ فهو المزاح الثقيل الماجن الصاخب.

فهذا رسول الله - وهو المعلم والقدوة للبشرية كلها - كان كثير التبسم وكان يمازح نساءه أمهات المؤمنين، ويمازح الأطفال ويلاعبهم في الطريق، ويمازح الرجال والنساء على حد سواء.

قارن بين مجلسين

وشتان بين مجلسين. مجلس مبارك يتذاكر فيه القوم أمور دينهم ودنياهم، يتحدث أحكمهم وينصت الآخرون لحديثه، وإن عقب أحدهم عقب بأدب وبعد استئذان، تعلو البسمة شفاههم. وإن ذكر أحدهم لطيفة أو مزح مزحة بريئة انشرحت صدور القوم واستأنسوا بها.

وبين مجلس صاخب لم يجتمع القوم فيه إلا من أجل الضحك، ينبري أحدهم أو بعضهم في إطلاق مزحات ماجنة، فيقع الجميع صرعى من شدة الضحك والقهقهة التي تشبه العويل والصراخ. ولا تجد لذكر الله ولا لموعظة حسنة مكانا في هذا الصخب الذي يستمر ساعات طوال.

واللبيب العاقل يفرز بين هذا وذاك، ثم يستنبط ما يراه يوافق المنهج الأخلاقي فيقتدي به وينبذ الآخر.

❊

٢١ـ إفشاء الأسرار

بين حفظ السر وافشائه

حفظ الأسرار يدل على صدق الوفاء. وافشاء الأسرار يدل على النفاق والخيانة.

لأنك إما تكون أوهمت صاحبك بصدق إخلاصك وودك له، فوثق فيك وأحسن الظن بك فأفضى إليك بسره. أو تكون بينك وبينه صحبة وعشرة طيبة ولم يجد حرجا أن يكاشفك بالسر الذي يحبسه في صدره، وهو يرجو منك حفظ العهد وصدق الوفاء.

افشاؤك لأسرار الناس يكسبك سيئات جمة

فإذا تنكرت للصحبة وخنت العهد والأمانة فأفشيت سر صاحبك وأنت تعلم أن

كشف هذا السر قد يوقعه في الكثير من الحرج، أو يسبب له الأذى والضرر المادي أو المعنوي، تكون اكتسبت سيئات جمة.

- بأنك نافقت أو استغفلت صاحبك.
- وأنك خنت أمانة أودعها عندك.
- وأنك تسببت في حرج أو ضرر له.
- وأنك زرعت في قلبه - بخيانتك له - بذور الشك وسوء الظن بالناس.

وخلق تنتج عنه كل هذه السيئات يكون خلقا مذموما ومنهيا عنه، ويكون حراما بينا إذا نتج عنه أضرار بين، ويكون لؤما إذا لم ينتج عنه اضرار.

أنظر إلى دقة بيان النبي ﷺ حول ماهية السر

وقال النبي (ﷺ): [اذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة] (أبو داود والترمذي).

فكيف إذا طلب منك هذا الرجل حفظ سره واستحلفك بالله على ذلك. ثم أفشيت سره؟؟ وكيف يتم تقييم فعلتك هذه وبأي وصف توصف؟؟

هل ثمة تبرير لافشاء السر

ورغم ما قيل بأن من يفضي بسره لغيره ثم يلومه متى أفشاه لا يكون إلا رجلا أحمقَ، وإلا كان حبس سره في صدره وتمكن من كتمه بين جوانحه. إلا أن ذلك - ورغم ما فيه الكثير من الصدق - لا يكون مبررا اطلاقا لإفشاء أسرار الناس، ولا يسقط عمن يفعل ذلك دناءة فعله وقبح خلقه. لأن من شروط الصحبة والأخوة أن يحسن المرء الظن بالناس ويثق بمودتهم. إلا أن الاحتراز الحكيم واجب. ويكون القول الفصل في هذا الأمر لدرجة ثقتك بصديقك، وما تعرف من خلقه وفضائله، ولفهمه قصدك بأن يبقى السر في صدره لايبوح به لأحد من الناس.

مواقف يمتحن فيها صدقك وإخلاصك

والإخلاص بشأن الأسرار يبرز عند انفراط عقد المودة والمحبة بين الخلان. فإن الرجل إذا حفظ العهد والأمانة - رغم تنكر صاحبه له أو إجحافه بحقه - يكون رجلا أمينا مؤتمنا وذا مروءة عالية. أما إذا بادر إلى إفشاء أسرار صاحبه في اللحظة التي يفترقان فيها، فإن صحبته ومودته كانت كهشيم المحتضر، ولم تكن راسخة وصادقة. وأنه رجل تنقصه المروءة والشهامة.

ومن خلق حفظ السر أيضا أنكم لو كنتم ثلاثة أصحاب وأودع كل من صاحبيك سرهما عندك، ما جاز لك أن تنقل أسرار واحد لآخر. وحتى إذا حصل بين صاحبيك جفوة وقطيعة وبذلت أنت كل جهدك في الإصلاح بينهما فلم تفلح. وأبقيت مودتك

بينهما كسابق عهدها، ثم جاءك أحدهما أو كلاهما يطلبان منك ويحثانك على أن تبوح بما تعرفه من سر لصاحبه، فإياك أن يظفر أحدهما بشيء من ذلك تصريحا أو تعريضا. وعليك أن تنكر عليهما ذلك وتردهما وتنصح لهما. وحتى إذا صار ميلك مع أحدهما أكثر من الآخر بعد حين ما جاز لك أن تصطف معه ثم تكشف له ما تعرفه من أسرار الثالث.

٢٢ـ المدح

من معاني المدح

المدح المذموم هو الذي يتخذه الرجل عادة ويجعله بضاعة يستأكل به الممدوح.

وأما المدح ترغيبا في الفعل الحسن، وتحريضا للناس على الاقتداء بالرجل الممدوح فمقبول شريطة أن لا يبالغ في الوصف أو يلج ويكرر.

لماذا يخشى من المدح؟

وقيل إن المدح يدخله ست آفات أربع في المادح واثنتان في الممدوح.

فأما المادح:

- فقد يفرط في المدح فينتهي به إلى الكذب.
- أو يدخله الرياء والنفاق، فالمدح اظهار للود والحب وقد لا يكون مضمرا له ولا معتقدا لجميع ما يقوله في الممدوح.
- أو أن يقول ما لا يتحقق من صحته ولا سبيل إلى معرفته.
- أو أنه قد يفرح الممدوح وهو ظالم وفاسق فكأنما يعينه على ظلمه وفسقه وهو غير جائز.

وأما الممدوح فيضره المدح في وجهين:

- أن المدح اما يحدث فيه كبرا وعجبا.
- أو أن كثرة المدح تورث عنده الفرح والرضى عن النفس فيفتر عن العمل والطاعات.

استخدم الميزان القسط في مدحك

وليس أعرف بالمرء من نفسه وبما يخطر على قلبه أو يجول بخاطره. ويعرف ما كان منه صدقا وعدلا، وما يكون تزلفا ونفاقا. وما يراد به وجه الله تعالى، أو يكون وراءه ميل لكسب أو منفعة دنيوية. لذلك فالمسلم الذي يجد في نفسه بقية من خير يمكنه أن يفرز بين ما هو غثاء يذهب جفاء وبين ما هو زبد فيمكث ويربو. فالميزان في

داخله موجود شاء أم ابى، ولكنه باختياره هو يهمل الركون إلى الحقيقة التي يراها في الميزان، إذا غلبت عليه شهوة من شهوات الدنيا.

انظر تأثير صنيعك في المادح قبل أن تسترسل في مدحه

فإن وجدت رجلا قد سلك طريقا إلى المعروف فاثن على حسن صنيعه وادعُ له أن يثبته الله على هذا المعروف ويجعله مخلصا فيما يعمل، وأن تقتدي أنت ويقتدي الناس بهذا العمل الطيب.

فإذا وجدت أن الرجل يتحرج ويستحي من مدحك وثنائك فأمسك عليك لسانك ولا تكثر في المدح.

وإن وجدته ينتشي من حديثك وتنفرج أساريره لمدحك، ورأيته يتململ في جلوسه، كأنما يحثك على مزيد من المدح والثناء، أو رأيته يسهب في وصف محاسن ما يقوم به، فاعلم أنك قد ذبحته، فأمسك عليك لسانك عن المدح وابذل جهدك بلين ولطف وحكمة أن تطفئ ما أوقدت في قلبه من الانتشاء والركون إلى المديح.

أما إذا وجدت أنت في نفسك – وأنت تثني وتمدح صنيع الرجل - ميلا للتقرب منه لتنال رضاه، طمعا في كسب أو منفعة دنيوية، أو أنك بالغت وأسرفت في المديح فتجاوزت ما تعرفه من أحواله إلى ما لا تعرف، فاعلم أن مدحك قد خالطه نفاق أو رياء، أو طمع، أو كذب، وأن ذلك نزغ من الشيطان فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم.

نهي النبي ﷺ عن المدح

روي أن رجلا مدح رجلا عند النبي فقال (ﷺ): [ويحك قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح] ثم قال: [إن كان أحدكم لا بد مادحا أخاه فليقل: أحسب فلانا ولا أزكي على الله أحدا حسيبه الله إن كان يرى أنه كذلك] (متفق عليه).

وقال أيضا (ﷺ): [أحثوا التراب في وجوه المداحين] (مسلم). فاحجب عن وجهك حث التراب.

كيف تصنع إذا مدحك الناس

واحرص أخي المسلم أن لا تطيب نفسك بالثناء والمديح، ما قيل منه في وجهك أو في غيابك. فليس في الاستئناس بالمدح إلا غرور وكبر وعجب وفتور.

كيف تصرف خلفاء رسول الله ﷺ مع المادحين؟

ولأجل هذا كله كان الصحابة (رضوان الله تعالى عليهم جميعا) يتحرجون من المدح. فهذا أمير المؤمنين علي (كرم الله وجهه) يقول لما أثني عليه: (اللهم اغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني خيرا مما يظنون). وذلك أمير المؤمنين عمر الفاروق (رضي الله عنه) يقول لرجل أثنى عليه: (أتهلكني وتهلك نفسك؟).

فالعودة العودة إلى وسطية الإسلام، والى دستوره الأخلاقي، وإلى نهج الحبيب المصطفى (ﷺ) وسنته الشريفة المباركة، فإن في ذلك النجاة كل النجاة.

٢٣ـ إخلاف الوعد

من معاني إخلاف الوعد

إخلاف الوعد صفة مذمومة وشعبة من شعب النفاق، لا بد للمسلم أن يتجنبه ويتحاشاه وينفر منه.

مذمة إخلاف الوعد

وذم إخلاف الوعد يأتي من عدة وجوه:

- إنه آية من آيات النفاق وفق ما جاء في حديث رسول الله (ﷺ): [ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان] (متفق عليه).

فهل يرضى مسلم لنفسه أن يحشر في زمرة المنافقين يوم القيامة، وأن يحرق كل صومه وصلاته، بأن يجعل من إخلاف الوعد سمة من سمات شخصيته؟؟

- إخلاف الوعد في حقيقته نوع من الكذب. لأن الذي يقول لصاحبه أنه سيوافيه في مكان وزمان محددين، أو يعده أن يعطيه شيئا، أو ينجز له عملا، ثم لا يحرص أن يفي بما وعد، يكون قد كذب على صاحبه.
- اذا وعد الرجل صاحبه وهو عازم أن لا يفي بوعده ومبيت النية بالخلف، إما استخفافا منه بقيمة الوعد، أو استهزاء وسخرية بالرجل، أو تخلصا من الإحراج، فهذا لؤم ونفاق وقلة حياء. وقال بعض الحكماء: (وعد الكريم نقد، ووعد اللئيم تسويف).
- إخلاف الوعد ينجم عنه أضرار وأذى واضحان بالغير، في وقت يضيع منهم سدى، أو مصالح تتعطل فلا تنجز، أو عقوبات تطالهم يكون المخلف بالوعد هو من تسبب بها.
- إخلاف الوعد قلة في الوفاء، ويتسبب في الفرقة والقطيعة بين الناس، وفقدان الثقة وحسن الظن بينهم.
- يظن البعض أن إخلاف الوعد هو صفة بارزة من صفات المسلمين، وأن دينهم وقرآنهم ومنهجهم لا يلتفت كثيرا للوفاء بالوعد ولا قيمة له في

دستور أخلاقهم، وهذا تشويه لحقيقة الإسلام. ويشترك في هذا الظن الكاذب الآثم، الكثير من المسلمين بالهوية ومن أعدائهم سواء بسواء.

مظاهر اخلاف الوعد

ومظاهر قلة الوفاء بالوعد وكثرة الإخلاف فيه بين الناس كثيرة لا تعد ولا تحصى. ومن المخجل حقا أن يصل الأمر فيفهم ممن يقول (إن شاء الله) عند قطع الوعد بانه ينوي عدم الوفاء، فيقول له صاحبه: (لا تقل إن شاء الله، ولكن قل لي صراحة هل ستفي بوعدك أم لا؟).

وهذا استخفاف بالقيم والمبادئ والأخلاق، ابتلي به الكثير منا؟

وإخلاف الوعد سواء كان ميقاتا بينك وبين أحد من الناس، أو وعدا قطعته لطفل بشراء هدية له أو اخراجه في نزهة، أو مزاحا ثقيلا، أو تهاونا واستخفافا، أو تأخرا في سداد دين، أو خلفا في منح عطاء. أو أي وعد أقل أو أكثر من ذلك فيدخل في دائرة إخلاف الوعد الذي وجدنا الكثير من الأوجه التي أكسبته ثوب الصفات المذمومة التي لا يرضاها الله ورسوله للمسلمين.

الحرص على عدم إخلاف الوعد

ولا يكون إخلافا للوعد إذا عزم المرء على الوفاء ثم حبسه حابس، وعن له عذر منعه من الوفاء.

ولكن على الرجل أن يحترز فلا يعط وعدا لا يجد في نفسه عزما قويا على الوفاء بسبب عوارض محتملة، ولا ينبغي له أيضا ان يجعل نفسه معذورا من غير ضرورة حاجزة قاهرة لا يقدر على ردها.

❊

٢٤ـ الفعل يخالف القول

شخصية المسلم شخصية متزنة ومنضبطة

المنهج الأخلاقي الإسلامي يرمي إلى تربية المسلم الفرد على الاستقامة والتوازن، والمنهج الرباني للحياة عموما لا يحمل الإنسان فوق طاعته. ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة: ٢٨٦).

وقال النبي (ﷺ): [أكلفوا من العمل ما تطيقون فإن خير العمل أدومه وإن قلَّ] (ابن ماجة، أحمد)

وبهذا يوضع المسلم أمام التزام أخلاقي صارم، أمام ربه، وأمام الناس، وأمام نفسه أيضا، وهو:

• أن تكون له شخصية متزنة ومنضبطة تعي ما تقول وتلتزم بما تقول وما تعد به.

• أن لا يألو جهدا في بذل ما يمكنه بذله من أجل أن يتعلم ويطور قدراته وملكاته، ليحقق لنفسه مزيدا من الطاعات بمزيد من الوعي والفهم والخشوع، ولينجز ما يقدر عليه من العمل الصالح لنفسه وأهله ومجتمعه ودينه.

المسلم لا يقول ما لا يفعل

من أجل ذلك فإن المسلم إذا قال قولا، ثم عمل خلاف ما يقول، يكون قد دخل دائرة الأخلاق المذمومة التي نهى الله عنها عباده المؤمنين والتي لا تتوافق ولا تنسجم مع الشخصية المستقيمة المتزنة التي يريدها الله تعالى لهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)﴾ (الصف: ٢-٣).

انه نداء إلهي مبين للمؤمنين جميعا، أن يلتزموا بما يقولون، ليجنبوا أنفسهم مقت الله وغضبه، لأن هذا العمل لا يكون إلا نتاج العديد من الأخلاق المذمومة.

• الكذب، فهو يكذب على نفسه أولا. ثم يكذب على أحد من الناس، والله تعالى لا يحب الكاذبين.

• إخلاف الوعد، فربما يكون في قوله وعد قطعه على نفسه بينه وبين الله، أو التزم به أمام الغير.

• النفاق، يقول النبي (ﷺ): [آية المنافق ثلاث: إذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب، وإذا أؤتمن خان] (بخاري ومسلم).

• تشويه لصورة الإسلام، فمن يرى هذا الخلق عند مسلم، ولا يعرف الكثير عن الإسلام، يظن بالإسلام الظنون، ويعتقد أن أصحاب هذا الدين لا يحترمون كلمتهم، ولا يوفون بوعودهم التي يقطعونها على أنفسهم.

المسلم تطابق سريرته علانيته

ويدخل في نفس السياق السابق، أن يأمر المسلم غيره بالمعروف ولا يأتمر به، وينهاه عن المنكر ولا ينتهي عنه. ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ٤٤).

فمن يأمر بالمعروف عليه أن يكون أول المؤتمرين به، والساعين من أجل تحقيقه في نفسه وأهله ومجتمعه، والذي ينهى عن المنكر، عليه أن يكون أشد المعرضين عنه، والساعين من أجل استئصال شأوته، وقطع دابره في المجتمع. سعيا حكيما عاقلا لا يولد ضغينه، ولا يخلق فتنة، ولا يزيد المنكر استفحالا.

ومن يفعل خلاف ذلك، يستحق غضب الله وعذابه الشديد يوم القيامة.

تحذير نبوي شديد

قال رسول الله (ﷺ): [يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه (أي تخرج أمعاؤه) فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان مالك؟ ألم تك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه] (متفق عليه).

وحديث رسول الله (ﷺ) أبلغ من كل شرح وتعليق.

٢٥ـ الكذب

من معاني الكذب

إذا كان الصدق سيد الأخلاق الحميدة وسفينة النجاة التي تأخذ من يلتمس ركوبها إلى بر الأمان، وتعصمه من موج الضلال وطوفان الطغيان. فإن الكذب هو سيد الأخلاق الذميمة ومنبعثها.

وإذا كان الصدق رديف الحق والفلاح، فإن الكذب رديف الغي والفساد.

ولا يكون الكذاب إلا مهانا ذليلا، حتى بين أهله وعشيرته الأقربين. ويكون وضيعا في سلوكه وتصرفه، لئيما في تعامله، مذنبا في حق نفسه ومجتمعه وقومه، وبعيدا عن رحمة ربه وخالقه.

الكذب مرض يصيب القلب

والكذب في حقيقته مرض يصيب القلب، فإن ترك ليستفحل وينمو فإنه يغمر القلب كله، ثم تنتشر آثاره في الجسد كالسرطان طاغيا مميتا مخيفا. فيجعل المصاب به يتقلب في الكذب كل لحظات ليله ونهاره، في قيامه وقعوده، حتى يتمكن منه الكذب فيكتب عند الله كذابا.

يقول الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (البقرة: ١٠).

بداية الكذب بداية الانحدار في المعاصي

وإنك إذ تبدأ بالكذب فكأنما تدحرج نفسك من سفح شديد الانحدار فلا تقدر أن توقف تدحرجك الذي يزداد تسارعا لحظة بعد لحظة إلا بشق الأنفس، بعد أن تنبش أظفارك في الأرض الصلبة، أو تمسك بعشبة قوية، أو تصدك صخرة كبيرة نابتة في أرض المنحدر؛ أو إنك ستهوي في بطن الوادي جثة محطمة تمزقت إلى أشلاء، فتأكل الطير من رأسك.

وهكذا فإن التعود على الكذب قد يبدأ بمزحة، ثم بإخلاف وعد، ثم بمدح فيه

نفاق، حتى يستشري الكذب في كل أقوالك، وتصطبغ به كل حركاتك وسكناتك، ويصل إلى عواطفك وإلى عباداتك ويقودك من فجور إلى فجور حتى يهوي بك في قاع جهنم.

نهي النبي (ﷺ) عن الكذب

ولأن النبي (ﷺ) – وقد آتاه الله العلم والحكمة -- يعرف أن من يلج باب الكذب فكأنما يفتح على نفسه باب طوفان هادر لا يتركه إلا بعد أن يقذفه في موج البحر المتلاطم. فإن تحذيره كان قويا، شديدا، صارما في النهي عن الكذب: [إياكم والكذب]. فقد ورد عنه (ﷺ): [إياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وان الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا] (متفق عليه).

كلما وجدت سبيلا للاقلاع عن الكذب فاسلكه

وإذا كان لك أن تتصور أو تعيش لحظات الشدة والرعب التي يعيشها الرجل الذي يتدحرج من سفح الجبل باتجاه قاع الوادي السحيق وهو يضرب بكفيه يمينا وشمالا يريد أن يزرع أصابعه وأظفاره في الأرض ليوقف هبوطه فلا يقدر. أو يمسك بغصن شجيرة أو أكمة أو عشبة فلا يجد. ويرى بطن الوادي فاغرا فاه مملوءا بالصخور النابتة كأسنة الحراب كأنما ينتظره لابتلاعه. وفي هبوطه السريع غير المنضبط يرتطم بصخرة هنا وبغصن يابس بارز من شجيرة هناك وتنهمر من خلفه الصخور ومنها ما تدركه. فيثخن جسده كله بالكسور والجروح والرضوض.

اذا كان لك أن تعيش لحظات الخوف والهلع هذه، وكيف تتمنى عندئذٍ أنك لو وجدت في أعلى السفح من ينصحك أو حتى يمنعك بالقوة من أن تدحرج نفسك. فلا بد أنك ستدرك قيمة هذا التحذير النبوي الشريف [إياكم والكذب]. وإنك ستدرك أن الرسول (ﷺ) إنما يريد أن يمنع عنك سقوطك المخزي في براثن الكذب والتدحرج في الفجور الذي يهوي بك في نار جهنم.

ثم لك أن تتصور أنه إذا قدر للرجل - الذي يتدحرج ككرة الثلج – أن يتوقف فلا يهوي في بطن الوادي، ثم يأوي إلى ظل شجرة. كم يكون مبلغ فرحه وسروره بالرغم مما في جسده من جروح وكسور جمة، وما يعاني من آلام مبرحة. فعليك أن تجاهد أن تنقذ نفسك متى وجدت أن قدمك قد وطأت أرض الكذب، فتعود من فورك - خائفا وجلا تائبا - إلى ظلال القرآن وفيء السنة النبوية الشريفة، وتنهل منهما ما يعينك في جهادك ضد هوى النفس ونزغات الشيطان التي تحرضك على الكذب.

الكذب منبع النفاق

والكذب أيضا هو الأصل والمنبع الذي يبنى عليه النفاق. فالذي يتحرى الكذب ويجعل منه لبوسا لا يرى إلا به، فإن قلبه يتشرب بالنفاق حتى يثبته الله على نفاقه إلى يوم القيامة. يقول الله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (التوبة: ٧٧).

وعن النبي (ﷺ): [ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وحج واعتمر وقال إني مسلم. إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان] (بخاري ومسلم).

الكذب خيانة

والكذب خيانة أيضا. فقد جاء عن النبي (ﷺ) انه قال: [كبرت خيانة ان تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق وأنت له به كاذب] (أحمدوالطبراني).

وإنها لخسة ودناءة حقا أن تحدث رجلا فيصغي إليك بكليته، ويظن بك خيرا فيصدق كل ما تحدثه به، بينما أنت تخونه وتغشه وتكذب عليه. وحتى إذا لم يكن في كذبك ما يضر الرجل فإنها تبقى خيانة. والرسول (ﷺ) يريد هنا أن ينزع من قلوبنا كل ميل إلى الكذب، ليقينا من شروره وآثامه وآثاره التدميرية على حياتنا كأفراد وكمجتمعات. [لا يؤمن العبد الإيمان كله حتى يترك الكذب في المزاح والمراء وإن كان صادقا] (أحمد)

مظاهر الكذب

ومظاهر الكذب كثيرة ومن أقبحها وأكثرها سوءا وجرما هو الكذب على الله ورسوله.

والكذب لإفساد ذات البين، فإنك لو نمت بين رجلين تنقل كلام أحدهما للآخر وهدفك إفساد ذات بينهما فإنك تأثم لنمك، وسعيك لافساد ذات البين. فإذا كذبت وأضفت وألفت شيئا من عندياتك، فإنك تأخذ إثم البهات أيضا.

وكذلك من مظاهره الكذب على الأولاد، فتكون اكتسبت إثم الكذب وإثم زرع خلق سيء مذموم في قلوب أولادك. [من قال لصبي: تعال، هاك ثم لم يعطه فهي كذبة] (احمد).

ومن مظاهره أيضا الكذب من أجل إضحاك الناس وفي هذا يقول النبي (ﷺ): [ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له] (أبو داود والترمذي والنسائي).

وهناك مظاهر لا تعد ولا تحصى من مظاهر الكذب مما ابتلي بها الناس، وتساهلوا في أمرها، حتى تفشى الكذب في مجتمعاتنا تفشي الوباء. فزادنا ذلك بعدا

عن منهج الإسلام وأخلاقه، وزادنا بؤسا وتخلفا، وكثرت بسببه ابتلاآتنا وكبواتنا وهفواتنا.

الخطورة تكمن في الكذب نفسه لا في مظاهره

والخطورة تكمن في الكذب نفسه لا في مظهره، تماما كما رأينا في المثال الذي ضربناه من قبل على تدحرج الرجل من السفح شديد الانحدار، فإن الخطورة هي في بدء التدحرج وليس في مظهر أو سبب التدحرج، إن كان تعثر خطوة، أو انزلاق قدم، أو غير ذلك.

المؤمن لا يكذب

ولعل في حديث رسول الله (ﷺ) في نفي صفة الكذب عن المؤمن دليل لتوضيح ما ذهبنا إليه. فعن صفوان بن سليم قال: (قيل يا رسول الله أيكون المؤمن جبانا؟ قال: [نعم] قيل أيكون المؤمن بخيلا؟ قال: [نعم]، قيل ايكون المؤمن كذابا قال: [لا] (ابن عبد البر).

الملائكة تتباعد عن الرجل الكذاب

يقول النبي (ﷺ): [اذا كذب العبد تباعد عنه الملك ميلا من نتن ما جاء به] (الترمذي).

فماذا يليق بالمسلم؟؟

أن يزرع الورد والريحان من حوله بصدق حديثه، فتحفه ملائكة الرحمٰن وتحرسه؟؟ أم ينشر النتن من حوله من جيف كذبه، فتتباعد عنه الملائكة، وتتسلط عليه الشياطين وتجري منه مجرى الدم؟؟

❊

٢٦ـ الغرور

من معاني الغرور

الغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى عند تقييم المرء لذاته. وهذا السكون لا يكون إلا بخدعة من الشيطان. قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١)﴾ (النساء: ١٢٠-١٢١).

الغرور داء يتأصل في القلب

والغرور داء يتأصل في القلب. ويكون الشيطان هو من يزرع بذرته، وهو الذي يخطط كيف وبأي الوسائل والأدوات يمد نسيجه العنكبوتي في القلب كله، ثم ينمي بذرة الغرور التي زرعها على هواه. فيصبح صاحب القلب المصاب بالغرور متلبسا

بالغلط والنقص ولكنه يرى أنه على خير، فيرفض النصيحة حتى لو أتته من رجل حكيم يعلم يقينا انه لا يريد به إلا خيرا.

وأكثر الناس يظنون بأنفسهم خيرا وهم مخطئون فيه، لذلك فإن الغرور آفة شائعة بين الناس وهم يختلفون في أصناف غرورهم وفي درجاته.

من أنواع الغرور

- ولعل أشد أنواع الغرور هو غرور الكفار والعصاة. فأنهم يركنون إلى ما في أيديهم من جاه وزعامة، أو مال أو علم أو صحة أو نسب، فلا يلتفتون إلى وعد الله الحق الذي جاءهم من أنبيائه ورسله، وحيا منزلا من السماء، ليهديهم إلى صراط الله المستقيم. وينصرفون عنه مغرورين بما في أيديهم من حطام الدنيا، أو بما في عقولهم من جاهلية حمقاء غبية، أو أن الشيطان يطمعهم في عفو الله وكرمه ويمنيهم بالمغفرة مع إصرارهم على المعاصي.
يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (فاطر: ٥).
فهذا يخشى على زعامته، وذاك يظن أن ماله أو جاهه يخلده، والآخر يتوهم أن ما بين يديه من علم كاف وهو يغنيه. وذاك يركن لخداع الشيطان.
ويقول الحق سبحانه تعالى في هؤلاء: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦)﴾ (الكهف: ١٠٣-١٠٦).
- وقلما يسلم الكثير من العلماء والفقهاء والزهاد من مظهر من مظاهر الغرور. فمنهم من يؤثر المراء والجدال على الحلم والحكمة وقول التي هي أحسن إذا ما ابتلوا بعالم أو جاهل يطعن في بعض ما يقولون أو يفعلون. ومنهم من يظن أن مقامه عند ربه أرفع من أن يبتليه بالغرور وهذا غرور بعينه. ومنهم من يشتغل بالوعظ والتذكير والنصح لعامة المسلمين ولا يلتفت كثيرا إلى قلبه الذي بين جنبيه وإلى نفسه الأمارة بالسوء فيشغله الوعظ للناس عن أمر نفسه وهذا من الغرور أيضا.

الغرور آفة شيطانية خبيثة فاحذره

ومظاهر الغرور كثيرة وآفاتها شديدة ودقيقة تدب في نفس الإنسان دبيب النمل.

لذلك فإن الحذر واجب من هذه الآفة الخبيثة. فإذا وجد المرء أن الدنيا أحب إليه من الآخرة، وأن هوى نفسه أحب إليه من رضى الله تعالى فلا يمكنه الخلاص من الغرور.

تفضيل الآخرة على الدنيا يدفع الغرور عن قلبك

وتفضيل الآخرة على الدنيا ورضى الله على رضى النفس، يكون في كل قول، أو عمل، أو سعي، أو طاعة، أو نية، وفي كل شأن من شؤون الحياة - مهما دق وصغر - وليس في أمر دون آخر. وعلى المرء أن يجاهد في معرفة ما يقربه من الله ويثبت قدمه على الطريق إليه، ثم يواظب ويجاهد على الثبات ويدعو من الله العون والمدد.

كيف ينشأ الغرور في قلبك؟

والغرور بكل أصنافه ومظاهره، وفي شدته أو خفوته، ينجم عن خصلتين اثنتين هما التوهم والاعتداد. ولو نظرت في أحوال من سبق وأحوال من تراهم في دنياك الآن، ممن عملوا ويعملون في رعاية أمور الناس في الحكم والتربية والقضاء والجيش والتبليغ والاعلام، وغير ذلك من الوظائف والمقامات التي تعطيهم ريادة وسلطة، فإنك سترى العجب العجاب من صنوف الغرور المتفشية بينهم، وستجد أن كلها تأتي من التوهم الكاذب بالملكات والقدرات، والاعتداد الزائد بالنفس.

بدعة جديدة في وصف الغرور

ثم إنك لو أمعنت النظر حواليك اليوم، ستجد أن الكثير من مظاهر الغرور صارت تكنى بصفات تعطيها صفة الأصالة والتمكين. فيطلق على المغرور بأنه رجل معتد وواثق من نفسه، أو أنه رجل تليق به الأبهة والمقام الرفيع، أو أنه قد أمتلك من العلم أو من الحكمة أو من الكياسة أو من قوة البيان ما لا يمتلكه أحد مثله الآن.

٢٧- التدابر والتباغض

الإسلام دين أخوة ومحبة وألفة

الإسلام دين أخوة ومحبة وألفة، وهو يريد لهذه الخصال أن تكون حقيقية وصادقة وراسخة بين المسلمين، وأن تجد طريقها إلى قلوبهم فتمتلئ بها وتفيض، فلا تكون ثمة فرجة فيها بعد ذلك للشيطان لأن يوقع بينهم العداوة والبغضاء، أو ينفر بعضهم من بعض فيتدابرون ويتهاجرون ويتباغضون.

نبذ التدابر والتباغض في الهدي النبوي الشريف

وقد وضع نبي الرحمة (ﷺ) قواعد نبوية شريفة لتثبيت تلك المبادئ في هديه المبارك لتكون منهاجا للأمة من بعده، تعطي الأمة القوة والعزة والنصر والتمكين إذا ما تمسكت بها، وتصاب بالفرقة وتذهب ريحها وتذل إذا ما انصرفت عنها.

قال (ﷺ) مخاطبا الأمة في كل زمان ومكان:

[لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا] (البخاري ومسلم).

[لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام] (البخاري ومسلم).

ونداء النبي (ﷺ) ونهيه للمسلمين بعدم التدابر والتباغض والتهاجر هو حثهم بأن يستأصلوا كل الأسباب المفضية إلى ذلك، وأن يرتقي خلقهم وسلوكهم فوق ما قد يعتلج في نفوسهم من نوازع الغضب والكراهية ضد بعضهم البعض، وأن يتسامحوا ويغفروا لإخوانهم ما قد يكون منهم من خطأ مقصود أو غير مقصود، فالأخوة في الله تقتضي ذلك، كما تقتضي أيضا أن لا يهجر مسلم أخاه.

نعيش اليوم نقيض ما جاء في الهدي النبوي الشريف

ولعل ما نراه اليوم في معظم المجتمعات الإسلامية هو نقيض هذا الهدي المحمدي تماما، فلا نرى الهجر والتدابر والتباغض بين عامة الناس فقط، بل نرى تلك الآفات قد وصلت إلى طبقات أهل العلم والفضل والعبادة والى الدعاة. وهذا يدل على استحكام الغفلة وتمكن الشيطان من النفوس. وأنك لتشعر بالأسى حقا حين ترى أو تسمع أن اثنين من أهل العلم - ممن يرجى منهما الخير - قد تدابرا فلا يكلم أحدهما الآخر ولا يسلم عليه ويعرض عنه إذا جمعهما مجلس معا أو تقاطعا في طريق. وقد يكون السبب واهيا بسيطا، كأن يكون اختلافا في الرأي أو تنافسا في ترشيح لمنصب، أو تكريما لأحدهما دون الآخر، أو أقل من ذلك بكثير.

وقد لا نستغرب أيضا إذا قيل لنا أن رجلين من رواد مسجد واحد حصل بينهما هجر وقطيعة ولما تغيب الإمام يوما وتقدم أحد المتدابرين ليؤم الصلاة تراجع الثاني ولم يرض أن يصلي وراءه.

فهل بعد ذلك من جهل وسفاهة؟؟

ولعل هذا الانحطاط والركون المذل لهوى النفس في سفاسف الأمور، لتكون مدعاة للحسد والقطيعة والهجر بين المسلمين، هي التي أوصلت الأمة إلى هذا التشتت والتشرذم والتخلف الذي تعيشه.

فكيف يصح لنا أن ندعي الانتماء إلى أمة الحبيب المصطفى (ﷺ) ونحن قد هجرنا نهجه وهديه الشريف؟؟

❊

٢٨ـ اللوم والتوبيخ

لا تنظر إلى الإنسان كآلة

الإنسان كائن بشري، تعتريه حالات من علو الهمة والعزم على العمل، ومن تقلص هذه الهمة وخفوتها أحيانا. ويتأثر بما حوله وبمن حوله، فيحزن ويكتئب وينسى أحيانا، ويفرح وينشرح صدره أحيانا أخرى. لذلك فهو ليس كالآلة يمكن ضبط حركته وسرعته ليعمل ضمن سياق ثابت لا يتغير.

حاول أن تثبت خلق التسامح والصفح في قلبك

والله تعالى وهو الذي خلق الإنسان ويعرف فيه هذه الخصال والأحوال، جعل باب التوبة مفتوحا أمام الإنسان ليرجع إلى ربه تائبا، مستغفرا، طامعا في كرم ربه كلما زلت به قدم، أو أصابه وهن وضعف في أداء طاعة. والله واسع المغفرة وغافر للذنب. وهو تعالى يريد لعباده أن ينشروا بينهم خلق التسامح والصفح والغفران، وعدم المؤاخذة بالزلة بين بعضهم البعض، أو المبالغة باللوم والتوبيخ.

بين اللوم والتوبيخ والنصيحة

واللوم والتوبيخ خلق مذموم يمارسه الكثير من الناس وخاصة من تكون لهم سلطة تؤهلهم للتحكم في الآخرين، كرؤساء العمل، ومدراء المدارس والمعلمين والأباء.. وغيرهم.

وكلنا يعلم أن ثمة فرقا بين التوجيه، وتقديم النصيحة، أو لفت الانتباه لمن يخطئ أو ينسى أو يتلكأ ويتكاسل، فلا ينجز العمل بشكله الصحيح وفي وقته وموعده. وبين الانفجار في وجهه وإطلاق العبارات النابية والبذيئة في حقه، والمبالغة في لومه وتوبيخه، واللجوء إلى العقاب غير المبرر أحيانا أخرى.

اللوم والتوبيخ لا يأتي بخير

وعادة ما يقود هذا الخلق الفظ إلى النفور من الدراسة والتعلم، أو من العمل، ويكون ذلك سببا يقود المخطئ أو المقصر إلى فقد الثقة بنفسه ومن ثم إلى فشله، وبذلك تتعطل طاقات كان لها أن تفيد المجتمع، بسبب تصرف أهوج وطبع أحمق.

والناس بطبيعتهم ينفرون ممن يبالغ في اللوم ويتسرعون في الغضب من قبل أن تتبين لهم مواطن التقصير، أو درجته، وربما لا يكون ثمة تقصير أو خطأ أصلا عند من يصبون لاذع لومهم وتقريعهم عليه.

اللوم والتوبيخ خلق تنفر منه النفس البشرية

والذي يتكئ على جدار المسؤولية ويظن أنه يعطيه الحق في اعتماد القسوة في المعاملة، أو يظن أن تسيير النظام في المصلحة، أو في تربية التلاميذ والأولاد، لا يكون

إلا بالغلظه والشدة والتوبيخ لمن يرتكب الخطأ منهم، عليه أن يدرك أن هذا الخلق، خلق تنفره النفس البشرية، وهو خلق مذموم لا يقره عقل أو منطق أو دين.

الناس تكره اللوامين والمبالغين في العتاب

ولو نظرنا في العلاقات الاجتماعية، ورأينا رجلا يكثر ويبالغ في لوم أقاربه وأصحابه إذا ما انقطعوا عنه، أو تأخروا في أداء واجب اجتماعي معه، فإنه سيزيد من قطيعتهم، وسيجد نفسه وحيدا لا يرضى عن أحد ولا يرضى عنه أحد. حتى لو كان الرجل صادقا مخلصا في مودته ومحبته، لأن الناس تكره اللوامين والمبالغين في العتاب.

ولنا في رسول الله أسوة حسنة

ولنا في رسول الله أسوة حسنة، فهذا أنس (رضي الله عنه) يقول: (خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قال لي: أف، ولا: لم صنعت؟ ولا: ألا صنعت) (البخاري).

عشر سنين ياحبيبي وقرة عيني يا رسول الله يلازمك أنس فلا يجد منك نظرة لوم أو كلمة توبيخ؟ بل تركته على سجيته مرتاحا منبسط القلب متلهفا على خدمتك عن طيب خاطر.

أي خلق هذا الذي جبلت عليه يا أكرم الأكرمين؟؟

ولكن... لا عجب فالله وهو أرحم الراحمين يقول عنك: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)

وكفى بالله شهيدا.

❋

٢٩ـ عدم قبول الأعذار

الإسلام دين عفو وصفح وتسامح

الإسلام دين رحمة ووئام، ودين عفو وصفح وتسامح. وليس دين كره وبغض وإطلاق غيظ، وتغليق الأبواب في وجه من أساء.

القصاص في الحدود ليس المبتغى في منهج الله

وإذا كان الباري (عز وجل) قد أحل القصاص في الحدود إلا أنه سبحانه ندب إلى الفضل وهو العفو والصفح. قال تعالى:

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (الشورى: ٤٠).

﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (الحجر: ٨٥).

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور: ٢٢).

وهذا نداء رباني كريم للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وفي كل وقت وحين. أن يكون خلق الصفح والعفو والغفران هو الغالب بينهم في رد المظالم ودفع السيئات.

لا تجر وراء هوى النفس في المكابرة وعدم قبول الأعذار

فمن يغلق على نفسه بابا يأتيه منه أجر وثواب من الله؟

أو يغلق بابا يأتيه منه غفران الله ورحمته؟

أو يغلق بابا يأتيه منه عز وفخار؟ كما جاء في حديث النبي (ﷺ): [ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبدا بعفو لى عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل] (مسلم).

لا يمكن لرجل عاقل يملأ الإيمان قلبه أن يترك نداء الرحمٰن ثم يوصد على نفسه أبواب الخير هذه، جريا وراء هوى النفس في المكابرة وعدم قبول الأعذار.

لا تقابل طالب العفو والمسامحة بالصد وعدم قبول المعذرة

ان الله تعالى يدعونا أن نعفو ونصفح حتى إذا لم يأت المسيء بحقنا يلتمس العذر والمسامحة. فكيف إذا جاءنا خجلا أسفا يعتذر عما كان منه من سوء أو بغي أو ظلم؟؟

إلا يتفوق علينا بهذا الخلق وهو الشعور بالذنب والتقصير، ثم اللجوء إلى طلب العفو، إذا قابلناه نحن بعدم قبول معذرته، وإقالة عثرته، وستر زلته؟؟

لا تغلق بابك في وجه المعتذرين

إن الحياة لا تستقيم إذا أغلق كل بابه في وجه من بدرت منه هفوة أو زلة، أو صدر عنه تقصير أو تجريح، أو أقل من ذلك أو أكثر. ثم جاء يلتمس العفو. لأن ذلك يعني أن ينغلق كل على نفسه لأن الهفوة والزلة والخطأ قد تكون من أقرب المقربين فتكون بين الآباء والأبناء وبين الزوج وزوجه وتكون بين الأشقاء. فتتأزم العلاقات، ويكثر الحزن والشجن، وتتعطل المصالح.

والكرم ليس في بذل الأموال وإطعام الطعام فقط. بل هو في إقالة العثرات وقبول الأعذار أيضا.

فمن يترك بعد ذلك الكرم ويلجأ إلى اللؤم لا يكون إلا رجلا جاهلا وبخيلا.

❊

٣٠- الأسى على ما فات

المؤمن يفهم سر الحياة الدنيا

المؤمن الذي هداه الله للايمان وأنار بصيرته فتفتحت براعم فكره وعقله على حقيقة الوجود، يعلم أن الحياة الدنيا بكل نعمها التي تزيغ لها الأبصار وتشتاق إليها القلوب، وبكل لحظات الفرح والانشراح التي يفيض بها الوجدان، وكذلك بكل الغصص والشجن والآلام. وتعاقبها عليه كما يتعاقب الليل والنهار، إنما هي آيات من آيات ربه، وإنها مشيئته سبحانه وتعالى أن جعل حياة الإنسان في هذه الدنيا – بكل تقلباتها – عبورا إلى مقر دائم هو الحياة الآخرة.

تذكير وتنبيه إلهي

ويعلم المؤمن أن تقلبه – وتقلب من حوله وكذلك تقلب الأقدمين – بين النعم وأسباب الرفاهية ورغد الحياة حينا، وبين الغصص والآلام ونكد العيش حينا آخر، إنما هو ليترسخ في يقينهم ووجدانهم إنما هم يمرون فوق جسر الحياة الدنيا الزائلة صوب الحياة الأخرى الأبدية الباقية.

تعامل مع الدنيا تعامل المسافر

والعبد المؤمن إذ يعي هذه الحقيقة، عليه أن لا يركن إلى ما قد يروقه في الدنيا من متع ومسرات، وأن لا يفاجأ بما قد سيجد فيها من المنغصات.

وعليه أن يتعامل معها كتعامل المسافر الذي يمر بمحطات كثيرة في طريقه إلى مقصده النهائي فلا تلهيه كثيرا ما قد يجد فيها من وسائل وأدوات الراحة.

فعن ابن مسعود انه قال: نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير فقام وقد أثر في جنبه فقلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك فراشا أوفر فقال: [ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها] (الترمذي).

لا تأس على ما فاتك ولا تفرح بما آتاك

وقد جاء البيان الإلهي لكل ذلك في كتابه العزيز: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣)﴾ (الحديد: ٢٢-٢٣).

انه نداء إلهي للناس كافة..

لا تأسوا على ما فاتكم أو ما قد ينوبكم في الحياة الدنيا من المصائب. ولا تبالغوا بالفرح بما يتحقق لكم فيها من مسرات وملذات.

فمن يعرض عن هذا البيان الإلهي، فينهار كمدا وحزنا إذا فقد ما كان بين يديه من متع الدنيا، أو لم ينل ما كان يصبو إليه- وكأن الشيء الذي تذهب نفسه حسرات على فقده أو عدم ادراكه كان سيخلده في هذه الحياة ويعطيه نعيما وملكا لا يبلى- فإنه لا يدرك حقيقة الوجود كل الإدراك، وعليه أن يلتفت لأمر نفسه وعقيدته ومستلزمات الإيمان في قلبه.

ثمة فرق بين الحزن المغموس بالصبر وبين الجزع

نعم إن القلب ليحزن وإن العين لتدمع لفقد ولد تشبع قلبك بمحبته، وقد أجاز الله لك ذلك. أما أن تعطل حياتك، وتلبس السواد طوال حياتك، وتغرق قلبك في الأحزان، وتهمل طاعاتك وعباداتك، فذلك ما نهى الله عنه ورسوله.

وإذا كان الولد – وهو زينة الحياة الدنيا وبهجتها – لا يريدك الله أن تجزع لموته وتنسى قدر الله فيه وفيك، فكيف تأسى على فقدان شيء ما دون الولد.

التشبث الأحمق بحطام الدنيا هو الذي يصيب الإنسان بالجزع والخوف

إن التشبث الأحمق بحطام الدنيا، والركون الكلي للنعم التي تتراقص فيها، هو الذي يصيب الإنسان بالجزع والخوف، فيأسى على ما يفقده وما يفوته من النعم، بأن يراها تنسل من بين يديه وهو لم يزل يتفكه فيها ويقطف ثمارها، دون أن يملك عليها سلطانا فيثبتها. أو يراها تجاوزته وهو قد أفنى شطرا من عمره يسعى إليها، حتى إذا ما صار منها قاب قوسين أو أدنى، يراها تمر قريبا منه لتحط عند رجل آخر أقل منه حظا في العقل والمعرفة والعلم. فيتفكه فيها الآخر بينما يغص هو بحسرته ويندب حظه العاثر.

المؤمن يرى غير ذلك

والمؤمن يرى غير ذلك!! يرى أن الله هو المدبر لكل شيء وهو القادر على كل شيء وهو لطيف بعباده خبير بأحوالهم، وهو الذي يشاء كيف يشاء ومتى يشاء وفي أي صورة يشاء. فـإن شاءت مشيئته أن يغدق نعمة بعد احتباس، أو يحبس نعمة بعد إغداق، فذلك لحكمة لا يعلمها إلا هو. وعلى العبد أن يسعى ويرضى بما قدره له ربه، فإن الأسى لا يغير من الأمر شيئا، وهو يوهن العزم ويضعف القلب.

قول مأثور

قال أحد العارفين: (لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى، لكان ينبغي لنا أن نختار خزفا يبقى على ذهب يفنى، فكيف وقد اخترنا خزفا يفنى على ذهب يبقى؟).

ثم كيف إذا تأسينا وجزعنا للخزف الذي يفنى؟؟

وهل الدنيا بكل زخرفها ونعيمها إلا كخزف يفنى؟

من مظاهر الأسى

ومظاهر الأسى على ما فات كثيرة نكاد نتلمسها في كل وقت وحين وفي كل مكان. من رجل يعزل من منصب كان يخوله سطوة وسلطة، أو رجل يخسر في تجارة، أو آخر يغيب المطر عن بذره، أو آخر كان ينتظر ترقية فلم ينلها، أو آخر ذهب لخطبة امرأة فرفضته.. أو أقل وأدنى من ذلك بكثير. فيغرق في الأسى والحزن لما كان من أمره، ويفقده الأسى رباطة جأشه ويتملكه الغضب والقلق والنفور من الناس. وكأن الذي يتأسى لفقده أو عدم تحققه هو الرابط الوحيد الذي يربطه بهذه الحياة.

الإنتحار قمة الحماقة والخسران

ولعل قمة الحماقة أن يصل الأسى على ما فات إلى درجة تغلق على المرء كل منافذ الحكمة والعقل فيلجأ إلى قتل نفسه، وذلك هو الخسران المبين.

٣١- الطمع

من معاني الطمع

الطمع هو تعلق قلب المرء بهوى من أهواء النفس كالمنصب أو الثروة أو الجاه. فإن حصل عليه رضي وقرت عينه ولكن لحين قصير من الدهر ثم سرعان ما يطمع في المزيد. وإن لم يحصل عليه سخط وكفر بكل أنعم ربه التي بين يديه، وأصبح صدره ضيقا حرجا كأنما يصّعد في السماء.

لا حدود للطمع

والطمع خلق مذموم يهبط بالإنسان إلى مستنقع الجشع، وإلى الرغبة في الاستحواذ، ولو كان ذلك بالاعتداء على حقوق الآخرين. ويدفع بصاحبه إلى الحصول على مبتغاه بشتى الوسائل والطرق دون الالتفات إلى مشروعية الوسيلة أو بطلانها.

واذ نعلم أن القناعة هي الرضى بالمقسوم، وأن الرضى لا يغشى القلب إلا بعد أن يطمئن بالإيمان، فإن الطمع هو نقيض القناعة تماما، ولا ينبعث إلا من قلب صدئ تلوث بالحرص الشديد والإلتصاق الكلي بحطام الدنيا وشهواتها. لذلك فإن من يسكنه الطمع لا يعرف الرضى إلى قلبه سبيلا، إلا في اللحظات التي يصل فيها إلى مبتغاه، ثم يجرفه تيار الطمع وراء المزيد والمزيد، فلا تراه إلا قلقا متبرما ساخطا ومكتئبا.

وخير من أشار إلى أنه لا حدود لطمع الطامعين، هو سيد الأنام محمد (ﷺ) حين قال: [لو أن لابن آدم واديا من ذهب أحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب] (البخاري).

الأصل أن لا تلتفت إلى ما في أيدي الناس

والأصل أن لا ينظر أو يلتفت المرء إلى نعم أنعمها الله على غيره، بل يرضى بما قسمه له ربه. وإن كانت له حاجة توجه بها إلى قاضي الحاجات الذي يهب من دون منة. قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (النساء: ٣٢).

وصية نبوية لكسر حدة الطمع في قلبك

ولكي يكسر المرء رغبة الطمع التي قد تعتريه في بعض الأحيان عليه بوصية النبي (ﷺ): [إذا نظر أحدكم إلى من فضلَ عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه] (البخاري ومسلم).

لأن الذي ينظر إلى ما في أيدي الناس ويطمع أن يملك مثل ما يملكون، فإنه لن يرى الراحة في حياته أبدا. فمهما أوتي من حظ وجاه وثروة سيرى من هم أكثر منه جاهاً وثراء، فيعيش حياته منقبض النفس مهموم الفؤاد.

لذلك قال النبي (ﷺ): [بئس العبد عبد طمع يقوده] (الترمذي).

الطمع طوق أسر في رقبة الإنسان

فالطمع ليس إلا طوق أسر حول عنق الإنسان، وإذا لم يلجم المرء هذا الطمع بطوق القناعة، بل استرسل وأطلق لطمعه العنان فإنه لا يورده إلا موارد الذل والمهانة ولا يبقي له مهابة ولا كرامة ولا عزة نفس.

وصدق من قال: (عز من قنع، وذل من طمع)

***

٣٢- الشح والبخل

من معاني الشح والبخل

الشح: هو شدة الحرص على الشيء والاحفاء به، والاستقصاء في تحصيله، وجشع النفس عليه.

البخل: هو منع إنفاق الشيء بعد الحصول عليه.

والشح والبخل صفتان خسيستان، وخلقان مذمومان لئيمان. والبخل ثمرة الشح، والشح يدعو إلى البخل.

من فلوم شحّ نفسه كان من المفلحين

والشح كامن في النفس فمن بخل فقد أطاع شحه، ومن لم يبخل فقد عصى شحه ووقى شره، وذلك هو المفلح. يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩).

أي إذا كانت نفس العبد شحيحة ومجبولة على الحرص على المال والبخل في إنفاقه، فتذكر وعيد الله لمن يبخل بالإنفاق في سبيل الله، وتذكر وعد الله لعباده المحسنين والمتصدقين، فقاوم هوى نفسه وما جبلت عليه من الحرص، فبذل ماله في سبيل الله وأنفق وتصدق فإنه يكون من المفلحين.

المؤمن ينظر إلى نعم الدنيا بمنظار الشكر والقناعة

والمؤمن الذي يدرك عظمة خالقه ويفقه كنه مشيئته في خلقه. يترسخ في يقينه ووجدانه أن ما به من نعمة، وما يصيب من نجاح، وما يبصر بعلم وحكمة، وما يؤتى من رزق ومال، وما يرزق من ولد، لا يكون إلا بمشيئة الله تعالى وفضل من عنده. لذلك لا يمكن للمؤمن أن يكون شحيحا وبخيلا - بعد ذلك - بما رزقه الله من مال وثروة، أو علم.

وقد أشار النبي (ﷺ) إلى ذلك حين قال:

[لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدا] (ابن جرير الطبري).

[خصلتان لا تجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق] (الترمذي).

وكأن المرء - وهو ينوء بحمل ماله على ظهره - يجد طريق الإيمان أمامه وعليه باب موصدة، فلما أراد ولوجه قيل له: أنزل مالك عن ظهرك وتصدق منه يفتح لك الباب. فإن فعل يكون سلك طريق الإيمان والنجاة، وإن أبى وغلبه بخله، وقف خلف الباب الموصدة ينوء بحمله، يهده التعب وتقتله الحسرة.

الشحيح البخيل ينظر إلى نعم الدنيا بمنظار الحرص

واذ تنظر إلى الشحيح البخيل - ومنهم من وصل إلى أرذل العمر ووهن العظم منه واحدودب ظهره - تجده أحرص الناس على المال، يقتر على نفسه وأهله، وكأن هذا المال هو الذي سيجعل قبره روضة من رياض الجنة، أو يظله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظل الله، أو يثقل ميزان حسناته، أو يسهل عبوره على الصراط.

ألا يدري هذا المسكين أن هذا المال الذي يكنزه سيكون وبالا عليه وسيطوق به يوم القيامة؟

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران: ١٨٠).

ألا يعلم البخيل إذ يسد أذنيه ويغلق على قلبه حتى لا يصغي إلى كلام الله وهو يدعوه إلى الإنفاق في سبيل الله. إنه ببخله وعدم إنفاقه يبخل على نفسه هو، بأن يمنع عنها ثواب الله وأجره العظيم الكريم، وإنه سيترك هذا المال، لا محال، لورثته أو

يخسره قبل موته؟

أيظن هذا الجاهل أن الله بحاجة إلى ماله؟ أليس هو الواهب والمانح والرزاق؟

ولكنه ضعف الإيمان في القلب، وإنه هوى النفس الذي يزين المال في قلبه ويجعله يظن أن الإنفاق في سبيل الله سيفقره، وتراه يملك من الأموال ما تكفيه وتكفي آلافا معه عشرات بل مئات السنين، ولا يدري هذا المسكين أن البخل هو الفقر بعينه.

﴿هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ (محمد: ٣٨).

أبغض البخلاء عند الله من يدعو غيره إلى البخل

وأشد البخل وأبغضه عند الله، انك وقد كتمت ما آتاك الله من فضله فبخلت به، وكنزته ذهبا وفضة وعقارات وأرصدة في المصارف، أن لا تقر عينك ولا يهدأ بالك أن تجد رجلا كريما إلى جوارك، فلا تنفك تدعوه إلى البخل وتحذره من الإنفاق، وتزرع حب المال والحرص عليه في قلبه، حتى تجعله بخيلا مثلك.

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (النساء: ٣٧).

البخل يكون في العلم والمعرفة أيضا

وتماما كما يكون البخل في الإنفاق يكون البخل في العلم، أو الصنعة أو الحرفة. فكم نجد عالما يقضي جل عمره بين الكراريس والكتب، أو في المخبر، يدرس ويحقق ويستكشف، ولكنه يحرص أن يبقي علمه طي الكتمان، فلا يعلم الناس حرفا منه ولو سئل. وكم من صاحب حرفة ينتفع بها الناس ولما يبلغ العمر به أرذله يأتيه من ينصحه: أترك سر حرفتك في خلفك فلا يرضى ويأخذ سره معه إلى قبره. وكذلك كم من حكيم قد آتاه الله سر تركيب دواء نافع وجعله سببا للشفاء من الكثير من الأمراض إلا أنه يبخل بنشر علمه حتى لأقرب المقربين إليه، وكأنما يريد أن يقال من بعده: لقد ترك فلان فراغا كبيرا، ولم نر حكيما جاء من بعده، وصل إلى علمه، وعرف أسرار الدواء مثل ما كان يعرف. أو يظن هذا العالم (الجاهل) أن هذه الكلمات تنفعه يوم القيامة؟

أما يدري هؤلاء البخلاء المساكين أنهم لو نشروا أسرار العلم أو الحرفة أو تركيب الدواء الذي آتاهم الله من فضله، كانت لهم كعين جارية من الثواب لا تنضب إلى يوم القيامة؟

[أيما رجل آتاه الله علما فكتمه، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار] (الألباني).

البخيل بعيد عن الله بعيد عن الناس بعيد عن الجنة

واذ يحرص الشحيح البخيل على ما بين يديه، فإنه يكسب كراهية من حوله –

حتى أقرب المقربين إليه – ويكسب بغض الله وغضبه، ويبتعد ببخله عن الجنة.

فيا قبح البخل وقبح من يتصف به!!.

❊

٣٣- المن والأذى في المعروف

من معاني المن والأذى

المن: هو التحدث بما أعطي حتى يبلغ ذلك المعطى له فيؤذيه.

والأذى: هو سب وتجريح السائل والتشكي منه.

الأصل في المعروف أن يصدر عن نفس زكية

والأصل في المعروف – والصدقة باب من أبوابه – هو:

أن يصدر عن نفس زكية مطمئنة راضية، وأن يكون لوجه الله تعالى، ولا يكون رئاء الناس، ولا يكون رجاء في خدمة أو مكافأة أو شكر وثناء، ولا يشوبه غاية من غايات الدنيا.

لذلك فمن يكسر هذه القاعدة ويتبع معروفه أو صدقته منا أو أذى، لا يكون قد صنع معروفا أصلا. أو يكون ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ (النحل: ٩٢).

لا تبطل معروفك بالمن والأذى

لذلك على المسلم أن يتحرز ويراقب نفسه ويجاهد كثيرا - حين يصنع المعروف أو يتصدق - حتى لا يصدر عنه ما قد يكون من المن والأذى.

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ (البقرة: ٢٦٤).

وأي بيان أبلغ وأوضح من كلام الملك العلام إذ يحذرنا أننا نبطل صدقاتنا إذا أعقبناها بشيء من المن والأذى.

من صور المن والأذى

وكثير منا مارس أو رأى صورا من صور المن والأذى، فالغالب في صدقاتنا هو المن والأذى – مع الأسف – ومن هذه الصور:

أن يقول من صنع معروفا في رجل ثم بدر منه خطأ – مقصود أو غير مقصود –: (أأنت تفعل معي هذا أيها الصعلوك اللئيم؟؟ يا ناكر الجميل. أتنسى أنك كنت تأتيني ذليلا منكسرا فأتصدق عليك، يوم كنت لا تملك درهما ولا دينارا؟؟).

أو يقول له: (خذ هذا المبلغ واغرب عني فلا أريد ان أرى وجهك القبيح هذا مرة أخرى).

أو يقول لبعض حاشيته أو لنفر من أهل بيته: (اعطوه شيئا وقولوا له انكم

ستقطعون له يده لو جاء فطرق بابنا مرة أخرى).

أو يسبه ويطرده شر طردة، إذا جاءه مرة اخرى. ويقول له: (اسأل الله أن يعطيك، وهل أنني متكفل بك لتأتيني المرة تلو المرة؟؟).

أو يكون في جمع من الناس فيذكر الرجل فيقول: (إنه يأتيني كل شهر فأعطيه ما تيسر من صدقة).

وكل الكلام الذي سبق ودونه وأقل منه بكثير يجرح مشاعر الناس ويؤذيهم، ويشعرهم بالصغار والهوان، ويخدش حياءهم وكرامتهم. فأين المعروف إذاً؟؟

النهي النبوي الشديد عن المن والأذى

وقد أشار النبي (ﷺ) إلى المن والأذى كذنب كبير يستجلب غضب الله وعذابه الشديد.

عن أبي ذر (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) أنه قال: [ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم] قال فقرأها ثلاث مرات. قال أبو ذر: (خابوا وخسروا من هم يا رسول الله)؟ قال (ﷺ): [المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب] (مسلم).

فضل السر على الجهر في المعروف

لذلك كان فضل السر على الجهر في الإعطاء أكثر وأجره أعظم، وكأنما ستر العطاء والبذل هو اتمام للمعروف فيكون معروفا لذاته.

يقول الله تعالى: [إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ] (البقرة: ٢٧١).

وورد عن ابن عباس انه قال: (لا يتم المعروف إلا بثلاث: بتعجيله وتصغيره وستره. فإذا اعجله هنأه، وإذا صغره عظمه، وإذا ستره تممه).

❊

٣٤ـ الإسراف والتبذير

من معاني الإسراف والتبذير

المشهور أن الإسراف والتبذير يكونان بمعنى واحد، والمقصود بهما: صرف المال في غير محله وفي غير طاعة الله.

الا أن بعض العلماء فرق بينهما ومنهم (علي بن محمد علي الجرجاني – كتاب التعريفات) فقال: (الإسراف تجاوز في الكمية، فهو جهل بمقادير الحقوق، وصرف شيء فيما ينبغي زائدا على ما ينبغي. بخلاف التبذير، فإنه صرف الشيء فيما لا ينبغي).

الإنفاق يكون وسطا وإعتدالا بين الإسراف والتقتير

ولأن الإسلام دين وسط وإعتدال في الأمور العبادية والحياتية كلها، ومسألة الإنفاق – وخارج ما فرض من الزكاة – مسألة هامة لا تخص كل فرد بذاته، وإن بدت في ظاهرها كذلك، لأن تأثيراتها السلبية والايجابية تنسحب على الأسرة والمجتمع بل على اقتصاديات الأمة بأسرها.

لذلك فإن الله تعالى في الوقت الذي أفرد آيات كثيرة في الحث على الإنفاق في سبيل الله وبكل أوجهه الشرعية وكذلك في ذم الشح والبخل. وفي الهدي النبوي الشريف مثل ذلك. إلا أن الله تعالى أراد لهذا الإنفاق أن يكون وسطا وإعتدالا بين الإسراف والتقتير.

النهي عن الإسراف والتبذير في كتاب الله

وأفرد الله سبحانه آيات كثيرة في ذم الإسراف والتبذير، والنهي عنهما، والحث على الإعتدال في الإنفاق.

ولعل اشد آيات النهي عن الإسراف والتبذير هو في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الانعام: ١٤١). وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧)﴾ (الإسراء: ٢٦-٢٧).

وكفى بهذا زجرا ورادعا عن الإسراف والتبذير، أن تسلب من المرء محبة الله، وتجلب عليه سخطه ومقته، وتجعله في مصاف الشياطين.

الإسلام والإعتدال في الإنفاق

ومن الآيات التي جاءت في الحث على الإعتدال في الإنفاق هي:

﴿[وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: ٦٧).

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ (الإسراء: ٢٩).

وجاء في الهدي النبوي أيضا في الإعتدال: [كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة] (البخاري).

إذاً فهي وسطية الإسلام وهي الإعتدال في الإنفاق الذي يضبط موازين الأخلاق ويحمي اقتصاد المجتمع، وليس الترف المجنون في الإنفاق، الذي يفسد الأخلاق ويضيع الأموال ويمزق الروابط الاجتماعية.

من مظاهر الإعتدال

وقد اهتم فقهاء الأمة بموضوع الإعتدال في الإنفاق فقالوا بوجوب:

- مراعاة الأولويات في الإنفاق، فتبدأ بالضروريات التي لا تستقيم الحياة بدونها كالمأكل والمشرب والملبس. ثم الحاجيات وهي النفقات التي تخفف على المرء مشاق الحياة. ثم الكماليات وهي النفقات التي تجعل حياة الفرد رغدة طيبة ومرفهة. ويجب الالتزام بهذا التدرج، وأن لا ينفق في الكماليات في الوقت الذي تكون ثمة حاجة للضروريات والحاجيات.
- التوازن في الإنفاق وتنظيم الصرف، وأن لا يكلف المرء نفسه ما لا يطيق.
- تجنب الإسراف والتبذير.

الأسباب الباعثة على الإسراف والتبذير

ومهما كانت الدوافع التي تقود البعض للإسراف والتبذير، مثل حب الظهور والتباهي أمام الناس، أو المحاكاة والتقليد، أو الغفلة عن الآثار المترتبة على الإسراف والتبذير، أو الانجراف وراء العادات الشرائية الخاطئة، أو غير ذلك.. فإنها تؤدي إلى الإنفاق في غير تبصر.

من مظاهر الإسراف والتبذير

- الإسراف والتبذير في الولائم والتنافس فيها.
- الإسراف والتبذير في المأكل والمشرب والملبس.
- الإسراف والتبذير في حفلات الزواج والمبالغة المفرطة في المهور.
- الإسراف والتبذير في الكماليات وأثاث البيت وكثرة استبدالها.

والمطلع على أحوال الشعوب فيما يخص الإنفاق ويقارن حال الكثير منها بحال المسلمين، يجد ما لا يسره أبدا، فالمقارنة السلبية تكون لصالح المسلمين، والمقارنة تكون عند مقاربة الكسب ومراعاة أوجه الإنفاق التي سبقت الإشارة إليها.

وعموما ففي غياب الحكمة والتعقل والخوف من الله وعدم لزوم أوامره ونواهيه فلا حدود للتبذير والاستهانة بنعمة المال.

يقول أبو الحسن الماوردي رحمه الله في التبذير: (من التبذير أن ينفق المرء ماله فيما لا يجدي عليه نفعا في دنياه، ولا يكسبه أجرا في أخراه، بل يكسب في دنياه ذما ويحمل إلى أخراه إثما).

ويقول أيضا: (كل ما أنفقه الإنسان مما يكسبه عند الله أجرا، ويرفع له منزلة، أو يكسب عند العقلاء وأهل التمييز حمدا، فهو جود وان عظم وكثر. وكل ما أنفقه في

معصية الله التي تكسبه عند الله إثما وعند العقلاء ذما فهو تبذير وإن قل ونذر).

هل يكون الفقير مسرفا ومبذرا؟

ولذلك ففي تحديد الإسراف والتبذير ينظر إلى الموازنة بين الكسب والإنفاق والى أولويات الصرف، فرب فقير يصل تبذيره ما لايصل إليه تبذير غني إذا لم يراع الفقير هذين الشرطين. ومهما زاد إنفاق الغني على إنفاق الفقير.

درس نبوي شريف في النهي الإسراف

ولعل في هذا الحديث النبي (ﷺ) مما يرويه عبد الله بن عمرو أن رسول الله مر بسعد وهو يتوضّأ فقال: [ما هذا السرف؟] فقال: أفي الوضوء إسراف يا رسول الله؟ قال: [نعم.. وإن كنت على نهر جار] (أحمد، ابن ماجة، النسائي)، شعارا ودليلا يقيس عليه المؤمن حدود الإعتدال في الإنفاق.

❊

٣٥ـ التشييع للأخبار الكاذبة

الإسلام دين ينبذ الدناءة والخسة وما يحاك في الخفاء

الإسلام دين قيم وأخلاق، ودين يحب النور والهواء الطلق وينبذ الدناءة والخسة وما يحاك في الخفاء. لذلك نهى عن الكذب والغيبة والنميمة والبهتان. والتشييع للأخبار الكاذبة هي إنتصار لكل هذه الخصال الذميمة، فلا غرو أن يصنف التشييع للأخبار الكاذبة مثلها خلقا ذميما منهيا عنه.

الإشاعة بذرة شر

والإشاعة الكاذبة هي بذرة شر يزرعها شخص منافق أو مغرض أو فاسق أو خائن، يهدف من ورائها الإساءة إلى شخص بعينه، أو أسرة، أو طائفة، أو مجتمع، أو ليشيع الفتنة والفوضى بين الناس ولغرض دنيء.

حادثة الإفك أخطر إشاعة كاذبة في تأريخ الإسلام

ولعل أخطر وأحط إشاعة كاذبة في تأريخ الإسلام، كانت حادثة الإفك، والتي كانت نازلة شديدة ومحنة عظيمة قصد من ورائها المنافقون النيل من النبي (ﷺ) ومن أهل بيته الأطهار.

وكان الذي تولاها وزرع بذرتها الخبيثة رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، بهدف اشغال المسلمين بأمر خطير يمس مشكاة النبوة ورمزها، ليتهيأ لهم بعد ذلك اشعال الفتنة بين المسلمين أنفسهم، ومن ثم التعاون مع المشركين المتربصين للانقضاض على المسلمين في المدينة والقضاء على الدعوة المحمدية.

وكاد التشييع لحادثة الإفك المفتراة والملفقة، أن تشعل الفتنة بين الأوس

والخزرج، لولا أن الله تعالى فرج كربة النبي (ﷺ) وأظهر براءة وطهارة أهله من هذا الدنس الذي أرادوا إشاعته. وأنزل آيات البراءة قرآنا يتلى لتخرس كل الألسن التي تطاولت على النبي (ﷺ) في عرضه.

القرآن يدين من يحيك الإشاعة ومن ينشرها

وفي آيات الافك ادانة لمن يحيك الإشاعة ولمن يساهم في نشرها إلى يوم القيامة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النور: ١١).

وفي هذه الآية إشارة أن من يزرع بذرة الخبر الكاذب هو الذي يبوء بالإثم الأكبر، ومن ثم كل من يتولى اشاعته يبوء من الإثم بدرجة إسهامه في نشر الشائعة، وبقدر ما تتسبب الإشاعة من أذى وضر.

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْلَا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣)﴾ (النور: ١٢-١٣).

وفي هذه الآيات تحريض وتنبيه للمؤمنين أن لا ينجروا وراء نشر الأخبار إلا بعد التثبت والتأكد من صدقها وصحتها. وإذا كان نشر هذه الأخبار يحقق مصلحة لطائفة من المسلمين أو للمسلمين عموما، وإلا فالسكوت عن الخبر هو الأفضل.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (النور: ١٥).

وفيها تنبيه أيضا لعدم الاستهانة بنقل الخبر الكاذب الذي يؤذي الناس وبدون علم وتبصر، وهو ليس بأمر هين، بل هو ذنب عظيم على المسلم أن يتجنبه.

﴿يَعِظُكُمَ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (النور: ١٧).

وفيها دعوة ربانية صريحة لمن ابتلي فكان له شأن في تشييع خبر كاذب، أن يكف ويتوب ولا يعود لمثله أبدا.

وبهذا يكتمل البيان الإلهي في تأثيم تشييع الأخبار الكاذبة من خلال الآيات التي نزلت في حادثة الإفك.

كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع

وهنا لا بد من القول أنه لا يشفع للعبد إن لم يكن يعلم غاية ومقصد من لفق الخبر الكاذب فيقول إنما أنا رجل نقلت ما سمعت. فالمؤمن لا يليق به أن يتلقف الكلمة من أفواه الناس ثم ينشرها دون تبصر، وعليه أن يكون حريصا وأمينا على كل ما

يسمع وما يقول، حتى يجنب نفسه النميمة وإشاعة خبر قد يكون في نشره ضرر والحاق أذى بأحد من الناس، أو يوقع العداوة بينهم، أو يتسبب في إذكاء فتنة فيبوء بإثم كبير.

وفي نفس السياق يقول النبي (ﷺ): [كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع] (مسلم، أبو داود).

❊

٣٦ـ الحسد

من معاني الحسد

الحسد هو تمني زوال النعمة عن الغير.

ولأن النعمة هي هبة ربانية كريمة يهبها الرحمٰن لمن يشاء وكيفما يشاء، فتمني زوالها كأنما هو اعتراض على أمر خص الله به ذاته العلية فهو الواهب والمنعم والباسط والمانح. فمن يتجرأ على اعتراض أمر الله في نعمة يسوقها لعبد من عبيده، لا يكون إلا جاهلا بربه وبسننه في كونه.

حسد أهل الكتاب للمسلمين

والحسد هو الذي جعل الكثير من أهل الكتاب يعرضون عن رسالة خاتم الأنبياء بالرغم أنهم يعرفون أن النبي حق، وأن ما جاء به حق. إلا أنهم كرهوا أن لا يكون خاتم الأنبياء منهم، وحسدوا المسلمين على تشريف الله لهم باتباع رسالة النبي الخاتم. وتمنوا زوال نعمة الإيمان من قلوب المسلمين، وأن يردوا كفارا بعد أن هداهم الله، فيكونون مثلهم سواء بسواء.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ (البقرة: ١٠٩).

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ (النساء: ٨٩).

هل تريد أن تشارك المشركين في خصلة قبيحة واحدة؟

والإيمان بالله هو تاج النعم التي أنعمها الله على الناس، ثم تتدرج دونها باقي النعم. فهل ثمة من يريد أن يشترك مع الكفار والمشركين في خصلة قبيحة تستجلب غضب الله ومقته، فيحسد المشركين الناس على نعمة الإيمان، ويحسدهم هو على بقية النعم؟

الحسد يزرع الحقد والغضب في قلبك

وكراهية رؤية النعمة على الغير وحب زوالها تورثان الحقد والغضب في قلب الحاسد ضد المحسود، دون أن تكون له منه مضرة. وذلك الجهل بعينه، فكأنه يرى

النعمة التي أنزلها الله بغيره نقمة عليه.

مراتب ودرجات الحسد

- أن يحب المرء زوال النعمة عن الغير خبثا ولؤما من عند نفسه، حتى إذا لم تصل إليه.
- أن يحب المرء زوال النعمة عن الغير ووصولها إليه، ويكون مفتونا بالنعمة نفسها، مشغوفا بها، ويشده التلهف إلى تملكها أن يتمنى زوالها عن المحسود، إذا تعذر عليه منالها.
- أن يحب المرء مثيل النعمة – لا نفسها – فإن لم يحصل عليها وانقطع رجاؤه منها، تمنى زوالها عن المحسود حتى لا يتميز بهذه النعمة وهذا الفضل عليه. وهذا يخالف سنة الله في كونه بأن فضل بعضا على بعض في العطاء. ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١)﴾ (الإسراء: ٢٠-٢١). ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ (النحل: ٧١).
- أن يحب المرء مثيل تلك النعمة فإن لم يحصل عليها لم يتمن زوالها عن غيره. وقد تكون هذه المرتبة خارج أسوار الحسد، إلا أنها تبقى صفة مذمومة، بمقتضى قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (النساء: ٣٢).

وإنكار هذا الفضل لغيره إنكار لمشيئة الله تعالى.

آفات الحسد

- افساد الطاعة، بمقتضى حديث النبي (ﷺ) الذي رواه أبو هريرة: [إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب] (أبو داود).
- الحرمان من شفاعة النبي (ﷺ) بمقتضى حديثه الشريف: [ليس مني ذو حسد ولا ذو نميمة ولا ذو كهانة ولا أنا منه] (ابن عساكر).
- تفكك العلاقات الاجتماعية وانهيار بنيان الأمة إذا استفحل الحسد وصار كالوباء، وكما حذر النبي من ذلك. قال النبي (ﷺ): [دب بينكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول: الحالقة التي تحلق الشعر، وإنما الحالقة التي تحلق الدين] (المنذري).
- الإفضاء إلى الإضرار بالغير. فلذا أمرنا الله تعالى بالاستعاذة من الحاسد كما أمرنا بالاستعاذة من الشيطان. ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا

حَسَدَ﴾ (الفلق: ٥).

وقال النبي (ﷺ): [استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود] (الألباني).

• غير ذلك من الآفات الكثيرة. فالحسد باب من أبواب المعصية لعدم خلوه من الغيبة والنميمة والكذب والسب واللعن. كما أنه يجلب للحاسد الهم والغم من غير فائدة بل مع وزر المعصية.

وفي ذلك يقول ابن السماك: (لم أر ظالما أشبه بالمظلوم من الحاسد: نفس ذائم، وعقل هائم، وغم لازم).

٣٧ـ حب الدنيا

من معاني حب الدنيا

المقصود بحب الدنيا، هو الافتتان بها، والاطمئنان إليها، ونسيان الآخرة، فلا يكون للمرء هم إلا قضاء شهواته، والوصول إلى أطماعه، دون قيود أو ضوابط.

طالب الدنيا لا يأخذ العبرة من الراحلين عنها

وطالب الدنيا ولكثرة شغفه بها، لا يجد في قلبه فسحة للالتفات إلى أمر آخرته، والتفكر في آيات الله في خلقه لينتبه من غفلته، فيعرف أن الحياة الدنيا بكل زخرفتها وبهرجتها إن هي إلا حياة فانية زائلة، ومهما بلغ كسبه فيها من كنوز وقصور وضياع فإنه سيتركها لا محالة.

وإنه يرى أمامه رأي العين كيف أن أقرب الناس إليه يسلبهم الموت من بين يديه الواحد تلو الآخر، فلا يعتبر مما كانوا عليه من شباب وصحة، أو مال وثروة طائلة، أو جاه وسلطان، وما آلوا إليه جميعا ترابا تحت التراب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨)﴾ (يونس: ٧-٨).

العبرة في ذم الافتتان بالدنيا

ولعل هذا النهي الشديد للالتصاق بالحياة الدنيا، هو الخوف لما يمكن أن تؤول إليه حال البشرية إذا غلب على أفرادها التطلع إلى حطام الدنيا فقط، فلا يهمهم تحقيق حق ولا إقامة عدل، ولا انصراف لعبادة أو عمل نبيل. لا بد حينئذ أن ينحرف ميزان الأخلاق عن مساره القويم، وتتعطل مصالح البلاد والعباد، وتنفلت الأهواء والأطماع من مكامنها، جامحة جائعة كوحوش ضارية استبد بها الجوع، فتنهش في جسد

المجتمع الإنساني كله ظلما وجورا وفحشا.

خير الزاد في الدنيا هو زاد التقوى

والمسلم الذي يؤمن بأن اليوم الآخر هو يوم الجزاء الموعود، وأن الدنيا هي كمحطة تزود لهذا اليوم ليس إلا، ولا بد أن يتزود منها بخير الزاد وهو زاد التقوى والعمل الصالح. ولا يركن إليها كأنها مبلغ علمه ومنتهى مراده.

ماذا جاء في الكتاب والسنة حول حب الدنيا

بل يلتفت المسلم إلى ما جاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله (ﷺ) حول الدنيا ليكون هو الميزان الذي يزن كل أمره وعمله فيه.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ (الحديد: ٢٠).

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)﴾ (هود: ١٥-١٦).

وفي نفس السياق التحذيري يقول النبي (ﷺ):

[الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها] (الترمذي).

[حب الدنيا رأس كل خطيئة] (ابن أبي الدنيا والبيهقي).

[من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى] (أحمد).

ذم الافتتان بالدنيا لا يعني عدم جواز التمتع بنعمها

وبالمقابل لا يرى المنهج الإسلامي حرجا أن يتم التمتع بإعتدال بالنعم التي بثها الله في الدنيا.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٢).

ويقول النبي (ﷺ): [إن الله يريد أن يرى أثر نعمته على عبده] (الترمذي).

وفي الحقيقة لا تعارض بين ذم حب الدنيا والتكالب عليها والاغترار بها، وبين جواز التنعم بالزينة وبالطيبات من الرزق من غير سرف ولا مخيلة ولا معصية.

الدنيا معبر بين حياة فانية وحياة باقية

فذم الدنيا يأتي كونها فانية، وأنها مجرد معبر إلى الحياة الآخرة الباقية. وليس من العقل والحكمة في شيء أن يرتبط المرء بحب المعبر ويلتصق به أيما التصاق بينما

قدره يقوده إلى الطرف الآخر رغما عن أنفه. وتماما عند النقطة التي ينتهي عندها المعبر، وعند بوابة الدخول إلى الحياة الأخرى سيلقى عن ظهره - جبرا لا اختيارا - ما كان ينوء بحمله فوق المعبر، مما يكون أفنى عمره في جمعه. أو آذى كثيرين وغمط حقوقهم ليفوز هو بما يريد، وها هو الآن يلقيه عن ظهره في نهاية الطريق. ويندم أن ما جمع من مال وكنوز لم تذهب سدى فحسب، بل صارت وبالا عليه سينوء بإثمها في الجانب الآخر. وعندها فقط سيندم على ما صنعت يداه وما فرط في جنب الله، ولكن لات ساعة مندم.

أما الذي أنعم الله عليه وهداه للايمان فإنه يجتهد أن يكون كسبه وسعيه فيما يصحبه معه إلى الحياة الأخرى، علما نافعا يعمل به وينفع به الناس، وعبادة خالصة لوجه الله تعالى، وكسبا حلالا ينفقه على نفسه وهلكته بالحكمة، وخلقا كريما يخالق الناس به، وعملا صالحا في مرضاة الله.

وهو لا يركن إلى ما قد يروقه من الدنيا من المتع والشهوات، ولا يتفاجأ بما يجده فيها من المنغصات. فهو يتعامل معها كمجرد متاع زائل وأدوات استراحة على الطريق.

ويعلم أنه لا جناح عليه أن يستفيد من كل ما حوله من النعم بالقدر الذي تعينه على العمل من أجل الآخرة. وهو معني أيضا بالمساهمة في عمارة الأرض لخير البشرية جمعاء.

الساعي من أجل دنياه يجمع ويشقى لغيره

وبعد ذلك.. أفلا يكون من يجعل حب الدنيا كل همه ومبتغاه إلا جاهلا وأحمقَ؟ فيجمع ويشقى لغيره، أما هو فيكسب وزر جشعه وغفلته وافتتانه واغتراره بالدنيا، وسعيه لها وحدها دون الآخرة.

يقول النبي (ﷺ):

[ألهاكم التكاثر يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت] (مسلم).

[إن الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له، وعليها يعادي من لا علم له، وعليها يحسد من لا فقه له، ولها يسعى من لا يقين له] (أحمد).

[من كره لقاء الله كره الله لقاءه] (متفق عليه).

فمن يفضل ما يفنى وما يبلى ويذهب جفاء في الدنيا، على ما يبقى ويربو ويمكث

في الآخرة، يكون قد كره لقاء الله فيكره الله لقاءه.

٣٨ـ الخيانة والغدر

ان الله تعالى لا يحب الخائنين

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ (النساء: ١٠٧). ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (الحج: ٣٨).

فما أقبح الخيانة من خلق مذموم إذ تحجب عمن يتصف بها محبة الله، فيصطف مع الكفار والمشركين والمنافقين والمستكبرين وغيرهم من الذين أعلن الحق سبحانه وتعالى حجب محبته عنهم.

ومن حجب الله عنه محبته لا يكون إلا منبوذا مطرودا وهالكا.

الخيانة تدل على الخسة والجبن

والخيانة تدل على الخسة والجبن، لأنَّ من يضمر لكَ العداوة ويعلن عن عداوتهِ لكَ جهاراً أمامكَ وأمام الناس فإنَّكَ تحتاط منهُ كي تأمن شرّه وتتقي مكره.

أمَّا من يكون إلى جوارك وتأتمنهُ سرك، ويطلع على كل أمرك، ثـمَّ يسر به إلى عدوك فيعرف مواطن ضعفك، فيربك لكَ وضعك، ويتمكن منك أو يضعف قوتك ويُشتت جهدك، فإنَّهُ يكون الشر بعينه، وهوَ شرٌ تجهل مصدره وهنا مكمن الخطر.

من مظاهر الخيانة

والخيانة تكون لله وللنفس وللأمة، ولكل من قطعتَ له عهدا، أو أودع عندك أمانة.

- فالله تعالى هو الذي نفخَ فيكَ من روحه وأودعَ هذه الروح أمانة في جسدك يسترجعها متى يشاء وكيفما يشاء، ونفخ الروح في الجسد يجعلهُ وعاءاً للروح. والوعاء الذي يحفظ هذهِ الروح وهذهِ الأمانة لا بدَّ أن يبقى نقياً صافياً تشريفاً لهذهِ الأمانة العظيمة.

وإنكَ تخون الله عندما تلوِّث جسدكَ ومستودع أمانته عندك بالذنوب والمعاصي ما ظهرَ منها وما بطن.

وإنَّكَ تخون الله عندما تخون الأمانة التي قبلتَ بحملها.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٢).

والأمانة هنا هيَ كل الصفات التي ميَّزَ اللَّهُ سبحانهُ بها الإنسان عن سائر المخلوقات وكانت هذهِ الصفات منشأ تكليفهِ بأوامر ونواهي ليتميَّز من يشكرهُ عليها فلا يستعملها إلا بما يرضي خالقه.

وكفر المرء بالله أو الشرك بهِ أو الكفر بأنعمهِ أو جحودهِ وظلمه لنفسه أو لأحد من خلق الله أوِ اقتراف الذنوب، وإتيان المعاصي، كلها تدخل في خيانة هذهِ الأمانة.

- وإنَّكَ تخون نفسك وتظلمها بأن توردها موارد الهلاك بالمعاصي والذنوب التي تقترفها.
- وتخون أمتك عن جهلٍ أو عن عزمٍ وتصميم. وإنك تخونها عندما توجد للعدو - الذي يريد شرّاً مستطيرا بأمتكَ- مواطن أقدام في أرضك، أو تنخرط في مخطط يرسمه لغزو ديارك واذلال إخوانك، أو تبيع له سرا من أسرار قومك. فتكون أعنت الكافر والظالم وخنت دينك وإخوانك.
- وتخون العهد معَ من عاهدتهُ في بيعٍ أو تجارة أو قضاء حاجة أو موافاة لمكان معين في تأريخ محدد. أو أي أمرٍ ألتزمت به معَ شخص أو جماعة أو مؤسسة. وخيانة العهد تكون بعدم إتمام العهد أصلا، أو عدم اتمامه بشكل مُتقن بل القيام بهِ بشكل مبتور لا يُحقق للطرف الآخر المنفعة المرجوة كما كانَ متوقعاً في أصل التعاقد أو العهد المقطوع بينكما.

وتجدر الإشارة إلى أن الوظيفة والعمل والقضاء والامارة، وكل ما يؤتمن المرء على أدائه أمانات عنده، فمن فرط أو تهاون في شيء مما أؤتمن عليه فقد خان الأمانة.

وحري بنا أن نشير هنا بأن العهد لا يكون إلا في أمر يجلب منفعة أو خيراً فردياً أو عاما. وكل عهد يُراد بهِ تحقيق أمر باطل فهوَ باطل أصلاً لا يدخل ضمن حدود العهد الذي بينَ الحق سبحانهُ وتعالى ضرورة الوفاء بهِ ومساءلة من ينكث وعدهُ يوم القيامة. ومن انتبه لنفسه فوجد أنه ارتبط بعهد محرم شرعا، عليه أن لا يلزم نفسه باتمامه، ويجد طريقة شرعية صحيحة للاستحلال من الوفاء بالعهد.

النهي عن الخيانة في الهدي النبوي الشريف

يقول الحبيب المصطفى (ﷺ):

[لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له] (أحمد).

[آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان] (مسلم).

فالذي يفقد أمانته يفقد مروءته، ومن يستسهل خيانة الأمانه ويستصغرها، يكون وضع قدمه على شفى جرف هار فتنهار به في نار جهنم.

يقول النبي (ﷺ): [.....و أعوذ بك من الخيانة فإنها بئس البطانة] (المنذري).

والرسول الكريم (ﷺ) لا يريد لأمتهِ إلا الخير ورُقي الأخلاق والسلوك، فإنَّهُ عندما يستعيذ بالله من الخيانة إنما ينبهنا إلى قبح هذهِ الصفة وقبح جزائها عندَ الناس في الدنيا وعندَ الله يوم الجزاء الأعظم. فحاشا لرسول الله (ﷺ) أن يتصف بالخيانة وهوَ النبي الخاتم الذي أئتمنهُ الله سبحانهُ وتعالى أن يُبلِّغَ منهجةُ القويم الخاتم للبشرية جمعاء. فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة.

إنما هوَ الرسول المعلم والقدوة يعلمنا من خلال دعائه وسلوكه ومجلسه أمور ديننا ودنيانا.

قال النبي (ﷺ): [لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلان].

وقال رسول الله (ﷺ): [قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره] (البخاري).

فأي خزي هو الذي يشعر به الغدارون إذ يحملون ألوية غدرهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، وهم كانوا يظنون أن الأيام قد طوت صفحات الغدر التي غدروها.

وأي خزي وهوان وذل وصغار يكونون فيه إذ يكون الله تعالى خصمهم يوم القيامة فلا ينظر إليهم ولا يكلمهم، ولهم عذاب اليم.

نعم.. ان للمؤمن حصانة من الله ورسوله، فمن ينزع عنه هذه الحصانة، فيؤذيه أو يظلمه أو يمكر ويغدر به يبوء بغضب من الله يوم القيامة ويحجب عن نفسه شفاعة النبي الذي ترجو الأنبياء شفاعته.

❊

٣٩ـ البغي والظلم

من معاني البغي والظلم

الظلم هو وضع الشيء في غير محله، أو تصرف المالك في غير ملكه. والبغي هو الإفراط في الإستطالة على الناس.

وجرى العرف أن ينظر إلى الكلمتين بمعنى واحد. وهو الاعتداء على حقوق الآخرين أو التصرف فيها بغير إذنهم.

لا تظالموا

جاء في حديث قدسي: [يا عبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرما بينكم. فلا تظالموا] (ابن تيمية).

وحاشا لله وهو الحكم العدل المقسط، والعليم الخبير، ومالك الملك. أن يضع شيئا في غير محله، فهو الذي وضع الموازين القسط لتضبط حركة الكون كله، وهو الذي سيضع الموازين القسط يوم القيامة. والملك كله لله وحده من قبل ومن بعد.

إنما هو وعيد الله الشديد لمن يحلل ما حرم الله فيظلم الناس ويبغي عليهم. فأعد الله للظالمين عذابا أليما ولن يفلت ظالم بظلمه فمرجعهم جميعا إلى الله.

ذم الظلم والظالمين في كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ)

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ (إبراهيم: ٤٢).

﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس: ٢٣).

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الشورى: ٤٢).

﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (غافر: ١٨).

ويقول النبي (ﷺ) في السياق نفسه:

[ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة مثل البغي وقطيعة الرحم] (الترمذي وأبو داود).

[إن الله ليملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته] ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (بخاري ومسلم).

والظلم بأبسط صوره هو إثم كبير. وإذا كان سيد الخلق وأعدلهم يعوذ بالله من الظلم، فلنا أن نتصور قبح هذا الخلق المذموم ثم نتصور سوء العاقبة التي تنتظر الظالمين.

فقد ورد من دعاء النبي (ﷺ): [اللهم! إني أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة، وأعوذ بك من أن أظلم أو أظلم] (الألباني).

حاشاك من الظلم يا حبيب الله، انما تريد أن تزرع الخوف في قلوب أمتك من هذا الخلق الذي حرمه الله تعالى بين الناس جميعا، وتريد أن تجنبها ظلمات يوم القيامة.

يقول النبي (ﷺ):

[اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة] (مسلم).
[ان الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا] (مسلم).
[من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار] (مسلم).

من مظاهر البغي والظلم

ومظاهر البغي كثيرة لا تعد ولا تحصى. وفي القرآن الكريم – وهو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه – آيات تحكي قصص الظالمين الذين عتوا في الأرض عتوا كبيرا، وكيف أن الله انتقم منهم ثم أعد لهم عذابا وسعيرا.

والتأريخ الإنساني مليء بأخبار أقوام وأناس طغوا وتجبروا وأنزلوا بأقوامهم وأقوام أخرى ظلما يفوق الوصف والخيال في حدود قسوته وفي بطشه وتنكيله.

والظلم...ومهما تدرج صعودا وهبوطا في درجة بطشه وقسوته، كظلم الحكام للرعية وإجحافهم بحقها وتعذيبهم لمن يناوِئهم، أو ظلم المدراء وأصحاب العمل لمن تحتهم وغمطهم لحقوقهم، أو ظلم الرجل لأولاده وزوجه وأبويه، أو ظلم الناس للأيتام، أو غير ذلك مما نحسبه هينا وهو عند الله كبير. فإنه خلق حري بالمسلم أن يفر منه فلا يقترب من حدوده، مهما امتلك أدواته من السلطة والقوة ومن الجاه والأتباع.

تحذير نبوي شديد

ولندرك كيف أننا لا ننزل الظلم المنزلة التي يستحقها من الاستهجان والكراهية ثم الابتعاد والخوف منه. دعونا نقرأ هذا الحديث النبوي الشريف، قال (ﷺ): [من ظلم من الأرض شبرا فإنه يطوقه من سبع أرضين] (البخاري ومسلم).

شبر من الأرض نأخذه ظلما يكون ثقله في أعناقنا كثقل سبع أرضين. فويل للظالمين، وويل لمن يستسهل الظلم الذي يوقعه بالناس.

اللهم أهلك الظالمين بالظالمين وأخرجنا من بينهم سالمين.

وهذه تذكرة لنا جميعا ولخطباء مساجدنا خاصة، أن نحذر من الدعاء للظالمين بالبقاء.

❊

٤٠ ـ النفاق

النفاق مرض خفي خبيث يصيب القلب

النفاق هو مرض خبيث يصيب قلب الإنسان. وقد يبدأ بشكل بسيط كما يبدأ مرض السرطان بخلية خبيثة واحدة، فإذا لم تشخص في أوانها ولم تعالج، فإنها تستولد ملايين الخلايا الخبيثة التي تفتك بالخلايا السليمة وتحل محلها فتستحوذ على العضو

المصاب كله أو تنتشر في عموم الجسد، وحسب طبيعة المرض والعضو المصاب به. فتتعطل وظائف الأعضاء حتى تهلك صاحبها.

والنفاق إذا استفحل ونما في القلب لا يتركه إلا منخورا أجوفَ لا يصلح إلا للخلق الذميم، ولا يكون إلا مرتعا للشياطين التي لا تجد لذة العيش إلا في الأماكن القذرة والموبوءة.

النفاق نقيض الإخلاص

والنفاق نقيض الإخلاص، فإذا كان الإخلاص يبني النفوس ويصنع الرجال التقاة، فإن النفاق يحطم النفوس ولا يصنع إلا أشباه الرجال.

أين تكمن خطورة النفاق

- وخطورة النفاق تكمن في أنه يترك صاحبه مفلسا صفر اليدين بلا عقيدة صحيحة، ولا طاعات متقبلة، محملا بأوزار سوء خلقه مع الناس.
- وخطورته تكمن أنه إذا استفحل وتحول إلى ظاهرة اجتماعية، فإنه يكون كالسوس ينخر جسد الأمة فيصيبه بالوهن والضعف، وخاصة في أوقات الشدة والمحن.

فانك قد ترى شجرة باسقة مدت قامتها في الفضاء، حتى إذا هبت ريح قوية قلعتها من جذورها فوجدت أن السوس قد تمكن من لحائها وسر قوتها وصلابتها، وإنما الذي كنت تراه ما كان إلا ظل شجرة.

- وكذلك حال المجتمع المبتلى بالنفاق، فإن أولي الأمر قد يظنون أن المجتمع له عزم على تحمل المحنة التي توشك أن تحل بديارهم، ويرونه مجتمعا قويا معافيا متماسكا، حتى إذا وقعت الواقعة، ورجت الأرض، لم يجدوا له عزما. فتتوارى وجوه كثيرة كانوا يظنون بها خيرا، وتشحب وجوه أخرى وتضيق بها الأرض بما رحبت، ولا يرون في النهاية إلا الوجوه التي تنطق بالبشر والصلاح والتي تملك في جوفها قلوبا عامرة بالإيمان الصادق واليقين الراسخ. فالقلوب التي جبلت على النفاق، أو التي يتغشاها النفاق حينا بعد حين هي قلوب خائفة وجبانة ويظهر زيف معدنها في أول منازلة.

النفاق يكون في العقيدة والعبادة والمعاملة

- فأما النفاق في العقيدة فإن خير وأوضح ما جاء فيه هو كلام الملك العلاّم. يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ

(١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨)﴾ (البقرة: ٨-١٨).

نعم.. إن أصحاب القلوب المبتلاة بالنفاق والشك والكذب، يصور لهم فكرهم المريض أن بامكانهم خداع الله وخداع المؤمنين، فيقولون بألسنتهم أنهم قد آمنوا، ولكن أنى للإيمان أن يسكن في القلوب المريضة الصدئة والعفنة، وهم في الحقيقة يخدعون أنفسهم فالله تعالى لا يخفى عليه من أمرهم شيء ويعلم ما تخفي صدورهم، وسينالهم لنفاقهم وكذبهم هذا عذاب أليم.

وبعض المنافقين ينظرون إلى مسألة الإيمان نظرة استغلال وانتهاز فرصة لتحقيق مكسب دنيوي. فإذا وجدوا أن مصلحتهم تكون مع الجمع المؤمن أظهروا ايمانا كاذبا، وإذا مالت إلى الجمع الكافر أو المنافق ظهروا على حقيقتهم وقالوا للشياطين من أمثالهم إنما كنا نستهزئ بالمؤمنين. هؤلاء قد باعوا دينهم وآخرتهم بحطام الدنيا فبئس بيعهم الذي باعوه، والذي يشتري الضلالة بالهدى يكون قد خسر خسرانا مبينا.

• أما النفاق في العبادة. فهم الذين لا يعبدون الله عبادة المؤمن الواثق المطمئن، ولا تربطهم بالعبادات أواصر قوية تثبتهم على منهج الله وترسخ يقينهم وإيمانهم، انما هو خيط رفيع واه. واستبقاؤهم لهذا الخيط الرفيع إنما لاستجلاب خير أو حظ من حظوظ الدنيا، فإذا أصابهم الخير اطمأنوا به وظنوا أن الله راض عنهم ودليل الرضى أنه يسوق الخير إليهم. أما إذا اصابتهم مصيبة أو نزلت بهم نائبة، امتعضت وجوههم واكفهرت، وكفروا بأنعم الله عليهم. وخسروا أنفسهم وذلك هو الخسران المبين.

يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ

اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج: ١١).

• وأما النفاق في المعاملة، فإن النبي (ﷺ) هو خير من بين أوصاف هؤلاء المنافقين:

- [اذا حدث كذب] والمؤمن يكون صادقا في كل قوله.
- [وإذا وعد أخلف] والمؤمن يكون وفيا في كل وعوده.
- [وإذا اؤتمن خان] والمؤمن يؤدي الأمانات إلى أهلها.
- [وإذا عاهد غدر] والمؤمن ينجز كل عهد عاهد الله على إنجازه.
- [وإذا خاصم فجر] والمؤمن يتحاشى الخصام، وإن خاصمه أحد لم يفجر.

[فمن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها] (البخاري).

المنافق هو عنصر هدم وتخريب في المجتمع

فإذا كان الكذب وإخلاف الوعد والخيانة والغدر والفجور هي خلق المنافق في التعامل مع الناس، فإنه لايكون إلا شخصا مجردا من كل القيم النبيلة والأخلاق الحميدة، ولا يمكن ان يكون عنصر بناء في المجتمع، بل يكون عنصر هدم وتخريب وإفساد.

أعد الله للمنافقين الدرك الأسفل من النار

وهكذا فإن عناصر الإيمان لا وجود لها في قلب المنافق، فعناصر الإيمان هي: العقيدة الصحيحة وقلوبهم خاوية من أركان العقيدة كلها. وهي الطاعات والمنافق لا طاعة له، وهي الأخلاق الحميدة والمنافق لا خلق حميد له. لذلك أعد الله للمنافقين الدرك الأسفل من النار. ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرا﴾ (النساء: ١٤٥).

اللهم إنا نعوذ بك من النفاق والشقاق وسوء الأخلاق.

٤١- الغش والتزوير والتحايل

من معاني الغش

الغش – والتزوير والاحتيال من أبوابه – هو الحصول على شيء بغير وجه حق. وخلق هذا شأنه وديدنه إذا أصاب جسد مجتمع، تآكلت أطرافه، وتصدع بنيانه،

وتعطلت نهضته.

آفة الغش لا تصيب المجتمع القوي المؤمن

والغش لا يتفشى هكذا دفعة واحدة وبدون سابق إنذار، كما يتفشى النار في الهشيم. وكما لا يمكن أن يسقط الجدار الصلب بضربة معول واحدة. إنما يكون المجتمع آيلا للسقوط أصلا بفعل ضمور الإيمان وخفوت جذوته في قلوب الناس، واعتلال ضمائرهم، وفساد ذممهم. وحينئذ إذا برز الغش بينهم كظاهرة، فإنه ينتشر كالوباء، لأنه يجد جسد المجتمع واهنا ضعيفا وعليلا، ثم لا يجد من الناس من يفكر في علاج هذه الآفة الخبيثة القاتلة، فالكل مشغول بأمر نفسه ومشغول بالسعي من أجل الدنيا. ويغيب عنهم أن الغش في الحقيقة يهدد مصالحهم الدنيوية أيضا كأفراد وكمجتمع. إضافة إلى كونه يدمر القيم الخلقية والاجتماعية النبيلة.

لذلك جاء النهي عن الغش في الكتاب والسنة واضحا جليا وصارما، لحماية المجتمع من هذا المرض الفتاك، ومن آثاره التدميرية على حياة الفرد والمجتمع وعلى مختلف الأصعدة.

من مظاهر الغش

ومظاهر الغش عبر التأريخ والى يوم القيامة تكاد تكون ذاتها، ولكنها تختلف في الأساليب والتقنيات التي تستخدها وحسب تطور المجتمعات في التعاطي مع جوانب الحياة المختلفة. ونحن هنا إنما ننظر كيف تطرق كتاب الله وسنة نبيه المصطفى (ﷺ) إلى هذا المرض الخطير. ونستعرض بعض أشكال الغش قديما وحديثا.

- **غش الحاكم للرعية.**

ولعل حديث رسول الله (ﷺ) في هذا الشأن يغنينا عن الكثير من التفصيل: [ما من وال يلي رعية من المسلمين وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة] (البخاري ومسلم).

أما كيف يغش الوالي أو الحاكم الرعية فذلك يكون بأوجه عدة كأن يعطي المسؤولية لمن ليس أهلا لها، أو يتصرف في المال العام حسب هواه، ويفرط فيه، ويفرقه على من يحب ويحجبه عمن يكره، أو لا يقيم في الرعية ميزان العدالة بالقسط، أو غير ذلك من اساليب وطرق الغش.

- **الغش في المكيال والميزان.**

يقول الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦)﴾ (المطففين: ٣ - ٦). ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩)﴾ (الرحمٰن: ٨ - ٩).

وهذا وعيد الله لمن يغش في المكيال والميزان فيبخس الناس حقوقهم بأن تكون النار مثواهم يوم القيامة.

وفي قصة الذين كفروا من قوم شعيب، الذين كانوا يغشون في الكيل والميزان، ويكذبون نبيهم، ويطيعون المستكبرين من قومهم، التي استعرضها كتاب الله المجيد في آيات عديدة. عبرة وعظة لكل فرد ومجتمع ينأى عن الحق فيحتال على الناس ويغشهم.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ٨٥).

ولكن الذين استكبروا من قومه لم يلتفتوا إلى قول نبيهم ونصحه لهم، ولم يرجعوا عن غيهم وضلالتهم، فكان أن أهلكهم الله تعالى بزلزال مدمر أو صيحة مميتة، صرعتهم جميعا وهم قعود في منازلهم.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١)﴾ (الأعراف: ٩٠-٩١).

- **الغش في البضاعة.**

ويكون الغش في البضاعة بطرق شتى. كخلط بضاعة صالحة بأخرى رديئة أو فاسدة، أو انتاج بضاعة معيبة وبيعها للناس، أو تقليد بضاعة راقية بأخرى رديئة، أو الغش في مواد أو طريقة التعبئة والتغليف، أو في تأريخ انتهاء صلاحية الاستعمال، أو في الإعلان عن البضاعة. أو في الغش في خدمة يتم تسويقها للناس أو غير ذلك من أشكال الغش التجاري التي يصعب حصرها هنا.

يقول أبو هريرة: ان رسول الله (ﷺ) مر على صبرة من طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا فقال: [ما هذا يا صاحب الطعام؟] قال: أصابته السماء يا رسول الله. قال (ﷺ): [أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس – من غش ليس منا] (الألباني).

- **الغش في العلم.**

على المجتمع أن ينتبه إلى هذا الغش، لأن هذا المرض الخبيث إذا أصاب هذه الحلقة المهمة من حلقات البناء والتطور وخلق النهضة، فإنه يصيب المجتمع كله بمقتل.

فلنا أن نتصور كيف تؤول إليه أحوال المجتمع إذا ظهر الغش في الامتحانات بين الطلبة كظاهرة وبائية. انها ستنذر بكارثة توشك أن تحل بالمجتمع، لأن المدارس

والجامعات هي التي تضخ الطاقات الشابة والكفاءات العلمية في مختلف ميادين الحياة، فإن وجدت أن الكثيرين من هؤلاء حصلوا على شهاداتهم بالغش والتزوير، وتسلقوا المناصب واحتلوا المواقع على ضوء هذه الشهادات المغشوشة، فإنك لا تجد الرجل المناسب في المكان المناسب في معظم الحالات. ثم ان الذي استسهل الغش والتزوير وهو شاب يافع وتمرس فيه، فإنه سيتفنن ويبتكر أساليب جديدة للغش والتزوير في الموقع الذي يحتله، لأنه سيجد بين يديه من السلطة والإمكانيات ما تعينه على هذا الفعل الآثم.

وإذا كان لهؤلاء أن ينخرطوا في مجال البحث العلمي أو تنفيذ المشاريع الكبيرة، فوضعوا في هذا الحلقات أيضا سموم الغش والتزوير. ألا تكون طامة كبرى؟ ألا تتعطل مصالح المجتمع؟ ألا تقتل الفرص الحقيقية للنهوض والإبداع والتقدم؟

إن الدرس الذي تعلمناه من رسول الله (ﷺ) وهو يكشف غش الرجل في صبرة الطعام، فيوصيه ألا يفعل! ثم ينذره بأن عمله هذا سيقوده إلى خارج حظيرة الجمع المؤمن.

هو دعوة للمجتمع أن يكون يقظاً ويحارب كل نزعة قد تتقد في بعض النفوس المريضة فتجعل للغش موطأ قدم في كيانه، وأن يستأصلوا شأوة الغش من جذوره عند من يجنح نحوه.

❊

٤٢ـ الجبن

من معاني الجبن

الجبن هو نقيض الشجاعة. فإذا كانت الشجاعة هي شدة القلب عند البأس، فإن الجبن هو ضعف القلب واعتلاله عند البأس.

الجبن خلق يسكن القلوب الموبوءة بالنفاق والشك والريبة والافتتان بالدنيا

والجبن هو خلق ذميم يستقر في القلوب التي امتلأت بحب الدنيا وملذاتها، أو الموبوءة بالنفاق والشك والريبة. والشجاعة لا تتولد إلا في القلب المطمئن بالإيمان فيعرف صاحبه أن الثبات عند البأس، والذود بالنفس من أجل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه، هما من صفات المؤمنين الصادقين. وأن الجبن والخور والتولي عند المنازلة خلق لا يليق إلا بالمنافقين والمتخاذلين.

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ

مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦)﴾ (الأنفال: ١٥ - ١٦).

هذا نداء من الله تعالى للمؤمنين جميعا في أوقات الشدة والمنازلة والمجابهة بين الإيمان والكفر، بين المتربصين بالمؤمنين يريدون بهم شرا، وبين المؤمنين المدافعين عن قيم السماء. أن يثبتوا في الدفاع عن دين الله ومنهجه. وفيه تحذير لمن لا يستمع إلى نداء الله تعالى، فيضعف ويجبن ويفر من المنازلة، بأن الله يغضب عليهم ويعد لهم عذابا وسعيرا.

لماذا يتوعد الله تعالى الجبناء الذين يولون الأدبار عند الزحف؟

ووعيد الله للفئة التي تجبن وتولي الأدبار عند المنازلة يأتي لاعتبارات عدة:

- إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم بأن لهم الجنة. والثبات في قتال الكفار والمشركين يأتيهم بإحدى الحسنيين – النصر أو الشهادة - فالذي يولي الأدبار يكون كمن نقض عهد البيع مع الله.

- ان الجبن والخور من شيم المنافقين، ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧)﴾ (التوبة: ٥٧). ولا يليق بالمؤمن أن يتخلق بخلق المنافقين.

- إن التردد أو الفرار عند المواجهة، قد يحدثان شرخا في صفوف المؤمنين مما قد يتسبب في فرار المزيد، فيحدث خلل في ميزان المعركة لصالح أعداء الله.

- لا يمكن للجمع المؤمن أن يكون له شأن يذكر في إعلاء كلمة الله والدفاع عن المثل والقيم السماوية، في ساعات المحنة والشدة وتكالب الأعداء على الأمة، إلا بفضل من الله تعالى ثم بوجود رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ونال الشهادة، ومنهم من ينتظر.

الجبن لا يكون في ساحة المعركة فقط

والجبن والخور لا يكونان في الفرار عند الزحف فقط، بل يكونان أيضا في عدم اتخاذ الموقف الشجاع دفاعا عن العدل والحق وعن حقوق المستضعفين، وعندما تكون قوة الموقف أمضى تأثيرا من السيف.

❊

٤٣ـ المكر

من معاني المكر

المكر يعني الخداع والاحتيال.

قول فصل في ذم المكر

يقول النبي (ﷺ): [ملعون من ضار مؤمنا أو مكر به] (الترمذي)

واللعنة هي الطرد النهائي من رحمة الله تعالى وفيء هدايته. وهي أقسى عقوبة فرضها الله سبحانه وتعالى على خلق من خلقه.

من هم الذين أنزل الله تعالى بهم لعنته؟

- إبليس وهو أول الملعونين لأنه أبى الامتثال لأمر الله واستكبر. ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥)﴾ (الحجر: ٣٤-٣٥).
- الكافرون الذين يكفرون بالله ويجحدون بآياته. ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة: ٨٨).
- المشركون الذين يشركون مع الله آلهة أخرى، والمنافقون الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر أو الشرك. ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (الفتح: ٦).
- وهم الذين يقتلون المؤمنين متعمدين. ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٣).
- وهم الذين يؤذون الله ورسوله. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (الأحزاب: ٥٧).
- وهناك أصناف أخرى.

ولعنة الله شيء مخيف يجب أن يزلزل لشدته كل كيانك. إنه الطرد النهائي من رحمة الله وظلال هدايته فلا مجال لتوبة أو أوبة إلى الله.

وكأنما يكون قلبك مختوما بختم سماوي ومطبوعاً عليه: (لا هداية ولا رحمة بعد الآن). ويكون الأمر وكأن قلبك قد انتزع من جوفك واستبدل بحجر أصم لا يتلقى اشارات رحمة الله ولا تنفذ إليه أنوار هدايته.

للمؤمن حصانة ربانية

نعود إلى حديث رسول الله (ﷺ) آنف الذكر. ونفهم منه أن المؤمن له حصانة ربانية فلا يجوز قتله أو الغدر والمكر به.

والله تعالى وهو رب السماوات والأرض، هو الذي خلع على المؤمنين هذه الحصانة، ورسول الله (ﷺ) هو الذي ثبتها تطبيقا وتشريعا بأمر من الله تعالى.

المجتمع القوي لا يبنى على المكر والخداع

وليس ترفا أخلاقيا أن ينبذ الرسول (ﷺ) الفكر الذي يدعو إلى الإضرار بالمؤمنين أو الغدر والمكر بهم. انه (ﷺ) أراد أن يؤسس لبناء المجتمع المؤمن، المتآزر، المتعاون. والمنضبط في عقيدته وسلوكه. ولا يمكن بناء هذا المجتمع إلا إذا كانت حقوق المؤمن الفرد مصانة فيه. وهذه الحصانة تكون لكل أفراد المجتمع المؤمن، غنيهم وفقيرهم، سيدهم وخادمهم، فالغنى والفقر والجاه والمركز والمنصب أمور دنيوية لا يلتفت إليها المنهج الرباني عند تثبيت الحقوق وهو لا يفرق بين فردٍ وفرد إلا على أساس التقوى وهو أمر غيبي لا علاقة له بصيانة الحقوق الاجتماعية.

اجتهد أن تكون بمنأى عن لعنة الله

لذلك إذا قادتك قدماك إلى طريق فيه إضرار بأخيك المؤمن، أو دعتك قدرتك للبطش به، أو حرضك أحد لفعل ذلك، فاستدرك أمر نفسك فورا، واستعذ بالله من الشيطان الرجيم، وتيقن أن لعنة الله توشك أن تحل بك فتطرد من رحمته طردا نهائيا، لو أمضيت بمكرك وخداعك.

حماية المؤمن من المكر والبغي

ما أشد حرصك يا رسول الله على المؤمن وأنتَ تُحيطه بكل حلقات الحماية هذهِ، لتجعل من يتجرَّأ على إيذائه يفكِّر ألفَ مرة، قبلَ أن تُمَدَّ يدهُ للبطش به، وإن ركبهُ الشيطان ففعل فإنَّهُ يدخل أرض اللعنة الربانية.

ها أنتَ يا سيدي وحبيبي تذهب أكثر من ذلك فتقول في حديثٍ شريفٍ آخر: [من أشارَ إلى أخيهِ بحديدة فإنَّ الملائكة تلعنه حتى يدعه وإن كانَ أخاً لأبيهِ وأمه] رواهُ مسلم والترمذي.

سبحانَ الله...

والله إنَّ المرء ليقف صاغراً ذليلاً أمام عظمة هذا المنهج الرباني المحمدي [من أشارَ إلى أخيهِ بحديدة فإنَّ الملائكة تلعنه حتى يدعه..]

أية حصانة وأي تكريم إلهي للمؤمن وللإنسان.

إنَّ من يُشير بحديدة إلى أخيهِ (المؤمن) قد يُخيفه، ويجب أن يتنزَّه المؤمنون عن

هذا.

أنظر كيف كرم الله الإنسان

حتى الخوف هذا الهاجس النفسي الذي يستغرق لحظات يريدُ الرسول (ﷺ) أن يحمي المؤمن منه.

لأنَّ هذا الهاجس قد يجعلك تحمل ضغينة لمن يُشير إليك بحديدة ويتسبب في خوفك وفزعك وهوَ عليهِ الصلاة والسلام يريد أن يصون المجتمع المؤمن من هذهِ الضغائن فيبقى المجتمع نظيفاً متراحماً متماسكاً وعقلانياً.

لذلكَ كانَ عقاب هذا الفعل عقاباً رهيباً يرى معظمنا اليوم أنَّهُ أمر مُبالغ فيه وهوَ أن تلعنك الملائكة إذا أشرت إلى أخيك بحديدة قد يُفهم منها أنَّكَ تهدده وتُريدُ بهِ شراً.

فكيفَ يكون الأمر أن تضع سلاحاً جارحاً على رقبته أو في خاصرته أو تقتله أو تمثل بجسده أو تسرف في قتلِ المؤمنين؟؟ ماذا يكون العقاب الرباني؟؟

أي قانون بشري وضعي يحرص على الناس ويلتفت إلى مسببات هواجسهم وقلقهم ويُحاول أن يُقيّدها ويجعل لها ضوابط ومُحدِّدات؟؟

إنَّهُ القانون والمنهج الإلهي الذي يريد أن تكون العلاقات بينَ أفراد المجتمع المؤمن في قمة التآلف والرقي الإنساني.

❊

٤٤- اتباع الهوى والشهوات

من معاني هوى النفس

والهوى هنا هو ميل النفس الخاطئ.

وهوى النفس يجعلك تلتصق بالدنيا وتركض فيها وراء شهواتك ركض الوحوش، تريد أن تشبع نهمك منها فلا تقدر، لأن النفس الأمارة بالسوء، لا حدود لنهمها وشراهتها. وكلما ذللت لها شهوة، أو حققت لها رغبة قالت لك: هل من مزيد؟

لماذا الخوف من هوى النفس؟

لذلك كان نبي الرحمة وصاحب النفس الزكية يدعو الله أن لا يكله إلى نفسه. [الله رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت] (أبو داود).

وورد في كتاب الله آيات كثيرة في ذم النفس ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (يوسف: ٥٣).

والنفس بطبيعتها لا تريد أن تتقيد أو تنقاد، وكان لا بد وهي بهذه الصفات أن تلجم بقوة، وبحكمة، وبانتباه، بلجام تقوى الله والخشية منه.

والنفس لا تستقر على حال، ولا يهتدي إلى وسائل ترويضها إلا المؤمن الكيّس الفطن، لكثرة تقلبها وتلونها وخطورة هواها.

والنفس الأمارة بالسوء تنقاد وراء الشهوات وتنغمس فيها فتنسى أمر نفسها، وتنسى أن ما تهفو وتشتاق إليه، إن هو إلا عرض من عروض الدنيا، وزينة من زينتها وانها زائلة غير باقية، وما عند الله أدوم وأبقى.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران: ١٤).

نعم.. ذلك متاع الدنيا، والدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر كما يقول الحبيب المصطفى (ﷺ). فهل من الحكمة والمنطق في شيء أن يركن المؤمن إليها؟ أم إن الحكمة تقتضي ان يرضى بما قدر الله له فيها ويقنع بعطاء ربه؟

أين تكمن خطورة اتباع هوى النفس؟

وتكمن خطورة اتباع الشهوات وهوى النفس، أن أهواء الناس لا تنتهي ولا تلتقي، ولنا أن نتصور حال البشرية لو أن كل إنسان سار وراء هوى نفسه فكيف تستقيم الحياة؟

لذلك اشار الباري عز وجل إلى خطورة اتباع الهوى. ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون: ٧١).

وخطورة اتباع هوى النفس تكمن أيضا، أن من يتبع هواه ويركض وراء شهواته يكون أمام خيارات ثلاث:

- أن يكفر بالله ويرفض وحي السماء ويتمرد على كل القيم الأخلاقية النبيلة التي جاءت في المنهج الرباني وحضّى عليها الرسول الكريم في هديه وسنته، لأنها تحول بينه وبين التمتع بما تشتهيه نفسه. فيصح فيه قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩)﴾ (النازعات: ٣٧ - ٣٩).
- أن يؤمن بالله ويتمسك بالقيم والأخلاق النبيلة ويضبط هواه، وكلما مال هواه يمينا أو شمالا، أحكم عليه اللجام وأعاده إلى الطريق المستقيم.

فيصح فيه قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١)﴾ (النازعات: ٤٠-٤١).

- أن يؤمن بالله تعالى وباليوم الآخر، ويؤمن بالجنة والنار، ولكنه يكاد يمشي وراء هوى نفسه معصوب العينين، لا ينظر في موضع قدميه، ان كانتا تخوضان في حلال أو حرام، ثم يتمنى بعد ذلك على الله أن يدخله الجنة، فيصح فيه قول النبي (ﷺ): [الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة] (الترمذي وأبن ماجة)

٤٥ـ عقوق الوالدين

الإسلام يدعو إلى الرفق بالحيوان أفلا يكرم الوالدين؟

ان المنهج الأخلاقي الإسلامي يحضّ على اللين والرفق والتسامح والتذلل بين المؤمنين جميعا، وينهى عن القسوة والشدة والغلضة بينهم. بل هو يدعو إلى الرفق حتى مع الحيوان.

ولما كان الوالدان هما أقرب الناس الينا وجعلهما الله تعالى سببا لوجودنا في هذه الحياة، وقضيا الشطر الأكبر من حياتهما في رعايتنا وتربيتنا، فلا بد أن يكون لهما تكريم خاص يليق بهذه المنزلة وبفضلهما علينا.

تكريم الوالدين تكريم إلهي

لذلك جعل الله تكريمهما تكريما إلهيا.. بل وقرن هذا التكريم بإفراد العبودية له عزّ وجلّ.

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (الإسراء: ٢٣).

ونعلم أن من يستنكف عن عبادة الله أو يشرك به شيئا، يلعنه الله في الدنيا والآخرة ويعد له عذابا أليما. فلنا أن نتصور عظم ذنب من لا يمتثل لأمر الله فيعق والديه!! إن ذنبه يوازي الشرك بالله تماما.

لأن افراد العبادة لله تعالى يقابله الإحسان بالوالدين. وعقوق الوالدين يقابله الشرك بالله.

وقد جاء مصداق ذلك في هدي النبي (ﷺ). عن أبي بكرة نقيع بن الحارث أنه قال: قال رسول الله: (ﷺ): [ألا أنبئكم بأكبر الكبائر] ثلاثا، قلنا: بلا يا رسول الله قال: [الإشراك بالله وعقوق الوالدين] (متفق عليه).

وهذا يعني أن المسلم وهو يحرص على عدم الإشراك بالله شركا ظاهريا أو قلبيا

بأن يرى لله ندا أو مثيلا أو شبيها، ثم يدفع عنه الشرك الخفي – وهو الرياء – بكل ما أوتي من عزم ومن حرص ويقين، لا يجوز له أن يستهين بحقوق والديه فلا يبر بهما ولا يحسن إليهما، وإن فعل فثمة زغل تنطوي عليه سريرته.

فالإيمان بالله هو الإيمان بكتاب الله وبأوامره ونواهيه كلها، أما الانتقاء من هنا ومن هناك وقبول هذا ورد ذاك فهو شرك ونفاق.

ذم عقوق الوالدين في الهدي النبوي الشريف

وكذلك كان نهي النبي (ﷺ) عن عقوق الوالدين نهيا واضحا وشديدا.

عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ):

[ملعون من عق والديه] (المنذري).

[كل ذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة إلا البغي وعقوق الوالدين، أو قطيعة الرحم، يعجل لصاحبها في الدنيا قبل الموت] (الألباني).

[ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة :العاق لوالديه، ومدمن الخمر، والمنان عطاءه. وثلاثة لا يدخلون الجنة :العاق لوالديه، والديوث، والرجلة] (الألباني).

من يعق والديه فقد ضل ضلالا مبينا

وإذا قضى الله ورسوله أمرا ما كان لمؤمن ولا مؤمنة أن يحتار في أمره. أيقبل هذا الأمر أم يرده؟ فلا أحد يملك هذا الخيار.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (الأحزاب: ٣٦).

ومن يعص الله ورسوله ويعق والديه فقد ضل ضلالا مبينا!!!

من مظاهر عقوق الوالدين

ولا حاجة هنا للإسهاب في تبيان مظاهر عقوق الوالدين، فما ورد في كتاب الله وسنة نبيه (ﷺ) كاف ليستدل منه المرء إذا كان يعق والديه أم يبر بهما.

﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (الإسراء: ٢٣).

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (الإسراء: ٢٤).

﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ (لقمان: ١٥)

اذا كان والداك مشركين هل يحق لك أن تعقهما؟

نعم... وحتى عندما يصل الخلاف بين الآباء والأبناء إلى جوهر العقيدة، ويكون الوالدان مشركين ويبذلان كل جهدهما في تحريف عقيدة الأبناء إلى الشرك والضلال،

فإن وصية الله سبحانه وتعالى للأبناء هي عدم اطاعتهما في هذه الجزئية المهمة، مع الحرص على عدم عقوقهما، ومصاحبتهما بالمعروف والمعاملة الحسنة في كل شؤون الحياة.

وهذا قمة التكريم الإلهي لمقام الوالدين.

فإذا كان الشرك لا يحول بينك وبين البر بهما، فهل ثمة مبرر بعد ذلك – مهما عظم في نظرك – يجيز لك أن تعق والديك؟

اللهم كلا!!

٤٦ ـ قطيعة الرحم

الرحمة شجنة من الرحمن

لقد أفاض الله (جل جلاله) قبسا من فيض رحمته على جميع خلقه. وأهدى نبيه وحبيبه وصفيه من خلقه رحمة للعالمين. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

قال النبي (ﷺ): [إن الرحمة شجنة من الرحمٰن تقول: يا رب إني ظَلمت، يا رب إني قطعت، يا رب إني.... فيجيبها: ألا ترضين أن أقطع من قطعك وأصل من وصلك] (البخاري).

وجاء في حديث قدسي: [أنا الرحمٰن، وأنا خلقت الرحم، واشتققت لها من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته] (البخاري).

ونفهم من هذين الحديثين أن الله وقد أودع شجنة منه بين الناس، فإنه عز وجل يريدهم أن يصونوها، وينزلوها المنزلة العلية المباركة التي تليق بها. ونفهم كأنما هذه الشجنة قبضة طيب رباني زكي فواح، تنشر المحبة والألفة بين ذوي القربى، فمن حال دون نشرها كأنما لا يريد لرحمة ربه أن تنتشر في الآفاق. وينقض العهد مع الله بصيانة هذه الشجنة الربانية المباركة.

ما المقصود بصلة الرحم؟

وصلة الرحم المقصودة في كتاب الله وسنة نبيه، هي أن يتراحم ذوو القربى فيما بينهم، ويفزعوا لقضاء حاجات المحتاجين منهم، ويحافظوا على جسور الود، والتواصل، لتبقى ممدودة لا يطالها الفتور والقطع، وأن لا يجدوا سبيلا إلى البر ببعضهم البعض إلا سلكوه.

وعيد الله لقاطع الرحم

لذلك كان وعيد الله شديدا لكل من يقطع الرحم.... وأي وعيد أقسى وأشد من انزال الله لعنته على الذين يقطعون الأرحام ويفسدون في الأرض، فيحجب عنهم فيء رحمته وينزل بهم عذابا أليما.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣)﴾ (محمد: ٢٢-٢٣).

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (الرعد: ٢٥).

ماذا يحل بقاطع الرحم؟

وقطيعة الرحم لا تكون إلا شؤما وبلاء ومقتا على صاحبه، وعلى أهله وعشيرته - إذا لم يحضوه ولم ينصحوه بإيصال رحمه - فتوصد أبواب الجنة دونه، وتحبس رحمة الله عن قومه.

يقول النبي (ﷺ): [لا يدخل الجنة قاطع رحم] (متفق عليه).

[ان الرحمة لا تنزل على قوم بينهم قاطع رحم] (البخاري).

الصلة بين البغي وقطيعة الرحم

كذلك فإن الصلة قوية بين البغي وقطيعة الرحم، ذلك أن في قطيعة الرحم، تقطيعاً لوشائج القربى، وفصماً لعرى المحبة، وقطعاً لحبال الود، وفيها اذكاءٌ للتدابر والتباغض، وفيها تخريب لكيان الأسر الكبيرة المتآلفة فتتصدع وتتفتت.

فأي بغي أشد من هذا البغي؟

وهل من مؤمن يرضى لنفسه الإرتكاس في هذا الذنب العظيم، فيحل عليه عذاب قريب عاجل في الدنيا، وينتظره عذاب أغلظ وأشد في الآخرة؟

يقول النبي (ﷺ): [ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا - مع ما يدخر له في الآخرة - من البغي وقطيعة الرحم] (أحمد).

هكذا إذاً ينظر الرحمٰن إلى قطيعة الرحم!

وهكذا أيضا ينظر المبعوث رحمة للعالمين إليها!

هل نصل من وصلنا ونقطع من قطعنا؟

وإيصال الرحم ليس المقصود به أن نصل من وصلنا ونقطع من قطعنا ونعادي من عادانا.. ليس هذا مراد الله من صلة الرحم، فمراد الله أبعد من ذلك بكثير.

لأن الرحمة والمودة والإلفة لا تصان إلا في حالات العسرة والشدة والاحتقان والتوتر، حين تجد الكراهية طريقها إلى قلوب ذوي الرحم، لفعل قبيح يفعله هذا

الطرف ضد ذاك، أو لوشاية من فاسق فلا يتبين الرجل ولا يستوثق من الأمر الذي أسر إليه، أو لحدث بسيط غير ذي بال. فيحمل ضغينة لذي رحمه ويقاطعه، وقد يغتابه وينشر صحائف سيئاته بين الناس.

كيف نصون صلة الرحم في حال القطيعة؟

وهنا تبرز صلة الرحم التي يريدها الله منا أن نصونها بأن نحققهامن خلال أمرين.

- أن لا نلتفت إلى الهاتف الشيطاني في داخلنا والذي يحرضنا ضد ذي رحمنا، ويزرع في قلوبنا الكراهية والبغضاء له، ويقول لنا: (إنه هو الذي هجرك وقطعك فلست أنت الملام، دعه يأتيك ذليلا صاغرا، وعندها تنظر أتقبله أم ترده؟ وإذا لم يأتك فقد كفاك الله شره). واعلم أننا لو أصغينا إلى هذا الهاتف الشيطاني فإننا سنخوض في ذنب عظيم علينا اجتنابه لنحفظ أنفسنا وديننا وآخرتنا. ثم نصغ بقلوبنا وكل جوارحنا إلى النداء الرباني الذي يدعونا أن نصل من قطعنا.
- أن يكون سعينا في إيصال أرحامنا - عند القطيعة - امتثالا لأمر الله ورسوله، ومجردا من أهواء النفس، أو أي حظ من حظوظ الدنيا، وأن يكون سعينا في الوصل مع ذي الرحم الغني أو الفقير، وذي السلطة والجاه أو البسيط المسكين، سواء بسواء. لأننا لو وصلنا الغني الذي قطعنا، وقطعنا الفقير الذي قطعنا، ما حققنا مراد الله تعالى.

فهل تريد أخي المسلم أن تكون واصلا لذي رحمك فترفل بثوب السعادة، وتنعم بمحبة الناس، وتكون قريبا من الله، قريبا من رحمته؟

أم تريد أن تكون قاطعا لذي رحمك فتعيش بائسا، شقيا، مهانا، بعيدا عن رحمة الله ومغفرته، قريبا من غضبه ومقته؟

❊

٤٧ ـ الغفلة

الغفلة والغافلون

الغفلة هي حجاب كثيف يغلف قلوب الكفار والمشركين والمنافقين والعصاة. ويجعلهم يعيشون في تيه حقيقي لا يملكون للخروج منه سبيلا. ويعيشون في الدنيا كما تعيش البهائم تماما، وكأنما خلقوا لهذه الحياة الدنيا فلا بعث ونشور، ولا ثواب وعقاب، ولا نعيم وجحيم. لذلك تراهم يسعون من أجل حطام الدنيا سعيا حثيثا،

يوصلون ليلهم بنهارهم ونهارهم بليلهم في كفاح لا يلين وعزيمة لا تفتر. تنشرح صدورهم إذا أقبلت عليهم الدنيا بمباهجها وزخارفها، وتضيق صدورهم إذا أدبرت عنهم، أو اصابتهم مصيبة، أو انحسرت عنهم زينة كانوا فيها فاكهين.

يقول الحق تبارك وتعالى في هؤلاء :﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٩).

ولماذا أضل من الأنعام يا ترى؟؟

أليس الاثنان - الغافلون والأنعام - تسوقهم غرائزهم؟

بلى!! ولكن الأنعام خلقت لتهتدي بهدي غريزتها، أما الغافلون فإنما يجحدون بآيات ربهم وينصرفون عنها استكبارا وطغيانا. والأنعام تسبح بحمد ربها والغافلون لا يفعلون.

وترى بعض الجاهلين إذا ذكرت عندهم هذه الآية قالوا ساخرين: (اذا كان العلماء الكبار بكل قدراتهم العلمية والفكرية التي جعلتهم يغزون الفضاء، كالأنعام لا يميزون ولا يبصرون ولا يسمعون فماذا يكون هؤلاء؟ - ويشيرون بأيدهم إلى ثلة من البسطاء الطيبين يخرجون من مسجد مجاور – ألا يكون هولاء قطيعا من الحمير؟).

فبماذا ترد عليهم؟

انها الغفلة بعينها! أفلا يكلف هؤلاء السفهاء أنفسهم قليلا ويتفقهوا ليفهموا مراد الله في خلق الإنسان؟ أليس الله هو القائل وقوله الحق: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؟

والغافل الذي يطمئن بالحياة الدنيا، ويفتتن بها، ويحبها حب العاشق الولهان، يسد عليه ولهه وولعه بالدنيا كل سبل التفكير في آيات الله التي تملأ الآفاق، ولا يرضى بالدنيا بديلا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨)﴾ (يونس: ٧-٨).

أصناف الغافلين

- الكافرون والمشركون والمنافقون. وهؤلاء جميعا ومهما أوتوا من رجاحة العقل، أو بلغوا الدرجات العلى من العلم – وبالمقياس الدنيوي المحظ للعقل والعلم – هم جاهلون. لأن الذين يغلقون نوافذ عقولهم وبصيرتهم ومداركهم، دون وحي السماء، وهدي الرحمن، ولا يتفكرون في

خلق السماوات والأرض، وفي أنفسهم، ليكتشفوا آيات صنع الله ودلائل إعجازه، وتوهمهم عقولهم المريضة بأن هذا الكون وهذه الأفلاك وهذا الصنع البديع المتقن، للكون وللإنسان، إنما خلق هكذا بضربة حظ وبالصدفة!! وإنه لا خالق وراء ذلك كله. وبالتالي لا وجود لحياة أخرى، انما هي حياتهم الدنيا يحيونها، ثم يموتون ويفنون ويبلون. لذلك فالعاقل والناجح عندهم هو من يظفر بملذات الدنيا كلما استطاع إلى ذلك سبيلا، ويقطف منها ثمار نجاحه وعلمه. والعاجز والفاشل عندهم هو من يعيش فقيرا معدما ضعيفا تسحقه الحياة ويطحنه الضنك وضيق اليد.

أفلا يكون هؤلاء غارقين في الجهالة والسفه ومهما علقت على صدورهم وفي أعناقهم أوسمة التفوق والنجاح؟

حتى إذا اقترب الوعد الحق، وحانت لحظة الفراق، رفعت الغشاوة عن أبصارهم فصارت نافذة قوية تخترق الحجب. فتنظر إلى ما كان الله أعد لهم من نعيم أبدي لو أنهم آمنوا بالحق الذي جاءهم، ثم ينظرون إلى الذي استبدلوه به من عذاب مهين في أودية جهنم السحيقة، بما اكتسبت أيديهم وبما كانوا عنه غافلين. فتأكلهم الحسرة وتقتلهم الغصة. ولكن لا فائدة، فقد رفعت الأقلام وجفت الصحف، وليس إلى مرد من سبيل.

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (ق: ١٩).

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق: ٢٢).

• المسلمون بالهوية، والغارقون في غي وضلال كبير، لا يعرفون من الإسلام شيئا، ولا يؤدون من الفرائض شيئا، ولا يعرفون عن الله تعالى ولا عن أوامره ونواهيه شيئا. وهم أيضا – كما المشركين والمنافقين – يسكرهم نعيم الدنيا وبهرجها، ويموت معظمهم دون أن يكون سجد لله سجدة واحدة فقد كانوا في سبات ثقيل من الغفلة.

• المسلمون العصاة، الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويؤدون الفرائض حينا ويتركونها حينا آخر، وينغمسون في الشهوات ويأتون المعاصي وقد يتوبون منها. ولكن الغفلة هي التي تهيمن على قلوبهم، فحب الدنيا والسعي من أجلها هو شغلهم الشاغل.

هؤلاء قد تصحو ضمائرهم التي ترهلت فأوشكت أن تموت في

صدورهم من طول الغفلة، وقد يظهر لهم الله بعض آياته أو إشاراته، كأن يهلك ظالما كان يملك رقابهم ويسومهم سوء العذاب زمنا طويلا، حتى ظنوا أن لن يقدر عليهم أحد. أو يسرق الموت من بين ايديهم عزيزا قريبا، أو تنزل بهم أو بعزيز لهم نائبة من نوائب الدهر فتهزهم هزا.

ولقد ذكر الله في قرآنه المجيد كثيرا من آيات قدرته لتكون عظة وعبرة للناس في تلك الأزمنة، وتكون كذلك لكل الناس من بعدذلك مهما تقادم عليها الزمان – كما في قصة غرق فرعون - إنما هي أمثلة لتذكرة الناس حين يجدون مثيلاتها، أن يعرفوا أن الله بالغ أمره، وأن لا يغفلوا عن آيات الله وإشارات قدرته.

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ (يونس: ٩٢).

•يوصي الله تعالى عباده المؤمنين أن تبقى قلوبهم معلقة بذكر الله وطاعته، وأن يتضرعوا إليه بالدعاء، بألسنتهم وبقلوبهم ليقطعوا عن الشيطان كل سبيل في إدخال الغفلة إلى قلوبهم.

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ٢٠٥).

وصية نبوية شريفة

ويوصينا النبي (ﷺ) أن لا نغفل عن صلاتنا وفي صلاتنا، أو نغفل عن ذكر الله أو ندعو الله وقلوبنا لاهية، فالغفلة تحجب قبول الدعوات، وتبطل العبادات: [ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه] (الترمذي).

الغفلة حجة عليك وليست لك

ولا يكون لكافر أو مشرك أو منافق أو عاص، أن يتعلق بأهداب الغفلة لينجو مما ينتظره من عذاب مهين، فقد خلق الله الناس جميعا على الفطرة التي تؤمن بالله ربا وإلها ومعبودا. وأن الله أخذ عليهم العهد بأنه ربهم وشهدوا بذلك لما كانوا بعد في عالم الذر.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٢).

❊

٤٨ـ الرياء

من معاني الرياء

الرياء هو أن يقصد بالعمل غير وجه الله تعالى. سواء كان هذا العمل طاعة، أو علما، أو جهادا، أو كرما، أو عملا صالحا. ويسمى بالشرك الخفي، لأن قصد العمل لا يكون خالصا لوجه الله تعالى.

الرياء والقلوب المريضة

والرياء خلق خبيث جدا، ولا يختمر إلا في القلوب المريضة المملوءة شكا ونفاقا ومكرا. ولأن القلب هو المضغة المهيمنة على الجسد كله، وإن صلحت صلح الجسد كله، وإن فسدت فسد الجسد كله، فإن القلب المبتلى بالرياء ينشر فساد القصد في كل عمل المرء، فيجعل كلامه رياء، ومشيه إلى الصلاة وخشوعه فيها رياء، ووقاره رياء، وبذله وإنفاقه رياء، وكل خطوة يضربها في الأرض رياء.

عمل المرائي كعمل صاحب الخرج المثقوب

اذا رأينا رجلا يذهب إلى السوق، ويحمل فوق راحلته خرجا مثقوبا، فيمضي في السوق يشتري بضاعة من هنا وحاجة من هناك، ويضعها جميعا في الخرج، حتى إذا أقبل المساء قفل راجعا إلى داره، ولما سكنت راحلته أمام الدار وهم بإنزال الخرج، وجده فارغا تماما، أو لم يجد فيه إلا القليل مما اشتراه.

وإذا عرفنا أن الرجل كان يعرف أن الخرج الذي يحشر فيه البضاعة مثقوب، أفلا نتفق جميعا أن الرجل به مس من الجن؟ وإلا كيف نفسر أنه فعل ما فعل مع علمه أنه يأتي مساء إلى داره وهو لا يحمل شيئا مما أنفق جل نهاره يبحث عنه، ويدفع مالا لشرائه؟

درجات الرياء

إن أكثر ما يحرص عليه المؤمن في حياته أن يلقى الله بقلب سليم. والقلب السليم هنا هو أن لايكون كالخرج المثقوب، فتضيع منه طاعته وعمله، وصومه وصلاته، وحجه وزكاته، وبره وإحسانه، وعلمه وفقهه، وبأسه وجهاده.

ولكن المرائي يرضى بذلك عندما يقصد بعمله – أو يشرك في القصد – غير الله تعالى، فيلقى الله يوم القيامة بقلب منخور مكلوم، لا يحوي من العمل الصالح شيئا.

- يرضى بذلك عندما يظهر الإسلام وباطنه مشحون بالتكذيب. ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (الأنفال: ٤٧).

• ويرضى بذلك عندما لا يرجو ثواب الله أصلا من عمله، كأن يخرج الصدقة من مذمة الناس وهو لا يقصد الثواب، ولو كان في خلوة لما أنفق أو تصدق. ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ (النساء: ٣٨).

• ويرضى بذلك إذا كان رجاؤه في ثواب الله أضعف من رجائه في استحسان الناس ومدحهم، أو إذا تساوى عنده رجاء الثواب من الله ورجاء الاستحسان من الناس.

• ويرضى بذلك إذا كان قصده من الطاعة أو العمل الصالح إدراك مال أو جاه أو غرض من أغراض الدنيا.

• ويرضى بذلك عندما يتوجه إلى الطاعات في جمع من الناس، وينصرف عنها فلا يؤديها إذا اختلى بنفسه.

• ويرضى بذلك إذا أحسن صلاته وصيامه وخشوعه وتضرعه في الملأ من الناس دون الخلوة. ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: ١٤٢).

إذاً! فدرجات الرياء تشتد لتجعل صاحبها في زمرة المخلدين في النار أحيانا، وتكون دون ذلك قليلا فتجعله كالعصاة الأبقين المارقين أحيانا أخرى، أو تكون دون ذلك أيضاً، فيكون المرائي كمن خلط عملا صالحا بعمل فاسد.

الرياء مذموم لأنه نوع من الشرك

ومذمة الرياء تأتي أصلا من كونه نوعا من الشرك، ومهما اشتدت أو خفت درجة الشرك – كما رأينا – فإنه يبقى شركا. فكيف يرضى مؤمن أن يجعل لجبار السماوات والأرض وقيومهما، القادر المقتدر، شريكا في الحب أو في قصد الطاعة والعمل؟

لا يفعل ذلك إلا من كان يشكو مرضا في قلبه أو زغلا في باطنه. والمؤمن يحرص أن يكون قلبه سليما معافيا، ومبرءا من كل سقم أو زغل. والمرائي الذي يقصد بعمله وجه الناس ويذهل عن وجه ربه الكريم، فإنه ينصرف عن القوي الغني المهيمن، ومن بيده ملكوت السماوات والأرض، ومالك يوم الدين، إلى ضعفاء لايملكون لأنفسهم أو لغيرهم ضرا ولا نفعا إلا بأمر الله تعالى.

أين تكمن خطورة الرياء

(اذا كان صاحب الرذيلة السافرة، لا يستطيع أن يلبس رذيلته ثوبا خلاف ثوب الجريمة، وينظر المجتمع إليه بعين الازدراء والاحتقار، وربما استشعر بطوق الإدانة التي يطوق به الجتمع رذيلته، فيتوب منها ويعود إلى ربه تائبا مستغفرا، ويرجع إلى قومه نادما مستسمحا).

أما الرذيلة التي تظهر في لباس الطاعة، فهي التي تكون خطورتها أشد وأقسى.لأنها تقود إلى تأصيل الشر في قلب صاحب الرذيلة نفسه، ذلك أنه يقترف ما يقترف من السيئات والرذائل، وهو يوهم نفسه ويوهم الناس أنه يعمل خيرا ويرضي ربه. فكيف يحس انه يرتكب ذنبا، وكيف يتوب مما يراه عملا صالحا؟ وكيف يدين أو يحارب المجتمع رذائل خفية يحقنها في جسده مراؤون منافقون يلبسون ثوب الفضيلة والصلاح؟

٤٩ ـ الجحود ونكران الجميل

الله وحده هو المنعم

المؤمن الذي اطمئن قلبه بالإيمان، ورضي بالله ربا رحيما، فلا يعبد إلا إياه، يعرف أن ربه جزيل العطاء، وواسع الجود والكرم. ويعلم أن ما به من نعمة أو بأحد من خلقه، فمنه وحده جل ثناؤه وتقدست صفاته. ويعلم ان كل الآخرين الذين يبذلون عطاء الله إلى مستحقيها قد سخرهم الله من جهته، وشرفهم بهذه المنزلة الكريمة.

جحود فضل الله

ان من أشد درجات الجحود ونكران الجميل انحطاطا، هو أن ينكر العبد نعمة الله عليه ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (النحل: ٨٣).

وقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة في من أنعم الله عليهم في ساعات المحنة والشدة، فلما نجاهم الله وأزال عنهم الغمة، أنكروا فضل الله عليهم وعادوا إلى غيهم وضلالهم.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (الإسراء: ٦٧).

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)﴾ (النحل: ٥٣-٥٥).

قصة قارون مثل للجحود

لعلّ قصة قارون الذي آتاه الله من الكنوز ما كان ينوء بحمل مفاتحها عصبة من الرجال الأقوياء، ولكنه أنكر فضل الله عليه وجحد بنعمة ربه وقال: إنّ ما أملك مِن الخزائِن والأموال إن هي إلا نِتاج علْمي وحسن تدبيري، وإذا كان هذا فضل ساقه الي ربكم كما تقولون، فلماذا لم يؤت أحدا من قومي مثل ما آتاني؟

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ (القصص: ٧٦).

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (القصص: ٧٨).

جحود فضل الله والأمور المهلكة

يكتنف خلق الجاحد واعتقاده أمور مهلكات.

- لا يرى أن الله هو المنعم عليه، ويرى لنفسه من القدرات الشخصية ما يجعله قادرا على أن يحقق لنفسه النجاحات، ويرى أن النعم التي يتفكه فيها إن هي إلا من صنع يديه. (كما رأينا في قصة قارون).
- كأنما يستنكف أن يكون الله هو المنعم عليه، وهذا دأب الكفار والمشركين والمنافقين والمستكبرين، ولا غرابة في ذلك، فمن يكفر بالذي خلقه وصوره وبأية صورة ما شاء صوره، أو يشرك به شيئا، لايرى المنعم حتى يرى نعمه.

المنهج الرباني وخلق الجحود بين الناس

إن المنهج الأخلاقي الرباني وهو يدعو الناس إلى عدم جحود وإنكار فضل المتفضلين، إنما هو دعوة لنشر القيم النبيلة والأخلاق الفاضلة عموما، وهو دعوة وحث للمعروف والإحسان من ناحية، ودعوة لاستقبال المعروف بالشكر والثناء وليس بالجحود والإنكار من ناحية ثانية.

فالمحسن الذي يصنع المعروف لوجه الله:

- لا يتبع معروفه بالمن والأذى.
- ولا ينتظر الشكر والثناء من الذي صنع فيه المعروف.
- ولا يندم على صنع المعروف إذا قوبل معروفه بالجحود والإنكار.

وفي الطرف المقابل، فإن المستقبل للمعروف:

- لا يكون جاحدا ولا ناكرا للجميل.
- ولا يفرط في الشكر والثناء والمدح، ليجعله إما فخا للايقاع بصاحب المعروف واستنزاف المزيد من الفضل منه حرجا أو خجلا، أو ليشعره بالغبطة والعجب.
- ولا يجعل من معروف الرجل طوق ذل وخضوع في رقبته، إلى الحد الذي ينظر إليه الرجل، وينظر إليه الناس، نظرة استصغار.

فإذا توفرت مفردات طرفي المعادلة كما رأينا، تحققت الموازنة والوسطية التي

يريدها الإسلام في كل أمر وكل شأن. وساد الوئام وساهم هذا الخلق في تحقيق التكافل الاجتماعي وترسيخ القاعدة الأخلاقية للمجتمع المسلم.

عقوق الوالدين نوع من الجحود

إن جحود الأبناء وإن كان يدخل في باب عقوق الوالدين، إلا أنه من أشد أنواع الجحود في نفس الوقت، إذ يلجأ الأبناء إلى أنكار فضل من جعلهم الله سببا في وجودهم، ومن بذلوا الشطر الأعظم من حياتهم من أجل تنشئتهم وتربيتهم.

أمثلة في الجحود ونكران الجميل

قد نرى أما بذلت عمرها وصحتها وقوتها في تربية ابنها اليتيم، تخدم في بيوت الناس من أجل أن تؤمن له لقمة عيش كريمة هنية، وتحرم نفسها من كل متع الحياة وتؤثره على نفسها في الملبس والمأكل والمشرب، حتى إذا ما اشتد عوده وأكمل دراسته وتزوج. تنكر لأمه ونسي ما قد صنعت لأجله، فيؤثر زوجته عليها، ويهينها، وقد تصل به الغلظة والفظاظة حدا أن يطرد أمه من بيته - بل بيتها - فتلجأ إلى قريب أو قريبة لها تقضي عندهم أيام عمرها الأخيرة.

رجل كريم كفل طفلا يتيما غريبا، وتعهده بالرعاية الكريمة، ولم يفرق بينه وبين أولاده في أي شيء، ولم يبخل عليه بالحب والحنان، والإنفاق. شب الولد اليتيم، وبدل أن يخفض للرجل الطيب جناح الذل من الرحمة ويضعه في مقام أبيه! صارت له أنياب ومخالب، وسلك سبيل الغي، ومد يده الجاحدة إلى مال الرجل يسرقه.

شاب في مقتبل العمر كان يطوف في الأسواق يبحث عن عمل فلا يجد. رفق بحاله تاجر طيب، فوجد له عملا عنده، وقربه منه، وعلمه أصول تجارته وأسرارها، وصار يغدق عليه المال، وساهم في تزويجه وتأسيس بيت له. وجعل له منزلة كمنزلة الأبناء. أراد الشاب أن يستقل بعمل يخصه فلم يمانع الرجل الطيب. إلا أن الشاب بعد أن أسس وبنى تجارته - من المال الذي كان يغدق عليه الرجل ومن العلم والخبرة التي اكتسبها عنده - صار يؤلب كل تجار المدينة ضده، وصار يحاربه في بضاعته وتجارته وتنكر لكل الجميل الذي صنعه الرجل فيه.

٥٠ - الفواحش

ما المقصود بالفواحش

الفواحش هي كل الممارسات الساقطة التي ترتكب خارج إطار الزوجية، أو خلاف ما سنه الله تعالى للبشر. ويدخل فيها الزنا واللواط والسحاق وكل ما يقود إليها

أو يساهم في انتشارها من قول وفعل وسلوك ومنهج.

العفة هي القاعدة

يقول الله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ (المائدة: ٥).

إذاً القاعدة أن يعف المرء نفسه بنكاح شرعي ليكون اسرة محبة متماسكة، تعمل على هدي المنهج الإلهي في تربية الأولاد وفي التعامل مع الحياة بشكل عام. وقد شرع الله تعالى الزواج لديمومة الحياة على الأرض وقيده بضوابط حكيمة من الضوابط الأخلاقية والاجتماعية لخير البشرية وخير الأجيال. وأن يكون التمتع بالغريزة الجنسية وفق المنظور الشرعي الذي ذكره الله تعالى في كتابه وسنه النبي (ﷺ) في سنته.

خطورة اطلاق العنان للغرائز

أما إطلاق العنان لهذه الغرائز دون قيود وضوابط الدين والأخلاق، فذلك يؤدي إلى انتكاسات خطيرة في المجتمع الذي ينحرف بهكذا اتجاه.

وفي التأريخ شواهد كثيرة على انهيار أمم - كان لها شأن عظيم – بسبب الآنحراف الخلقي والانغماس في العبث الماجن، والرذيلة الساقطة.

الزواج هو السكن الذي تغشاه المودة والرحمة

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢١).

وهذه المودة والرحمة، وهذا الحضن الدافئ الحاني، لا يكون إلا بين من ربطهم الله برباط الزواج المقدس، ولا يمكن خلقه من خلال علاقات غير شرعية باتخاذ العشيقات والخليلات.

لا تقربوا الزنا

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٣٢).

انه كان فاحشة لأنه لا يتقيد بسنة الله في خلقه، ولا يرتبط بعقد أو يوثق بميثاق، فتضيع الحقوق التي يحرص المنهج الإلهي على صيانتها للرجل والمرأة وللأولاد وللمجتمع. ولا يتحقق فيه إلا إشباع غريزة بهيمية حيوانية، بل لعل الغريزة الحيوانية هي مقيدة بمراد الله لاستمرار النوع، بينما النهم الجنسي والإشباع الغريزي بالزنا، يهتك حجاب العفة ويخلق أزمات نفسية واجتماعية خطيرة.

فمن يرضى بذلك يكون سلك طريقا خطيرا مهلكا يفضي به إلى النار.

قال النبي (ﷺ): [لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن] (أحمد والدارمي).

لأن القلب الخاشع المؤمن اليقظ، لا يمكن أن يستسهل هذه الفاحشة والسيئة الكبيرة. ولا بد ان الزاني يخلع ثوب الإيمان حتى يتمكن من اقتراف المعصية.

وبعدها لو هداه الله إلى التوبة فتاب إلى الله توبة نصوحا، وندم واستغفر فقبل الله توبته وأوبته، ومكنه من أن يلبس ثوب الإيمان من جديد. وإلا يبقى شريدا مطرودا حتى يلقى الله بوجه أسود وقلب أظلم.

الإسلام يحث على الزواج والعفة

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (النور: ٣٣).

نعم! من يعف نفسه عن المحرمات امتثالا لأمر الله فالله يغنيه، يغنيه في إيمانه فلا يسلك سبيل الحرام، ويغنيه بأن يسخر له ما يعينه - أو من يعينه - على نفقات الزواج.

وقال النبي (ﷺ): [يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصيام فإنها له وجاء] (البخاري).

إنها دعوة محمدية مباركة لكل من يجد في نفسه القدرة على الزواج من الشباب أن يعفوا أنفسهم بالزواج والا فليصوموا فالصوم يضبط شهواتهم ويقيهم من مكر الشيطان.

اللواط والسحاق رجس من عمل الشيطان

من يترك الفطرة السليمة السوية التي فطر الله للناس عليها بأن يجد الرجل رغبته في المرأة وتجد المرأة رغبتها في الرجل وكما أقره الله في منهاجه وشرعته. فيجد الرجل شهوته في الرجل وتجد المرأة رغبتها عند المرأة. فذلك رجس من عمل الشيطان يجتنبه كل من كان له خلق سليم وعقل رشيد. وذلك يخالف ناموس الكون. لذلك يكون عقاب الله صارما لمن يقوده الشيطان إلى هذا الفعل الآثم.

بل يكون عقابه قويا مزلزلا إذا انتشر هذا الخلق - الغارق في الجهالة والقرف - في المجتمع وسكت عنه الناس. ولعل في قصة قوم لوط شاهد ودليل على العقاب الإلهي الصارم الذي أنزله الله بهم لأنهم كانوا ياتون الرجال شهوة من دون النساء.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (٨١)﴾ (الأعراف: ٨٠-٨١).

الأيدز عقاب كعقاب قوم لوط

ولعل مرض نقص المناعة الذي يتفشى في المجتمعات التي تشيع فيها الفاحشة بدون أية ضوابط خلقية أو اجتماعية – وخاصة بين مثيلي الجنس – هو عقاب إلهي لهذا الانحطاط في الغريزة الجنسية والانقياد الأعمى لها دون وازع أخلاقي أو ديني.

المجتمع الإنساني كله مهدد بسبب الانحراف

إن الانحراف الخطير في الأخلاق، وتفكك وسائل الحماية الاجتماعية، والغزو الظالم والبالغ في المكر والترغيب، الذي يأتي من قبل آلاف المؤسسات التجارية على مستوى العالم كله، والتي تجعل الفاحشة تطرق باب كل بيت وقلب كل رجل وامرأة وشاب وشابة بل حتى لم يسلم الأطفال من هذه المؤامرة العالمية الخبيثة.

الفاحشة صارت تجارة وفنا وعلما يفتخر به مروجوه

ووصل الغزو إلى ديار السلمين أنفسهم، فحذونا حذوهم من خلال برامج لا تخدش الحياء فقط، بل تمرغ الحياء والأخلاق في وحل الغريزة والشهوة وتجعل أنوثة المرأة وجسدها - المرأة التي أكرمها الله وأعلى مكانتها - سلعة رخيصة لإثارة الشهوة الحيوانية الرخيصة.

وأصبح رب العائلة يفكر كيف يحمي نفسه أولا من هذا المرض المستشري، قبل أن يفكر في حماية اهله وأطفاله.

وقد لا يهتدي الكثير من أفراد المجتمع إلى خطورة هذا الوباء الفتاك المتدفق من أجهزة التلفاز وشبكة الانترنيت. لأن الكثير من هذه البرامج يتم إعدادها بطرق خبيثة ماكرة تميل إليها قلوب الكبار والشباب والصغار معا.

نسأل اللهم العفو والعافية لنا ولأبنائنا ولأهلينا وللمسلمين جميعا.

❊

ﷻ

الخاتمة

اللهم يا من بيدك الأمر كله فتأتي بالشمس من المشرق، فلا غيرك يقدر أن يأتي بها من المغرب.

نسألك اللهم بقدرتك التي أجريت بها الشمس، أن تجعل قبسا من أنوارك القدسية تشرق في قلوبنا المكلولة فتنفد فيها وتحيي مواتها، وتزيل عنها ما ران عليها من الذنوب والعصيان، ومن الغفلة والنسيان.

اللهم يا من بقدرتك حفظت لهذا الكون السحيق المليء ببلايين الأجرام والنجوم والشموس والكواكب ميزانه ونظامه، فالشمس تجري لمستقر لها، والنجوم مسخرات بأمرك وحدك، وكل في فلك يسبحون.

نسألك اللهم بقدرتك التي تحفظ بها السماوات والأرض أن لا تزولا إلى أجل مسمى يوم تجعل الجبال كالعهن المنفوش، وتطوي السماء كطي السجل للكتب. أن تحفظنا في ديننا، وفي عقيدتنا، وفي أهلينا وفي أوطاننا. ونسألك اللهم أن تهدي حكام الأمة وعلماءها لما فيه خير الدين والدنيا، وتجمعنا واياهم على أمر سواء ترضاه لنا، ونسر به الحبيب المصطفى (ﷺ) بعد أن مزقنا الشقاق والنفاق وسيء الأخلاق شر ممزق.

اللهم يا من بقدرتك جعلت نفخة من الصور تصعق من في السماوات والأرض الا من تشاء، ونفخة أخرى منه تجعل الخلائق قياما ينظرون.

نسألك اللهم بقدرتك التي أودعت هذه القوة في نفخة الصور، أن تمنحنا قوة من عندك تعيننا على تربية أجيالنا وبناء مجتمعاتنا وأوطاننا على هدي كتابك وسنة نبيك محمد (ﷺ).

اللهم يا من بقدرتك حفظت بيتك الحرام من جيش عرمرم يقصد هدمه وتدنيسه، حتى اذا كان قاب قوسين منه أو ادنى، أمرت طيرا أبابيل أن ترميهم بحجارة من سجيل لا يعلم أحد من أين أتت بها، ولا السر الذي أودعته فيها لتبيد الجيش عن بكرة أبيه وتجعله كعصف مأكول في لحظات.

اللهم لا يخفى عليك شيء من أمرنا، وتعلم أننا هجرنا قرآنك وسنة نبيك، وتعلم أننا تفرقنا شيعا وأحزابا وكل حزب بما لديهم من الغثاء فرحون. فاستحللنا دماءا حرمتها أنت، واستبحنا حرمات صنتها أنت، وخربنا مساجد يُذكَر فيها بالغدو والآصال إسمُك الجليل أنت.

فنسألك اللهم بقدرتك التي جعلت طيورا ضعافا سببا في انزال غضبك وعقابك بمن أراد ببيتك العتيق سوءا. ونسألك ببراءة الأطفال الرضع وبركة الشيوخ الركع أن تقينا من سخطك ومقتك وغضبك الذي نستحقه، وأن تنزل علينا سحائب رحمتك غيثا هاديا مباركا يغسل قلوبنا من الدرن والدنس، ومن العجز والكسل،ومن الوحشة والغفلة، ويعيد اليها نقاء الفطرة المحمدية السوية، ويثبتها على العقيدة السامية

السمحاء، ويرشدها إلى محاسن الأعمال والأخلاق.

اللهم برحمتك أغثنا، فبدون رحمتك نضل ونطغى، ونخوض في المعاصي خوض الجاهلين.

اللهم برحمتك ثبت أقدامنا على صراطك المستقيم، فبدون رحمتك تزل أقدامنا وتتعثر، أو تسوقنا كالبهائم إلى دروب البغي والفساد.

اللهم اجعل ايدينا ممدودة بالخير أبدا، لآبائنا وأولادنا وذوي قربانا ولليتيم والمسكين وابن السبيل، ولبلداننا وأوطاننا، فبدون رحمتك تبطش أيدينا وتظلم.

اللهم إنك تعلم أني ما كنت لأنجز ما أنجزته الا ببركتك وفضلك، اللهم فما كان فيه من خير وصواب فبالهام من عندك فاكتب لي ولوالدَي أجرّه وثوابه، وما كان فيه من خطأ ونقص وزلات فهو من نفسي الأمارة بالسوء، اللهم فلا تحاسبني عليه.

أسألك اللهم برحمتك أن تنقي هذا العمل من العجب والرياء أثناء كتابته وبعد طبعه وانتشاره، وكما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم وأكرمني بفضلك تواضعا وانكسارا وذلة ومسكنة لعبادك المؤمنين.

اللهم وإنك تعلم أنني لست بالنقي الذي يرقى إلى مستوى الأخلاق الحميدة كلها، ولا بالتقي الذي يتقي الآخلاق الذميمة كلها، فأسألك اللهم بواسع رحمتك وعظيم مغفرتك أن تغفر لي ذنبي، وأن تجعل هذا العمل عونا لي أولاً لكبح جماح هوى نفسي وارجاعها إلى أبواب توبتك ذليلة تائبة نادمة مستغفرة كلما شردت أو حاولت الشرود. وأسألك اللهم أن تبث في صفحاته وبين سطوره قبسات من نورك تكون شفاءً لقلوب من يقرأه ويتدارسه، ويعيننا جميعا على التمسك بالأخلاق المحمدية الشريفة.

اللهم اني أعوذ بك من شر نفسي فلا تكلني إلها طرفة عين.

اللهم وأسأل عفوك وغفرانك ورحمتك لكل من آزر وساهم وحرض على انجاز هذا العمل، وأخص بالذكر من تصدى للتصويب اللغوي لهذا الكتاب. اللهم ثبتهم جميعا وإيانا على الهداية والتقوى و من العمل ما ترضى، وارزقهم وإيانا رزقا حلالا طيبا مباركا يقربنا منك ويعيننا على شكرك وحسن عبادتك. وارزقنا اللهم حسن الخاتمة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النبي الأمي محمد (ﷺ) وعلى آله الأطهار وصحبه الأخيار.

زهير آميدي

أربيل- ٢٠٠٧

أهم مصادر الكتاب

١. صفوة التفاسير. محمد علي الصابوني – ثلاثة أجزاء – دار الكتب العلمية – بيروت – بنان ١٩٩٩.

٢. المستخلص في تزكية النفس. سعيد حوى – دار السلام – القاهرة – جمهورية مصر العربية ٢٠٠٥.

٣. خلق المسلم. الشيخ محمد الغزالي – شركة نهضة مصر – القاهرة – جمهورية مصر العربية. الطبعة العاشرة ٢٠٠٥.

٤. السيرة النبوية. الدكتور علي محمد محمد الصلابي – دار المعرفة – بيروت – لبنان ٢٠٠٦.

٥. مدارج السالكين. ابن قيم الجوزية / ضبط وتحقيق رضوان جامع رضوان – مؤسسة المختار – القاهرة – جمهورية مصر العربية ٢٠٠١.

٦. خلق المؤمن. د. مصطفى مراد – دار الفجر للتراث – القاهرة – جمهورية مصر العربية ٢٠٠٥.

٧. سوء الخلق. محمد بن إبراهيم الحمد – وكالة المطبوعات والبحث العلمي – وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والارشاد – المملكة الغربية السعودية ١٤٢٥.

٨. موعظة المؤمنين من احياء علوم الدين. العلامة الشيخ محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي – دار العلوم الحديثة – بيروت – لبنان ١٩٧٩.

٩. درة الناصحين. العلامة عثمان بن حسن الخوبوي – دار مكتبة الهلال – بيروت – لبنان.

١٠. مكارم الأخلاق. الشيخ محمد بن صالح العثيمين – مكتبة المصطفى الإلكترونية – شبكة الإنترنيت.

١١. عقوق الوالدين. الدكتور محمد عبد القادر حاتم – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – جمهورية مصر العربية ١٩٨٨.

١٢. تهذيب الأخلاق. ابن مسكويه – مكتبة المصطفى الإلكترونية – شبكة الإنترنيت.

١٣. الإنسان مسير أم مخير. الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي – دار الفكر – دمشق – الجمهورية العربية السورية. الطبعة الثانية ١٩٩٨.

فهرس المحتويات